البحث عن سبينوزا

أنطونيو داماسيو



نقله من الانكليزية إلى العربية
وليم العوطه

نسخة مجانية صادرة عن دار الصداقة الفلسفية
يناير 2026

ANTONIO DAMASIO

Looking *for* Spinoza

Joy, Sorrow, and the Feeling Brain

WILLIAM HEINEMANN : LONDON

First published in the United Kingdom in 2003 by William Heinemann

1 3 5 7 9 10 8 6 4 2

All figures, diagrams and drawings are by Hanna Damasio except for the portrait on page 263. Her drawings in Chapters 1, 5 and 6 depict Spinoza's house on 72–74 Paviljoensgracht (page 9), a statue of Spinoza (page 16), the back of the New Church and Spinoza's tomb in The Hague (page 19), the Portuguese Synagogue in Amsterdam (page 185), the house where Spinoza lived in Rijnsburg (page 233), a bust of Spinoza (page 225), and the old synagogue in Amsterdam (inspired by a 17th century engraving by Jan Veenhuysen). The portrait on page 263 is by Jean Charles François and was published by A. Savérien, *Histoire des Philosophes Modernes*, Paris, 1761

William Heinemann
The Random House Group Limited
20 Vauxhall Bridge Road, London SW1V 2SA

Random House Australia (Pty) Limited
20 Alfred Street, Milsons Point, Sydney
New South Wales 2061, Australia

Random House New Zealand Limited
18 Poland Road, Glenfield
Auckland 10, New Zealand

Random House (Pty) Limited
Endulini, 5a Jubilee Road, Parktown 2193, South Africa

The Random House Group Limited Reg. No. 954009

www.randomhouse.co.uk

A CIP catalogue record for this book is available from the British Library

Papers used by Random House UK Limited are natural, recyclable products made from wood grown in sustainable forests. The manufacturing processes conform to the environmental regulations of the country of origin

ISBN 0 434 00787 0

Printed and bound in Great Britain by Biddles Ltd, Guildford & King's Lynn

فهرس المحتويات

شكر و تقدير

أبدأ بتوجيه الشكر والتقدير لزملائي و أصدقائي الّذين قرأوا مسودة هذا الكتاب بمراحل نطوّره المختلفة، وأحيانًا أكثر من مرّة، والّذين منحوني انتقادات واقتراحات جد قيّمة. لا تكفي الكلمات كيّ أعبّر عن امتنانيّ لهم كرمهم: جان بيير شانجو، ديفيد هابل، تشارلز روكلاند، ستيفن نادلر، ستيوارت هامشير، باتريسيا تشرشلند، بول تشرشلند، توماس ميتزنغر، اوليفر ساكس، ستيفان هِلك، فرناندو جِل، ديفيد رادروف، بيتر ساكس، بيتر برووك، جون برنان شفارتز، و جاك فرومكين. وهم ليسوا ملامين على الشواذات والأخطاء الّتي بقيت في النصّ.

كما أن زملائي في جامعة آيوا Iowa و مؤسسة سالك Salk كانوا مساندين لي أيضًا، أذكر منهم بالأخصّ انطوان بشارة، رالف آدولفس، دانييل ترانل، وجوزف بارفيزي الّذي قرأ المسوّدة وقدّم اقترحات مساعِدة جدًا. كما أشكر المؤسسة الوطنية لأمراض العلوم العصبية والسكتات الدماغية و مؤسسة مازرث Mathers، فمن دون مساعدتهما لم يكن بمقدورنا أن نقدّم، للعلماء والمرضى وللطلاّب، بيئة العمل الفريدة في فرع العلوم العصبية المعرفية التابع لقسم العلوم العصبية البيولوجية في جماعة آيوا.

عليّ أن أتوجّه بالشكر إلى كلّ هؤلاء الّذين ساعدوني خلال السنوات الخمس الماضية على تقديمهم الأبحاث البيبليوغرافية المطلوبة لمشروعي: ماريا دي سوزا و خوسيه هورتا اللّذين وجدا العديد من المخطوطات القديمة حول سبينوزا في المكتبات البرتغالية؛ مارغريت جويان-هور، ماريا لويزا ريبييرو فرّيرا، ودييغو بيرس اورليو، وهما ثلاث متخصصين في سبينوزا أجابوا، بكل صبرٍ، عن أسئلتي حول هذا الفيلسوف العظيم؛ وأيضًا، ماريانا اناجنوستوبولوس الّتي ظلّت مرجعًا رئيسيًا لي حول الرواقيين؛ وتوماس كايسي الّذي وضّح بعض المعلومات حول البوينج 777، وآرثر بونفيلد على حواره المساعد جدًا معي حول توماس جيفرسون وجون لوك. كما أشكر ثيو فان در ورف، سكريتير جمعية سبينوزا في هولندا، والّذي سهّل زياراتي إلى أماكن إقامة هذا الأخير.

قام مساعدي نيل بوردوم بربطِ كافة أقسام مسوّدة الكتاب باحترافية مدهشة و مزاجٍ هادىء، كما قام بطباعةِ معظم الكتاب بمعاونة بتي ردكر الّتي امتلكت صبرًا مذهلاً في معالجتها لخطّ كتابتي على مدار عشرين سنة. الشكر الجزيل لهما على تفانيهما، ولـ كِن مانزل على مساعدته الفورية في البحث المكتبيّ، مثلما فعلت كارول دفور في مناسبات كثيرة.

من القلب أشكر رافي ميرشانداني على نصيحته ودعمه، وعلى العمل الطيّب لزملائه في هاينمن، وبالتحديد كارِن جيبينغز.

لم يكن لهذا الكتاب أن يتمّ لولا حماس و دعم صديقيْ عمري، جين إساي و مايكل كارليل، و هانا داماسيو، الزميلة، الناقدة القاسية والفذّة، و المصدر الدائم لإلهامي وتفكيري.

1. الدخول إلى المشاعر

الدخول إلى المشاعر

مشاعرُ الألم، أو المتعة أو ما بينهما هي حجرُ الأساس لعقولنا. غالبًا ما نفشل في ملاحظة هذه الحقيقة البسيطة لأن الصور العقلية للأشياء و الأحداث المحيطة بنا، بالإضافة إلى صور الكلمات و الجمل التي تصفها، تستهلك الكثير من انتباهنا المُثقَل. و لكن هاهي ذي؛ مشاعرٌ لعددٍ لا يُحصى من العواطف و الحالات المرتبطة بها، الموسيقى المتصلة لعقولنا، الدندنة التي لا تقف لأكثر الألحان شيوعًا و التي لا تخمد إلا عندما ننام، الدندنة التي تتحول إلى غناء صدّاح عندما يسكننا الفرح أو لحنٍ جنائزي حزين حين يقبض الأسى علينا.

نظراً للتواجد الدائم للمشاعر، قد يظن المرء أن علومها قد بُيّنت بجلاء منذ زمن بعيد – ماهية المشاعر، كيف تعمل و ماذا تعني- و لكنّ الواقع مختلفٌ تمامًا. من بين كلّ الظواهر العقلية الّتي بمقدورنا وصفها، فإنّ فهمنا البيولوجي و النيوروبيولوجي neurobiology (البيولوجي العصبي) للمشاعر و عناصرها الأساسية – الألم و المتعة- هو الأقلّ. هذا محيّر لا سيّما إن أخذنا بالاعتبار أن المجتمعات المتقدمة تُنمّي المشاعر بلا حياء و تكرّس كل الموارد و الجهود للتلاعب بهذه المشاعر عن طريق

الكحول، معاقرة المخدرات، الأدوية الطبية، الطعام، الجنس الحقيقي و الافتراضي، و كل أساليب الاستهلاك أو الممارسات الدينية و الاجتماعية الباعثة على الرضا. ونحنُ نداوي مشاعرنا بالأقراص، الكحول، المنتجعات الصحّية، بالتدريبات والتمارين الروحية، ولكن، بيولوجيًا، لم يستطع عامّة الناس أو الأطباء معرفة ماهية المشاعر.

لستُ حقيقةً متفاجئًا من الوضع الراهن، نظرًا لما اعتقدته عن المشاعر أثناء نشئتي، والّذي لم يكن صحيحًا في معظمه. على سبيل المثال، ظننت أنه يستحيل تعريف المشاعر بشكل محدد، عكس الأشياء التي يُمكن رؤيتها أو سمعها أو لمسها. وعلى خلاف الكيانات المحسوسة، كانت المشاعر غير محسوسة. عندما بدأت أتأمل كيف أبدع الدماغ العقل، تقبّلتُ الرأيَ السائد بأنّ المشاعر لا مكان لها في المشهد العلمي. يمكننا أن ندرس كيف تجعلنا أدمغتنا نتحرك، ويمكننا دراسة العمليات الحسيّة، البصرية، و خلافها، كما أن نفهم كيف تُركّب الأفكار،و يمكننا أن ندرس كيف يتعلم الدماغ و يحفظ الأفكار، وأيضًا دراسة التآثرات العاطفية و التي نستجيب بواسطتها للأشياء و الأحداث المتعددة؛ أمّا المشاعر feelings – و التي يمكن تمييزها عن العواطف emotions، كما سنرى في الفصل القادم- فتبقى محيِّرة، وكان عليها أن تظل غامضة إلى الأبد. لقد كانت خاصة و

متعذرة البلوغ، ولم يكن بالامكان تفسير كيف حدثت ولا أين حدثت. ببساطة؛ لم نستطع أن نصل إلى "ما وراء" المشاعر .

وكما كان الحال مع الوعي، كانت المشاعر ملقاةً خارج بوابةِ العلم، ليس من قبل المعترضين فقط، الذين يقلقهم أن تُفسّر علوم الأعصاب فعلا أيَّ شيء عقليّ ، بل أيضًا من قبل علماء الأعصاب المعترَف بهم، فهم يزعمون وجود قيودٍ مستعصية لا يمكن تخطّيها. إن موافقتي الشخصية على قبول هذا الاعتقاد كحقيقة واقعة تدلُّ عليه السنوات العديدة التي قضيتها أدرسُ كلّ شيء عدا المشاعر. لقد استغرقت وقتًا لألحَظ إلى أيّ درجة كان هذا الأمر غير مبررٍ وأدركَ أن بيولوجيا الأعصاب [neurobiology] للمشاعر ليست بأقل قابلية للتطبيق منها للإبصار أو الذاكرة. لكنني أدركت ذلك آخر المطاف، وهذا، بالمقام الأول، لأنني جوبهت بواقع مرضى الأعصاب و التي أجبرتني -حرفيًا- أعراضهم على استقصاء حالاتهم.

تخيّلوا، على سبيل المثال، أن تقابلوا شخصًا أصبح، نتيجة لضرر في موضعٍ محددٍ من دماغه، غير قادرٍ على أن يشعر بالحرجِ أو الرأفةِ compassion، عندما اقتضى الحال حرجًا أو رأفةً، و مع ذلك يمكنه يشعرَ بالسعادةِ، الحزنِ، أو بالخوفِ بشكلٍ طبيعي تمامًا كما كان قبل مرض الدماغ هذا. ألا يستوقفكم ذلك؟ أو تصوّروا مَن هو عاجزٌ، نتيجة ضررٍ دماغي في

موضعٍ آخر، عن تجربة الخوف حين كان الخوف ردّ الفعل الملائم للوضع القائم، و مع ذلك ما يشعر بالرأفةِ. قد تكون قسوة المرض العصبي هوةً لا قرار لها بالنسبة لضحاياه، المرضى و أولئك المطالبون بالمراقبة. لكنّ مبضَعَ المرض مسؤولٌ أيضاً عن ميزته التعويضية الوحيدة: عند تفكيكها عمليات الدماغ الطبيعية، وبدقة متناهية غالبًا، تمنحُ الأمراض العصبية مدخلاً فريدًا إلى الحصن المنيع، أي الدماغ البشري و العقل.

يثيرُ تدبّر أوضاع هؤلاء المرضى و غيرهم من ذوي الحالات المماثلة فرضيات مثيرة: أولًا، أمكنَ تثبيط المشاعرالفردية بسبب ضرر أجزاء دماغية منفصلة، أي أن عطب قطاع محدد من دارات الدماغ brian circuitry يؤدّي إلى عطبِ حدثٍ عقلي محدد. ثانيًا؛ بدا واضحًا أن أنظمةً دماغية مختلفة تتحكم بمشاعر مختلفة، إذ لا تختفي كل أنواع المشاعر دفعةً واحدةً عندما تتضرّر منطقة تشريحية واحدة في الدماغ. ثالثًا، وهو الأكثر مدعاة للمفاجأة، عندما فقد المرضى قدرتهم على التعبير عن عواطف معينة، فقدوا أيضًا قدرتهم على اختبار المشاعر المكافئة لها، ولكنّ العكس غير صحيح: بعض المرضى الّذين يفقدون مشاعر محددة يبقى بمقدورهم التعبير عن العواطف المكافئة. وفي حين كانت العواطف و المشاعر توأمين، هل أمكنَ للعواطف أن تولَد أولاً لتتلوها المشاعر بعد ذلك وتتبعها مثل ظلّها للأبد؟

على الرغم من قرابتهما الوثيقة و تزامنهما الظاهري، يبدو أن العاطفة تسبق الشعور. وستشكّل معرفة هذه العلاقة المحدَّدة نافذةً لاستكشاف المشاعر، كما سنرى لاحقًا.

يمكن اختبار فرضياتٍ كهذه بمساعدة تقنيات المسح الدماغي brain scanning، و التي تسمح لنا أن ننتج صورًا لتشريح الدماغ البشري ونشاطه. خطوةً تلو خطوة، بدأت و زملائي برسمِ خريطةٍ جغرافيّة للدماغِ في حالات مختلفة من الشعور، أولاً عند مرضى الأمراض العصبية، ومن ثمّ عند كلي المرضى والأصحّاء. كان هدفنا أن نفسّر شبكة الآلياتِ التي تسمح لأفكارنا بأن تقدَح حالاتٍ عاطفيةٍ و تولّدَ مشاعر[1].

احتلّت العواطف و المشاعر حيّزًا واسعًا ، ولكن مغايرًا جدًا، في اثنين من كتبي السابقة: عالج كتاب "خطأ ديكارت" دور العواطف و المشاعر في اتخاذ القرار، بينما لخّص "الشعور بما يحدث" دورها في بناء الذّات. لكنّ التركيز في الكتاب الحالي على المشاعر نفسها، ماهيّتها و ما تمدّنا به. معظم ما أناقشه هنا من أدلّة لم يكن متوفّرًا عندما كتبت الكتب السابقة، وقد برزت الآن أرضيةً صلبةً أكثر لكي نفهم المشاعر. إذن، الغرض الأساس لهذا الكتاب هو تقديم تقرير تدرّجيّ عن طبيعة المشاعر والظواهر المتصلة بها ودلالتها الإنسانية، كما أراها الآن كطبيب أعصاب، عالم أعصاب و مستفيدٍ مواظب.

فحوى رؤيتي الحالية هي أنّ المشاعرتعبيرٌعن غمٍّ أو ازدهارٍ انسانيّ كما تحدث في العقل أو الجسد،. ليست المشاعر مجرد زخرفٍ يُلحَقُ بالعواطف يمكن نبذُهُ أو الإبقاء عليه. يمكن للمشاعر وغالبًا ما تكون *تجلّياتٍ* لحالة الحياة داخل المتعضيّ organism بأكمله، كشفٌ عن الغطاء بالمعنى الحرفيّ للعبارة. و باعتبار الحياة تأرجحًا خطِرًا ، تكون معظم المشاعر تعبيرات عن الكفاح من أجل التوازن، أفكارًا عن التصحيحات و والتلاؤمات المبهرة والتي، بسبب أخطاءٍ متكررة، ينهار بدونها الأداء كله. إن كان لأيّ شيء في وجودنا أن يكشفَ بجلاء عن عظمتنا و صِغرنا المتزامنين فلا بد أن يكون المشاعرَ.

إنّ الكيفية الّتي يحضر بها ذاك التجلّى في العقل هي ما بدأ، بحدّ ذاته، يتجلّى لنا: يستعمل الدماغُ عددًا من المناطق المخصوصة العاملة بتناغمٍ لترسمَ جوانبَ لا حصر لها من أنشطة الجسم على شكل خرائط عصبيّة. هذا الرسمُ مركّبٌ، على شكلِ صورةٍ للحياة دائمة التغيّر. إن القنوات الكيميائية و العصبية التي تنقل الى الدماغ الإشارات التي تُرسَم بها صورة الحياة هذه مخصوصةٌ بالقدر نفسه كما القماشة التي تستقبلها. لغزُ كيف نشعرُ أضحى، الآن، أقل غموضًا.

يحقّ لنا أن نتساءل إن كان لمحاولتنا فهم المشاعر أي قيمةٍ أبعد من إرضاء فضولنا. أعتقد، و لعدة أسباب، إنّ لها

قيمةً أبعد بالفعل. يسهم توضيح بيولوجيا أعصاب المشاعر وسابقتها العواطف في رؤيتنا لمشكلة العقل-الجسد، و هي مشكلة مركزية في فهم مَن نكون. تصطف العواطف و التآثرات المرتبطة بها جانب الجسد، أما المشاعر فمصطفةٌ جانب العقل. ويوفّر فحص الكيفية التي بها تثيرُ الأفكار عواطفَ و التي تصبح معها العواطف الجسدية نوعًا من الأفكار نسميه مشاعر مدخلًا مميزًا إلى العقل و الجسد، وهما المظهران المتباينان صراحةً لمتعضٍ بشريّ واحدٍ متشابكٍ بسلاسة تامة.

ومع ذلك، فلهذا الجهد عوائدٌ أكثرَ عملية، إذ من المحتمل أن يُسهم توضيح بيولوجيا المشاعر، والعواطف الوثيقة الصلة، في المعالجة الفعالة لبعضٍ من أكبر مسببات المعاناة البشرية، ومنها: الاكتئاب، الألم، وإدمان المخدّرات. علاوة على ذلك، فهمُ ماهية المشاعر، كيفية عملها، ومعناها هو أمرٌ لا غنى عنه لبناءٍ مستقبلي لنظرة عن البشر أكثر إحكامًا من تلك المتوفرة حالياً، نظرة قد تأخذ بعين الاعتبار التقدم في العلوم الاجتماعية، والمعرفية و في البيولوجيا. لِمَ نفترض وجود فائدةٍ عمليّة لبناء كهذا؟ لأن نجاح البشرية أو فشلها يعتمد إلى حد كبير على الكيفية التي يُدرجِ بها الجمهور و المؤسسات المكلفة بإدارة الحياة العامة هذه النظرة المعدّلة عن البشر في المبادىء و السياسات. إنّ فهمًا لبيولوجيا أعصاب العواطف و المشاعر لهو

مفتاحٌ لصياغة مبادىء و سياسات قادرة على تخفيض غمّ الإنسان و على تعزيز ازدهاره. و فعليًا، فالمعرفة الجديدة تبسّط حتى الطريقة التي يتعامل بها البشر في ما يخصّ التوتّرات الّتي لم تُحَلّ بين التفسيرات القدسيّة و العلمانية لوجودهم.

الآن، و بعد أن وضعت الخطوط العريضة لغرضي الأساسي، فقد حان الوقت لأفسّر لِمَ استدعى كتابٌ مخصصٌ للأفكار الجديدة حول الطبيعة ودلالة المشاعر البشرية اسمَ سبينوزا في عنوانه. لستُ فيلسوفًا و ليس هذا كتابًا عن فلسفة سبينوزا، يُعقلُ إذن أن تسألوا: لِمَ سبينوزا تحديدًا؟ الجواب المقتضب هو أنّ سبينوزا وثيق الصلة كليّا بأيّ نقاش عن مشاعر الإنسان و عواطفه. رأى سبينوزا إنّ الدوافع drives، المحفّزات motivations، العواطف و المشاعر – وقد سمّى سبينوزا هذه المجموعة الإنفعالَات affect- هي جانبٌ مركزيٌّ لدى البشر. كان الفرح و الأسى مفهومين أساسيين في محاولته فهم البشرِ و اقتراح ما من شأنه أن يجعلوهم يحيَون على نحو أفضل.

التفسيرُ المستفاضُ شخصيٌّ أكثر، و هو ما سأتناوله لاحقًا.

لاهاي

الأول من ديسمبر عام ١٩٩٩: يصر حاجب فندق Des Indes الودود: "لا ينبغي لك أن تمشي في مثل هذا الجو يا سيدي، دعني أستدعي لك سيّارة أجرة. الريح لا تبشّر بالخير. تكاد تعصف، يا سيدي. انظر إلى الأعلام". كان محقّا، فالأعلام ترفرف مجنّحةً، و السُحب تتسارع شرقًا. أرفض عرضه بالرغم من أنّ صفّ السفارات في لاهاي يبدو كما لو كان سيُقلع. قلت بأنني سأمشي، و أنني سأكون على ما يرام. فوق ذلك، ألا تلاحظ جمال السماء ما بين الغيوم؟ لا يملك الحاجب أي فكرة عن المكان الذي أقصده، و لن أتطوع بإخباره. فماذا كان يظنّ؟

يكاد المطر أن يتوقّف، ويسهل عليّ، بشيء من العزم، أن أغالبَ الرياح. يمكنني حقيقةً أن أمشي مسرعًا متّبعًا خارطتي الذهنية للمكان. في نهاية الممشى أمام فندق دي ان، عن يميني، أرى القصر القديم و دار موريشيوس Mauritshuis مزيّنةً بوجه رمبراندت - حيث أنهم يعرضون بورتريه ذاتية له ضمن معرض استعادي. تبدو الشوراع مقفرة تقريبًا بعد ساحة المتاحف، رغم أن هذا قلب البلدة و في يوم عمل عادي. لا بد أن تحذيرًا ما أبلغ الناس بضرورة بقاءهم في الداخل. فليكن، هذا أفضل، يمكنني أن أعبر ساحة Spui دون أن يعيقني حشد الناس. بدا الطريق غير

مألوفٍ بعد أن وصلت الكنيسة الجديدة New Church و ترددت لوهلة، لكن سرعان ما اتّضح الخيار: أنعطف يمينًا عند شارع جاكوب Jacobstraat، ثمّ يسارا نحو شارع فاجين Wagenstraat ، ثم إلى اليمين مجددا عند Stilleverkade. ما إن مضت الدقائق الخمس التالية إلاّ وكنت في Paviljoensgracht (قناة الصيوان). أقف الآن عند المنزل رقم ٧٢-٧٤.

تبدو واجهة المنزل كما تخيلتها تقريبًا: منزلٌ صغيرٌ بارتفاع ثلاثة طوابق، وعوض ثلاث نوافذ، نسخة أخرى من منازل القناة الصغيرة المعتادة. منزلٌ متواضع أكثر من كونه مترفًا. إنه مصوّن جيدًا و لا يبدو مختلفًا كثيرًا عمّا كان عليه في القرن السابع عشر. جميع النوافذ موصدة بلا دلالة على أي نشاط. باب المنزل مُعتنى به ومصبوغ جيدًا، و بجانبه جرسٌ نحاسي لامع داخل إطارٍ حُفرت على حافته: منزل سبينوزا Spinozahuis. أضغط الجرس بحزمٍ و لكنّي لا آملُ الكثير. لا أسمع صوتًا بالداخل و لا أرى ستائر تُرفع، كما أنّ أحدًا لم يرفع السماعة حينما حاولت الإتصال قبلا. سبينوزا منصرف لمزاولة عمله.

هنا عاش سبينوزا السنوات السبع الأخيرة من حياته القصيرة، وهنا مات أيضًا عام ١٦٧٧. نُشِرَ كتابه *رسالة في اللاهوت و السياسة*، والّذي كان يحمله معه عند وصوله، من

دون إسمِ مؤلّفه، كذلك أكمل في هذا البيتِ كتابه *الإيتيق*، الّذي نُشِرَ بعد وفاته، تقريبًا بسريّة تامّة.

لا أمل لي في تفحّص المنزل اليوم، لكن لم يذهب كلّ هذا سدى. ففي الجزء الأوسط المزروع الذي يفصل بين مسلكي الشارع، حيث تفاجئنا حديقة حضرية، أكتشفُ سبينوزا نفسه، وأوراق الشجر المذرورة تحجبُه قليلاً، جالسًا بجدية و سكينة في أبدية برونزية متينة. كان يبدو هانئا وغير مكترثٍ بزوبعة الرياح، و لا ينبغي له ذلك، فقد نجا من بطشٍ أكبر في زمنه.

كنت، على مدى السنوات القليلة الفائتة، أبحثُ عن سبينوزا، في الكتب مرات، وفي الأماكن مراتٍ أخرى، و لهذا أجدني هنا اليوم. تسليةٌ ملفتةٌ للنظر، كما ترون! تسليةٌ لم أخطط يومًا القيام بها، والسبب في أنّني قمتُ بها يتعلّقُ بالصدفة كثيرًا. قرأتَ سبينوزا أول ما قرأت و أنا مراهق – لا عُمر أفضل من هذا لقراءة سبينوزا في الأخلاق و السياسة - بيد أنه من العادل القول بأنّه، و بينما تركت بعض الأفكار انطباعات دائمة، فإن إعظامي له لم يكن كبيرًا. لقد كان أخّاذًا و منيعًا في آنٍ واحد. لاحقًا، لم أفكر بسبينوزا بما يتصّل خاصةً بعملي، وإطّلاعي على أفكاره ظلّ شحيحًا. مع ذلك، كان له اقتباس لطالما أغليته – كان من كتابه "الإيتيقا" و يتعلق بمقولة الذات، عاد سبينوزا إلى حياتي عندما عنّ لي إيراد هذا الاقتباس و احتجت لأن أتحقق من صحته وسياقه. وجدت الاقتباس

مطابقًا لمحتوى الورقة المصفرّة التي ثبّتتها يومًا على الجدار. لكنني حين شرعت بقراءة المقطع المحدد الذي وقعت عليه و ما يسبقه و ما يتلوه، لم أستطع، ببساطة، أن أتوقف. الآن، أصبح مألوفًا معظم ما بدا يومًا مستغلقًا، مألوفًا بشكل يثير الغرابة، بل و مرتبطًا بعملي الحديث من جوانب عدة. لم أكن لأُصادق على كل آراء سبينوزا، فبعض المقاطع بدت مبهمة، كما أن بعض الأفكار بقيت متعارضةً و متناقضةً داخليًا حتى بعد قراءات متعددة. كنت لا أزال حائرًا و حانقًا أيضا، لكني كنت، عمومًا، في تناغمٍ مُرضٍ مع أفكاره، أشبهُ إلى حدٍ ما الشخصية في رواية برنارد مالامود[i] "المُصلِح" The Fixer و الذي قرأ بضع صفحات لسبينوزا و بقي يقرأ و يقرأ كما لو كانت تلحق زوبعة: "لم أفهم كل كلمة، لكنك حين تتعامل مع أفكار كهذه تشعر أنك تمتطي مكنسة الساحرة في جولة"[2]. تطرّق سبينوزا لمواضيع تؤرقني كعالم- طبيعة العواطف و المشاعر و علاقة العقل بالجسد- و هذه المواضيع أرّقت مفكرين سابقين كُثر أيضا. في رأيي،على أية حال، أجده يُفلِحُ في تنبّؤ حلولٍ بالكاد بدأ يطرحها العلماء اليوم لمعالجة هذه المسائل. كان هذا مفاجئًا!

---

[i] برنارد ملامود Bernard Malamud (1914 – 1986) روائيّ و قاصّ أميركي.

على سبيل المثال، عندما قال سبينوزا بأنّ *الحب ما هو إلا حالةٌ ممتِعة، من الفرح، مصحوبة بفكرة مسببٍ خارجي*، فقد فصل بوضوح بالغ عملية الشعور عن عملية امتلاك فكرة عمّا من شأنه أن ينتج عاطفةً [3] . الفرحُ شيءٌ و ما سبّبه شيء آخر. في نهاية المطاف، يتحد الفرح أو الحزن و فكرة الشيء المسبب لأّيهما في العقلِ، لكنهما كانا، في البدء، عمليتين متمايزتين، داخل أعضائنا الحيّة. وصف سبينوزا ترتيبًا وظيفيًا تُظهِره علوم اليوم كحقيقة: المتعضيات الحية مجهّزة بقدرةٍ على أن تتأثر عاطفيًا مع أحداثٍ و أشياءٍ مختلفةٍ، ويلي هذا التأثر نمطٌ ما من الشعور، وضربٍ من المتعة أو الألم كمكوّنٍ ضروريةٍ للشعور.

أشار سبينوزا أيضًا إلى أنّ قوّة التفاعلات هي بحيث يكون الأمل الوحيد في مغالبة تفاعل مؤذٍ – الهوى غير العقلانيّ- بإخضاعه لتفاعل إيجابي أقوى، تفاعل ولّده العقل.*لا يمكن قمع تفاعل و لا تحييده إلا بآخرٍ مضادٍ أشدّ منه قوة*[4] . بعبارة أخرى، يقترح سبينوزا أن نحارب العواطف السلبية بعواطف أقوى لكن إيجابية وليدة التعقّل والجهد الفكريّ. إن مقولة إخضاع الشغفِ للعواطف التي يقودها العقل ، وليس للعقلِ وحده، مقولةٌ مركزية في تفكيره. ليس من السهل تحقيق ذلك بأي حال، لكن سبينوزا لم يكن ليرى كثير جدوى في أي شيء سهل المنال.

من مفاهيم سبينوزا بالغة الأهمية لما سأناقشه لاحقًا مقولته عن أن لكلي العقل و الجسد صفاتٍ متوازية (أو لنقل تمظهرات) للجوهر عينه[5]. و على أقل تقدير، فقد لَفت سبينوزا الانتباه إلى معارضته لما كان سائدًا في عصره و ذلك برفضه أن يأخذ العقل و الجسد كجوهرين مختلفين، وقد بدت معارضته بارزةً وسط انسجامٍ عام سائدٍ. مع ذلك، فالأكثر إثارةً للاهتمام، مقولته أنّ *العقل البشري هو فكرة الجسد البشري*[6]. وهذا ما يعززّ إحتمالاً لافتًا: إذ ربما حدَسَ سبينوزا المباديء الكامنة خلف الآليات الطبيعية المسؤولة عن التمظهرات المتوازية للعقل و الجسد. وكما سأناقش لاحقًا، أنا مقتنع بأن العمليات العقلية ترتكزُ على تخريطات mapping دماغية للجسد ، أي مجموعة من الأنماط العصبية و التي ترسمُ استجاباتنا للأحداث المسببة للعواطف و المشاعر. لا شيء يبعث على الارتياح أكثر من مصادفة عبارة سبينوزا هذه و التساؤل عن معناها المحتمل.

كان هذا أكثر من كافٍ لإيقاد فتيل حماسي لسبينوزا، لكن هناك المزيد ممّا من شأنه أن يديم اهتمامي: بالنسبة لسبينوزا، تسعى المتعضيات الحية بطبيعتها، وبالضرورة، لتحفظ وجودها، و يُشكّل هذا السعي الضروري جوهرها الفعلي. تبرز المتعضياتُ إلى الوجود بقدرةٍ على ضبطِ حياتها، وبالتالي تديمُ بقاءها. و بشكلٍ طبيعيّ أيضًا، تجهدُ المتعضيات من أجل تحقيقِ

" كمالٍ أعلى" في وظيفتها، وهذا ما يساويه سبينوزا بالفرح؛ و يحصل هذا السعي الحثيث و هذه الميول بشكل لا واعٍ.

على نحوٍ قاتمٍ، و من خلال جمله الباردة وغير المنمّقمة، يبدو أن سبينوزا قد شيّد عمارةً لتنظيم الحياة على نفس الموال الّذي ستّخذه وليم جيمس[i] ، كلود بيرنار[ii] و سيغموند فرويد[iii] لاحقًا بعد قرنين من الزمن. إضافةً لذلك، كان سبينوزا موافقا لتفكير تشارلز داروين[iv] التطوري، و ذلك برفضه الاعتراف بتصميمٍ غائيٍ في الطبيعة و بإدراكه أنّ الأجساد و العقول مصنوعة من مكوّناتٍ يمكن لها أن تجتمع مع بعضها البعض في أنماطٍ تختلف باختلاف الفصائل الحية.

مسلّحا بتصوره المُعدّل عن الطبيعة البشرية، شرع سبينوزا في ربط مفاهيم الخير و الشر، و الحرية و الخلاص بمفهومي التفاعل و تنظيم الحياة. لقد اقترح أن المعايير التي

---

[i] وليم جيمس William James (1842- 1910) فيلسوف وعالم نفس أميركي، من مؤسّسي الفلسفة البراغماتية و التحليلية.

[ii] كلود برنارد Calude Bernard (1813- 1878) طبيب و عالم نفس فرنسي من مؤسّسي الطبّ التجريبيّ.

[iii] سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939) عالم أعصاب نمساوي. مؤسس التحليل النفسيّ.

[iv] تشارلز داروين Charles Darwin (1809-1882) بالبناتولوجي (عالم إحاثيّ) وعالم احياء وجيوبولوجي انكليزي، كان لاكتشافاته ونظرياته التطورية الأثر الأكبر في تثوير علوم الأحياء.

تحكم سلوكنا الاجتماعي و الخاص لا بد و أن يصوغها فهم أعمق للإنسانية، نابعٌ من اتصالنا بالإله أو الطبيعة داخلنا.

تعد بعض أفكارِ سبينوزا جزءًا لا يتجزأ من ثقافتنا، ورغم ذلك؛ سبينوزا غائب كمرجع – على حد علمي- عن جهودنا الحديث لفهم بيولوجيا العقل [7]. هذا الغياب بحدّ ذاته مثير للاهتمام، إذ أنّ سبينوزا فيلسوفٌ ذائع الصّيت، ويبدو أحيانًا كما لو كان منبعثًا من لا شيء، في بهاءٍ فريدٍ عصيّ عن الفهم! لكنّ هذا الانطباع خاطىء، فهو، بالرغم من أصالته، ينتمي، إلى حدٍّ كبير، لعصره الفكري؛ ويبدو أنّه يبدّد، بغتةً ولمرةٍّ واحدةٍ، انطباعًا مغلوطًا آخرَ بما أننا نجد خلاصة بعضِ مقترحاته المحظورة كامنةً خلف عصر التنوير و ما بعده في القرن الذي تلا وفاته [8]. إحدى التفسيرات لمكانة سبينوزا كمشهورٍ مغمورٍ هي الفضيحة التي تسبب بها في زمانه. و كما سنرى (في الفصل السادس)، فقد عُدَّت أفكاره مهرطِقة وحظرت لعقود، و، باستثناءات قليلة، لم تُقتَبس إلا في معرض الهجوم على عمله. شلّت هذه الهجمات معظم محاولات معجبيه لمناقشة أفكاره علنًا. وهكذا أُعيقَ التعاقب الطبيعي للاعتراف الفكري الذي يلي عمل المفكّر عادةً، حتّى أنّ بعض أفكاره استُخدِمَت دون أن تُنسَب إليه. مع ذلك، بالكاد يفسر الوضع الراهن ما الذي جعل سبينوزا يزداد شهرة بينما ظلّ

مغمورًا حينما بدأ أمثال جوته[i] و ووردزوورث[ii] بمحاباته. ليس من السهل التعرف إلى سبينوزا، لربما كان هذا التفسير أفضل.

تكمن الصعوبة في تواجد "سبينوزات" عدّة لأخذها بعين الاعتبار، أربعة على الأقل حسبما أحصيت: سبينوزا الأول و الأسهل منالًا هو الباحث الديني الراديكالي و الذي يعارض كنائس عصره مقدّما تصورًا جديدًا عن الإله، ومقترحًا طريقًا جديدًا من أجل الخلاص البشري. ثمّ سبينوزا المهندس السياسي؛ المفكر الذي يصف خصائص دولةٍ ديموقراطية مثاليةٍ يسكنها مواطنون مسؤولون وسعداء.و سبينوزا الثالث هو الأكثر استغلاقًا بين بين هذه المجموعة: الفيلسوف الذي يستعمل حقائق علمية، وأسلوب البرهان الهندسيّ والحدس intuition لكي يصوغ مفهومًا عن الكون و البشرِ فيه.

الإحاطة بهؤلاء الثلاث سبينوزات و شبكة تداخلاتهم كافٍ لندرك الدرجة التي يمكن أن يبلغها تعقيد سبينوزا. لكن هناك سبينوزا رابع: عالم الأحياء الدقيقة protobiologist .إنّه ذاك المفكر البيولوجي المتواري خلف عدد لا حصر له من التعريفات

---

[i] يوهان وولفنغ غوته Johann Wolfgang Goethe (1749-1832) شاعر، مسرحي، روائي، رجل دولة ورعالم الماني شهير.

[ii] وليم ووردزوورث William Wordsworth (1770-1850) شاعر انكليزي من مؤسسي التيار الرومانسي.

propositions، البديهيات Axioms ، البراهين، المأخوذات Lemmas، والحواشي scholia. وبما أنّ حقيقة أنّ الكثير من التقدم الخاص في علوم العواطف و المشاعر يتماشى مع مقترحات بدأ سبينوزا بالتعبيرعنها، فغرضي الثاني من هذا الكتاب أن أعقد صلةً بين هذا السبينوزا المغمور وبين أجزاء من بيولجيا الأعصاب المعاصرة. لكني أشدّد مجددًا على أن هذا الكتاب ليس كتابا عن فلسفة سبينوزا، ولا أناقش [فيه] فكر سبينوزا خارج الجوانب المتصلة بالبيولوجيا. هدفي أكثر تواضعًا. يُحسب للفلسفة تنبؤها، عبر تاريخها، بما أتت به العلوم، وبالمقابل، أعتقد أن الاعتراف بهذا الجهد التاريخي يخدم العلم جيدًا.

البحث عن سبينوزا

سبينوزا وثيق الصلة ببيولوجيا الأعصاب رغم أن تأملاته عن العقل البشري نابعة من قلقه الأكبر عن الحالة البشرية. كانت علاقة البشر بالطبيعة شغله الشاغل.، وحاول توضيح هذه العلاقة لكي يمكنه أن يقترح وسائلَ عملية للخلاص البشري. بعض هذه الوسائل كان شخصيًا ،تحت تحكّم فرديّ بحت، و يعتمد البعض الآخر منها على المساعدة الممنوحة للفرد من بعض أشكال التنظيمات الاجتماعية و السياسية. ينحدر فكر سبينوزا

من فكر أرسطو، لكنّ دعامته البيولوحية أكثر صلابة كما هو متوقع. لقد اكتشف سبينوزا، قبل جون ستيورات مِل[i] بزمنٍ طويلٍ، العلاقة بين السعادة الشخصية و الجماعية من جهة، و بين الخلاص البشري و بُنية الدولة من جهة أخرى. و يبدو أن هنالك إقرارٌ معتبر بفكره، من ناحية تبعاته الاجتماعية على الأقل[9].

اقترحَ سبينوزا دولةً ديموقراطية مثالية، سماتها المميزة: حرية التعبير (إذ يقول" *فليفكّر كل امرءٍ بما يشاء و ليفصح عمّا يفكّر به"*) [10] ، الفصل بين الدولة و الكنيسة و عقدٌ اجتماعي سخيّ يرعى سلامة المواطنين و تناغم الحكومة. قدّم سبينوزا مقترحه هذا قبل إعلان الاستقلال[ii] [الأميركي] و التعديل الدستوري الأول بقرنٍ. ما يثير الاهتمام حقًّا هو استباقه لبعض جوانب البيولوجيا الحديثة، كجزء من مساعيه الثورية.

أيُّ رجلٍ إذن هذا الذي فكّر بالعقل و الجسد على نحو لا يعارض تفكير معاصريه بشدّة و حسب، بل يجاري ثلاث مئة سنة لاحقة و تزيد؟ أيُّ ظروفٍ خلقت روحاً مغايرةً كهذه؟ في معرض محاولتنا الإجابة على هذه الأسئلة، يجب أن نضع في حسباننا

---

[i] جون ستيوارت مِل John Stuart Mill (1806-1873) فيلسوف، منطقيّ و اقتصادي بريطاني، من المؤيدين للفلسفة النفعية .

[ii] سنة 1776.

سبينوزا آخر، الرجل صاحب الأسماء الثلاثة المتمايزة – بِنتو Bento، باروخ Baruch، بِنديكتوس Benedictus : الرجل المقدام و الحذر، ليّن الجانب و صعب المراس، المتواضع و المغرور، الرقيق و المُتجرّد، المثير للإعجاب و الاستفزاز، القريب من العينيّ والملحوظ، وفي الآن، عينه الروحاني بلا تردّدٍ. لم يُفش أبدًا عن مكنونات مشاعره الخاصة صراحةً في كتاباته، فهذا ليس أسلوبه، و لذا يجب جمع شتاته عبرَ مراوغات كثيرة.

تقريبًا، ومن دون انتباهٍ، شرعتُ أبحثُ عن الرجل خلفَ غرابة عمله. أردت فقط أن أقابل الرجل الساكن في مخيلتي، أحادثه قليلا و أن أطلبه توقيع نسختي من "**الايتيقا**"[i]. أصبح غرضي الثالث من هذا الكتاب أن أرويَ عن بحثي عن سبينوزا و قصة حياته.

وُلد سبينوزا بمدينة أمستردام المزدهرة عام ١٦٣٢، بالتحديد عند منتصف عصر هولندا الذهبي. في نفس العام، و على مقربة من مسكن سبينوزا، يرسم رمبراندت[ii] فون غاين Rembrandt Van

---

[i] فضّلنا كلمة إيتيقا تعريب عنوان كتاب سبينوزا Ethics و عنوانه الأصلي باللاتينية Ethica, ordine geometrico demonstrate على الترجمات السائدة مثل الأخلاق وعلم الأخلاق، لأن الكتاب لا يُعنى بالأخلاق moral بالمسألة الأخلاقية (نظرية القيَم والواجب والحق) ولا تحيل كلمة Ethica اللاتينية إلى البحث [حصرًا] في علم الاخلاقيات.

[ii] رمبراندت فون غاين Rembrandt Harmenszoon van Rijn (1669-1607) أحد أعظم الرسّامين في تاريخ فن الرسم (بالأخص الفن الباروكيّ).

Rijn، ذو الثلاثة و العشرين ربيعًا، *"درس التشريح مع دكتور تولب"* ، اللوحة الّتي استهلّت شهرته. يومها، أصبح راعي رمبراندت قنسطنطين هاغنز[i] ، الشاعر، رجل الدولة، سكرتير أمير ولاية أورانج Orange، و صديق جون دون[ii] ، أباً للطفل كريستيان هاغنز[iii] الذي سيصبح أحد أكثر الفلكيين و الفيزيائيين شهرة على مر العصور. في أمستردام أيضًا، يسكن ديكارت، الفيلسوف الأبرز يومها، ابن الاثنين و الثلاثين سنة، بمحاذاة قناة الأمير (برينسنخاخت Prinsengraacht)، و هو قلق بشأن الكيفية التي ستتلقي بها هولندا و العالم خارجها أفكاره عن الطبيعة البشرية. سيُدرّس الجبر لكريستيان هيجنز قريبًا. سأستوحي وصف سيمون شاما[iv] للمكان في ذلك العصر، لأقول أنّ سبينوزا أتى إلى الحياة وسْطَ ترفٍ مربِكٍ ماديًا و فكريا[11].

كان بِنتو الاسم الذي منحه كلا من ميكيل و هانا ديبورا ابنهما سبينوزا عند ولادته، و هما من اليهود السفرديم البرتغاليين الّذين استقروا في أمستردام. كان يُعرف بباروخ بين أصدقاءه وفي

[i] قنسطنطين هاغنز Constantijn Huygens (1569-1687) رجل دولة و شاعر و موسيقى هولندي.

[ii] جون دون (1572-1631) شاعر هولنديّ.

[iii] كريستيان هاغنز Christian Huygens (1629-1695) رياضي، فلكي و فيزيائي هولندي، عدا عن اكتشافاته الفلكية، طوّر مبادىء الحساب الحديث، أوّل من صنع ساعة الرقّاص (البندول). مبدأ هاغنز هو المبدأ الخاص بنظرية الأمواج.

[iv] سيمون شاما Simon Shama (1945-) مؤرّخ معاصر اهتمّ بتاريخ الفنون.

الكنيس اليهودي أثناء نشأته في مجتمع التجار و الباحثين اليهود الميسورين في آمستردام. ثم اتّخذ اسم بِنديكتوس في الرابعة و العشرين من عمره بعدما أبعده الكنيس. لقد نبذ سبينوزا راحة منزل العائلة في آمستردام و بدأ رحلته الهادئة المتروية و التي كانت قناة الصوان (بافيليونزغراجت Paviljoensgracht) آخر محطاتها. لأسمائه الثلاثة، الاسم البرتغالي بِنتو، باروخ العبري و بِنديكتوس اللاتيني معنى واحد: المُبارَك. إلى ما يرمي اسمٌ كهذا إذن؟ الكثير، كما أعتقد. قد تترادف الكلمات الثلاث بسطحية، لكن ما ترمي إليه كلّ واحدة منها مختلف جذريّا.

احترس

كم أودّ دخول المنزل، أفكّر، لكن بابه موصدٌ للآن. كلّ ما يمكنني فعله الآن هو أن أتخيل أحدهم يظهرُ من مركب مُرسىً على مقربة، ثم يدخل المنزل مستفسرًا عن سبينوزا (كانت قناة الصوان قناةً مائية واسعة تلك الأيام، ثم رُدِمت لاحقًا و تحولت إلى شارع، مثلها مثل الكثير من قنوات أمستردام و البندقية). سيفتح الرائع فان در سبيك Van der Spijk ، الرسام و مالك المنزل، الباب؛ ثمّ سيرشد الزائر بِودٍّ إلى الاستوديو ، خلف النافذتين

الكبيرتين بجانب الباب الرئيسي، و يطلب منه الانتظار ريثما يبلّغ نزيله سبينوزا أنّ ضيفًا قد وصل.

تقع غرف سبينوزا في الطابق الثالث، لذا سيهبط السلّم اللولبي؛ أحد تلك السلاسل المريعة الملتفة بإحكام و التي تشتهر بها العمارة الهولندية. سيكون سبينوزا مهندمًا بأناقةٍ مرتديًا زي النبلاء – ليس زيّا جديدًا كليًا و لا مهترئًا، بل معتنىً به جيدًا؛ طوقُ عنقٍ أبيض مُنشّىً، سروالٌ أسود حدّ الركبتين، صدريّةجلدية سوداء، سترة وَبَرية سوداء تلائم كتفيه تمامًا، حذاءٌ جلديٌّ أسود لامع بأبازيم فضية كبيرة، ولربما حمل عكازًا خشبيًا يهادن به السلالم. كان لسبينوزا ميلٌ خاصٌّ للأحذية الجلدية السوداء. قسماتُ وجهه، المحلوق جيدًا، متناسقةٌ و عيناه المتقدتان ذكاءً تهيمنان على مظهره. كان شعره أسودًا أيضًا، و كذلك حواجبه الطويلة؛ أما بشرته فزيتونية ، قامته متوسطة و قدّه خفيف.

سيُدعى الزائر بأدب و دماثة، و لكن بصراحةٍ مُقتصدة، لأن يدخل في صلب المسألة بين يديه. سيستضيف هذا المعلم الكريم نقاشات عدة عن البصريات، السياسة و الدين خلال ساعاته المكتبية. سيقدّم الشاي و سيستمر فان در سبيك في رسمه بهدوء غالبًا، و لكن بتؤدة و وقار ديموقراطي مهيب. سيتوارى أطفاله السبعة النشطون في مؤخرة المنزل بينما تخيط

والدتهم السيدة فان در سبيك، وستكون مساعِدتها تعمل في المطبخ. يمكنك تصوّر المنظر.

يدخن سبينوزا غليونه، وبينما تُصارع رائحته عبق زيت التربنتين، ستُطرح الأسئلة، تُعطى الأجوبة و يخفت ضوء النهار تدريجيًا. لقد استقبل سبينوزا زوّارًا لا حصر لهم، من جيران و أقارب لفان در سبيك إلى الطلبة الشبّان التواقين و الشابات المنقادات، من غوتفريد لايبنتز[i] و كريستيان هاغنز إلى هنري أولدنبورغ[ii] رئيسُ الجمعية الملكية البريطانية المؤسسة حديثًا. تَشي نبرة خطابه بأنه كان أكثر ما يكون سماحةً مع البسطاء و أقل ما يكون صبرًا مع نظرائه. يبدو أنه احتمل الأحمق البسيط بسهولة لكن ليس نقيضه.

يمكنني أن أتخيل أيضًا، في يوم آخر كئيب، موكبًا جنائزيًا في الخامس و العشرين من فبراير عام ١٦٧٧. تابوت سبينوزا البسيط، متبوعا بعائلة فان در سبيك و رجال مرموقين كثر، في ما مجموعه ستّ عربات، متجهين سويّا إلى الكنيسة الجديدة على بعد بضع دقائق. أقفلُ قاصدًا الكنيسة الجديدة و متتبعًا خط

---

[i] غوتفريد فلهلم لايبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz (1646-1716) فيلسوف، رياضي، دبلوماسي، فيلولوجي، منطقي وعالم الماني. عارض سبينوزا معتبِرًا أن فلسفة الأخير مادية وحتموية.

[ii] هنري اولندبورغ Henry Oldenburg (1619-1677) دبلوماسي و عالم من أصول المانية.

سيرهم المحتمل. أعرف أن ضريح سبينوزا في باحة الكنيسة، و لعلّي أدلف من دار الأحياء لأطوف بدار الموتى.

تحيط البوابات بباحة الكنيسة لكنها مفتوحةٌ على مصراعيها. لا نجد فعليًا مقبرةً، بل مجرد أرض معشبة، طحالب، شجيرات و ممرات موحلة بين أشجار أطول. أجد القبر تمامًا حيث ظننت أنني سأجده، في نهاية الساحة، خلف الكنيسة، جنوب شرق. هناك يستلقي حجر مُسطّح على مستوى الأرض و شاهد ضريح عمودي، مُعرًّى و غير مزخرف. بجانب الإفصاح عن هوية صاحب القبر، نُقش على الشاهد المقابل اللاتيني لـ" احترس ! " (Caute!) . هذه نصيحة مقتضبةٌ مرعبة، لا سيما إن أخذنا بالاعتبار أن رفات سبينوزا ليس في القبر حقيقةً، و أن جسده قد سرق في وقت ما بعد المراسم بينما كان ممددًا في الكنيسة، و لا يعلم أحد من الفاعل. أخبرنا سبينوزا بأن لكل شخصٍ أن يفكر بما شاء و يفصح عما يفكر به، لكن ليس تمامًا، ليس بهذه السرعة. توخّ الحذر. لن تُفلت حتى عظامك إن لم تحترس في ما تقول (و تكتب).



استخدم سبينوزا الكلمة *Caute* في مراسلاته، وقد طُبِعَت مباشرةً تحت رسم وردةٍ rosa. في العقود الأخيرة من حياته، كانت كتاباته حقيقةُ سرّيةً *sub-rosa*: أدرجَ دارنشرٍ خياليةٍ لكتابه *الرسالة في اللاهوت والسياسة*، إلى جنب مكانٍ نشرٍ مزيّف (هامبورغ)، وكانت الصفحة التعريفية بالمؤلِّف فارغةً. ومع ذلك، وبرغم أن الكتاب مكتوبٌ باللاتينية وليس بالهولندية، قامت السلطات في هولندا بحظره في العام 1674. وكما كان متوقعًا، أُدرِج الكتاب في لائحة الفاتيكان للكتب الخطيرة، فقد اعتبرته الكنيسةُ هجومًا شاملاً على الديانة المنظّمة وعلى هيكل السلطة السياسية. لاحقًا، وبما لا يدعو للدهشة، توقّف سبينوزا عن النشرِ كلّيًا. بقيت كتاباته الأخيرة في جارور مكتبه يوم وفاته، ولكنّ فان در سبيك كان يعلمُ ماذا سيفعل: شحن المكتب بأكمله في قاربٍ إلى آمستردام حيث تسلّمه جون ريوفرتز Rieuwertz الناشر الحقيقيّ لكتب سبينوزا. لاحقًا، وفي السنة نفسها،

نُشِرَت، من دون ذكر اسم المؤلِّف كاملاً، مجموعة المؤلّفات المخلفة[بعد الوفاة]، أي الكتب المنقّحة: *الايتيقا*، *الموجز في النحو العبري*، *الرسالة السياسية* (وهي الرسالة الثانية غير المكتملة)، و *رسالة في إصلاح الفهم* *Tractatus de Intellectus Emendatione*. علينا أن نأخذ هذا الوضع بالاعتبار حين نتكلّم عن المقاطعات الهولندية الّتي كانت ملاذ التسامح الفكري. لا شكّ بتوفّر التسامح هذا، ولكنّه كان محدودًا!

كانت هولندا جمهوريةً أغلبَ حياة سبينوزا، وخلال سني نضجه، هيمن المحافظ الأكبر يان دي فيت[i] Jan De Witt على حياتها السياسية. دي فيت رجلٌ طموحٌ و مستبدّ، لكنه مستنيرٌ أيضًا. ليس وضاحًا مبلغ المعرفة بين دي فيت وسبينوزا، لكنه فطِن لأمره حتمًا و لعلّه ساعد في احتواء غيظ السياسيين الكالفينيين[ii] الأكثر محافظة، حين أثارت *رسالة في اللاهوت و*

---

[i] أويوهان دي فيت Johan de Witt (1625-1672) رجل دولة و أبرز الشخصيات السياسية في هولندا القرن السابع عشر.كان جمهوريًا و انتُخب لمنصب المحافظ أو المستشار الأعلى للبلاد المنخفضة. ساهم سياساته في تعزيز الازدهار الاقتصادي لهولندا و توسيع هامش الحريات والتسامح الديني.أهمَل السياسات العسكرية الدفاعية لبلاده فألقيَ باللوم عليه وعلى آخاه كورنليس cornelis بعد أت غزت جيوش فرنسا وبريطانيا الاراضي الهولندي. على إثر ذلك، شُنِق و أخاه على يد جمع من الناس الهائجين.

[ii] نسبةً إلى المذهب الكالفيني في البروتستانتية . والكالفينية مذهب تأسس على يد جون كالفن John Calvin (1509-1654) الكاهن اللاهوتيّ المجدِّد. تأثر كافين بالتقليد المسيحي الاوغسطيني. تنادي الكالفينية بالقدر الإلهي المسبق والحتميّ معتبرةً أن الكتاب المقدّس (الانجيل) هو المرجعية الوحيدة و الأولى للتشريع الديني والسياسي.

السياسة القلاقل. امتلك دي فيت نسخةً من الكتاب منذ العام ١٦٧٠، وسرت شائعاتٌ بأنه قد التمس رأي الفيلسوف في مسائل سياسية و دينية، و تقول الشائعات أيضا بأن سبينوزا كان مسرورًا بالتقدير الذي تلقّاه. حتى لو كانت الشائعات خاطئة، فلا يساورنا إلا قليل من الشك بشأن اهتمام دي فيت بأفكار سبينوزا السياسية و تعاطفه، على أقل تقدير، مع آراءه الدينية. لقد أحسّ سبينوزا بأمانٍ، مبرّرٍ، بحضرة دي فيت.

لاقى حس سبينوزا بالأمان النسبي نهايةً عاجلة سنة ١٦٧٢، خلال واحدة من أحلك الساعات ظلامًا في عصر هولندا الذهبي. ففي منعطفٍ حادٍّ للأحداث، من النوع المميز لهذه الحقبة المتقلبة سياسياً، اغتيل دي فيت و أخاه على يد الدهماء، و ذلك على خلفية الاتهام الخاطىء بأنهم خونة لقضية هولندا في حربها الجارية مع فرنسا. طوال الطريق إلى المشنقة، طعن المعتدون الأخوين دي فيت بالمطاوي و ضربوهما بالهراوات، حتى لم تعد هنالك حاجة لشنقهما ما إن وصلوا. ثمّ شرعوا بتعرية الجثتين، علّقوهما رأسًا على عقب على غرار ما يفعل الجزّارون، ثم قطّعوهما أجزاءً. بيعت بعض الأشلاء كتذكار و أُكِل البعض الآخر نيّئًا أو مطبوخًا، وسط نشوة تثير الاشمئزاز. حصل كلّ هذا في مكان لا يبعد كثيرًا عن حيث أقف الآن، بالتحديد في زواية منزل سبينوزا ، و لربما كانت أحلك ساعاته هو أيضًا. صدم الهجوم

عددًا من المفكرين و الساسة. ففي باريس الآمنة، كان لايبنتز مرتاعًا، و كذلك كان هاغنز؛ صعبَ الاستثارة بالعادة. أما سبينوزا، ففقد صوابه. كانت الهمجية التي كشفت عن الطبيعة البشرية في أبشع وأسوأ حالاتها، كفيلةً بهزّ رباطة جأشه التي عمل جاهدًا للحفاظ عليها. حضّر يافطة تقول (همجية قصوى *ultimi barbororum*) و أراد أن يضعها قرب الرفات. لحسن الحظ، أنقذت حكمة فان در سبيك الجديرة بالثقة الموقف. فقد أغلق الباب ببساطة و احتفظ بالمفتاح مانعًا بذلك سبينوزا من مغادرة المنزل و مواجهة موتٍ محقق. انتحب سبينوزا علنًا – يقال بأنها المرة الوحيدة التي شوهد فيها يقاسي آلام عاطفة جارفة. انهار ملاذه الفكري الآمن.

أنظر لقبر سبينوزا مرةً أخرى، فأتذكّر النقش الذي حضّره ديكارت[i] لشاهد قبره: " يُجيد الحياة مَن يخفي نفسه"[12]. تفصل سبع و عشرون سنة فقط بين المتعاصرَين لفترة (مات ديكارت سنة ١٦٥٩)، وقد أمضى كلاهما معظم حياته في الفردوس الهولندي، إما بسبب الحق المكتسب بالولادة

[i] رينيه ديكارت René Descartes (1596-1650) الفيلسوف الفرنسي الشهير. يُعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة. غالبًا، يُنظَر إلى فلسفتي ديكارت و سبينوزا (الّذي يمكن اعتباره ديكارتي من حيث المنهج وبعض الاطروحات) على انهما متعارضتين حول موضوعات رئيسية كمسألة الجسد والعقل، والحرية والإرادة.

كسبينوزا، أو اختيارا كما فعل ديكارت الّذي علِمَ في مرحلة مبكرة من مهنته أن أفكاره ستصطدم،على الأرجح، مع الكنيسة الكاثوليكية و الملكية في موطنه فرنسا ، فغادره بهدوء. مع ذلك، اضطر الاثنان للموارية و الإدعاء، و لربما اضطر ديكارت لتزييف أفكاره أيضًا. السبب واضح: عام ١٦٣٣م، بعد مولد سبينوزا بعام، استجوبت محكمة التفتيش الرومانية جاليليو و وضعته قيد الإقامة الجبرية؛ وفي السنة نفسها، أوقف ديكارت نشر كتابه *رسالة عن الإنسان* و لم يعفه هذا من التصدّي للهجمات الشرسة على تصوراته عن الطبيعة الإنسانية. بحلول عام ١٦٤٢ ، و بشكل يناقض تفكيره السابق، افترض ديكارت للإنسان روحًا خالدة تتواجد بمعزل عن جسده الفاني، و لعلّ فكرته كانت إجراءً وقائيًا لاتّقاء المزيد من الهجمات. إذا كان يقصد ذلك فعلًا، فقد أفلحت الاستراتيجيا في نهاية الأمر، لكن ليس خلال حياته. لاحقًا، رحلَ إلى السويد ليُدرّس الملكة كريستينا الّتي افتقرت، بشكلٍ غريبٍ، إلى الوقار. ثم مات في الخامسة و الأربعين، في منتصف شتاءه الأول في ستوكهولم. و وسط كل الامتنان الذي يتوجب علينا أن نبديه لأننا نعيش في عصر مختلف، ما زال المرء يرتعد حين يفكّر بالتهديدات الموجهة لحرياتٍ صعبة المنال كهذه. ربّما ما يزال علينا أن نحترس!

بينما أهمّ بمغادرة باحة الكنيسة، لا أملك إلا أن افكّر بالمغزى الغريب لمكان الدفن هذا. لِمَ دُفِن سبينوزا، يهوديّ المولِد، بحانب هذه الكنيسة البروتستانتية المؤثرة؟ الإجابة معقدةٌ مثل أي شيء آخر يخصّ سبينوزا. من المحتمل أنه دُفن هنا لأنه وبعد طرده من جماعته اليهودية، عومِل، غيابًا، كمسيحي، طالما لا يمكن دفنه في المقبرة اليهودية في اودغركيرك Ouderkerk. لكنه ليس هنا الآن، ليس فعليّا، ولعل ذلك بسبب أنه لم يكن يومًا مسيحيًا حقيقيًا، لا بروتستانتيًا و لا كاثوليكيًا، فقد كان، في نظر الكثيرين، ملحِدًا. وكم تلاءمه هذه الصفة! إذ لم يكن إله سبينوزا يهوديًا و لا مسيحيًا، لا يمكن التحدّث إليه، ولن يستجيب للدعوات. وكان هذا الإلهُ متواجدًا في كل ذرة من الكون بلا بدايةٍ و لا نهاية. مدفونًا و غير مدفون، يهوديًا و ليس بيهوديّ، برتغاليًا لكن ليس فعليًا، هولنديًا لكن ليس تمامًا، انتمى سبينوزا إلى كلّ مكانٍ وإلى اللامكان.

بالعودة إلى فندق Des Indes، الحاجب سعيدٌ لرؤيتي معافىً تامَّ البدن. لا أقاوم ألّا أخبره عن ذهابي للبحث عن سبينوزا و أنني قصدت منزله. باغت قولي الرجلَ الهولندي الصارم، فسكت هنيهة في ذهول، ثم تمتم: " أتعني الفيلسوف؟ ". حسناً، هو يعرف من يكون سبينوزا، فبعد كل شيء، هولندا أحد أحسن الدول

تعليمًا على وجه الأرض. لكنّه لم يملك أدنى فكرة عن أنّ سبينوزا قضى النصف الأخير من حياته هنا في لاهاي، مُتِمّمًا بعض أهم أعماله هنا؛ هنا وافته المنية، وقبره– نوعا ما على أي حال- و منزله و تمقاله و ضريحٌ تحفظ ذكراه، على بعد اثني عشر مربعا سكنياً فقط من هنا. و لأكون منصفًا، قلة تعرف أي شيء عن هذا كله. قال الحاجب اللطيف: " قليلًا ما يتحدثون عنه هذه الأيام".

في Pviljoensgracht

أعود، بعد يومين، إلى المنزل رقم ٧٢ في بافيليونزغراخت، و قد رتّب لي مضيفاي الكريمان الزيارة. الجو اليوم أسوأ، و شيء يشبه الإعصار يهب من ناحية بحر الشمال.

ستوديو فان در سبيك أدفأ بقليل من الخارج و أكثر ظلمة بالتأكيد. يعلق منه في ذهني عصيدٌ أخضر و رماديّ. إنّه مكان صغير، يسهل أن يلزمَ الذاكرة كما يسهل على المخيلة أن تتلاعب به. أعيد ترتيب الأثاث ذهنيًا و أشعل الأضواء و المدفئة، وأجلس بما يكفي لأتخيل تحركات سبينوزا و در سبيك على هذا المسرح المحصور، وأستنتج بعدها أن تجديد الديكور، أيّا كان، غير قادر على تحويل هذه الغرفة إلى الصالون الوثير الذي يستحقه سبينوزا. هذا درسٌ في التواضع. في هذه المساحة الصغيرة،

استقبل سبينوزا زواره الكثيرين، من ضمنهم لايبنتز وهاغنز. وفي هذه المساحة الصغيرة، تناول سبينوزا طعامه- ما لم يكن مشتتًا للغاية بسبب عمله فينسى الأكل برمته- و تجاذب أطراف الحديث مع زوجة فان در سبيك و أطفالها الصاخبين. في هذه المساحة الصغيرة، جلس محطّمًا بعد خبر اغتيال دي فيت.

كيف كان لسبينوزا أن ينجوَ من هذا الحبسِ؟ بلا أدنى شك، بتحرير نفسه بفضلِ رحابة عقله اللامتناهية، رحابة تفوق فيرساي و حدائقه و لا تقلّ عنه زخرفًا، وهوالمكان الذي سيمشي فيه لويس الرابع عشر، و الذي يصغر سبينوزا بست سنوات بالكاد و المقدر له أن يتجاوزه بثلاثين، متبخترًا وسط قاطرة من حاشيته، في الفترة ذاتها.

كانت إميلي ديكنسون[i] محقةً حين قالت إنّ دماغًا واحدًا فقط، ولأنّه أوسع من السماء، يمكنه أن يلاءم، بيسرٍ، فكرَ صاحبه الجيد وكلّ العالَم بجواره.

[i] إميلي ديكنسون Emily Dickinson (1830-1886) شاعرة أميركية شهيرة.

2. الشهوات والعواطف

صدِّقوا شكسبير

صدِّقوا شكسبير Shakespeare فقد كان على صواب! قبيل نهاية مسرحيته *ريتشارد الثاني Richard II*، و بعد خسارة هذا الأخير العرش واحتمال السجنِ يلوح مقتربًا في الأفق، يخبر ريتشارد، على نحوٍ عفويّ، بولينغبروك Bolingbroke عن تمييزٍ محتملٍ بين تصوره عن العاطفة و تصوره عن المشاعر[13]. يطلب ريتشارد مرآةً، يقابلُ فيها وجهه، و يدرس مشهد الانكسار على قسماته، ثم يلاحظ أن " الشكل الخارجيّ للحسرات" المتجلِّية على وجهه ما هو إلا " ظل الفاجعة المستترة"، الفاجعة الّتي "تتضخّمُ بصمتٍ في الروحِ المعذّبة". يقول أنّ فاجعته " تكمنُ كلّها في الداخلِ ". يعلن شكسبير، وفي أربعة أبياتٍ فقط، بأن العملية الموحَّدة والفريدة، ظاهريًا، للتفاعل ، والتي غالبًا ما نسمّيها، عرضيًا وعلى السواء، عاطفةًأو مشاعرَ، يمكن تحليلها إلى أجزاء.

تستفيدُ استراتيجيتي في تفسير المشاعر من هذا التمييز.
يميل الاستخدام الدارج لكلمة العواطف لأن يشمل مقولةَ المشاعر، لكننا سنتلقى العون في محاولتنا هذه لفهم سلسلة الأحداث المعقدة التي تبدأ بالعواطف و تنتهي بالمشاعر من

الفصل المبدئي بين الجزء العلنيّ من هذه العملية وبين الجزء الّذي يبقى خاصًّا. ولأغراض عملية، أدعو الجزء الأول *عاطفةً* و الآخر *مشاعرَ*، تماشياً مع معنى مصطلح شعورٍ الذي أوجزته سابقًا. أسأل القارئ أن يرافقني في هذا الاختيار للكلمات و المفاهيم لسبب وجيه، إذ لعلّه يتيحُ لنا سبرَ أغوار البيولوجيا الكامنة تحته. أعد بأن ألمَّ شمل العاطفة و الشعور مجددًا [14]، في نهاية الفصل الثالث.

إذن، في سياق هذا الكتاب، العواطفُ أفعالٌ أو حركات، العديد منها علني و ظاهرٌ للعيان، إذ تتجلى في الوجه، أو الصوت، أو في سلوكياتٍ محددة. من المؤكد بأن بعض مكونات العملية العاطفية غير مرئي بالعين المجردة، لكنّها تصبح "مرئية" من خلال المسابير العلمية الحديثة كالمقايسة الهرمونية و أنماط موجات الفيسيولوجيا الكهربية. أما المشاعر، فمحتجبةٌ دائمًا، شأنها شأن كل الصور العقلية المستترة عن الكل سوى مالكها الشرعيّ، فهي الممتلكات الأكثر خصوصية للكائنِ الحيّ والّتي تحدث في دماغه.

تتّخذ العواطف من الجسدِ مسرحًا لها، أمّا المشاعر، فمسرحها العقل[15]. و كما سنرى، فالعواطف و طيف التفاعلات

الكامنة تحتها جزء من الآليات الأولية لتنظيم الحياة life .
regulation تساهم المشاعر أيضًا في هكذا تنظيم ولكن في مستويات أعلى. ويبدو أنّ العواطف و التفاعلات المرتبطة بها قد سبقت المشاعر في تاريخ الحياة كذلك. إذن، تشكل العواطف و الظواهر اللصيقة أساسًا للمشاعر، أي الأحداث الذهنية الّتي تشكّل حجر الزاوية لعقولنا، والتي ننوي توضيح طبيعتها.

تتصل العواطف و المشاعر ببعضهما البعض على نحوٍ وثيق، عبر عملية مستمرة ما يجعلنا نميل- و بشكل مفهوم- إلى التفكير بهما ككيانٍ واحد. ومع ذلك، يمكننا في الأحوال العادية التقاط أجزاء متفرقة من هذه العملية المتصلة، كما يحق لنا فصل جزء عن الآخر تحت مجهر العلوم العصبية الإدراكية. بالعين المجردة و بعدد من المسابير العلمية، يمكن لمراقب ما أن يفحص السلوكيات التي تصنع العاطفة. و بالفعل، يمكن دراسة بداية عملية الشعور. كما يساعدنا تحويل العواطف و المشاعر إلى موضوعات بحثٍ منفصلة على أن نكتشف كيف يتأتّى لنا أن نشعر.

هدف هذا الفصل هو شرح آليات الجسد و الدماغ المسؤولة عن قدْحِ triggering و تنفيذ execution عاطفة ما. "ماكينة العاطفة" الداخلية هي محط الاهتمام هنا و ليس الظروف التي تقود إلى

العاطفة. أتوقع أن توضيح العواطف سيخبرنا كيف تنشأ المشاعر.

أسبقية العواطفِ على المشاعر

في معرض نقاشنا لأسبقية العواطف على المشاعر، دعوني أبدأ بلفت انتباهكم لما تركه شكسبير مبهمًا في السطور التي كتبها بلسان ريتشارد: يتعلق الموضوع باستخدام كلمة ظل و بالاحتمالية التي تثبت للعواطف و المشاعر تمايزهما في الوقت الذي نرى فيه أسبقية الأولى على الثانية. يقول ريتشارد: الشكل الخارجي للحسرةِ هو ظل فاجعة مستترة، وهذا شبيه بانعكاس صورة الموضوع الرئيسي - شعور الفاجعة - تمامًا كما كان وجه ريتشارد في المرآة انعكاسًا لبطلِ المسرحية الرئيسي، أي ريتشارد نفسه. هذا الالتباس صدى حدسٍ ساذجٍ ، إذ نميل إلى الاعتقاد بأن المخفيّ أصلُ المُعلَن. بالإضافة إلى ذلك، نعرف أن المشاعر هي ما يهم حقًا طالما يتعلّق الأمر بالعقلِ. يقول ريتشارد متحدثا عن فاجعته المستترة: " هناك يكمن الجوهر"، و نحن نوافقه في ذلك. إننا نعاني أو نبتهج من مشاعر قائمة. والعواطف، بمعناها

الضيق، آثارٌ خارجية. لكن صفة "الرئيسي" لا تعني "الأول" و لا "المُسبِّب". تعُتّم مركزية الشعور على كيفية نشوء الشعور، و تعزّز الرأي القائل بأن المشاعر تحصل أولًا، بشكل ما، ثم يعبَّر عنها تاليًا بالعاطفة. هذا الرأي غير صحيح، و هو ملامٌ، و لو جزئيًا، على تأخر إيجاد تفسير بيولوجي عصبيّ مقبول للمشاعر.

يبدو، غالبًا، إنّ المشاعر هي ظلال الشكلِ الخارجي للعواطف. هاكم ما كان ينبغي لريتشارد قوله، مع بالغ الاعتذار لشكسبير: " آهٍ .. كم يلقي هذا الشكلُ الخارجي للحسراتِ بظلالٍ مستترة و لا محتملةٍ على الفاجعةٍ في سكون روحي المعذبة". (و هذا بدوره يذكرني بـ جيمس جويس[i] حين قال في أوليس *Ulysses*:" " شكسبير أرضٌ خصبةٌ لكلّ العقول التي فقدت اتّزانها"[16]).

هنا، يحق لنا أن نسأل لماذا تسبق العواطف المشاعر. إجابتي بسيطة: نملك عواطفَ أولًا و من ثمّ مشاعر لأن التطور evolutionأتى بالعواطف أولًا و المشاعر لاحقًا. تبنى العواطف من تفاعلات reactions بسيطة تُفضي، بسهولةٍ، إلى نجاة المتعضيّ، و لذا أمكن لهذه العواطف أن تخيّم على التطور.

---

[i] جيمس جويس James Joyce (1882-1941) شاعر و روائي آيرلندي. روايته الشهيرة أوليس (أو عوليس Ulysse) التي يمكن القول انها افتتحت الأدب الغربي الحديث.

بإيجاز، هؤلاء الذين أرادت الآلهة لهم النجاة، جعلتهم أذكياء في البدء، أو هكذا يبدو. كأنما قررت الطبيعة أنّ الحياة غالية للغاية وفي الآن عينه، محفوفة بالمخاطر، وهذا قبل أن تمتلك الكائنات الحية شيئا كالذكاء الخلّاق بوقت طويل، و قبل أن تمتلك أدمغة. الطبيعة لا تعمل وفق تصميمٍ و لا تقرر بالطريقة ذاتها التي يقرر بها الفنانون و المهندسون، لكن التشبيه يوصل الفكرة المرادة. تولد كل الكائنات الحية، من أبسطِها كالأميبا إلى الإنسان، بأجهزة مصممة لتحلّ المشاكل الأولية للحياة *اوتوماتيكيا* و بلا تفكير فعليّ. هذه المشاكل هي: إيجاد مصادر للطاقة، دمجها و تحويلها، الحفاظ على توازنٍ كيميائي داخلي مؤاتٍ لإتمام العمليات الحيوية، الحفاظ على بنية الكائن بترميمها في حال البلى؛ و تلافي عوامل المرض الخارجية أو الأذى الجسديّ. الاستتباب homeostasis كلمةٌ واحدة هي اختصارٌ ملائمٌ لمجموعة التنظيمات هذه وحالة الحياة المنتظمة الناتجة عنها[17].

خلال العملية التطوّرية، أصبحت آلة إدارة الحياة التلقائية و الفطرية - الآلة الاستتبابية- دقيقة للغاية. نجد في قاع منظومة الاستتباب تفاعلات بسيطة مثل اقتراب المتعضيّ كلّه من شيء ما أو تفاديه، أو زيادات في النشاط (التيقّظ arousal) أو انخفاضات (الهدوء أو الهمود quiescence). و صعودًا في هذه المنظومة، نجد

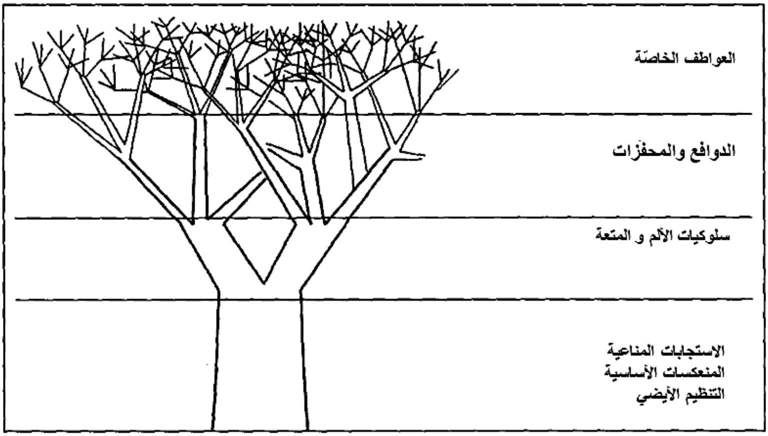
تفاعلات *تنافسية* أو *تعاونية*[18]. يمكننا تخيل آلةِ الاستتباب كشجرة كبيرةٍ تتفرّع منها الظواهر المسؤولة عن التنظام التلقائي للحياة. حين نرقى من القاع لأعلى في الكائنات عديدة الخلايا، إليكم ما سنجد في الشجرة.

في الفروع الدنيا :

- عملية الأيض metabolism: و هذه تشمل مكونات كيميائية و ميكانيكية (الإفرازات الهرمونية، التقلصات العضلية بالهضم و ما إلى ذلك) تهدف للحفاظ على الكيمياء الداخلية. تتحكّم هذه التفاعلات ، على سبيل المثال، بنبض القلب و ضغط الدم (اللذان بدورهما يتحكمان بالتوزيع الملائم لجريان الدم في الجسد)، تعديل حموضة و قلويّة الوسط الداخلي (سوائل الدم و الفراغات بين الخلايا)، و تخزين و نقل البروتينات و الدهون و الكربوهيدرات المطلوبة لتزويد الكائن بالطاقة (و هي ضرورية للحركة، تصنيع الإنزيمات الكيميائية و الحفاظ على بنيتها و تجديدها).
- منعكسات أساسية: و تشمل هذه منعكَس الإجفال، والذي يصدرعن الكائن كتفاعلٍ للمسٍ أو ضجيجٍ، أو التوجهّات أو الانتحاءات التي تقود الكائنات نحو

الضوء، بعيدا عن العتمة، أو بعيدًا عن البرد والحر الشديدين.

- الجهاز المناعي: و هو معدٌّ لصدّ الفيروسات الغازية و البكتيريا و الطفيليات و الجزيئات الكيميائية السامة. من المثير للاهتمام ملاحظة أنه قادرٌ أيضًا على التعامل مع الجزيئات الكيميائية المحبوسة،بالعادة، داخل جدران الخلايا الطبيعية و التي يمكن أن تضر الكائن ما إن تنطلق من الخلايا الميتة إلى الوسط الداخلي (مثلا الهيالورونات و الغلوتاميت). بإيجاز، الجهاز المناعيُّ خطٌّ الدفاع الأول للكائن الحي إن هُدِّدت سلامته من الداخل أو الخارج.



الصورة 1.2: مستويات التنظيم الاستتبابي التلقائي، من البسيط إلى المركب

في الفروع الوسطى

- ترتبطُ السلوكيات عادةً بمقولةِ المتعة (والثواب reward) أو الألم (و العقاب). إنها تشمل تفاعلات إقبال مجمل المتعضيّ أو انسحابه أمام موضوعٍ أو حدث ما. بالنسبة البشر الذين يشعرون و يبلّغون بما يشعرون به، يمكن وصف تفاعلات كهذه بكونها ممتعة أو مؤلمة، مجزيةً أو مُقتَصَّة. على سبيل المثال، عندما يتهدد الجسد و أنسجته خلل أو خطر وشيك - كما هو الحال مع الحروق أو العدوى- ، ترسل خلايا المنطقة المتضررة إشارات كيميائية تسمى مستقبلات الأذية Nociceptive .

يستجيبُ الكائن تلقائيًا بسلوكيات *الألم* أو سلوكيات *الاعتلال*. هذه حزمة من الأفعال، منها الجليُّ و منها الخفيّ، بها تجابه الطبيعة الضررَ تلقائيًا. تتضمن هذه الأفعال أيضًا سحب الجسد بأكمله أو جزءًا منه بعيدًا عن مصدر الأذى إن كان خارجيًا و يمكن تعيينه ، أو حماية الجزء المصاب من الجسد (كحمل اليد الجريحة أو الانكفاء على الجذع) و تعابير الوجه الموشية بالرّوع أو المعاناة. و هناك أيضا عدد من التفاعلات غير المرئية بالعين المجردة و التي ينظمها الجهاز المناعي. إنها تشمل زيادة فئات معينة من خلايا الدم البيضاء، و إرسالها على عجل إلى المناطق المهدَّدة، و إنتاج مواد كيميائية كالسيتوكينات cytokines التي تساعد الجسم على حلّ المشكلة التي تواجهه (محاربة ميكروب معتدٍ أو إصلاح نسيج متضرر). يشكل مجموع هذه الأفعال و الإشارات الكيميائية المؤدية إليها أساس ما نحسّه *كألم*.

يستجيب الدماغ للأداء الوظيفي الجيد للجسد بالطريقة نفسها التي يستجيب بها لمشكلة واجهت هذا الجسد. فعندما يعمل الجسد بسلاسة، بلا عقبات و بسهولة في تحويل الطاقة و استغلالها، فإنه يتصرف وفق نمطٍ محدد. إقترابه من الآخرين ميسّرٌ، قدّه منبسطٌ و مسترخٍ، تعابير وجهه تفيض ثقة و عافية؛

منتجا فئات محددة من المواد الكيميائية كالإندورفينات Endrophins، وهي مواد غير مرئية بالعين المجردة تمامًا كبعض التفاعلات المميزة لسلوكيات الألم و المرض. يشكّل مجموع هذه الأفعال و الإشارات الكيميائية المرتبطة بها أساس ما نحسّه *كمتعة*.

تقوم مسبّبات عديدة بإثارة الألم و المتعة، مثل الخلل الّذي يصيب بعض وظائف الجسد، تنظيم أيضيّ مثاليّ الآداء، أو أحداث خارجية تضر بالمتعضيّ أو تحميه. لكنّ تجربة الألم أو المتعة ليست سببًا لسلوك الألم أو المتعة و ليست ضرورية بأي حال من الأحوال لحصول هذا السلوك. و كما سنرى في المقطع التالي، يمكن لبعض المخلوقات البسيطة جدًا أن تقوم ببعض هذه السلوكيات العاطفية حتى و إن كان احتمال شعورها بهذه السلوكيات منخفضا أو منعدمًا.

في المستوى العلوي التالي

- عدد من الدوافع drives و المحفّزات motivations . من الأمثلة الكبرى: الجوع، العطش، الفضول و الاستكشاف، اللعب و الجنس. جمعهم سبينوزا سويّا تحت مظلة كلمة سديدة؛ الشهوات appetites؛ و بإجادةٍ

مبهرةٍ، استخدم كلمة أخرى لوصف الحالة التي يعي فيها الفرد شهواته و يحيط بها: الرغبات desire. تشير كلمة الشهوات إلى الحالة السلوكية للفرد المنشغل بدافعٍ محدد بينما تدل كلمة الرغبة على شعورنا الواعي بامتلاكنا الشهوة وإتمامنا لها أو فشلنا في ذلك نهاية الأمر. إن هذا التمييز السبينوزي صنوٌ دقيقٌ للتمييز بين العاطفة و الشعور و الذي افتتحنا به هذا الفصل. يظهر أن للبشر شهواتٍ و رغبات متصلةً بسلاسة، كحال العواطف و المشاعر.

على مقربة من القمة

- العواطف المخصوصة emotions- proper.هنا جوهرة تاج تنظيم الحياة التلقائي: العواطف بمعناها الضيق— ابتداءً من الفرح و الأسى و الخوف و مرورًا بالزهو و الخزي و التعاطف sympathy. و في حال كنت تتساءل عمّا يوجد في القمّة ، فالإجابة بسيطة: المشاعر، وهي ما سوف التي نناقشه في الفصل القادم.

يحرص الجينوم على أن تكون هذه الأدوات نشطة منذ الولادة أو بعدها بقليل، بلا اعتمادٍ أو بقليل اعتماد على التعلّم، إلا أنّ التعلم سيلعب دورًا مهمًّا لاحقًا في تحديد متى تنشط هذه الأدوات.

و بقدر ما تتعقّد الاستجابة، بقدر ما يكون كلّ شيءٍ صحيح. وتكون حزمة الاستجابات المكونة للبكاء و النشيج جاهزة و نشطة عند الولادة، أمّا ما *نبكي من أجله* خلال حياتنا فيتغيّر بتغيُّر خبراتنا. كل هذه الاستجابات تلقائية و مُقولَبة stereotyped إلى حد كبير كما إنّها تعمل تحت ظروف معيّنة. (لكن للتعلّم القدرة على تعديل تنفيذ execution هذه الأنماط المقولبة. تتفاوت أدوار ضحكنا و بكائنا بتفاوت الظروف مثلما يمكن عزف النوطات المؤلفة للحن واحد في حركة موسيقية ما بطرقٍ شتى) تهدف كل هذه الاستجابات، بطريقة أو بأخرى، الى تنظيم عمليات الحياة و تغليب البقاء، مباشرة أو على نحوٍ غير مباشر. يُشار أحيانًا إلى سلوكيات الألم و المتعة و الدوافع و المحفّزات و العواطف المخصوصة على إنّها عواطف، بالمعنى الأعم و الأوسع للكلمة، وهذا مفهوم و معقول إن أخذنا بعين الاعتبار هيئتها المشتركة و هدفها التنظيميّ[19].

ولأنّها لم تكن "قانعة" بنعمة مجرّد البقاء، يبدو إنّ الطبيعة قد أضافت ملحقًا لطيفًا: لا تصبو تجهيزات تنظيم الحياة الفطرية إلى حالة محايدةٍ وسطٍ ما بين الحياة و الموت، لا إلى هذه و لا إلى تلك؛ بالأحرى، تهدف مساعي الاستتباب إلى توفير ما هو أفضل

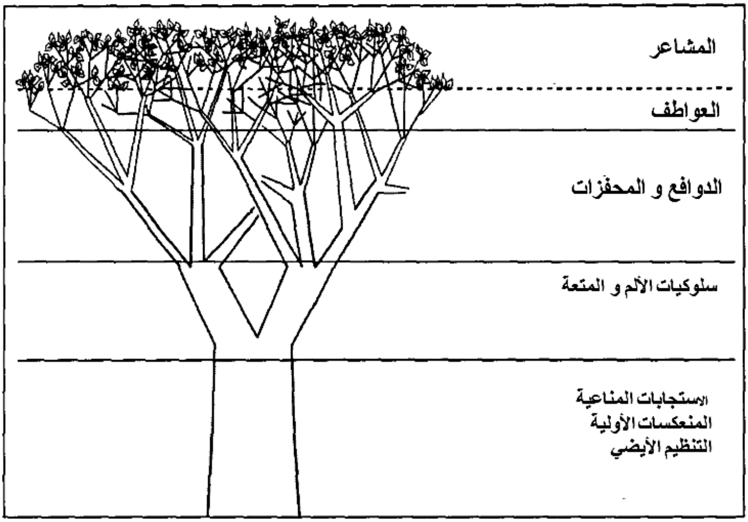
من حالة الحياة المحايدة، أي توفير ما نسميه - ككائنات مفكرة و مرفّهة بالعافية well-being و السلامة Well-ness.

تحكم مجموعة العمليات الاستتبابية هذه حياتنا لحظة بلحظة ، داخل كل خلية في أجسادنا. يتحقق هذا التحكّم بواسطة ترتيبٍ بسيط: أولًا، يتغير شيء ما في بيئة المتعضيّ الفرد داخليًا أو خارجيًا؛ ثمّ ثانيًا، يكون لهذه التغيرات القدرة على تحويل مجريات حياة المتعضيّ (فقد تهدد أمانه أو فرصه للتحسّن). ثالثًا، يرصد المتعضيّ هذا التغيّر و يتعامل مع الأمر بشكلٍ ملاءمٍ، و ذلك على نحوٍ مصمَّم ليخلق وضعيةً هي الأكثر نفعًا لأجل صون ذاته و فعالية أدائه. تعمل كل الاستجابات وفق هذا الترتيب، ولذا فهي وسائل *تقدير* الظروف الداخلية و الخارجية للمتعضيّ، والتصرّف وفقًا لها. وترصد هذه الاستجابات الصعوبة أو الفرص، وتقوم – بوسائل الفعلِ – بحلّ المشكلةِ عبر التخلص من الصعوبة أو بلوغ الفرصة. و سنرى لاحقًا بأن هذا الترتيب صحيح حتى عند الحديث عن العواطف المخصوصة - عواطف كالحزن أو الحب أو الإحساس بالذنب - لكن تعقيد التقدير و الاستجابة في حال العواطف المخصوصة أعلى بكثير ممّا تكون مع التفاعلات البسيطة التي جُمِعت معًا خلال التطوّر.

يبدو واضحًا أنّ السعيَ المستمر لأجل الوصول إلى حالة من التنظيم الايجابي للحياة يشكّل جزءًا عميقًا ومميزًا من وجودنا. وهو الحقيقة الأولى لوجودنا كما حدسها سبينوزا حين وصف الجهدَ الحثيث (*الكوناتوس conatus*) لكلّ كائنٍ حيّ من أجل حفظ ذاته. الكفاح striving، الجهد endaover، والميل tendency هي الكلمات الثلاث الأقرب إلى ما يحيل إليه المصطلح اللاتيني *كوناتوس* كما استخدمه سبينوزا في الفرضيات ٦، ٧، و ٨ من الفصل الثالث من كتابه "الايتيقا". بتعبير سبينوزا نفسه: "كلُّ شيءٍ، بما أمكن له من قوّة، يكافحُ من أجل أن يحفظ وجوده" و " ليس الكفاحُ الّذي يقوم به الشيء من أجل أن يحفظَ وجوده سوى جوهر هذا الشيء". تعني مقولة سبينوزا، مأوّلةً بميزات الاستبصار الرجعي الحالية، إنّ الكائن الحي مُركَّب على نحوٍ يحافظ به على تماسك بناه و وظائفه أمام الاحتمالات المتعددة التي تهدد حياته.

يتضمن الكوناتوس كلا من باعثِ حفظ الذات أمام الخطرِ و الفرص و الكثرة من أفعال حفظ الذات التي تضمّ أجزاء الجسد بعضها على بعض. و بالرغم من التحولات التي يمر بها الجسد خلال نموّه و تجدّدِ أجزائه المكوِّنة، وخلال هرمه، يستمر الكوناتوس بتشكيل *نفس* الفرد و مراعاة *نفس* التصميم البنيوي.

ما هي المصطلحات البيولوجية الحالية التي ترادف مقولة الكوناتوس السبينوزية؟ إنها مجموع الترتيبات الموجودة في الدارات الدماغية brain circuitry و التي تنشد النجاة و العافية كلّما تعهدتها الظروف الداخلية أو البيئية. و سنرى في الفصل القادم كيف يصل هذا الطيف الواسع من نشاطات *الكوناتوس* إلى الدماغ، كيميائيًا وعصبيًا. يتم ذلك بواسطة جزيئات كيميائية منقولة في مجرى الدم و إشارات كهرو-كيميائية تنتقل عبر المسارات العصبية nerve pathways. يمكن إرسال إشارات عن جوانب متعددة من عملية الحياة إلى الدماغ حيث تُمَثَّل في عدة خرائط مصنوعة من دارات الخلايا العصبية موجودة في مواقع دماغية محددة. إلى هنا، نكون قد بلغنا رؤوس شجرة تنظيم الحياة وهو المستوى الذي تبدأ عنده المشاعر بالالتحام.



الصورة 2.2: تدعم المشاعر مستوى إضافيًا من تنظيم الاستتباب. إن المشاعر تعبير عقلي عن كلّ مستويات التنظيم الاستتبابية الأخرى.

المبدأ التداخلي

حين نقف على قائمة التفاعلات التنظيمية المنوطة بالاستتباب، نلمح خطة بناء مثيرة: إذ تحتوي أجزاءً من أبسط التفاعلات المندرجة كمكوّناتِ استجاباتٍ أخرى مفصّلة أكثر، فالبسيط يعشعشُ في قلبِ المعقَّد.وتندرجُ بعضُ ماكينات machinery الجهاز المناعي و تنظيم الأيض في مشغّلاتِ سلوكيات الألم و المتعة، و

بعضٌ من هذه الأخيرة مندرجٌ بدوره في ماكينات الدوافع و المحفّزات (وأغلبها يدور حول التصحيحات الأيضية و كلها تستلزم الألم أو المتعة). تندرجُ بعض الماكينات من كل المستويات السابقة - المنعكَسات، الاستجابات المناعية، الاتزان الأيضي، سلوك الألم أو المتعة و الدوافع - في ماكينات العواطف المخصوصة. و كما سنرى لاحقًا، تتراصفُ صفوف العواطف المخصوصة وفق المبدأ ذاته. لا يطابق منظر هذه المجموعة منظر الدمية الروسية - دمية ماتريوشكا- المصفوفة بالضبط، لأن الجزء الأكبر ليس مجرد تضخّمٍ للجزء الأصغر المعشِّش فيه. ليست الطبيعة مرتبة إلى هذا الحد، لكن يظل مبدأ التداخل صحيحًا. لا تشكّل أي واحدة من التفاعلات التنظيمية التي استعرضناها هنا عملية مختلفة جذريًا؛ فقد بُنيت منذ البدءِ لتخدم هدفًا معينًا. بل على العكس، يتكون كلّ تفاعل من إعادة ترتيبٍ مرقّعة لمكوّنات العمليات الأبسط والأدنى. لكلٍّ من التفاعلات التنظيمية المختلفة الغاية العامة نفسها - البقاء مع العافية - و لكن، لكلِّ ترتيب مُعاد هدفٌ ثانويٌّ يتعلّق بمشكلة جديدةٍ، حلُّها ضروري أيضًا لأجل النجاة والعافية، فحلّ كلّ مشكلة جديدة ضروريٌ لتحقيق الغاية العامة.

لا يمكن تشبيه مجموعة التفاعلات هذه بهرمية خطية بسيطة. و لذا نجد أن استعارة المبنى متعدد الطوابق لا تصوّر إلا شيئا يسيرًا من الواقع البيولوجي. و بالمثل، تشبيه السلسلة الضخمة ليس ملائمًا أيضًا، بل إن التشبيه الأفضل هو صورة الشجرة الكبيرة والمبعثرة و التي ينشق جذعها عن أفرع تعلو و تستفيض بإطراد و تحافظ على اتصال ثنائي الاتجاه مع جذورها. تاريخ التطور مدوّنٌ بكل بقعة من تلك الشجرة.

المزيد عن التفاعلات المتعلقة بالعاطفة: من التنظيم الاستتبابي البسيط إلى العواطف المخصوصة

يستجيب بعض ممّا أوردناه من تفاعلات تنظيمية لموضوعٍ أو وضعيةٍ ما في البيئة المحيطة — حالة تحتمل الخطر أو فرصة للتغذية أو التزاوج. لكن يستجيب البعض الأخر من التفاعلات لموضوعٍ أو حالة *داخل* المتعضيّ. قد يكون انخفاضًا في مخزون المواد الغذائية اللازمة لإنتاج الطاقة، مسببًا سلوكيات مشهّية appetitive تعرف بالجوع و تتضمنُ البحث عن غذاء. أو قد يكون تغيرًا هرمونيا يحفز البحث عن قرين، أو جرحًا يسبّب التفاعل

الذي نسميه ألمًا. لا يتضمن هذا الطيف من التفاعلات عواطف ظاهرة للغاية كالخوف أو الغضب فحسب، بل أيضًا الدوافع، المحفّزات و السلوكيات مرتبطة بالألم أو المتعة. يحصل هذا كله داخل متعضٍّ، جسدٍ محدود بِحد، جسد لا تتوقف عقارب ساعة حياته عن الدوران. بشكلٍ مباشر أو ضمني، تعرض كل هذه التفاعلات هدفًا واضحًا: تسيير اقتصاد الحياة الداخلي بسلاسة. يجب المحافظة على كمية بعض الجزيئات الكيميائية ضمن مدى محدد، لا أكثر ولا أقلّ، لأن الحياة، خارج هذا المدى، تصبح مهددة. يجب كذلك المحافظة على درجة الحرارة ضمن معايير دقيقة. كما لا بد من توفير مصادر للطاقة، و الفضول كما الاستكشاف استراتيجيات مساعدة في تحديد هذه المصادر. ما إن وجدت، فلا بد من إدراج هذه المصادر – بكل معنى الكلمة - في جسدنا، و تعديلها لتناسب الاستهلاك الفوري أو التخزين؛ و يجب التخلص من كل الفضلات الناتجة عن التعديلات، و يتعين أيضًا إصلاح الأنسجة من البلى و التمزق ليبقى الكائن سليمًا.

و كذلك تهدف العواطف المخصوصة - الاشمئزاز، الخوف، السعادة، الحزن، التعاطف sympathy و الخزي- لتنظيم الحياة مباشرة بدرء الأخطار أو دفع الكائن لقنص فرصة نافعة، أو تعمل بشكل غير مباشر بتسهيل العلاقات الاجتماعية.

أنا لا أقترح أننا نعزز النجاة و العافية في كل مرة تخالجنا فيها عاطفة، فليست كل العواطف سواءٌ في قدرتها على تعزيز النجاة و العافية، كما أن كلا من حدة العاطفة و سياق تفعيلها عامل مهم لتحديد القيمة المحتملة للعاطفة في حادثة معينة. لكن حقيقة استغلالنا لبعض العواطف في ظروفنا البشرية الحالية على نحوٍ سيّء التكيّف لا تنفي دورها التطوري في تنظيم نافعٍ للحياة. غالبًا ما يأتي الغضب بنتائج عكسية في مجتمعاتنا الحديثة، و ينطبق الشيء نفسه على الحزن. الرهاب عقبة كبيرة أيضًا. و بالرغم من ذلك، فكّروا بعدد الأرواح التي أنقذها الخوف أو الغضب في الموقف المناسب. من المحتمل أنها سادت في التطور لدعمها البقاء تلقائيًا، وهي ما تزال تدعمه، و لعل ذلك ما يجعلها جزءًا لا يتجزأ من الوجود اليومي للإنسان و الفصائل الأخرى.

كملاحظة عملية، يوفّر فهمنا لبيولوجيا العواطف و حقيقة أن قيمة كل عاطفة تختلف كثيرًا في بيئة الإنسان الحالية فرصًا هامة لفهم سلوك الإنسان. نتعلّم مثلًا أن الركون لبعض العواطف يجلب لنا المشاكل، فنضع في حسباننا كتمها أو تقليل تبعاتها. أفكّر مثلا في بعض التفاعلات المؤدية إلى الأحكام المسبقة العرقية و الثقافية و هي التي تستند ، جزئياً، على الانبعاث التلقائي لعواطف اجتماعية مشكّلة تطوريًا لرصد *إختلاف*

الآخرين، لأن هذا الاختلاف قد يؤشّر إلى الخطر و المخاطرة ويحفز الانسحاب أو التهجّم. من المرجح أن هذا النوع من التفاعل حقق أهدافًا مفيدة في المجتمع القبلي لكنه لم يعد مفيدًا و لا ملائمًا لنا. بإمكاننا أن نعي حقيقة أن أدمغتنا ما تزال تحملً معها الماكينة التي تتفاعل على نحوٍ مشابه لتفاعلها في سياق مختلف منذ آجال بعيدة. نستطيع أن نتعلم نبذ هكذا تفاعلات و نقنع الآخرين ليفعلوا مثلنا.

عواطف المتعضيات البسيطة

تدعم أدلةٌ وافرةٌ امتلاك المخلوقات البسيطة لتفاعلات "عاطفية". خذ وحيد البراميسيوم (أو المتناعلةparamecium)، كائن بسيط أحاديُّ الخلية، كُلُّه جسدٌ، لا دماغ له و لا عقل، يسبح مسرعًا بعيدًا عن خطر محتمل في طريقه — قد يكون إبرةً تخِزه، أو اهتزازات كثيرة، أو حرارة مرتفعة أو منخفضة للغاية. و قد يسبح البراميسيوم بسرعةٍ، على طول مزلقٍ كيميائي من المغذيات، متجها نحو موضعٍ في الحوضِ حيث يمكنه أن يتغدى. هذا المخلوق البسيط مصمَّمٌ ليرصد بعضَ علامات

الخطر مثل تغيّرات الحرارة الحادة، الاهتزازات المفرطة، أو تماسه مع جسم ثاقب قد يمزق غشاءه، ويتفاعل بالمضي نحو مكانٍ آمن، أكثر اعتدالا وهدوءًا. و بالمثل، فالبراميسيوم يسبح متقفيًا أثر الطحالب الأكثر خضرة بعد أن يرصد وجود الجزيئات الكيميائية التي يحتاجها لتوفير الطاقة و للتوازن الكيميائي. إن لهذه الأحداث التي أصف و الحاصلة في كائن بلا دماغ نفس جوهر عملية العاطفة لدينا نحن البشر — رصد وجود جسم أو حدث يشي بضرورة التجنب المرواغة أو الاقتراب و الاحتضان. إن القدرة على التفاعل على هذا النحو ليست مدرَّسة، فمدرسة البراميسيوم لا تهتم كثير بأصول التدريس. إنها قدرة محتواة في الماكينة المعطاة جينيًا، البسيطة بالظاهر ولكن المعقدة بالفعل، داخل البراميسيوم عديم الدماغ. لطالما كانت الطبيعة مهتمّةً بتجهيز الكائنات الحية بالوسائل اللازمة لتنظيم حياتها و الحفاظ عليها أوتوماتيكيا، دون الحاجة لطرح أسئلة أو حتى التفكير.

و بالطبع فإنّ امتلاك دماغ، و إن كان بسيطًا، مفيد للبقاء ولا يمكن الاستغناء عنه لا سيما إذا كانت البيئة تفرض تحديّاتٍ تفوق تحديات بيئة البراميسيوم. فكِّر بذبابة ضئيلة (وهي كائنٌ صغير بجهاز عصبي صغير ولكن من دون حبل شوكي). ستغضب الذبابة إن هششتها مرارًا ولم توفَّق،وستئزّ حولك في

اندفاعاتٍ متهورةٍ فوق صوتية و تتجنب ضربتك القاضية. ولكن، يمكنك أيضًا إسعاد هذه الذبابة بإطعامها السكر، وسترى حينئذ كيف تهدأ حركاتها و تستدير استجابةً للغذاء المرْضي؛ كما يمكنك جعل الذبابة سعيدةً منتشيةً إن سقيتها الكحول. لم أختلق هذا، فلقد أجريت التجربة على فصيلة ذباب تعرف بالدروسوفيلا[20] (ذبابة الفاكهة Drosophila Melanogaster). فبعد التعرض لأبخرة الإيثانول، كان الذباب غير متزن تمامًا كما كنا سنكون لو تعرضنا لجرعة مقاربة. يمشي الذباب باسترسال منتشيًا وقنوعًا ثم يسقط أسفل أنبوب الاختبار، كما يترنح الثمل عند عمود الإنارة. للذباب عواطفٌ، بيد أني لا أقترح أنه يشعر بعواطفه، ناهيك عن التبصّر فيها. و إن اعتراكم الشكّ في رقي آليات تنظيم الحياة عند كائنات بسيطة كهذه، فتأملوا في آليات نوم الذبابة التي وصفها رالف غرينسبان Ralph Greenspan و زملاؤه[21]. للدروسوفيلا الضئيلة ما يكافئ دورات النهار/ الليل عندنا، أي فترات من النشاط الكثيف والنوم المنشّط و حتى نفس الاستجابة للحرمان من النوم حينما ينتابنا إرهاق السفر، إذ، حينها، تحتاج نومًا طويلاً، مثلنا.

أو فكّروا بالبزّاقة البحرية— و هي أيضا تملك دماغا صغيرا بلا حبل شوكي، و الكثير من الكسل. المس خيشومها و

ستنطوي على نفسها و ترفع ضغط دمها و نبضها. تنتج البزاقة مجموعة من التفاعلات المتناغمة و التي إن نُقِلت إليك أو إلي، فستُعرف كمكونات مهمة من عاطفة الخوف. عاطفة؟ بلى. شعور؟ لا، على الأغلب[22].

لا ينتجُ أيٌّ هذه الكائنات تفاعلاته عامدًا متروِيًا. كما أنها لا تبني تفاعلها شيئا فشيئا، مع تذوق مبتكر لكل حالة يعرض فيها التفاعل. تنفعل المخلوقات انعكاسيا و تلقائيا بشكل مقولب. إنها "تختار" استجابة ما بين الاستجابات الجاهزة للاستعمال و تمضي مثلما يختار المتسوّق المشتت التركيز غرضا من معرض الألبسة الجاهزة. إطلاق لفظ منعكسات على هذه التفاعلات غير صحيح لأن المنعكسات الكلاسيكية استجابات بسيطة أما هذه التفاعلات فحزمٌ مركّبة من الاستجابات. ما يميز التفاعلات المتعلقة بالعواطف emotion-related reactions من المنعكسات هو تعدد مكوناتها و تنسيقها. من الأفضل وصفها بأنها مجموعات من الاستجابات الانعكاسية، بعضها مسهب جدا، و كلها منسقة للغاية. إذ تسمح للكائن بأن يستجيب لمشاكل معينة بحل فعال.

العواطف المخصوصة

هناك تقليد عريق يقضي بتصنيف العواطف في فئات متنوعة. و بالرغم من أن التصنيفات و التبويبات قاصرة بوضوح، فإنه لا بديل عنها في هذه المرحلة باعتبار الحالة الانتقالية لمعرفتنا، ومن المحتمل أن تتغير التبويبات و التصنيفات بتراكم المعرفة. في هذه الأثناء، علينا أن نتذكر أن الحدود الفاصلة بين الفئات متداخلة. حالياً، أجد من المفيدا أن نصنف العواطف المخصوصة في ثلاثة طبقات: عواطف الخلفية background emotions، عواطف الأولية primary emotions و عواطف اجتماعية social emotions.

و كما يشي المصطلح، فعواطف الخلفية غير بارزة في سلوك الفرد إلا أنها بالغة الأهمية، حتى و إن لم تنتبه إليها بما يكفي، فإنك غالبًا ما تكون قارئا جيدًا لعواطف الخلفية إن أصبتَ برصدِ طاقةً أو حماسًا في شخص قابلته للتو، أو إذا كنت قادرًا على أن تشخّصَ بشكلٍ دقيقٍ التوعّكَ أو الإثارة أو الحدة أو الهدوء، أو الدعة لدى أصدقائك و زملائك. و لو كنت بارعًا في ذلك، فستستطيع أداء عملك التشخيصي دون أن يتفوه

ضحيتك بكلمة واحدة. إذ تستطيع تقييم انحناءات حركة أطرافه و كامل جسده؛ ما قوتها؟ ما دقّتها؟ ما اتّساعها؟ و كم تتكرّر؟ وتلاحظ أيضًا تعابير الوجه. وحين تُنطق الكلمات، فإنك لا تكتفي بسماعها و تصور معناها القاموسي، بل تصغي إلى لحنِ الصوت كذلك، إلى نبرته.

يمكن تمييز العاطفة الخلفية عن المزاج mood الّذي يحيل إلى ثباتِ عاطفةٍ ما لفترة طويلةٍ تُقاسُ بالساعات والأيام، مثل حين "كان بيتر في مزاجٍ سيّء". كذلك، ينطبق المزاجُ على انخراطٍ متكرّرٍ للعاطفةِ عينها، مثل أنّ جاين، وهي الفتاة المتماسكة، "فقدت السيطرة على نفسها من دون مبررّ".

و منذ أن طورتُ مقولة عاطفة الخلفية[23]، تراءت لي عواطف الخلفية كحصيلة لانتشار بعض التركيبات من التفاعلات التنظيمية الأبسط (العمليات الاستتبابية الأساسية، سلوكيات الألم و المتعة و الشهوات على سبيل المثال)، وفق مبدأ التداخل الآنف الذكر. عواطف الخلفية تعبيرات مركبة عن هذه الأفعال التنظيمية إذ تتمدّد و تتقاطع لحظة بلحظة في حياتنا. أتصوّر عواطف الخلفية كنتيجة عصبية على التنبؤ لعدد من العمليات التنظيمية المتزامنة و الجارية داخل أعضائنا المشابهة للمساحات الواسعة. وتشمل هذه العمليات تعديلات أيضية مرتبطة بأي

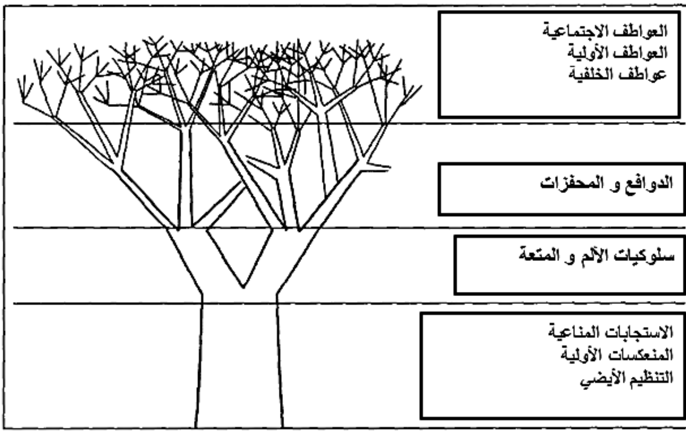
حاجة داخلية تظهر أو تمّ للتو اشباعها، وأيضًا بأي وضع خارجي تُقدِّره عواطفنا أو شهواتنا أو حساباتنا الفكرية الأخرى. النتيجة دائمة التغيّر لهذه "الطبخة" من التفاعلات هي "حالة وجودنا " state of being الجيدة أو السيئة أو ما بينهما. حين نُسأل " كيف نشعر"، نستشير " حالة الوجود" هذه و نجيب بما يناسب.

ومن الملائم أن نتساءل إن كان هناك أي تفاعلات تنظيمية *لا* تسهم في تكوين عواطف الخلفية، أو عن أكثر التفاعلات التنظيمية تكرارًا والتي تنخرطُ في تكوين عواطف خلفية كالفتور أو الحماس، أو نسأل عن كيف تتفاعل الحالة الصحية و الحالة المزاجية temperament مع عاطفة الخلفية. الإجابة المباشرة هي أننا لا ندري بعد؛ لم تُجرَ الفحوصات اللازمة.

يتيسّر تعريف العواطف *الأولية* أو الأساسية لأنّ تقليدًا متّبعًا حشَدَ بعض العواطف البارزة في هذه المجموعة. وتضمّ القائمة المتدوالة الخوف، الغضب، الاشمئزاز، الدهشة، الحزن و السعادة — أو ما يتناهى إلى ذهنك حينما يذكر مصطلح عاطفة. هناك أسباب وجيهة لهذه المركزية، فهذه العواطف سهلة التمييز بين البشر من مختلف الثقافات و بين الفصائل الحيوانية أيضًا[24]. أيضًا، أنماط السلوك المُعرِّفة للعواطف الأولية و الظروف المسببة لها تبدو ثابتة إلى حدّ بعيد بين

الثقافات و الفصائل. ولا عجب أنّنا استقينا معظم ما نعرفه عن البيولوجيا العصبية للعواطف من دراسة العواطف الأولية[25]. يبدو الخوف في الواجهة، كما قد يخمّن ألفريد هيتشكوك، و لكن قطُعت أشواطٌ واسعة في ما يخصّ الاشمئزاز[26]، الحزن و السعادة[27].

تشمل العواطف الاجتماعية التعاطف، الحرج، الخزي، الشعور بالذنب، الزهو، الغيرة، الحسد، الامتنان، الإعجاب، الاستياء و الازدراء. وينطبق المبدأ التداخلي عليها أيضًا. كما يمكن تمييز شبكة كاملة من التفاعلات التنظيمية جنبًا إلى جنب عناصر موجودة في العواطف الأولية، كمكونات ثانوية للعواطف الاجتماعية في تراكيب متنوعة. الدمج التداخلي لمكونات الأدوار الدنيا واضح. تأمّلوا كيف تستعير عاطفة "الازدراء" الاجتماعية تعابير الوجه من "الاشمئزاز" و هو عاطفة أولية تطورت بمعية الرفض التلقائي و النفعي لأغذية يُحتمَل إنّها سامّة. و حتى الكلمات التي نستخدمها لوصف مواقف الازدراء و الإهانة الأخلاقية - نعترف بأننا *مشمئزون* - تدور في فلك مبدأ التداخل. وتظهرُ مكونات الألم و المتعة تحت سطح العواطف الاجتماعية، ولو إنّ ظهورها أقلّ بروزًا عمّا هو عليه في العواطف الأولية.



الصورة 2.3: هنالك ثلاثة أنواع على الأقل من العواطف المخصوصة: العواطف الخلفية، العواطف الأولية و العواطف الاجتماعية. ينطبق مبدأ التداخل عليها أيضا. فمثلا، تتضمن العواطف الاجتماعية استجابات من العواطف الأولية و الخلفية.

لقد بدأنا للتو بفهم كيف يقدحُ الدماغ العواطف الاجتماعية و يفعلّها. و بما أنّ مصطلحَ "الاجتماعي" يستحضرُ بالضرورةِ مقولتي المجتمع البشريّ و الثقافة، فمن المهم أن نلاحظ أن العواطف الاجتماعية ليست مقتصرةً على البشر بأي حال من الأحوال. انظروا حولكم و ستجدون أمثلة عنها في الشمبانزي، البابون و القردة العادية، في الدلافين و الأسود، و في قططكم و كلابكم بالطبع. الأمثلة وفيرة: المشي المتبختر لقردٍ مهيمن، الهيئة

الملكية حرفيًا للذئب أو القرد الأعلى التي تفرض الاحترام على المجموعة، السلوك الذليل للحيوان غير

المهيمن و الذي عليه أن يتخلّى عن المكان و الأسبقية عند وقت الطعام، التعاطف الذي يبديه الفيل تجاه فيلٍ آخر ينوح متألمًا، و حرج الكلب حين يقوم بما لا يجب عليه القيام به[28] .

طالما من المرجّحِ ألاّ تكون هذه الحيوانات قد لُقِّنت تمثيلَ هذه العواطف، يبدو النزوع إلى إظهار عاطفة اجتماعية مغروسًا عميقًا في دماغ المتعضيّ، و جاهزًا لأن ينطلق ما إن تنجح الوضعية الملائمة بإثارته. لا شك أنّ الترتيب الدماغي العام الّذي يفسح المجال لسلوكٍ معقدٍ كهذا، بغياب أي لغة أو أدوات ثقافية، هو هدية من جينوم فصائل حيوانية محددة، وهو جزءٌ من لائحة عُدّتها لتنظيم الحياة، الفطرية والتلقائية إلى حدّ كبير، ولا يقلّ عن تلك العُدّة الّتي ناقشناها حتّى الآن.

أيعني هذا أن العواطف فطرية بالمعنى الحرفي للعبارة، و معدة لأن تُستغَّل منذ الولادة مباشرة بذات الوضوح الّذي يتسّم به التنظيم الأيضي بعد أنفاسنا الأولى؟ على الأرجح أنّ الإجابة تختلف باختلاف العاطفة. قد تكون الاستجابات العاطفية فطرية كليًا في بعض الحالات. و في بعضها الآخر، تتطلب حدًّا أدنى من المساعدة من قبل التعرّض المناسب للمخاطر البيئية. تبدو

دراسة روبرت هيندي Robert Hinde عن الخوف مؤشرًا جيدًا على ما قد يحصل في العواطف الاجتماعية: لقد بيّن هيندي أنّ الخوف الفطريّ للقرود من الأفاعي لا يتطلّبُ تعرضًا لأفعى فحسب، بل أيضًا لتعبير الخوف الّذي يعتري أمّه أمام الأفعى. تكفي مرة واحدة ليباشر السلوك عمله، لكنه لا ينخرط في السلوك "الفطريّ" دون هذه "المرة الواحدة"[29].

يسري ما يشبه هذا الأمر على العواطف الاجتماعية. مثلاً، ترسيخ أنماط الهيمنة و الخضوع عند صغار الرئيسيات خلال اللعب.

بالنسبة لمَن نشأ على الاقتناع أن السلوكيات الاجتماعية وليدة التربية بالضرورة، يبقى صعبًا عليه أن يقبل كون الفصائل الحيوانية البسيطة التي لا تمتلك ثقافةً بامكانها أن تُظهِرَ سلوكيات اجتماعية ذكية. لكنّها تستطيع ذلك حقًا، وسنرى مجددًا أنها لا تحتاج دماغًا كبيرًا لكي تذهلنا: تمتلك الديدان المتواضعة المسماة بالربداء الرشيقة C.Elegans ٣٠٢ خلية عصبية على وجه التحديد و قرابة ٥٠٠٠ وصلة عصبونية متوسّطة. (و على سبيل المقارنة، يمتلك البشر مليار خلية عصبية و عدة تريليونات من الوصلات). عندما تجوب هذه الوحوش الصغيرة المثارة جنسيًا (فهي ديدان خنثى!) في بيئة خالية من المنغصّات و بموارد غذائية كافية، فإنها تنطوي على

نفسها و تتغذى منعزلة. أمّا إذا فاحت رائحة كريهة أو كان الغذاء شحيحًا – وهذا يُعتبَر تهديدًا إذ كنتَ دودةً و اتصلت بالعالم من خلال أنفك - فستجتمع الديدان في بقعة واحدة و تتغذى سويةً. تحسُّبا لأيّ طارىء[30]، يشي هذا السلوك البدائي الجنيني، ومع ذلك البليغ، بعدة مفاهيم اجتماعية مثيرة للفضول: الأمان من خلال كثرة العدد، القوّة من خلال التعاون، شدّ الأحزمة، الإيثار، التّقشف، واتّحادات العمل الأصلية. هل ظننت يومًا أن هذه الحلول السلوكية صنيعة الإنسان؟ خذ النحلة، كائن صغير واجتماعي للغاية في مجتمع الخلية. للنحلة الواحدة ٩٥٠٠٠ خلية عصبية.من دون شك، هذا دماغ!

يُحتمل جدًا أن توفّرَ هذه العواطف الاجتماعية ساهم في تكوين آليات التنظيم الاجتماعي الثقافية المعقدة (طالع الفصل الرابع). ومن الواضح أيضًا أن بعض التفاعلات العاطفية الاجتماعية تُستدعَى في أوضاعٍ اجتماعية إنسانية دون أن يكون المحفّز الحسيّ الخاصّ بالتفاعل ظاهرًا بجلاء للمنفعل أو المراقب. عروض الهيمنة و التبعية الاجتماعية مثال على ذلك ـــ فكروا بكل طرائف و غرائب السلوك البشري في الرياضة، السياسة و مكان العمل. ما يجعل البعض قادة و البعض الآخر أتباعًا، وبعضهم يفرض احترامه في حين يجبن الآخرون، يرتبطُ إلى

حدّ قليلٍ بالمعرفة و المهارة، ولكن إلى حدٍّ كبير بصفات جسدية محددة و بالطريقة التي يوطّد الشخص فيها استجابات عاطفية محددة في الآخرين. تظهر بعض العروضات أمام مراقبيها و لمن أبداها، بلا بواعث، هذا لأن منبعها جهاز العاطفة الاجتماعية و حفظ الذات الفطريّ واللاواعيّ. علينا أن ننسب الفضل لداروين لأنّه سار بنا على الدرب التطوريّ لهذه الظواهر.

ليست هذه التفاعلات العاطفية وحدها ذات أصلٍ غامض، بل توجد طائفة إضافية من التفاعلات لها أصل غير واعٍ قولبهُ التعلّم خلال التطور الفردي للمرء. أحيلُ إلى عواطف الوئامِ affinity و البغضِ Detestation الّتي نكتسبها خِفيةً طوال حياةٍ نمتلك فيها إدراكًا وعواطفَ بمواجهة الناس، المجموعات، الأشياء، الأنشطة و الأماكن، وهذا ما لفت فرويد انتباهنا إليه. من المثير أن هاتين المجموعتين من التفاعلات غير المقصودة و غير الواعية — الفطرية والمكتسَبة— قد تكونان متواشجتين في هوة لا وعينا السحيقة. هذا يغرينا لنقول أن تآثرهما اللاواعي المحتمل يشير إلى تقاطع الإرث الفكري لكلٍّ من داروين و فرويد؛ و كلاهما سخّر مسيرته لدراسة معمَّقة لمفاعيل الفطري و المكتَسب[31].

تدور كل ظواهر تنظيم الحياة، بلا استثناء، من العمليات الكيميائية الاستتبابية إلى العواطف المخصوصة، حول الحفاظ على سلامة المتعضّي و صحته، بشكل مباشر أو غير مباشر. ترتبط جميع هذه الظواهر بتعديلات تكيّفية في حالة الجسد و تؤدي بعدئذ إلى تغييرات في التخريط الدماغيّ brain mapping لحالات الجسد body states، وهذه بدورها تشكّل أساس المشاعر. يضمن تداخل البسيط ضمن المُعقَّد بقاء الغاية التنظيمية في الدرجات العُليا من السلسلة. بينما تبقى الغاية ثابتةً، يتنوّعُ التعقيد. فالعواطف المخصوصة بلا شك أكثر تعقيدًا من المُنعكسات، كما يتنوّع المنبّه الحسّي Stimuli الّذي يستثيرها، وكذلك غاية الاستجابات، وتختلف الوضعيات المحدَّدة الّتي تُطلِقُ العملية، كذلك هدفها الخاصّ.

إنّ الجوع والعطَشَ، مثلاً، شهواتٌ بسيطة، ويكون الموضوع المسبِّب، عادةً، داخليًا: نقصٌ في توفّرِ ما هو حيويّ للبقاء، بالتحديد الطاقة المستقاة من الطعام والشراب. ولكنّ السلوكيات المترتبة عن هذه الشهوات تتوجّه صوب البيئة وتعزّز البحثَ عن الشيء المفقود، وهو بحثٌ تنخرطُ فيه الحركة الاستكشافية للمحيط، والرصد الحسّي لما يتمّ البحث عنه. لا يختلف ما سبق عمّا يحدث في حالةِ العواطف المخصوصة،

كالخوفِ والغضب؛ فهنا أيضًا، يثيرُ موضوعٌ مؤهَّلٌ انتظامَ السلوكيات التكيّفية، ولكنّ الموضوعات المؤهَّلة للخوفِ والغضبِ هي غالبًا خارجية (حتّى حين تُستحضَر من الذاكرة والخيال في أدمغتنا فإنّها تقوم مقام الموضوعات الخارجية)، وهي جدًا متنوّعة من حيث التصميم (فالعديد من أنواع المحفّزات الحسّية، المشكّلة تطوّريًا أو المكتسبة بشكلٍ ترابطيّ، يمكن لها أن تتسبّب بالخوف). إن أكثر المثيرات المؤهَّلة المعتادة في ما خصّ الجوع والعطشِ تكون داخليةً (برغم أنه يمكننا أن نجوع أو نعطش بسبب مشاهدة أحد الأفلام الفرنسية حيث يأكل الممثّلون ويشربون ويمرحون!) كذلك، توجد بعض الدوافع، على الأقل بالعلاقة مع من هم ليسوا بشرًا، الدَورية والمحدودة بالفصول والدورات الفيزيولوجية، مثلاً ممارسة الجنسِ؛ هذا في حين تظهر العواطف في أيّ حين، وقد تدوم عبر الزمن.

نكتشف أيضًا تآثراتٍ interactions مثيرة بين صنوف التفاعلات التنظيمية. إذ تؤثّر العواطف المخصوصة على الشهوات؛ و العكس صحيح. يثبِّط الخوف مثلا دوافع الجوع و الجنس و يحصل الشيء نفسه حال الحزن أو الاشمئزاز. و على العكس من ذلك، تعزّز السعادة دافعيْ الجوع و الجنس. إشباعُ الدوافع — أي الجوع، العطش و الجنس و غيرها— سببٌ

للسعادة لكن العجز عن اشباعها يؤدي إلى الغضب أو اليأس أو الحزن. و كما لاحظنا سابقًا، يشكّل مركّب التفاعلات التكيفية يوميًا، كالتعديلات الاستتبابية و الدوافع، عواطف الخلفية الجارية، و يساعد على تعريف المزاج عبر فترات ممتدة من الزمن. حين نتأمّل هذه المستويات المختلفة من التفاعل التنظيميّ، على مسافةٍ ما، يصعقنا تشابهها الشكليّ البالغ[32] .

على حدِّ علمنا، فمعظم الكائنات الحية المزوّدة بعواطف من أجل صون حياتها لا تملك تجهيزات دماغية زائدة كي تشعر بتلك العواطف إلاّ لكي تفكّر أنّها تمتلك هذه العواطف. فهي ترصد وجود محفّزات معينة في البيئة و تستجيب لها بعاطفة. كل ما تحتاجه هو جهازٌ إدراكيّ بسيط— مصفاةٌ تنقّي المحفّزات المختصة بالعاطفة و قدرةٌ على أن تعطُف. معظم الكائنات الحية تؤدي ما يتعين عليها من أداء. إنها لا تشعر كما نشعر ناهيك عن أن تفكر كما نفكر. هذا افتراض بالطبع، لكنه افتراض تبرره فكرتنا عمّا يستلزمه الشعور كما سنشرح الفصل القادم. تفتقد الكائنات الأبسط للبُنى الدماغية اللازمة لعرض التغيرات الحاصلة في الجسم أثناء التفاعل العاطفي في خرائط حسية، وحيث يكون الشعور هو النتيجة. تفتقد أيضا لدماغ مؤهل كي

يمثّل المحاكاة المترقبة لهذا النوع من التغيرات الجسدية، و هو ما قد يشكّل أساس الرغبة أو القلق.

من الواضح أن التفاعلات التنظيمية أعلاه نافعة لمن يمتلكها من الكائنات، و أن الحكم "بجودة" أو "سوء" مسبباتها— الأشياء أو المواقف المثيرة لها— يعتمد على أثرها على نجاة الكائن وعافيته. لا البراميسيوم و لا الذبابة و لا السنجاب قادرة على معرفة الصفات الخيرة من الشريرة لهذه المواقف و لا على العمل من أجل "الجيد" ضد" السيء" من باب أولى. ولا ننزع - نحن البشر- للخير حين نوازن الأس الهيدروجيني pH لوسطنا الداخلي أو ننفعل بسعادة أو حزن على بعض الأشياء حولنا. تنجذب متعضياتنا نحوالنتيجة "الجيدة" من تلقاء نفسها، إمّا بشكل مباشر على شكلِ استجابة سعيدة أو غير مباشر باستجابةِ خوفٍ تتفادى "الشر" بادىء الأمر ثم ينتج عنها "الخير". إقتراحي أنّه بمقدور المتعضيات إنتاج تفاعلات نافعةٍ تفضي إلى نتائج جيدة دون أن *تقرر* إنتاج هذه التفاعلات، و دون أن *تشعر* بتكشّف هذه التفاعلات؛ وسأعود لمناقشة هذه الفكرة في الفصل الرابع. و كما يظهر من خلال تركيب هذه التفاعلات، خلال عملها، يتحرّك المتعضيّ لفترة زمنة محددة نحو حالات من التوازن الفسيولوجي أكبر أو أصغر.

نستحقُ نحنُ البشر تهنئةً مستحَقة، وذلك لسببين: أولًا، في ظروف مماثلة، تخلق هذه التفاعلات التلقائية كيفياتٍ في الجسمِ البشري تمثلُ لنا كممتعة أو مؤلمة ما إن يتم تخريطها في الجهاز العصبي، و هي، بالنتيجة، ما يُعرف بالمشاعر. فلنقل إنّ هذا هو المصدر الحقيقي للعظمة والمأساة الإنسانيتين. أمّا السبب الثاني، فلأننا واعون بالعلاقة بين الموضوعات و بعض العواطف، يمكننا نحنُ البشر أن نسعى بكامل *إرادتنا* إلى التحكّم بعواطفنا، على الأقل إلى حدٍّ ما. ونحنُ يمكننا أن نقرر أيّ الموضوعات و الوضعيات نسمح لها بأن تظهرَ في بيئتنا و على أيٍّ منها نصرف اهتمامنا و وقتنا. بإمكاننا أن نقرر مثلا ألّا نشاهد الإعلانات المتلفزة و أن نؤيد منعها الدائم من منازل المواطنين الأذكياء. و بتحكّمنا في تآثراتنا مع ما يسبب العاطفة، فإننا فعليًا نمارس نوعًا من التحكّم على عمليات الحياة و نسيّر أعضاءنا بتناغمٍ أقل أو أكثر، كما كان لسبينوزا أن يرغب. نحن، بالفعل، نتجاوز طغيان التلقائية و سهوَ الماكينة العاطفية. من المثير للفضول أن البشر اكتشفوا هذه الاحتمالية منذ زمن بعيد بدون أن يعرفوا الأساس الفزيولوجي للاستراتيجيات المستعملة على وجه الدقة. فهذا ما نفعله حين نتّخذ خياراتٍ حيال ما نقرأ و من نصاحب، وهذا ما فعله البشر لقرون باتباعهم التعاليم

الاجتماعية و الدينية، التي، فعليًا، تحوّل البيئة و علاقتنا بها. هذا ما نحاول فعله حينما ننجذب إلى برامج الحياة الصحية التي تدفعنا إلى ممارسة التمارين واتبّاع الحمية الغذائية.

من غير الدقيق أن نقول أن كل التفاعلات التنظيمية، بما فيها العواطف المخصوصة، هي، بشكلٍ حتمي وقدَريّ، منمّطة. بعض تفاعلات "الفروع الدنيا" هي كذلك وينبغي أن تكون على هذا النحو، إذ علينا ألا نتدخل بحكمة الطبيعة حينما يتعلق الأمر بتنظيم وظيفة القلب أو الهرب من الخطر، لكن بإمكاننا التحكم بتعرضنا للمحفزات التي تستحضر التفاعلات [تلك]. ونستطيع، طوال حياتنا، أن نتعلّم معايرةَ "كوابح" هذه التفاعلات، وبإمكاننا، ببساطة، أن نستعمل قوة الإرادة المطلقة و نقول لا فحسب؛ أحيانًا.

فرضية على شكلٍ تعريفٍ

أخذًا بالحسبان الأجناس المتعددة من العواف، بإمكاني الآن تقديم فرضية عملية للعواطف المخصوصة على شكلٍ تعريفٍ:

1- العاطفة المخصوصة، كالسعادة و الحزن و الحرج و التعاطف، مجموعةٌ مركَّبَةٌ من الاستجابات الكيميائية و العصبية الّتي تكوّن نمطًا مميزًا.

2- تنتج الاستجابات عن دماغٍ عاديّ حين يرصد "منبّهًا مختصًا عاطفيًا" "emotionally competent stimulus" (ECS) ؛ أي الموضوع أو الحدّث الّذي يثير العاطفة حال وجوده فعليًا أو بالاستدعاء العقلي. والاستجابات تكون تلقائيةً.

3- الدماغ معدٌّ عبر التطوّرِ لكي يستجيب لـ ECS محددة مع مخزونٍ محدد من الأفعال. مع ذلك، لا تنحصر قائمة الECS بما فرضه التطور، بل تشمل محفّزات عدة مكتسَبة خلال سنين من التجارب.

4- النتيجة الفورية لهذه الاستجابات هي تغيّر مؤقت في حالة الجسم المخصوص Body proper و في حالة بُنى الدماغ التي تخرُطُ map الجسدَ و تُسنِدُ التفكير.

5- بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، تكمن النتيجة الأخيرة للاستجابات في موضعةِ المتعضيّ ضمنَ ظروفٍ توصله إلى النجاة و العافية[33].

يشمل هذا التعريف المكونات الكلاسيكية للتفاعل العاطفي.، رغم أن فصل مراحل العملية و الوزن المعطى لهذه المراحل قد يبدو غير تقليدي. تبدأ العملية بمرحلة تقدير- تقييم -appraisal evaluation، منذ لحظة رصد المحفز المختص بالعاطفة. وبحثي معنيٌّ بما يحدث في العملية العقلية بعد رصد المحفّز— في أقصى نهاية مرحلة التقدير. بالطبع، استبعدت المشاعر أيضًا من تعريف العواطف نفسها، باعتبارها المرحلة التالية من دائرة العواطف-المشاعر.

قد يجادل البعض بوجوب استبعاد مرحلة التقدير أيضًا لدواعي وظيفية محضة— باعتبار أن التقدير عملية تؤدّي إلى العاطفة و ليس العاطفة ذاتها. لكن الاقصاء الكليّ لمرحلة التقدير سيحجب القيمة الحقيقية للعواطف عوضًا عن توضيحها: وصلها الذكي للغاية بين المحفّز المختص بالعاطفة و بين مجموعة التفاعلات القادرة على تغيير وظائف جسمنا و تفكيرنا بعمق. سيجعل إقصاء التقدير الوصفَ البيولوجي لوظيفة العاطفة ضعيفًا أمام الصورة الكاريكاتورية التي تعتبر العواطف بلا تقدير أحداثًا تافهة، وسيستعصي علينا أيضًا أن نلحظ كيف يمكن للعواطف أن تكون بديعة و خارقة الذكاء، و كيف يمكنها، بقوّةٍ، أن تحل لنا المشاكل[34].

الماكينة الدماغية للعواطف

توفّر العواطف وسائل طبيعية تمكّن الدماغ و العقل من تقييم evaluate البيئة داخل المتعضيّ و حوله و الاستجابة وفقا لذلك وبشكل تكيّفي. وبالفعل، وفي ظروفٍ عديدة، نقيّم بشكلٍ واعٍ ما ينسبب بعواطفنا ، بالمعنى الخاصّ لمصطلح "التقييم". لا نعالج حينها وجود الموضوعِ فحسب، بل علاقته بالموضوعات الأخرى وصلته بالماضي أيضًا. و في هذه الظروف، يقيّم جهاز العواطف بشكل طبيعي، و يشارك جهاز العقل الواعي، تفكيريًا، بالتقييم. كما بإمكاننا حتّى تعديل استجابتنا العاطفية. وبالفعل، فإن من أهم غايات تطورنا التعليمي هو أن نحول بين المسببات و الاستجابات العاطفية بخطوة تقييمية غير تلقائية. ونأمل أن يسهم ذلك في تشكيل استجاباتنا العاطفية الطبيعية لتتفق مع متطلبات ثقافة ما. هذا كلّه صحيح للغاية، لكن ما أودّ الإشارة إليه هنا هو أن حدوث العواطف *لا يستلزم* تحليلًا واعيًا لمسبباتها، ناهيك عن تقييم الوضع الذي حدثت خلاله، إذ تعمل العواطف وفق إعدادات مختلفة.

تشير العاطفة إلى نتيجة تقدير الكائن للموقف حتى في الحالة التي يحصل فيها التفاعل العاطفي دون معرفة واعية بالمحفّز المختص بالعاطفة، ولا أهمية لكون الذات ليست على علمٍ واضحةٍ بالتقدير. بشكلٍ ما، فُهِمَت مقولة التقدير حرفيًّا على أنها تقييم واعٍ، كما لو أنّ العمل التقييمي الرائع لوضعٍ ما، والاستجابة التلقائية لهذا الوضع، سوف يكونان انجازًا بيولوجيًا ضئيل الأهمية.

يتعلق أحد أهم جوانب تاريخ التقدم الإنساني بالكيفية التي تتمكن بها معظم الموضوعات المحيطة بأدمغتنا من إثارة عاطفة ما، قوية كانت أو ضعيفة، جيدة أو سيئة، و بشكل واعٍ أو غير واعٍ. بعض هذه المثيرات مهيّأ بواسطة التطور، والبعض الآخر أصبح مقترنا ،عبر أدمغتنا، بموجودات مختصة بالعاطفة بفضل تجاربنا الفردية. تذكّرْ منزلًا اختبرت فيه وأنت طفلٌ تجربة خوف بالغ. عندما تعاود زيارة هذا المنزل اليوم، ستشعر بالانزعاج دونما أي سبب سوى تجربتك لمشاعر سلبية قوية في المكان نفسه منذ زمن. و قد يحصل أن تنزعج أيضًا عندما تزور منزلًا آخر يشبهه بعض الشيء، و لا تجد مبررًا هنا أيضًا سوى أن ترصدَ السجل الدماغي لموقف وموضوع مماثليْن. لا تملي عليك تراكيب دماغك الأساسية استجابةً مستاءة عند زيارتك لنوع معين من

المنازل، لكنها التجربة الحياتية التي دفعت بدماغك ليربط هكذا منازل بالاستياء الذي اختبرته يومً ما، دعْ عنكَ أنّ سبب الاستياء لا يتعلّق بالمنزلِ بحدّ ذاته. فلنسمِّ الأمر ذنبًا بالارتباط guilt by association، فالمنزل مجرد متفرجٍ محايد. لقد *أُشرِطنا conditioned* لكي نشعر بالانزعاج في منازل معينة، ربما كي نكره منازل معيّنة دون أن نعرف فعليًا السبب، أو كي نشعر بالارتياح في منازل معينة، وبالآلية ذاتها تمامًا. نشأ العديد مما نحب و نكره، العادي منه و المبتذل، بهذه الطريقة؛ ولكن لاحظوا أيضًا أن الرهاب Phobia وهو ليس عاديًا ولا تافهًا، تم اكتسابه بنفس الآلية.. و على أي حال، حين نغدو فيه بالغين بما يكفي لكتابة الكتب ، يبقى - إن بقي- القليل من الأشياء المحايدة عاطفيًا في هذا العالم. التمييز العاطفي بين الموجودات تمييزٌ بالدرجات: يبثّ بعضها تفاعلات عاطفية ضعيفة بالكاد ندركها، و يبعث بعضها الآخر تفاعلات قوية، ويتوسط بين هذه وتلك درجات شتى. بالكاد بدأنا بكشف الآليات الجزيئية molecular و الخلوية cellular الضرورية لحصول التعلم العاطفي[35].

تتعلم المتعضيّات المعقّدة أيضًا أن تعدّل تنفيذ عواطفها بما يتّسق مع كل ظرف على حدة— مصطلحا التقييم evaluation و التقديرappraisel هما الأكثر ملائمة هنا. تعدّلُ تجهيزاتُ

التعديل العاطفي من مقدار magnitude التعبير العاطفي من دون التأنّي deliberation الواعي للمتعضيّ. كمثال بسيط، إن قُصصتُ عليك ذات القصة المسلية مرتين على التوالي، فستبتسم أو تضحك بشكل مختلف للغاية حسب السياق الاجتماعي لتلك اللحظة— عشاء دبلوماسي أو لقاء عابر في الرواق أو عشاء عيد الشكر مع الأصدقاء المقربين أو غيرها. و لو أحسن والداك صنعًا، فلن يتعيّن عليك *التفكير* بالسياق، فالتعديل تلقائي. مع ذلك، تعكس بعض الأجهزة المعدِّلة حكمًا نابعًا من ذات المتعضيّ ، ينتجُ عنه محاولةً تعديلِ العاطفة أو حتّى كبتها. قد تختار أن تكتم مرحكَ أو اشمئزازك من عبارة تفوّه بها زميلك أو محاورك، مدفوعًا بأسباب تتراوح بين الشريفة والخسيسة. تساعدك معرفتك الواعية بالسياق و درايتك بالتبعات المستقبلية لكل جانب من جوانب سلوكك على أن تقرر كبت التعبير الطبيعي للعاطفة، ولكن حاول أن تتجنب ذلك كلما كبرت في السنِّ، لأنّه يستهلك الكثير من طاقتكَ.

قد تكون الموضوعات المختّصة عاطفيًا emotionally competent objects حاضرةً أو مستدعاةً من الذاكرة. لقد رأينا كيف يمكن للذاكرة الشرطيّة اللاواعية أن تؤدّي إلى عاطفةٍ حالية، و قد تمارسُ الذاكرة الحيلة نفسها بشكلٍ صريحٍ: خذ مثلاً

الحادثة القريبة الّتي روّعتك من سنين، فهذه قد تُستَدعى من الذاكرة، وتروّعكُ من جديد الآن. للصورة الوقعُ نفسه سواء كانت موجودة في الحاضر، حديثة العهد أو معادٌ تكوينها ومستدعاة من الذاكرة. تنشأ عاطفة متى ما وُجد محفّز مختص بالعاطفة، ولن تختلف إلاّ من حيث كثافتها. تعتمد حرفة الممثلين، على اختلاف مللهم، على ما يسمى بالذاكرة العاطفية. ففي بعض الحالات قد يترك هؤلاء للذاكرة أن تقودهم، مباشرةً، إلى العاطفة الّتي ينشدونها؛ وفي حالات أُخرى، يتركونها تتسرّب، بشكلٍ بارعٍ، في أدائهم، وهم مجهّزين أنفسهم للتصرّف على نحوٍ محدّد. ما غاب ذلك عن سبينوزا، وهو اليقظُ شديد الانتباه: *يتأثّرُ المرءُ على النحوِ نفسه ألمًا أو متعةً بصورةِ شيءٍ أكان من الماضي، أو المستقبل، أو في الحاضرِ*" (الايتيقا، الكتاب الثالث، الفرضية 28).

تحريض وتفعيل العواطف

يعتمد ظهور العواطف على سلسلة معقدة من الأحداث. هاكم كيف أراها: تبدأ السلسلة بظهور المحفّز المختص بالعاطفة. هذا المحفّز، قد يكون موضوعًا أو وضعيةً حالية حاضرة أو مستدعاة

من الذاكرة، يصلُ إلى الدماغ . فكّر بدبٍّ صادفته في رحلتك لألاسكا (أورد هذا التشبيه تقديرًا لـ ويليام جيمس William James و الذي نسج مناقشته للخوف من خيوط ذكرى دبٍّ مماثل) أو بلقاءٍ مرتقب مع شخص تفتقده.

بمصطلحاتٍ عصبية، نقول إنّ الصور المرتبطة الموضوعات المختصة عاطفيًا لا بد أن تُعرَضَ في واحدة أو أكثر من أنظمة الدماغ الحسّية، كالمناطق البصرية والسمعية. لنسمّي مرحلة العرضِ هذه مرحلة المعالجة stage of process. و بغض النظر عن زوالية fleeting العرضِ، فإن الاشارات المتعلّقة بذاك المحفّز تتوفّر في عددٍ من مواقع تحريض العاطفة emotion-triggering sites في أماكن أخرى من الدماغ. يمكن تصوّرها كأقفال لا تفتح إلا إذا طابقتها مفاتيحٌ تلاءمها، بالطبع، فالمحفّزات المختصة بالعاطفة هي المفاتيح. لاحظوا هنا بأنها تختار قفلًا من أقفال موجودة مسبقا عوضا عن تلقين الدماغ كيف يصنع قفلًا. تنشّط مواقع إثارة العاطفة بعدها عدة مواضع أخرى لتفعيل العاطفة emotion-execution sites , و هذه الأخيرة هي السبب المباشر للحالة العاطفة الحاصلة في الجسد و في المناطق الدماغية التي تسندُ عملية الشعور بالعاطفة. بالنهاية، قد تتردد العملية وتوسّع نفسها أو قد تنكمش وتنتهي. بلغة الفزيولوجيا

العصبية والتشريح العصبيّ؛ تبدأ العملية عندما ترتحل إشارات عصبية ذات تشكيلٍ معينٍ configuration (و الناشئة من القشرة البصرية الحاملة لأنماط بصرية تناسبُ الاقتراب السريع لجسم خطر) على التوازي عبر مساراتٍ عدة قاصدةً بنى دماغية مختلفة. ستصبح بعض البنى المستقبِلة ، كاللوزة مثلا Amygdala، نشطةً عندما ترصد هيئةً معينة - عندما يدور المفتاح في القفل- و تشرع بإرسال إشارات تستهدف مناطق أخرى في الدماغ مكونةً سلسلةً من الأحداث التي سوف *تصبحُ* عاطفة.

تُشبِهُ هذه التوصيفات تلك الخاصةّ بالمُستَّضِدّ antigen[i] (كالفيروس مثلًا) مقتحمًا مجرى الدم و مؤديًا إلى استجابة مناعية immune response (مكونة من عدد كبير من [الأجسام المضادة Antibodies]- أو الأضداد- القادرة على تحييد المستضد)، و ينبغي على هذه الأجسام المضادة أن تكون كذلك، فالعمليات متشابهة بالشكل. في حالة العاطفة، يُعرَض " المستَضَد" خلال النظام الحسي، ويكون الجسمُ المُضاد هو الاستجابة العاطفية .يحصل "الانتقاء" في واحدة من عدة مواقع دماغية معدّة لإثارة

---

[i] **المُستضِدّ Antigen : مادة تستطيع تحت ظروف ملائمة أن تثيراستجابةً مناعيةً خاصة، وتستطيع أن تتآثرخاصة مع الجسم المضاد antibody، أو خلايا متر افقة مع تلك الاستجابة. ولمعرفة القدرة المناعية لمستضد. فإنه يجب إدخاله إلى الأنسجة، أو الحيوان المراد بكمية مناسبة.**

عاطفة. تتم العمليات في ظروف متقاربة، لها نفس المعالم و نتائجها متماثلة النفع. الطبيعة ليست خلاّقة في ما يتعلق بابتكار الحلول الناجعة، فما إن ينجح أحد هذه الحلول، تعاود الطبيعة استخدامه مرارًا و تكرارًا. لو كان لمنتجي هوليوود نجاح مثيل ، لأدرّت كل تتمة للأفلام مالًا على الدوام.

من المناطق الدماغية المعروفة الآن باعتبارها مواقع إثارةٍ للعاطفة: اللوزة Amygdala، التي تستقر عميقًا في الفص الصدغي temporal lobe؛ الجزء من الفص الجبهي frontal lobe المعروف باسم القشرة الجبهية المقدَّمة البطنية الإنسية ventromedial prefrontal cortex؛ و منطقة جبهية أخرى في الباحة الحركية الإضافية supplementary motor area والحزامية cingulate. وهذه ليست كل مناطق إثارة العاطفة، ولكن ما ذُكِرَ منها مفهومٌ أكثر من غيره. تستجيب مناطق الإثارة للمحفّز الطبيعي، أي الأنماط الكهرو-كيميائية Electrochemical التي تسندُ لصور في أدمغتنا، و للمحفّز غير الطبيعي تمامًا، كالتيار الكهربائي المُستعمَل على الدماغ. لكن لا ينبغي النظر لهذه المواقع باعتبارها جامدة، تنتج ذات الأداء المنمّطة المرة تلو المرة، وذلك لوجود مؤثرات تعدِّل نشاطها. و مجددًا، تفعل الصور العقلية البسيطة ما يستطيع فعله التحفيز stimulation المباشر لبنى الدماغ.

وافتنا دراسة اللوزة عند الحيوانات بمعلومات جديدة، في أبحاث جوزيف لودوو Joseph LeDoux على وجه الخصوص، كما جعلت تقنيات تصوير الدماغ الحديثة من دراسة اللوزة البشرية أمرًا ممكنًا، مثلاً في دراسات رالف ادولفز Ralph Adolphsو ريموند دولان Raymond Dolan[36]. تقترح هذه الدراسات أن اللوزة وصلة هامة بين المحفزات السمعية و البصرية المختصة بالعاطفة وبين إثارة العواطف، كالخوف و الغضب، على وجه الخصوص لا الحصر. لا يستطيع مرضى الأمراض العصبية المصابون بأذى في اللوزة إثارة هذه العواطف و بالتالي، لا يملكون ما يقابلها من مشاعر. إنّ أقفال خوفهم وغضبهم تبدو كما لو كانت مفقودة، على الأقل في ما يتعلق بالمثيرات السمعية و البصرية المفعّلة تحت ظروف معينة. بالإضافة لذلك، تبيّنُ الدراسات الحديثة المعنية أنّه حين تُبنى التسجيلاتً مباشرةً عن طريق العصبونات الأحادية Single neurons في اللوزة البشرية، فإنّ قدر أكبر من العصبونات تنسجمُ مع المحفّزات المزعجة أكثر ممّا تفعل مع تلك السارّة [37].

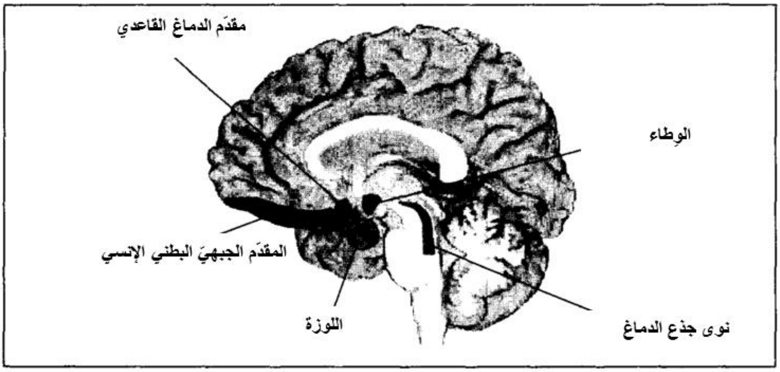
بشكل مثير للفضول، تؤدي اللوزة الطبيعية بعض وظائف الإثارة بغض النظر عن درايتنا بوجود المحفز المختص

بالعاطفة. يقدم بحث بول وُلِن Paul whalen أول الأدلة على قدرة اللاواعية للوزة على رصدِ المحفزات المختصة بالعاطفة. عندما عُرض هذا النوع من المحفزات بسرعة بالغة على أشخاص طبيعيين مما جعلهم غير مدركين بتاتا لطبيعة ما يرون، كشفت صور الدماغ عن نشاط في اللوزة[38]. أوضح بحث حديث لآرني اومان Arnie Ohman و ريموند دولان أن الأشخاص الطبيعيين بمقدورهم أن يتعلموا، بشكلٍ مستورٍ، أن محفّزات معينة، دون غيرها، (وجه معين غاضب دون الوجوه الغاضبة الأخرى) مرتبطة بأحداث مزعجة. يعز التمثّل المستور covert representation للوجه المرتبطِ بحدثٍ سيء نشاطَ اللوزةِ *اليمنى*، بينما لا يحصل الشيء نفسه مع التمثّل المستور للوجه الآخر[39] .

تُرصَد المحفزات المختصة بالعاطفة بسرعة فائقة تسبق الانتباه الانتقائي selective attention، كما يبين هذا الاكتشاف الباهر: تسبب إصابات الفص القذالي occipital lobe أو الجداري parietal lobe حقلَ رؤية أعمى (أو حقلَ رؤية حيث لا يمكن رصد المحفّزات نتيجة الإغفال)، و بالرغم من ذلك، "تجتاز" المحفزات المختصة بالعاطفة (كالوجوه السعيدة أو الغاضبة) حاجز العمى أو الإغفال و يتمّ بالفعلِ رصدها[40]. تلتقط ماكينةُ الإثارة العاطفية هذه المحفزات لقدرتها على اجتياز قنوات المعالجة

الطبيعية، أي تلك القنوات التي كانت ستقود إلى تقدير معرفي، ولكنّها لم تستطع ببساطة فعلَ ذلك بسبب العمى أو الاغفال. تبدو قيمة الترتيب البيولوجي لهذا "التغافل" Bypass ظاهرةً: بغضّ النظرِ عمّا إذا كان المرءُ منتبهًا، يمكن للمحفّز المختصّ عاطفيًا *أن يُرصَد*. وبالتالي، يُمكِن *تحويلُ* الانتباه و الفكر المناسب صوب هذه المحفّزات.

يوجد موقعٌ إثارة آخر مهم في الفص الجبهي، تحديدًا في منطقة مقدَّم الجبهي البطني الإنسي. هذه منطقة مضبوطة لرصد الأهمية العاطفية لمحفزات أكثر تعقيدًا مختصة بإثارة عواطف اجتماعية، سواء كانت أشياء أو مواقف، طبيعية أو مكتسَبة. يتطلّب التعاطف sympathy الناجم عن مشاهدة مصيبة أحدهم أو الحزن الناتج عن خسارة شخصية وساطة هذه المنطقة. تكتسب عدة محفزات دلالتها العاطفية من خلال تجربتنا الحياتية — كمثال المنزل مصدرِ الانزعاج— و تثير العواطف الملائمة عبر هذه المنطقة.



الصورة 2.4: عرض تبسيطي لمو اقع تحريض و تفعيل العاطفة في الدماغ. تثار عواطف شتى حين يثير نشاط دماغي ما نشاطا في أحد هذه المو اقع، في اللوزة أو المقدَّم الجبهيّ البطني الإنسي مثلًا. لا ينتج أيٌّ من هذه المو اقع لوحدهِ عاطفةً. ولكي تحصل العاطفة، يتعين على الموقع أن يسبب نشاطًا لاحقًا في في مو اقع أخرى كمُقدَّم الدماغ القاعدي، الوطاء أو نوى جذع الدماغ. وككل السلوكيات المعقّدة، تنتج العاطفة عن مشاركة منسّقة متناغمة لعدة مو اقع في الجهاز الدماغي.

أوضحت وزملائي، انطوان بشارة Antoine Bechara و هانا داماسيو Hanna Damasio و دانييل ترانيل Daniel Tranel ، أن الضرر الّي يصيب الفصّ الصدغيّ يغيّر من القدرة على حيازةِ العواطف حين يكون المحفّز المختص بالعاطفة إجتماعيًا بالطبيعة، وعندما تكون الاستجابة الملائمة عاطفة اجتماعية

كالحرج أو اليأس أو الذنب. ويعرّضُ هذا الإضرار المماثل السلوك الاجتماعي السويّ للخطر[41].

وفي سلسلة دراسات حديثة من مجموعتنا البحثية، بيّن رالف ادولفز أن العصبونات في مقدَّم الجبهي البطني الإنسي تستجيب بسرعة و بشكل مختلف إلى المحتوى العاطفيّ السارّ أو المزعِج للصوَر. تكشِف تسجيلات الخلية المفرَدة single cell من مقدَّم الجبهي البطني الإنسي لدى المرضى العصبيين المزمع خضوعهم لمعالجة النوبات seizures جراحيًا، [تكشفُ] عن أن العديد من عصبونات هذه المنطقة ، اليمنى أكثر من اليسرى، تستجيب بشكلٍ كبيرٍ للصور القادرة على أن تفضيَ إلى عواطفَ *مزعِجة*، كما تبدأ بالتفاعل سريعًا بعد مضي ١٢٠ ميلّي ثانية فحسب عقب حضور المحفز. في البدءِ، تؤجّلُ العصبونات نمطها العفويّ المقذوف، ثمّ، وبعد فاصلٍ زمنيٍ ساكنٍ، تقذِفُ بتواتر أبلغ و بكثاقةٍ أشدّ. يستجيب عدد أقل من العصبونات للصور القادرة على بعثِ العواطف *السارة*وكذلك تفعلُ أيضًا من دون نمط التوقف والإنطلاق stop-and-go pattern السالف الذكر[42]. اللاتناظر بين شقي الدماغ الأيمن و الأيسر أكثر تطرفًا ممّا توقعت لكنه يتفقّ مع مقترح قدمه ريتشارد دافيدسون Richard Davidson قبل سنوات؛ وبالاستناد على دراسات بالرسم الكهربي

للدماغ electroencephalogram على أشخاص أصحّاء، أشار دافيدسون إلى ارتباط القشرة الجبهية اليمنى بالعواطف السلبية أكثر من اليسرى.

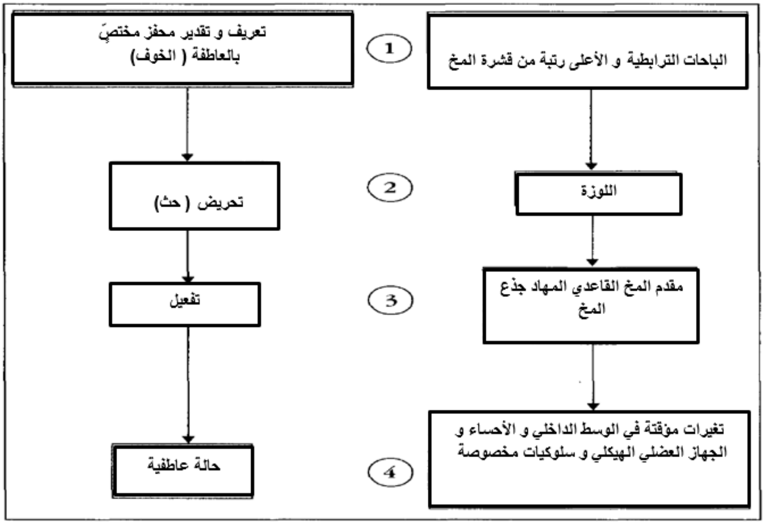
من أجل خلقِ حالة عاطفية ما، لا بد من نقل النشاط في المواقع المثيرة إلى مواقع تفعيل العاطفة من خلالِ اتصالات عصبية. تشمل مواقع تفعيل العاطفة المعروفة حتى اللحظة: الوطاء hypothalamus، مقدّم الدماغ القاعديbasal forbrain ، و بعض النوى nuclei في سقيفة جذع الدماغ brain stem tegmentum. الوطاء هو المُفعِّل الرئيس لاستجابات كيميائية عدة تمثل جزءًا لا يتجزأ من العواطف، وهو يُطلِق، مباشرةً أو عبر الغدة النخامية، جزيئات كيميائية في مجرى الدم، تغيِّرُ من الوسط الداخلي، وظيفة الأحشاء viscera ووظيفة الجهاز العصبي المركزي نفسه. ببتيدات كالأوكسيتوسين oxytocin و الفازوبرسّين vasopressin أمثلة على جزيئات مطلقة بفعل النوى الوطائية و بمساعدة الجزء الخلفي من الغدة النخامية pituitary gland. يعتمد طيف واسع من السلوكيات العاطفية (كالتعلّق و الحضانة) على وجود هذه الهرمونات في البنى الدماغية التي تأمر بتفعيل تلك السلوكيات. بالمثل، تؤدي الوفرة الموضعية لجزيئات

كالدوبامين Dopamine و السيرُوتونين serotonin، و اللذان يعدلان النشاط العصبي، إلى حصول سلوكيات معينة. و على سبيل المثال، يبدو أن مجموع ما نَختبره من سلوكيات مثيبة rewarding أو ممتعة يعتمدُ على إطلاق الدوبامين من منطقة محددة (الباحة البطنية السقيفية ventrotegmental في جذع الدماغ) ويتوفّر في منطقة أخرى (النواة المتكئة nucleus accumbens في مقدم الدماغ القاعدي). جملةُ القول أن مواقعَ كمقدم الدماغ القاعدي، النوى الوطائية، بعض نوى سقيفة جذع الدماغ و نوى جذع الدماغ المسؤولة عن حركات الوجه و اللسان و البلعوم و الحنجرة هي المُفعِّل النهائي للعديد من السلوكيات المُعرّفة للعاطفة؛ بسيطها و مُركَّبُها، و المتراوحة من التودد أو النفور إلى الضحك و البكاء. إنّ ذخيرة الأفعال المعقّدة البادية على محيانا تنتجُ عن التنسيق المذهل بين أنشطة هذه النوى، والتي تسهم كل واحدة منها بجزء من التفعيل في نظام و تواقتٍ متناغمين. لقد سخّر ياك بانكسِب Jaak Panksep عمره البحثي لعملية التفعيل هذه[43].

في كل العواطف، يغيّر وابل الاستجابات الكيميائية و العصبية الوسطَ الداخلي و الأعضاء و الجهاز العضلي الهيكلي musculoskeletal ، لمدة معينة و وفق نمط معين. وهكذا، تظهرُ تعبيرات الوجه و النطق و وضعيات الجسد و أنماط سلوك

محددة (الجري، التجمّد، التودد أو الأبوّة). و لكيميائيات الجسم و الأعضاء الداخلية كالقلب و الرئة تلعب مساهمتها أيضًا. تدور العاطفة حول التبدّل و الإرباك وربما الإنقلاب البدني الفعلي في بعض الأحيان. وفي دفعة موازية من الأوامر، تتغير البنى الدماغية المسؤولة عن الانتباه و إنتاج الصور. بالنتيجة، تبدو بعض مناطق القشرة المخيّة cerebral أقل نشاطًا بينما تنشط مناطق أُخر.

من أجل تقديمٍ وصف ميسّر لعمليات العاطفة والشعور، بسطتها بما يكفي لعرضها في سلسلة أحداث واحدة، تبدأ بمحفّز وحيد و تنتهي بتوثيق ركائز الشعور المتّصل بالمحفّز هذا. في الواقع، وكما هو متوقّع، تسير العملية جانبيًا laterally، بسلاسل متوازية من الأحداث، و تقوم بمضاعفةِ نفسها. يحصل ذلك لأن المحفز الأولي المختص بالعاطفة غالبًا ما يؤدّي إلى استحضار محفزات أخرى مختصة بدورها بالعاطفة أيضًا. وبمرور الوقت، تعمل هذه المحفزات الإضافية على استدامة إثارة العاطفة نفسها أو إثارة تعديلات عليها أو الحثّ على مشاعر مناقضة لها. و بالتالي، تتوقف استمرارية و كثافة الحالة العاطفية المرتبطة بالمحفز الأولي على العملية الإدراكية الجارية حينئذ. إما أن تمنحُ محتوياتُ العقل التفاعل العاطفي



الصورة 5.2: مخطط للمراحل الأساسية لإثارة و تفعيل عاطفة ما، مثالها الخوف. يوضح العمود الأيسر مراحل العملية (1 إلى 3)، بدءا بتعريف و تقدير المحفز المختص بالعاطفة و انتهاءً بأوج حالة الخوف (4). يوضح العمود الأيمن البنى الدماغية اللازمة لتمام كل مرحلة (1 الى 3) و التبعات الفزيولوجية لهذه السلسلة (4).

المزيد من المثيرات أو تطردها، وهذا ما يؤدي إلى استدامة أو مضاعفة العاطفة أو، بالمقابل، تحجيمها.

نجد في أبسط رسم توضيحي ممكن (الصورة أعلاه)، الكيفية التي يثير بها محفز بصري مُهدِّد عاطفة الخوف و يُفعِّلها.

تتضمنً العواطف هذا المسار المزدوج: سيلانُ المحتويات العقلية المتفقة التي تجلبُ معها مثيراتِ الاستجابة العاطفية، والاستجابات الَمُفعَّلة نفسها، أي الّتي تشكّل العواطف، و التي

تؤدّي في نهاية المطاف إلى المشاعر. إنّ السلسلة التي تبدأ مع إثارة العواطف و التي تستمرُ مع تفعيل العواطف، تُكمِلُ مع بناء ركائز الشعور في مناطق الاستشعار الجسدي body-sensing regions الملائمة.

لعله من المثير للاهتمام أننا نعود إلى المجال العقلي بمجرد أن تبلغ العملية مرحلة تجميع المشاعر— نعود إلى دفقِ الأفكار حيث بدأ، في الظروف العادية، المنعطف العاطفي بأسره. إنّ المشاعرَ عقليةٌ بقدر ما هي الأحداث و الأشياء التي أثارت العواطف. ما يميز المشاعر كظواهر عقلية هو منشأها الخاص و محتواها، أي حالة جسد المتعضيّ، كما هي أو مخرّطة mapped في مناطق الاستشعار الجسدي.

على حِين غِرّة

مؤخرًا، قدمت بعض الدراسات العصبية منظورًا أوضح للماكينة المتحكمة بتفعيل العواطف. أتت أبلغ الملاحظات من امرأة تبلغ الخامسة والستين من العمر أثناء خضوعها لعلاج مرض الباركنسون (الشلل الرعاش) Parkinson's disease . لم يتوقّع

أحد، خلال محاولات علاجها من أعراض المرض، أنّنا سنلمحُ كيف تظهرُ العواطف إلى حيز الوجود و كيف ترتبطُ بالمشاعر.

الباركنسون هو اضطراب عصبي شائع يخلّ بالقدرة على التحرّك بشكلٍ سويّ. ورغم أنه لا يسبب الشلل، إلا أنه يسبب الصمَل [التصلّب] العضليّ، الرُعاش، وربّما ما هو أخطَر أي تعذّر الحركة akinesia وهي الصعوبة في مباشرة الحركات. هذه الأخيرة عادةً ما تكون بطيئةً و هو عرضٌ آخر يعرف ببطء الحركة bradykinesia. اعتدنا على اعتبار الباركنسون عضالًا إلا أن تخفيف أعراضه صار ممكنًا في العقود الثلاثة الأخيرة بواسطة دواء يحتوي على الليفودوبا Levodopa، وهو سلفٌ كيميائي للناقل العصبي neurotransmitter الدوبامين. فالدوبامين هذا غائبٌ عن بعض الدارات العصبية المحددة عند مرضى الباركنسون مثلما يغيب الإنسولين عن مرضى السكري. (تخمدُ العصبونات المنتجة للدوبامين في الجزء المُكتَنِز pars compacta من منطقة المادة السوداء substansia negra فينعدم وجود الدوبامين في منطقة أخرى هي العُقَد القاعدية basal ganglia) . للأسف، فالدواء المصمم لزيادة كمية الدوبامين، في الدارات الدماغية حيث يُفتقَد وجوده، لا يساعد كل المرضى. بالإضافة إلى ذلك، قد تفقد الأدوية فعاليتها تدريجيًا على من نجحت بمساعدتهم بادئ

الأمر، أو تسببُ تغيرات حركية أخرى ليست أقل تسبُّبًا بالإعاقة من المرض نفسه. لهذا السبب، هناك وسائل علاجية أخرى عديدة قيد التطوير، يبدو أحدها، على وجه الخصوص، واعدًا. ويتضمن هذا العلاج زرع مسارٍ electrodes بالغة الصغر في جذع دماغ مريض الباركنسون بحيث يغيّر مرور التيار الكهربائي عالي التردد و منخفضّ الشدّة طريقة عمل بعض النوى الحركية. النتائج مبهرة غالبًا، إذ تتلاشى الأعراض بأعجوبة بمجرد مرور التيار الكهربائي، فيحرّك المرضى أيديهم بدقة و يمشون بأريحية بالغة لا يُخَمّن معها الغريب وجود اعتلال سابق.

أساس نجاح العلاج هو التثبيت الدقيق لمصفوفة موصلات المسرى Electrode. و لتحقيق ذلك؛ يستخدم الجرّاح جهاز توضيع تجسيمي stereotaxic device (و هو جهاز يسمح بموضعة بنية دماغية ما في فضاءٍ ثلاثي الأبعاد) و يقود المسرى بحذرٍ إلى قسم من جذع الدماغ يسمّى بالدماغ المتوسط mesencephalon . هناك مسريان طويلان، موجّهان عاموديًا، أحدهما إلى الجانب الأيسر من جذع الدماغ و الآخر إلى الأيمن، و لكل واحد منهما أربعة موصلات. يبعد كل موصلٍ عن الآخر بنحو ميليمترين و يمكن تحفيز كل موصلٍ على حِدة بتمرير تيار كهربائي. و عند الشروع بالتحفيز في موقع كلّ موصلٍ ، يصبح من

الممكن تحديد أي الموصلات يولّد أعلى مستوى من التحسّن دون أي أعراض غير مستحسنة.

القصة المثيرة الني سأقصّها عليكم تتعلق بمريضةٍ درس حالتها زميلي إيف آجيد Yves Agid و فريقه في مشفى سالبترييرSalpetriere بباريس. كانت المريضة امرأة في الخامسة و الستين من العمر مع تاريخ طويل من أعراض الباركنسون لم يعد يجد معها الليفودوبا نفعًا. لم تعان المريضة من الاكتئاب لا قبل و لا بعد حدوث المرض، و لم تشتكِ حتى من تقلّبات المزاج، أحد الأعراض الجانبية المعتادة لليفودوبا. ليس للمريضة أي تاريخ شخصي أو عائلي من الأمراض النفسية. حين وُضِعت المسار في مكانها، سار الإجراء على نحو مماثل عند تسعة عشر مريضًا عولجوا من قبل الفريق الطبي ذاته. وجد الأطباء أنّ موصلًا مسريًا واحدًا قد نجح، بشكلٍ كبير، في معالجة أعراض المريضة. لكنَّ ما لم يكن متوقعًا حصلَ حين مر التيار الكهربائي خلال إحدى مواقع الموصلات الأربعة في الجانب الأيسر، و تحديدًا، تحت الموصِل الذي خفف أعراضها بمليمترين. أمسكت المريضة عن الكلام بغتةً، أرخت بصرها إلى جانبها الايمن، انحنت قليلاً إلى اليمين، وكَسَت تعابيرها مسحة الحزن. و بعد ثوانٍ، شرعت فجأة بالبكاء. جرت دموعها فيّاضة و اعتراها أسى بالغ، ما لبثت أن نشجت بعده. استمر

بعدها عرضٌ حزين ظلت تتحدث خلاله المريضة عن الحزن العميق الذي انتابها، عن عوَزها الشديد للطاقة بالشكل الذي يستحيل معه المضي قدمًا، و عن قنوطها وإرهاقها. حين سئلت عما بها، جاءت كلماتها كاشفةً:

إنّني أسقطُ في داخلي، لم أعد أرغب بأن أحيا، ولا أن أرى وأسمع وأشعر بأيّ شيءٍ...

سئمتُ الحياة، لا أحتمل المزيد...

لا أرغب بالعيش بعد اليوم، عافت نفسي هذه الحياة..

لا شيء يجدي .. أشعر بالتفاهة.

مرتعبةٌ أنا في هذا العالم.

أريد أن اختبأ في زاويةٍ ما... أتحسر على نفسي، طبعًا..

لا أمل يرجى، لِمَ أكلفكم عنائي؟

أدرك الطبيب المسؤول إنّ هذا الحدث غير المألوف ناتجٌ عن التّيار، وأنهى الإجراء. عاد سلوك المريضة إلى طبيعته بعد مضي نحو ثلاثين ثانية على انقطاع التيار. كفّ النشيج فجأة، تمامًا كما بدأ. تبدّد الحزن عن محياها، كذلك انتهى السرد الشفهيَّ عن الحزن. بسرعة البرقِ، ابتسمتْ وانفرجت أساريرها، وخلال الدقائق الخمسة التالية، كانت فكهةً و مزّاحة أيضًا. تساءلتْ: ما شأنَ كلِّ الّذي حصل؟ لقد كانت مستاءة، لكنها لم

تَدرِ ما السبب. ما الذي أثار يأسها غير المضبوط؟ كانت حائرة بقدر ما كان مراقبوها.

مع ذلك، فالجواب عن أسئلتها كان واضحًا بما فيه الكفاية: لم يمر التيار الكهربائي ببنى التحكم الحركي كما كان مزمعًا. عوضًا عن ذلك، مر التيار عبر واحدة من نوى جذع الدماغ الّتي تتحكم بأنواع محددة من الأفعال. تنتج هذه الأفعال، كمجموعة، عاطفة الحزن. تشمل هذا الذخيرة حركاتٍ لعضلات الوجه، حركات الفم و البلعوم و الحنجرة و الحجاب الحاجز، المسؤولة عن البكاء و النشيج؛ بالإضافة إلى أفعال متنوعة تنتهي بتوليد الدموع و التخلّص منها.

يبدو الأمر مذهلا كما لو أنّ مفتاحًا دارَ داخل دماغها حين أُديرَ مفتاحٌ خارجه. انخرط مخزن الأفعال هذا بأكمله في حفلة موسيقية مُمرَّنةٍ جيّدًا لا تَعدو أي خطوة فيها عن الزمان أو المكان الملائمين لها، بحيث يظهر الأثر مسفِرًا عن وجود أفكار تسبب الحزنَ أيا كانت النوايا و الأغراض، أي وجود محفز مختصّ بالعاطفة. إلاّ أنّ المريضة ما اختبرت ، بكل تأكيد، أفكارًا مماثلة قبل هذه الحادثة غير المتوقعة وما كانت معرّضة لاختبارها عفويًا، فقد ظهرت الأفكار المتعلّقة بالعاطفة *بعد* بداية العاطفة.

قد يعجب هاملِت من قدرة الممثّل على استحضار عاطفةٍ غير مدفوعة بسبب شخصية:

"أليسَ ممّا يبعث الدهشةَ أن يقفَ هذا الممثلُ،
في قصةٍ خرافيةٍ، وأشواقه حلمٌ،
ليجعلَ روحه تطيعُ ما تتوّهم،
ليبلغ من تأثّره أن يعلوَ الشُحوب وجهه ،
وتمتلىء بالدموع عيناه ،ويذهلَ محيّاه، ويتهدّج صوته،
وكلُّ كيانهِ يناغمُ توهمّاته؟"

لم يكن للممثل أي سبب شخصي لينفعل — كان يتحدث عن مصير شخصية تدعى هيكوبا Hecuba و كما يقول شكسبير : " ما شأنه بهيكوبا وما شأنها به ليبكيَ ؟". على أية حال، يبدأ الممثل أدائه باستدعاء أفكار حزينة تثير بدورها العاطفة و تساعده على تأديتها بحرفيّة. لكن، لا يطابق ما سبقَ القضيةَ الغريبة للمريضة [أعلاه]، إذ لم يسبق عاطفتها "توهمٌ" conceit، ولم يحفّز سلوكها أي أفكار على الإطلاق، لم يتناه لذهنها، تلقائيا، أفكارٌ مؤرقة و لم يطلب منها استحضار صورٍ مربكة. حقًا، ظهرَ عرضُ الحزن، بكل تعقيده البهيّ، من لا شيء. و لا يقل عن هذا أهميةً ملاحظة أنّ *مشاعر* الحزن انتابت المريضة *بعدما* دخل عرض الحزن في حيّز التنفيذ. و كملاحظة أخرى لا تقلّ أهميةً،

بعد أن بلّغت عن شعورها بالحزن، امتلكت أفكارًا متسّقة مع الحزن هذا— القلق بشأن حالتها الصحية، الإجهاد، اليأس، خيبة أمل حياتية و تمنّي الموت .

يبيّن تتابع الأحداث عند هذه المريضة حدوث عاطفة الحزن أولًا، ثمّ تبعها شعور الحزن مصحوبًا بجمع من الأفكار التي تسبب و تصاحب عاطفة الحزن عادةً؛ الأفكار المميزة للحالة العقلية التي نصفها بالتعبير العامي: "بالشعور بالحزن". ما إن توقف التحفيز إلّا و قد خبت هذه المظاهر. اختفت العاطفة و كذلك الشعور. لم يعد للأفكار المقلقة وجود أيضًا.

تبدو جليّةً أهميةُ هذا العارضِ العصبيّ النادر: في الأحوال العادية، تجعل السرعة التي تنشأ بها العواطف وتفتح الطريق نحو المشاعر والأفكار المتعلّقة، [تجعلُ] تحليل تتابعِ الظاهرةِ هذه على قدرٍ من الصعوبة. حين تظهرُ في العقلِ أفكارٌ مسبِّبة، عادةً، للعواطفَ، فإنّها تسبّبُ ظهور العواطف، ما يولّد المشاعرَ الّتي تستدعي أفكارًا أخرى مرتبطة موضوعاتيًا thematically بالحالة العاطفية، وتسهمُ في تضخيمها. قد تعمل الأفكار المستدعاة كمثيرات مستقلة لعواطف إضافية و بالتالي، تنشّط الحالة التفاعلية الجارية. المزيد من العواطف يولّد المزيد من المشاعر، و تستمر الدورة إلى أن يوقفها تدخل العقل أو تشتت

الانتباه. بالوقت الذي تبلغ فيه كل هذه المجموعات من الظواهر أوّجها– الأفكار المسببة للعاطفة، سلوكيات العاطفة؛ الظاهرة العقلية التي نسميها مشاعرَ؛ و الأفكار التالية للشعور— يصعب علينا أن نميز بالاستبطان introspection أيّها بدأت قبل غيرها. تساعدنا حالة المريضة تلك بأن نرى الأمور مدموجةً: فهي لم تكن تملك أفكارًا مسبِّبة للحزن ولا أيّ مشاعر حزنٍ سابقة للعاطفة المسمّاة حزنًا. تشيرُ المعطيات هذه إلى الاستقلالية النسبية للآليات العصبية التحريضية للعواطف، ولتبعية الشعور للعاطفة.

وقد يسأل سائل: لِم قد يستدر دماغ المريضة الأفكار الجالبة، بطبيعتها، للحزن علمًا إنّ العاطفة و الشعور غير مدفوعَين بالمنبّه الملاءم؟ الإجابة تتصّل بتبعية الشعور للعاطفة و بالأساليب المثيرة لذاكرة المرء. سرعان ما يتبعَ شعورُ الحزن تفعيلَ عاطفة الحزن. باختصار، يستجلب الدماغ أيضًا ضروبا من الأفكار المسببة عادةً لعاطفة الحزن و شعور الحزن، لأنّ التعلم الترابطيّ قد ربط العواطف في شبكة غنية ثنائية الاتجاه. تبث أفكارٌ معينةٌ عواطفَ معينةً و العكس صحيح، وتترابط مستويات المعالجة العاطفية و تلك الإدراكية باستمرارٍ على هذا النحو. بمكن إثبات هذا التأثير تجريبيًا كما وضّحت دراسة لبول

إيكمان Paul Ekman وزملائه: سأل إيكمان المشاركين أن يحركوا عضلات وجهية معينة في تتابع معين، بحيث يصبح التعبيرُ تعبيرَ حزن أو سعادة أو خوف دون علمهم. لم يدر المشاركين أيّ التعابير ارتسمت على وجوههم. لم يَعرض لعقولهم أفكارٌ من شأنها أن تسبب العاطفة المرتسمة. ورغم ذلك، شعر المشاركون بشعور ملائم للعاطفة المعروضة[44]. بلا شك، نشأت أقسامٌ من النمط العاطفيّ أولاً، و كانت تحت سيطرة الباحث ولم يقم المشارك بالحثّ عليها. وقد لحقها بعضٌ من الشعور فيما بعد. يتماهى كل هذا مع حكمة رودجرز Rodgers و هامرستاين Hammersteinولنتذكّر بأنهما قد دفعا آنّا Anna (و التي قدمت لملكة سيام لتعليم أطفال ملكها) لتقنع نفسها و صغيرها المرتاع بأن الصفير بنغمٍ سعيد سيُحيل خوفهما ثقةً: " كانت نتائج هذه الخدعة غريبة بالفعل. لأنني حين أخدع من أخشاهم، أخدع نفسي أيضًا". تمتلك التعابير العاطفية "المعمول بها" وغير المدفوعة بدوافع نفسية القوةَ لأن تسبب الشعور. تستدعي التعابير المشاعرَ و نوع الأفكار التي تَعلّمنا انّها متلامة مع هذه التعابير.

من وجهةِ نظرٍ ذاتية، يشبه حال المريضة بعد تفعيل المسرى "الصفرَ على الشمال" ، إذ يشبه تلك الحالات حين نجد

أنفسنا واعين بمزاجنا ومشاعرنا، ولكن غير قادرين على اكتشاف السبب. كم مرة لاحظنا، في لحظة معينة من يوم معين، أننا سعداء و مفعمون بالأمل و الحيوية دون أن نعرف السبب؟ أو على العكس، أننا نزقون و حزينون؟ في هذه الأحايين، يُحتمل أن الأفكار المقلِقة أو الواعدة كانت تعمل خارج حقل وعيِنا . ومع ذلك، يكون بامكانها أن تحرّض ماكينة العاطفة و تاليًا الشعور. وقد ندرك أحيانًا منبع هذه الحالات التفاعلية وقد لا ندرك أحيانًا أخرى. و لأمدٍ غير قصير من القرن العشرين، هرع الكثيرون إلى أرائك المحللين النفسيين ليعرفوا المزيد عن أفكارهم اللاواعية وبالمثل عن صراعاتهم اللاواعية المسبّبة لتلك الأفكار. أمّا في أيامنا هذه، فلا يجد أغلب الناس مناصًا من التسليم بوجود المزيد من الأفكار المجهولة في عقولنا يفوق ما يستطيع هوراسيو، صديق هاملت، تصوره يومًا ما في فلسفته. لما نفشل في التعرف علًى الفكرة المُسبِّبة للعاطفة، تجتاحنا العواطف و المشاعر غير المفسَّرة. لحسن الحظ، عادةً ما يكون هذا النوع من العواطف والمشاعر أقل حدةً و فظاظة.

درست مجموعة الأطباء و الباحثين المسؤولة عن حالة المريضة حالتها الغير معتادة بشيء من التفصيل[45]. تحفيز أيٍّ موصلٍ آخر للمسارِ المزروعة في هذه المريضة لا يسفر عن أي

نتيجة غير متوقعة، و كما أسلفنا، لم يحصل شيء مماثل في المرضى التسعة عشر الذين عولجوا بالطريقة ذاتها. تثبّت الأطباء من الحقائق التالية بعد أن فحصوا المريضة، بموافقتها، في مناسبتين إضافيتين: أولًا، عندما أخبروها أنهم يحفّزون موصل المماس الملغَز إلا أنهم كانوا في الواقع يديرون مفتاح مسرى آخر؛ لم يحصل تغير سلوكي من أي نوع، ولا شيء غيرُ اعتيادي في ما لاحظوه أو في ما أبلغتهم عنه المريضة. ثانياً، عندما أداروا الموصل الملغَز مجددًا دون إنذار، أعيد إنتاج نفس مجموعة الأحداث الحاصلة في الملاحظة الأولى غير المتوقّعة. هكذا، بدا من الواضحِ أنّ تثبيت المسرى وتفعيله يرتبطان بظهور الحادثة.

كما أجرى الباحثون أيضًا دراسة تصوير دماغي وظيفي باستخدام التصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني positron- emission tomography) بعد تحفيز الموصل "الصفر على الشمال". إحدى الاكتشافات الهامة ملاحظةُ النشاط الكبير لتراكيب في الفص الجداري الأيمن، و هي منطقة على صلةٍ بتخريط حالة الجسد، تحديداً تخريطه في الحيّز Space. على الأغلب؛ يرتبط هذا النشاط بالتغيّر البالغ في حالة جسد المريضة و الذي بلّغت عنه مرارًا خلال التحفيز، بما في ذلك إحساسها بالسقوط في هاوية.

دائمًا ما تكون القيمة العلمية لدراسات الحالة - لا سيما لمريض واحد- محدودة. يشكل هذا الدليل عادةً نقطة بداية لفرضيات جديدة و استكشافات متواصلة عوضًا عن كونه ختام الدراسة. مع ذلك، فالدليل المستقى من هذه الدراسة قيّم للغاية. فهو يدعم التوجه الذي يرى إمكانية تحليل عناصر عمليات العاطفة و الشعور، كما أنه يرسّخ مقولةً رئيسيةً في العلوم العصبية الإدراكية: تنتج أي وظيفة عقلية معقَّدة من مساهمات مُتناغمةٍ لعّدة مناطق دماغية وفق مستويات مختلفة للجهاز العصبي المركزي بدلًا من نشاط منطقة دماغية واحدة مدرَكة بشكل تفرّسيًا phrenological.

مفتاح جذع الدماغ

من غير الواضح إطلاقًا أيّ نواة في جذع الدماغ أطلقت التفاعل العاطفي لدى هذه المريضة. يبدو بأن الموصَل الملغَز قد مر عبر المادة السوداء مباشرة، لكن يُحتمل أن يكون التيار الكهربائي نفسه قد مرّ في مكانٍ متاخم. يعدّ جذع الدماغ منطقة صغيرة جدًا من الجهاز العصبي المركزي و هو مزدحم بالنواة و

الدارات المعنيّة بوظائف شتى. بعضها ضئيل جدًا، و قد يقود أي اختلاف عن التشريح المعياري إلى إعادة توجيه مسار التيّار بشكل مؤثر. لكننا لا نشك ببدء الحدث من الدماغ المتوسط ليستدعي بعدها، تدريجيًا، النوى اللازمة لإنتاج مكونات عديدةٍ للعاطفة. بل من الممكن أيضًا، اعتمادًا على ما عُرف من التجارب الحيوانية، أن تكون نوى المنطقة المسماة بالمادة السّنجابية المحيطة بالمَسَال periaqueductal gray مرتبطة بالانتاج عالي التنسيق للعاطفة. وعلى سبيل المثال، نعرف أن أعمدة مختلفة من السنجابية المحيطة بالمسال منوطة بإنتاج أشكال مختلفة من تفاعل الخوف— إما الشكل الّذي ينتهي بسلوكيات الكرّ و الفر أو، بالمقابل، بسلوكيات الجمود. قد ترتبط السنجابية المحيطة بالمسال بتفاعل الحزن أيضًا. و على أي حال، تبدأ سلسلة تفاعلات من أيٍ من نواة الدماغ المتوسط المتعلقة بالعاطفة، لتشمل سريعًا بعدئذ أجزاءً جسدية شتّى — الوجه و الصوت و التجويف الصدري. ولا يفوتنا أن نذكر الأجهزة الكيميائية التي يصعب مراقبتها مباشرة. تؤدّي التغيرات إلى حالة شعورية معينة. بالإضافة إلى ذلك، استحضرت المريضة أفكارًا متسقة مع الحزن أثناء تكشّف عاطفة الحزن و شعور الحزن. لقد بدأت سلسلة الأحداث في منطقة تحت قشريّة عوضًا عن أن تبدأ في القشرة الدماغية، إلّا إنّ أثارها مشابهة لما قد يحصل نتيجة للتفكير

بحدث أليم أو نتيجة معاينته. و إن شهدها أحدهم في تلك اللحظة فحسب، فلن يكون قادرًا على تمييز ما إذا كانت حالةً طبيعيَّة من الشعور بعاطفة emotion-feeling أو حالة شعور بالعاطفة خلقتها براعة ممثلة قديرة، أو حالة شعور بالعاطفة أدارها مفتاح كهربائي.

ضحكٌ مفاجئٌ

لئلا نظن بأن الحزن و البكاء مميزين للغاية، سأضيف بأن دراسة[46] أجراها اتزاك فريد Itzhak Fried أوضحت أن الضحك قد ينتج عن ظاهرة مماثلة للحالة الآنفة الذكر، وكانت ظروفها مرتبطة أيضًا بمريضة خاضعة لتحفيز كهربائيّ للدماغ لكن هدفها مختلف بعض الشيء: تخريط وظائف قشرة الدماغ. يمكن مساعدة مرضى الصرع الذين لم تستجب نوباتهم لأيّ دواء، بإزالة المنطقة الدماغية المسببة لتلك النوبات جراحيًا. قبل إجراء الجراحة، لا يتعين على الجرّاح تحديد المنطقة اللازم إزالتها بدقة فحسب، بل يلزمه التعرف على المناطق الواجب عدم إزالتها نظرا لأهميتها الوظيفية، كالمناطق المرتبطة بالكلام. يحصل هذا بتحفيز الدماغ كهربائيًا ومراقبة النتائج.

في حالة المريضة أ.ك، وحينما بدأ الجراحون تحفيز منطقة في الفص الجبهي الأيسر تُعرف بالباحة الحركية الإضافية supplementary motor area، لاحظوا بأن التحفيز الكهربائي لعدد من المواضع المتقاربة يثير، بالتحديد وباستمرار، الضحكَ. كان الضحك أصيلًا للغاية، حتى أنّ المراقبين وصفوه بالضحك بالمُعدي. لم يكن متوقعًا بالمرّة، إذ لم يُعرَض على المريضة ما يثير مضحك و لم تسمع دعابة و لم تفكِّر بشيء طريف. و مع ذلك ضحكت ضحكًا غير مدفوع بأي شيء، ولكنه كان ضحكًا واقعيًا. المثير للدهشة هو أنّ الضحك تلاه "إحساس بالمرح و الجذل" بالرغم من طبيعته العفوية؛ تمامًا كما حصل مع المريضة الباكية. من المثير للانتباه أيضًا عزو المريضة ضحكها لأي شيء صدفت مطالعتها له وقت التحفيز. فمثلًا إن عُرِض على المريضة صورة حصان، ستقول " الحصان مضحك". و في بعض المرات؛ كان الباحثون أنفسهم محفزات مثيرة لعاطفة الضحك، مثل قولها: " أنتم طريفون للغاية يا شباب.. واقفون هكذا".

كانت رقعة الدماغ المنتِجة للضحك صغيرة، لا يعدو حجمها حوالي السنتيمترين طولًا و عرضًا. أمّا في النقاط المجاورة، أنتج التحفيز ظواهر معروفة مثل حبسة الكلام أو توقف حركات

اليد. مع ذلك، لم تسبب هذه التحفيزات الضحك بالمرّة. وعلاوةً على ذلك، يجب أن نلاحظ أن نوبات المريضة السابقة لم تتضمن الضحك مطلقًا.

في ضوء الإطار الموصَّف سابقًا، أظن بأن تحفيز المواقع المذكورة في هذه الدراسة يؤدّي إلى نشاط في نواة جذع الدماغ المنتجة لأنماط الضحك الحركية. لم يتم التعرّف بعد على نوى جذع المخ المحدّدة وتسلسل أنشطتها،لا للضحك ولا للبكاء. تعطينا هذه الدراسات مجموعةً لمحةً عن آليةٍ عصبيةٍ متعددةٍ متدرجة لإنتاج العواطف. بعد معالجة المنبّه المختص بالعاطفة، تستهل المواقع القشرية العاطفة الفعلية من خلال تحريض نشاطٍ في مواقع أخرى، معظمها تحتَ قِشريّة subcortical، و حيث يجري تفعيل العاطفة في نهاية المطاف. بالنسبة للضحك، يبدو بأن مواقع تحريضه الأولية موجودة في المناطق الإنسية الظهرية من قشرة مقدم الجبهة، مواقع كالباحة الحركية الإضافية و القشرة الحزامية الأمامية. بالنسبة للبكاء، أغلب الظن أن مواقع التحريض موجودة بمنطقة مقدم الجبهة البطنية الإنسية. ومواقع التفعيل الرئيسية لكلا الضحك والبكاء موجودة في نواة جذع المخ. بمحض الصدفة، يتفق الدليل المكتشف في دراسة الضحك مع ملاحظاتنا للمرضى المصابين بضرر في الباحة

الحركية الإضافية والجزء الأمامي من القشرة الحزامية، إذ لاحظنا أنهم لا يبتسمون ابتسامةً "طبيعية" — كالضحكة العفوية المثارة بدعابة— بل يبتسمون ابتسامةً مصطنعةً كابتسامة مواجهة عدسة التصوير[47].

تبرهنُ هذه الدراسات المعالَجة هنا على إمكانية فصل مراحل و آليات عملية العاطفة و الشعور — التخمين/ التقييمات المؤديّ لعزل المنبّهات المختصة بالعاطفة، التحريض، التفعيل و الشعور اللاحق. يحاكي المنبّه الكهربائي المصطنع في دراسة الضحك النتائج العصبية الناتجة طبيعيًا عن عزل المنبّه المختص بالضحك، و هذا بفضل نشاط المسارات و المناطق العصبية التي تسندُ معالجة منبّهاتٍ مماثلة و التي تبرزُ في منطقة الباحة الحركية الإضافية. في حالة الضحك الطبيعي، يكون المنبّه داخليًا، أما في حالة المريضة أ.ك. ، فيأتي من طرف مسرى كهربيّ. في حالة المريضة الباكية، تدخّل التحفيز الكهربائي في مرحلة متأخرة، أثناء آلية تفعيل العاطفة، أي على بُعد خطوة على الأقل من مرحلة التحريض.

ضحكٌ و المزيد من البكاء

يسمحُ نوع آخر من الحوادث العصبية بإلقاء نظرةٍ أخرى على مفاتيح جذع المخ للعواطف. إنه متعلق بحالة تدعى الضحك و البكاء المرضي. إنها مشكلة معروفة في تاريخ طب الأعصاب منذ القدم، لكن لم يُتعرَّف عليها تشريحيًا وفيزيولوجيًا إلا منذ عهد قريب. المريض س. مثال ممتاز على هذه المشكلة، و لقد درستُ[48] حالته بالتعاون مع جوزيف بارفيزي Joseph Parvizi و ستيفن آندرسون Steven Anderson .

حين أصيب س. بجلطة دماغية صغيرة في جذع المخ، عدَّه الطبيب المعالج محظوظًا جدًا. فبعض جلطات جذع المخ قاتل و يُخلّف الكثير منها إعاقات مريعة. أما هذه الجلطة تحديدًا فقد سببت مشكلات حركية بسيطة نسبيًا، ومن المحتمل جدا أن تزول. في هذا الصدد، سارت حالة المريض س في مجراها المتوقع. أما ما لم يكن سهلًا و لا متوقعًا فهو العرض الذي عانى منه المريض و عائلته و من اعتنى به مسببًا خسائر فادحة. قد ينفجر المريض س. مقهقهًا أو يشلّه البكاء دون أيّ سبب ظاهر. بالإضافة لكون دافع الانفجار مجهولًا، فقد تعاكس قيمته العاطفية،

تمامًا، جوَّ اللحظة التفاعلي. يمكن للمريض أن ينفجر، حرفيًا، بالضحكٍ وسط محادثة جادة للغاية عن صحته أو شؤونه المالية، دون أن تجدي محاولاته الحثيثة أي نفعٍ لكبت ضحكه. و بالمثل، قد يتفطر قلبه بكاءً وسط محادثة هامشية جدًا و لا يقدر أن يكبح تفاعله مجددًا. قد تتوالى الفورات تباعًا، بحيث لا يكاد س. يلتقط أنفاسه ليقول بأنه فاقدٌ للسيطرة، بأن أيًا من بكائه أو ضحكه لم يكن مقصودًا، و أنه لا يجد مبررًا لهذا السلوك الغريب في أفكاره العقلية. غنيٌّ عن التوضيح أنه لم يكن متصلا بأي تيارات كهربية و لم يُدِر أحدٌ أي مفتاحٍ. مع هذا، فالمحصّلة هي نفسها. نتيجةً لضرر أصاب منطقةً في الجهاز العصبي مكونةً من نوى في جذع المخ و المخيخ؛ تخالج س. هذه العواطف دون سبب عقلي محدَّد و يصعب عليه أن يلجمها. أمر مهم آخر: تنتهي الفورة و يشعر س. بشيء من الفرح أو من الحزن، رغم أنه لم يكن لا فرِحًا و لا حزينًا بداية الأمر، و لم تتملّكه أفكار محزنة أو سارّة. مجددًا، تسبّبت عاطفة غير مدفوعة بشعورٍ و أحدثَت حالة عقلية منسجمة مع مخزون أفعالٍ جسديةٍ.

لطالما كانت الآلية الدقيقة التي تمكّننا من التحكّم بالضحك والبكاء وفق السياق الاجتماعي و المعرفي غامضةً. أماطت دراسةً حالة هذا المريض اللثام عن جزء من الحلّ و بيّنت

أن النواة في الجسر pons والمخيخ تلعب دورًا مهمًّا في آلية التحكم. كما دعّمت دراسات لاحقة لمرضى آخرين بنفس الحالة و بإصابات مماثلة الخلاصةُ هذه. فلنتخيّل آلية التحكّم على النحو التالي: في جذع الدماغ، يمكن تشغيل مفاتيح switch on أنظمة النواة و المسارات من أجل توليد الضحك أو البكاء المقولبين، ومن ثمّ يعدّل نظام آخر في المخيخ أجهزة الضحك و البكاء الأساسية. يتحقق التعديل، مثلا، بتغيير الحد اللازم للضحك أو البكاء و حدّة و مدّة بعض مكونات الحركة و هكذا[49]. في الظروف الطبيعية، يمكن لنشاط القشرة الدماغية أن يؤثّر على النظام — المناطق المتعددة التي تعمل كمجموعة و تمثل في كل مناسبةٍ السياقَ الذي يغدو فيه ملائمًا أن يسبب المحفز المختص بالعاطفة الكثير أو القليل من الضحك أو البكاء. وبدوره، يؤثر النظام على القشرة الدماغية نفسها.

تقدّم حالة المريض س. أيضا لمحةً غير مسبوقة للتآثر بين عملية التخمين التي تسبق العواطف و التفعيل الفعلي للعواطف الذي ناقشناه. يمكن للتخمين أن يعدّل الحالة العاطفية الحاصلة، وبالمقابل، أن يُعدّل بها. عندما تنفصل عمليتي التخمين و التفعيل، كما حصل مع س، تكون النتائج فوضوية.

إن أوضحت الحالة السابقة اعتماد العمليات الذهنية و السلوكية على أنظمةٍ متعدّدة المكونات، فإنّ هذه الحالة توضح كيف تعتمد هذه العمليات على التآثر المعقد بين هذه المكونات. نحن أبعد ما نكون عن وحدانية "المراكز" و عن فكرة أنّ المسار العصبيّ وحيدُ الاتجاه.

من الجسد النّشِط إلى العقل

تحصل الظواهر التي تناولناها في هذا الفصل — العواطف المخصوصة، الشهوات و التفاعلات التنظيمية الأبسط— على مسرحِ الجسد و تحت قيادة دماغٍ وُلِد حكيمًا وصمّمه التطور ليساعد على إدارة الجسم. حدَس سبينوزا هذه الحكمة البيولوجية العصبية و ضمّن حدسه في ملحوظته عن الكوناتوس، و هي المقولة التي تفيد بضرورة سعي كلّ المخلوقات الحية إلى حفظ أنفسها دون معرفة واعية بما تتعهده، و دون قرار واعٍ، كذواتٍ منفردة، بأن تتعهد أي شيء. باختصار، لا تدرك هذه المخلوقات المشكلة التي تحاول حلها. بعد تخريط تبعات هذه الحكمة الطبيعية في الدماغ مجددًا، تكون المشاعر هي النتيجة،

أي المكون التأسيسي لعقولنا. بالأخير، كما سنرى، قد تقود المشاعر سعيًا مقصودًا من أجل حفظ الذات و تساعد في صنع قرارات بشأن المنحى الذي سيتخذه حفظ الذات. تترك المشاعر المجال مفتوحًا لنوع من التحكم الإرادي بالعواطف التلقائية.

يبدو بأن التطوّر قد جمع الماكينة الدماغية للعاطفة و الشعور الدماغية على دفعات. كان السبق للماكينة التي تنتج تفاعلات أمام موقف أو شيء،موجّهة نحو الشيء أو صوب الظروف — هذه هي ماكينة العاطفة. ثم تليها ماكينة تنتج خريطة دماغية متبوعةً بصورة عقلية، أو فكرة، للتفاعلات وللحالة المتحصّلة عند المتعضيّ— وهذه هي ماكينة الشعور.

مكّن الجهاز الأول، العاطفة، المتعضيَ من أن يستجيب بشكل فعاّل و لكن غير خلاق لعدد من الظروف المهددة للحياة أو المعينة عليها — ظروف ونتائج "جيّدة للحياة" أو "سيّئة للحياة". أما الجهاز الثاني، الشعور، فقد أضاف تنبهًا عقليا للظروف الجيّدة أو السيّئة و أطال أثر العواطف عبر التأثير على الانتباه و الذاكرة بشكلٍ ثابتٍ. بالنهاية، وعبر اندماجٍ مثمرٍ مع الذكريات الماضية، الخيال و المنطق، مهدت المشاعر الطريق لنشأة البصيرة و احتمالية خلق استجاباتٍ مستحدثة وغير مقولبة.

وكما هو الحال مع كل جهاز جديد يُضاف، استعملت الطبيعة ماكينة العاطفة كبداية وحضّرَت بضع مكونات إضافية. في البدء كانت العاطفة، إلا أن في بداية العاطفة كان الفعلُ.

3. المشاعر

ماهية المشاعر

في محاولتي لتفسير ما هي المشاعر، سوف أبدأ بسؤال القارىء: حين تأخذ بالإعتبار شعورًا ما كنت قد اختبرته، ممتعًا كان أم لا، قويًّا أم لا، ماذا تتوقع أن تكون مضامين هذا الشعور؟ لاحظوا أنني لا استفسر حول سبب الشعور، أو شدّته، أو حول تكافؤه الموجب و السالب، أو حول الأفكار التي تخطر على بالك في أعقاب الشعور. في الواقع، أقصدُ المضمون العقليّ، المكوّنات، و المواد التي تصنع شعورًا.

بهدفِ استيعاب هذه التجربة، دعوني اقدّم بعض الاقتراحات: تصوّر أنك مستلقٍ على الرمال، شمسُ الأصيل تدفئ بشرتك، مياه المحيط تغطّي قدميك، و حفيف الصنوبرةِ يصوّت في مكانٍ ما خلفكَ، ونسيم صيفيّ يهبّ، درجة الحرارة 78 فهرنهايت، و السماء بلا غيومٍ. خذ وقتك و تذوّق التجرّبة. أفترضُ إنّك لن تشعر بالضجر، بالأحرى سوف يتملّكك شعورٌ جيّدٌ، جيّدٌ إلى حدّ الإفراط على حد قولِ صديقٍ لي، و السؤال هو ممّا يتكوّن هذا "الشعور الجيّد"؟ هاهنا قليلٌ من الأفكار: ربّما كان دفء بشرتكَ ناعمًا، تنفسّك هيّنًا، الى الداخل و الى الخارج، لا تعيقه أيّ مقاومةٍ في الصدر أو الحلق، وعضلاتك كانت مسترخيةً إلى

حدٍّ لن يمكنك الإحساس بأي شدٍّ في المفاصل؛ يشعر الجسدُ بالهفافةِ، هوائيٌّ و هو على الأرضِ. بإمكانك أن تعاين المتعضيّ ككلٍّ و أن تحسّ إشتغاله الآليّ بليونةٍ، من دون شوائب وألم، و بكمالٍ بسيطٍ. لديكَ الطاقة كي تتحرك ولكنّك، بطريقةٍ ما، فضّلتَ أن تبقى ساكنًا، في دمجٍ انسجامٍ تناقضيّ بين القدرةِ والميل الى الفعل و بين الإلتذاذ بالسكون. بإختصار، شعرَ الجسدُ بشكلٍ مختلف على طول عددٍ من الأبعادِ. كانت بعض الأبعادِ ظاهرةً جدًا بحيث أمكنك تحديد مواقعها. أبعادٌ أخرى كانت مربِكةً أكثر. مثلاً، تشعر بأنك على ما يرام والألم غائبٌ، و على الرغمِ من كون الجسدِ وتشغيلاته operations موقع الظاهرةِ، فقد كان الإحساسُ منتشرًا جدًا بحيث كان من الصعب أن نصف بدقّةٍ أين كان يحدث ذلك في الجسد.

ثمّ كانت هناك نتائج عقلية لهذه الحالة من الوجود الموصوفة آنفًا. حين يكون بإمكانك أن توجّه انتباهك بعيدًا عن محض رفاهِ اللحظةِ، و حين تستطيع أن تعزز التمثيلات الذهنية التي لم تلج مباشرةً إلى جسدكَ، سوف تجد أن ذهنك قد امتلأ بالأفكار التي خلقت موضوعاتها موجةً جديدةً من المشاعر السارّة. إنّ صورة الحدث التي كنت تتشوّقها كانت قد ولجَت ذهنكَ، كما فعلت المشاهد التي تمتعتَ بتجربتها في السابق. و

سوف تجدُ أيضًا أن مزاجكَ كانَ جيدًا و فرِحًا. لقد اعتمدتَ نمطَ تفكيرٍ حيث كان للصورة موضِعًا دقيقًا و تتدفق بغزارةٍ و سلاسةٍ. لدينا نتيجتان لكل هذا الشعور الحسَن: ظهور الأفكار ذات *الموضوعات التي تتواءم مع العاطفة* ؛ و *نمطَ تفكيرٍ*، *أسلوب معالجة عقلية* يزيد من سرعة توليد الصورة و يجعل الصورَ فيّاضةً أكثر. كنت تمتلك، كما ووردوورث Wordsworth في "كنيسة تنترن Tintern Abbey"، " أحاسيسَ حلوة تجري مجرى الدمِ، تهيمُ في مسرى القلبِ" و وجدتَ أن هذه الأحاسيس كانت " تنفذ إلى أصفى أصقاع ذهنك و هي تعيدُ السكون". ما ترى، بالعادة، انه "جسد" و "عقل" يتداخلانِ متناغمين، وكلّ صراعٍ بينهما يبدو الآن باهتًا، وكل التعارضات تبدو أخف.

أريد أن أقول إنّ ما يحدد الشعور الممتِع لتلك اللحظات، ما يجعل الشعور يستحق هذه التسمية و أن يكون مختلفًا عن أيّ فكرة أخرى، هو التمثيل الذهني لأجزاء من الجسد، أو لكل الجسد المشتغلِ بطريقةٍ ما. كان الشعور، في محض معناه الدقيق، *فكرة الجسدِ الموجود بطريقةٍ ما.* في هذا التعريف، بالإمكان أن نستبدل فكرة "الفكر" و "الادراك". متى ما نظرنا أبعدَ من الموضوع الّذي سبّب الشعور و الأفكار ونمط التفكير الناشىء

عنه، فإن صميم الشعور يصبح واضحًا، إذ تتألف مضامينه من تمثيلِ حالةٍ محددةٍ من الجسد.

التعليق عينه يمكن أن ينطبق بالتمام على مشاعر الحزن، مشاعر كلّ تفاعل آخر، مشاعر الشهوات و أي تشكيلة من الإستجابات المنتظمة التي تتكشّف في المتعضيّ. تنبع المشاعر، بالمعنى المستخدم في هذا الكتاب، من أي تشكيلة من الإستجابات الإستتبابية، و ليس فقط من العواطف المخصوصة. إنّ المشاعر تنقل حالة الحياة المستمرة إلى لغة العقل. و أفترض وجود "طُرُقُ جسدٍ" متمايزة تنتج عن الاستجابات الاستتبابية المختلفة، من البسيط إلى المعقّد. كما توجد موضوعات مسبِّبة ، أفكار متمايزة تنتج عنها ، و أنماط تفكير متناغمة. يترافق الحزن، على سبيل المثال، مع معدّلات انتاج صورٍ منخفضةٍ، و مع إنتباهٍ مفرطٍ للصور، بدلاً من تغيّر سريع للصور و مدى إنتباه قصيرٍ يتماشى مع سعادة عالية. المشاعرُ إدراكاتٌ ، وأفترضُ أن الحامل الأكثر ضرورةً لإدراكها يحصل *في خرائط جسد الدماغ* brain's body maps . تحيلُ هذه الخرائط إلى أجزاءٍ و حالاتٍ من الجسد. وإنّ بعضًا من التغيّر في المتعة و الألم هو محتوى متسّقٌ لإدراكٍ نسمّيه الشعور.

إلى جانب إدراكِ الجسد هناك إدراكُ الأفكار و الموضوعات المتناغمة مع العاطفة، و إدراكٌ لنمط معيّن من التفكير، وأسلوبُ معاجلةٍ ذهنية. كيف يحصل هذا الإدراك؟ إنّه ينتجُ عن بناءِ ميتا-تمثيلاتٍ metarepresentations لعمليتنا العقلية الخاصة، عملية على مستوى عالٍ حيث يمثّلُ جزءٌ من العقلِ جزءًا آخرَ منه. هذ ما يسمح لنا بتسجيل واقعةِ أن أفكارنا تتباطىء أو تتسارع بمقدر ما يكون الإنتباه مكرّسًا لها أو لا؛ أو واقعة أنّ الأفكارَ تصفُ الأشياء و الأحداث عن قرب أوعن بعد. بالتالي، إنّ فرضيتي المتمثّلة على شكل تعريفٍ مؤقّت، تفيد أنّ *الشعور هو إدراكُ حالةٍ ما للجسد الى جانب إدراكِ نمطٍ معيّن من التفكير و من الأفكار ذات بعض الموضوعات*. يظهر الشعور حين يبلغُ التراكم الهائل للتفاصيل المخرّطة طورًا ما. من منظورٍ مختلف، تلتقط الفيلسوفة سوزان لانجر Suzanne Langer طبيعة لحظة الظهور تلك بالقول أنه حين تصل نشاطية بعض أقسام النظام العصبي إلى "نقطة حرجة" critical pitch يتم الشعور بالعملية[50]. الشعور هو نتيجة عملية الاستتباب المستمرة، الخطوة التالية في السلسلة.

لا تتوافق الفرضية أعلاه مع النظرة التي ترى أن ماهية المشاعر (أو ماهية العواطف حيث تُعامَل هذه و المشاعر

كمترادفين) هي مجموعة من الأفكار مع بعض الموضوعات المتناغمة مع علامة شعور معينة، مثل أفكار مواقف الخسران في حالة الحزن. إن كانت المشاعر، بالأحرى، تجميعات clusters أفكارٍ مع بعض الموضوعات، كيف يمكن تمييز هذه الأفكار عن الأفكار الأخرى؟ كيف يمكنها الإبقاء على التفرّد الوظيفي الذي يسوّغ مكانتها كعملية عقلية مميّزة؟ أرى أن المشاعر متمايزة وظيفيًا لأن ماهيتها تتألف من الأفكار التي تمثّل الجسد المنخرط في عملية تفاعلية. احذف تلك الماهية و سوف تتلاشى مقولة المشاعر. احذف تلك الماهية و لن يسمح المرء لنفسه بأن يقول " أشعر" بالسعادة، بل بالأحرى، "أفكّر" بالسعادة. ولكنّ هذا الإستدعاء يبدو سؤالاً مشروعًا: ما الّذي يجعل الأفكار "سعيدة"؟ إن لم نختبر حالة جسديةٍ معينة مع كيفية محدّدة نسمّيها متعة، و حيث نجد "الجيّد" و "الايجابي" داخل إطار الحياة، فإنه لن نملك أيّ سبب لنعاين فكرة ما على انها سعيدة أو حزينة.

كما أرى، إنّ *أصلَ* الإدراكات التي تكوّن ماهية الشعور واضحٌ: هناك موضوعٌ عام، الجسد، و هناك أجزاءٌ عديدة لهذا الموضوع تكون وبشكلٍ مستمرٍ مخرّطةً في عددٍ من بنى الدماغ. واضحةٌ هي أيضًا *مضامين* تلك الإدراكات: حالات الجسد المتنوعة التي تمثّلها خرائط ممثّلة للجسد إلى جنب نطاقٍ من الإحتمالات.

على سبيل المثال، البنى الصغرى و البنى الكبرى للعضلات المشدودة هي مضمون مختلف عن العضلات المسترخية. الأمر عينه يصحّ على حالة القلب حين ينبض بسرعة أو ببطء، وعلى وظائفَ الأجهزة الأخرى – التنفسيّ، الهضميّ – التي يمكن لعملها أن يجري بشكلٍ سلسٍ و متناغمٍ، أو بصعوبةٍ و بتنسيقٍ واهنٍ. مثلٌ آخر، وربّما الأهم، هو تركيبة الدم بالتناسب مع بعض الجزيئات الكيميائية التي تعتمد عليها حياتنا، والتي يتم تمثيل كثافتها، لحظةٍ بلحظة، في مواقعِ محددة في الدماغ. إنّ الحالات الخاصة لمكوّنات الجسد تلك، كما يتم توصيفها في خرائط الدماغ الجسدية، هي مضمون الإدراكات التي تكوّن المشاعر. إن *الركائز substrates* الفورية للمشاعر هي تخريطات للسمات الضخمة لحالات الجسد في المواقع الحسية المصمّمة لإستقبال اشاراتٍ من الجسد.

قد يعترض أحدهم على اننا لا نستوعب بشكلٍ واعٍ إدراكَ كل حالات أقسام الجسد تلك. شكرًا للرب حقًّا! فنحنُ لا نستوعبها كلّها. نحن نختبر بعضها على وجه التحديد، وليس دائمًا بشكلٍ ممتع – *إيقاعات* قلبٍ مضطربة، تقلّصات إمعاء *مؤلمة*، الى ما هناك. ولكن، بما يخص أغلب المكوّنات الأخرى، أفترضُ اننا نختبرها بشكلِ "مركّب". تسجّل بعض نماذجِ الوسط الكيميائي

الداخلي، مثلاً، مشاعر خلفيةٍ للطاقة، للتعب، أو التوعّك. كما انّنا نختبر تشكيلة من التغيّرات السلوكية التي تتحوّل إلى شهوات و اشتهاءات cravings. من الواضح اننا لا "نختبر" مستوى الغلوكوز في الدم والّذي ينخفض الى ما دون الحدّ المقبول، ولكننا نختبر بسرعة نتائج هذا الانخفاض: ظهور بعض السلوكيات (شهوة الطعام مثلاً)، العضلات التي لا تطيع اوامرنا، وشعورنا بالتعب..الخ

إن تجربةَ شعورٍ ما، المتعةُ مثلاً، تعني أن ندرك الجسد بإعتباره كائنًا بطريقةٍ ما، وأن ندرك الجسد كيفما كان يتطلب خرائطَ حسّية حيث تُقدَم النماذج العصبية كمثلٍ و من خلالها يمكن ان تُستمَد الصور العقلية. أنبّه إلى أن عملية نشوء الصور هذه عن النماذج العصبية ليست مفهومةً تمامًا (هناك فجوة في فهمنا سوف نناقشها في الفصل الخامس). لكننا نعرف بما فيه الكفاية أن نفترض أن العملية مسنودة بركائز معرَّفة – في حال المشاعر، والخرائط العديدة لحالة الجسد في مواقع دماغية متعددة – وبالتالي تستلزم تآثراتٍ معقّدة بين المواقع هذه. وليست العملية محصورة في ناحيةٍ دماغية واحدة.

بإختصار، المحتوى الماهوي للمشاعر هو تخريطُ حالة جسد محددة؛ وركيزة المشاعر هي تشكيلة نماذج عصبية تخرّطُ

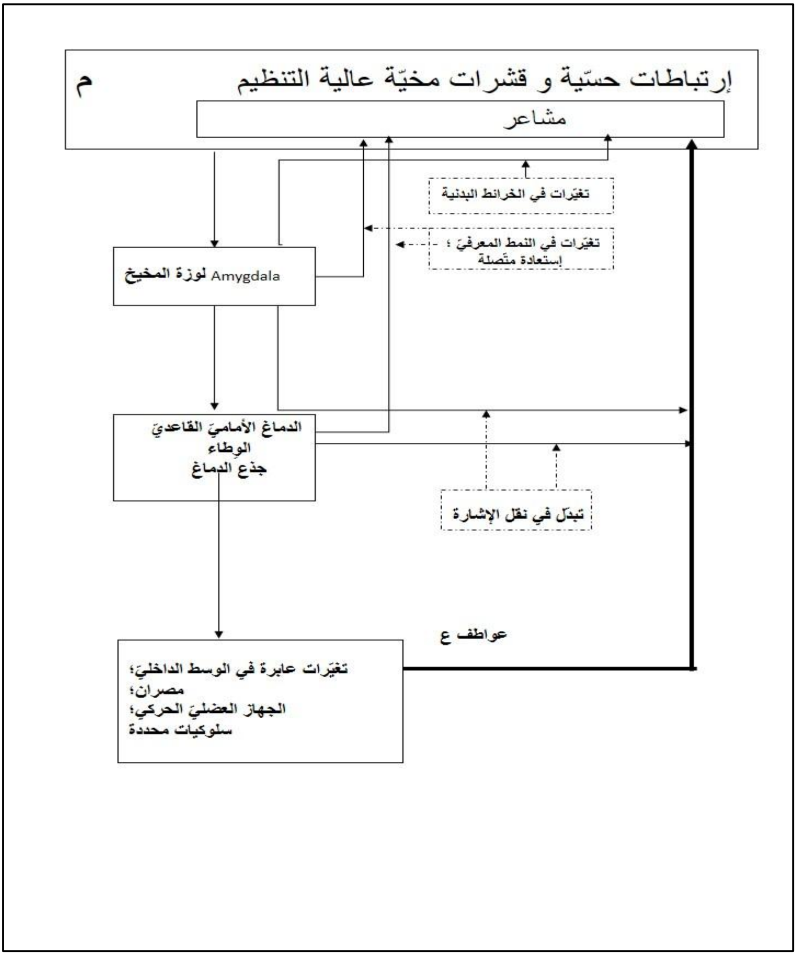
حالةِ الجسد و منها يمكن أن تظهر صورة عقليةٍ لحالةِ لجسد. الشعور، في ماهيته، فكرة – فكرة الجسد، وبتحديد أكبر، فكرة مظهرٍ محدد من الجسد، باطنه، في بعض الحيثيات. إن شعور بعاطفةٍ ما هو فكرة الجسد حين يكون مضطربًا بعملية عاطفيةٍ. وكما سوف نرى في الصفحات التالية، إنّ تخريطَ الجسد الذي يكوّن الجزء الحاسم من هذه الفرضية هو أبعد من أن يكون فوريًا كما تخيّل وليم جيمس مرّة.

هل هناك مشاعر أكثر من إدراك حالةِ الجسد؟

حين أقول أن المشاعر تتكوّن، بشكلٍ كبير، من إدراكِ حالة جسدٍ محددة أو أنّ إدراك حالة الجسد يشكّل ماهية الشعور، فإنّ استخدامي للعبارتين "بشكلٍ كبير" و "ماهية" ليس بعرَضيّ. يمكن التقاط علّة التدقيق هذا من فرضية-تعريف المشاعر التي ناقشناها. في العديد من الشروط، بالأخصّ حين يكون هناك وقت قليل أو حين لا يكون هناك أيّ وقت لإمتحان المشاعر، تكون المشاعر فقط إدراكًا لحالة جسد معيّنة. و مع ذلك، في شروطٍ أخرى، تتعهّدُ المشاعر إدراكَ حالة جسدٍ معيّنة و إدراكًا *لحالة* ذهنٍ محددة تصاحبها- [أي] التغيّرات في أنماط التفكير التي

أشرتُ إليها سابقًا كجزءٍ من نتائج الشعور. ما يحصل في هذه الظروف هو أنّه تتوفّر لنا صور الجسد على ما ما هو عليه، و بالتوازي، صورُ أسلوب تفكيرنا الخاص.

في بعضِ ظروفِ الشعور، ربَما في التنوّع الأكثر تطوّرًا للظواهر، لا تكون العملية سهلةً بالمرّة؛ وهي تشمل التالي: حالات الجسد التي هي ماهية الشعور و التي تمنحه محتواه المتمايز؛ أنماط التفكير المتغيّرة التي ترافق إدراك حالات الجسد الماهوية؛ و نوع الأفكار التي توافق، من حيث الموضوع، أجناس العواطف التي تم الشعور بها. في ظروفٍ كهذه، إن أخذنا كمثلٍ الشعور الايجابي، يمكننا القول أنّ العقل يمثّل أكثر من العافية well-being، فهو يمثّل أيضًا حسنَ التفكير well-thinking. يشتغل الجسدُ بشكلٍ متناغمٍ، أو هكذا يقول العقل، و قوى تفكيرنا تكون إمّا في أعلى فاعليتها أو يمكن حملها على أن تكون كذلك. بالمثلِ، لا يفيد الشعور بالحزن مجرّد توّعكٍ في الجسد، أو نقصٍ في الطاقة من أجل الاستمرار؛ يتعلق الأمر غالبًا بنمط تفكير عاجزٍ يماطلُ حول عددٍ محدودٍ من أفكارِ الخسارة.


إرتباطات حسّية و قشرات مخيّة عالية التنظيم
م
مشاعر
تغيّرات في الخرائط البدنية
تغيّرات في النمط المعرفيّ ؛
إستعادة متّصلة
Amygdala لوزة المخيخ
الدماغ الأماميّ القاعديّ
الوطاء
جذع الدماغ
تبدّل في نقل الإشارة
عواطف ع
تغيّرات عابرة في الوسط الداخليّ؛
مصران؛
الجهاز العضليّ الحركي؛
سلوكيات محددة

الصورة 3.1 : إستكمال الرسم البياني في الصورة 2.5، ما يقودنا مباشرةً إلى مشاعر الخوف. إنّ نقل الإشارات من الجسد إلى الدماغ (السهم الخارجي المتوجه من الصندوق ل إلى الصندوق م في أعلى اليمين) يمكن أن يتأثّر بمو اقع التحريض و التفعيل (السهم من الصندوق 1 يؤشّر على التغيّرات في نقل الاشارات). وتؤثر مو اقع التحريض و التفعيل أيضًا على العملية بخلق تغيّرات في النمط المعرفي والاستعادة المتصلة (صندوق 2)، و بالقيام بتغيّرات مباشرة في الخرائط البدنية somatic maps (صندوق 3) التي تشكّل ركيزة المشاعر العصبية المتاخمة. تذكّروا أن كلا المرحلتين التخمين / التقييم و مرحلة المشاعر الأخيرة تحصل عند المستوى المخيّ، داخل الترابط الحسيّ و القشرات المخية عالية التنظيم.

المشاعر إدراكاتٌ متآثرة

المشاعرُ إدركاتٌ، و يمكن، بطريقةٍ ما، مقارنتها بباقي الإدراكات. مثلاً، توافق الإدراكات البصرية الراهنة مع الموضوعات الخارجية التي تصطدم سماتها الفيزيائية بشبكية العين، و التي تغيّر، مؤقتًا، أنماط الخرائط الحسّية في الجهاز البصري. تمتلك المشاعرُ أيضًا موضوعًا هو في بدءِ العملية، وتحفّز السمات الفيزيائية للموضوع سلسلة من الإشارات التي تنتقل عبر خرائط الموضوع داخل الدماغ. تمامًا كما في حالة الإدراك البصري،

هناك جزءٌ من الظاهرة يعود إلى الموضوع، وجزءٌ آخرٌ يرجع إلى البناء الداخلي الّذي يقوم الدماغ بصنعه منه. ولكنّ شيئًا ما مختلفٌ، وهو ليس بإختلافٍ بسيطٍ، ألاَ و هو، في حالة المشاعر، أنّ الموضوعات و الأحداث التي تكون في الأصل، هي تمامًا داخل الجسد أكثر ممّا هي خارجه. قد تكون المشاعرُ عقليةً تمامًا كأيّ إدراكٍ آخر، ولكن الموضوعات التي تمّ تخريطها هي اجزاءٌ و حالات من المتعضيّ الحيّ حيث تنبثق المشاعر.

هذا الإختلاف المهمّ يستدعي اثنين آخرين: أولاً، بالإضافة إلى كونها مرتبطةً في الأصل بموضوعٍ، أي الجسد، فإن المشاعر مرتبطةٌ أيضًا بموضوعٍ مختصّ عاطفيًا والّذي يُطلِق دورة العاطفة-الشعور. بطريقةٍ غريبةٍ، يكون هذا الموضوعُ المختصّ مسؤولاً عن إرساءِ الموضوع في أصل الشعور؛ بالتالي، حين نعود الى "موضوع" عاطفةٍ ما أو موضوعِ شعورٍ ما علينا أن نؤهّلَ المرجَع هذا ونوضّح أيَّ من الموضوعات نقصد. *ان مرأى المشهد البحري المدهش هو موضوعٌ مختصّ عاطفيًا. إن حالةَ الجسدِ التي تنتج عن رؤية ذلك المشهد X هي الموضوع الراهن في الأصل X ، والتي، من ثمّ، تُدرَك في حالة الشعور.*

ثانيًا، ولس أقلّ أهميةً، لدى الدماغ وسائل مباشرة ليستجيب الى الموضوعِ كمشاعر تتشعب، لأن الموضوع في الأصل

داخلُ الجسدِ أكثر مما هو خارجه. يمكن للدماغ أن يشتغلَ مباشرةً على الموضوع الّذي يدركه. يمكنه القيام بذلك عبر تغيير حالة الموضوع، أو تعديل نقلِ الإشارات منه. الموضوع في الأصل، على المقلب الأول، و خريطة الدماغ لهذا الموضوع ، على المقلب الآخر، يمكنهما أن يؤثّرا ببعضهما البعض على شاكلةِ عملية مدوّيةٍ لا يمكن أن نجدها، مثلاً، في إدراكِ موضوعٍ خارجيّ. بإمكانك أن تنظرَ إلى لوحة بيكاسو *غرنيكا* بحدّةٍ بقدر ما تتمنّى، طوال المدة التي تتمناها،وبالشكل العاطفيّ الّذي ترغب به، و لكنّ شيئًا لن يتغيّر في اللوحةِ نفسها. بالطبع، تتغيّر أفكارك عنها، و لكنّ الموضوع [اللوحة] يبقى كما هو، أو هكذا أرجو! في حالةِ المشاعرِ، يمكن للموضوع عينه أن يتغيّر بشكل جذريّ، و في بعض الحالات يمكن ان تأخذ التغييرات شكل فرشاةٍ و دهانٍ جديدٍ و يتم تغيير الرسمة.

بكلماتٍ أخرى، ليست المشاعر إدراكاتٍ سلبيةٍ أو ومضةً في الزمن، بالأخص ليس في حالة مشاعر الفرح و الأسى. لبرهةٍ، وبعد أن تبدأ مناسبةُ مشاعرٍ كهذه – لثوانٍ أو دقائقَ – نلمسُ إنشغالاً ديناميًا للجسد، تقريبًا، وبشكلٍ حتميّ، على نحوٍ متكرر، و تبدّلاً ديناميًا لاحقًا للإدراك. ندرِكُ سلسلةً من الإنتقالات، نحسُّ بالتآثر، بأخذٍ و رد[51].

إلى هنا قد تعترضُون على ما أقول، وتعتبرون أن التّرتيب الّذي أصفه ينطبق فقط على مشاعر العاطفةِ و على الظاهرة التنظيمية ذات الصلة، ولكن ربّما ليس على أي نوعٍ من المشاعر. و قد أقول أن الاستعمال الخاص الأوحد لمصطلح شعور يتعلّق بفعل اللمس أو بنتائجه، بإدراكٍ لمسيّ. بالرجوع إلى الإستخدام السائد لمصطلح الشعور، كما أُجمِع عليه بدايةً، أمكنني القول أن *كل* المشاعر هي مشاعر بعض التفاعلات الأساسية التنظيمية التي تكلّمنا عنها سابقًا، أو بعض الشهوات، أو التفاعلات- المخصوصة، من الألم الواضح إلى الغبطةِ. حين نتكلّم عن "شعور" بظلالِ ما للّون الأزرق، أو عن "شعورٍ" بنوتةٍ موسيقيةٍ ما، فإننا نرجعُ، فعليًا، إلى شعورٍ انفعاليّ affective يرافقُ ما نراه من ظلالٍ للأزرق، أو ما نسمع من صوتِ النوتة، بغضّ النظر عمّا يمكن أن يكون عليه الإضطراب الجماليّ من إتّقانٍ[52]. حتّى حين ، نوعًا ما، نسيء استعمال مقولةَ الشعور – كما في قولنا " أشعرُ أنني على حقٍّ بما يخصّ هذا الشيء" أو " أشعرُ أنني لن اتوافق معك" – فإننا نعود، على الأقل بشكلٍ مشوّشٍ، إلى الشعور الّذي يصاحب فكرة الإعتقاد بواقعةٍ ما أو تأييدِ رؤيةٍ معينة، وهذا لأن الإعتقاد و التأييد *يسببان* حصول عاطفةٍ ما. بقدر ما يمكنني أن

أفهم، فإنّ القليل من إدراكات أي موضوعٍ أو حدثٍ، الحاضرة بالفعل أو المستدعاة من الذاكرةِ، هي محايدةٌ بالمعنى العاطفيّ. من خلالِ التصميم الفطري، أو عبر التعلّم، نستجيبُ إلى غالبية، إن لم يكن كلّ، الموضوعات بعواطفَ، مهما تكن ضعيفة، و بمشاعرَ لاحقة، مهما تكن ذابلة.

ملاحظة جانبية: خلط الذاكرة مع الرغبة

على مدار السنين، غالبًا ما سمعتُ أنه ربّما يمكننا استخدام الجسد كي نفسّر الفرح، الأسى، و الخوف طبعًا، ولكن بالتأكيد ليس لكي نفسّرالرغبة، الحب و الكبرياء. لطالما كنتُ مفتونًا بهذه الممانعة، و كلّما صُرِّح بذلك أمامي، أجبتُ دائمًا بالطريقة عينها: و لما لا؟ فلنجرّب. لا فرق إن كان من يجادلني رجلاً أو إمرأة، أقترحُ دائمًا التجربة الفكرية عينها: تذكّر الوقت، و أرجو أن يكون قريبًا، حين رأيتَ رجلاً أو إمراةً (أيّهما تفضّل) أيقظَ بداخلك، لبضعة ثواني، حالة متميّزة من الاشتهاء. حاول بمصطلحاتٍ فيزيولوجية أن تفكّر من خلال ما حصل، مستخدمًا الأجهزة العصبية البيولوجية [بيو-عصبية] التي استعرضتها.

إنّ الموضوع الأصل لذلك الإيقاظ قدّم نفسه، بكل بهائه، على الأرجح ليس ككلٍّ بل على شكلِ أجزاء. ربّما كان ما لفت إنتباهك قبل كل شيء هو شكلُ الكاحلِ، كيف يتصل مع مؤخرةِ الحذاء و كيف يذوب في القدم، لا يُرى بعد الآن ولكن يُتخيَّل تحت التنورة. أو ربّما كان شكلُ عنقٍ ملتصقٍ بالقميص. أو ربّما لم يكن الموضوعُ جزءًا من كلٍّ بلّ من المشية، الحركات، الطاقة، و الإصرار الّذي دفع الجسد بأكمله إلى الأمام. مهما كان العرْض، فإن نظام الشهوة يشتغل و الإستجابات المناسبة قد تم إختيارها. ما الّذي صنع هذه الإستجابات؟ حسنًا، إنّها، كما يتضّح، التحضيرات و المحاكات. يطلقُ نظام الشهوة عددًا من التغيّرات الجسدية البارعة أو ربّما ليست بالبارعة جدًا و التي هي جزء من روتين الاستعداد للإتمام النهائي للشهوة. لا مانع من أنّه، و في الرُفقة المهذّبة، قد لا يحصل الاشباع أبدًا. كان هناك تغيّرات كيميائية سريعة في وسطك الداخلي، تغيّرات في نبض القلب و في التنفّس متلاءمة مع تمنيّاتك شبهِ المحددة ، إعادة توزيع تدفّق الدم و الإتساق العضلي لأنماط الحركة المختلفة التي ربّما تنخرط فيها، و ربّما لا. إن التوتّرات في جهازك العضلي – الحركي تم ترتيبها من جديد، وفي الواقع، نشأت التوتّرات حيث لا يوجد هناك منها، منذ لحظاتٍ، كما ظهرت إرتخاءات شاذة odd أيضًا. أضِف إلى كل ذلك الخيالَ الّذي يبدأ بالعمل جاعلاً من التمنيّات ،الآن، أوضحَ.

إنّ آلية المكافأة، الكيميائية و العصبية، كانت في تأرجحٍ تامٍ، و الجسدُ نشرَ بعضًا من السلوكيات المتصّلة مع شعور المتعةِ اللاحق. مثارةً للغاية، و ممكنٌ جدًا تخطيطها في الاستشعار الجسدي body-sensing و في مناطق الدعمِ المعرفيّ في الدماغ .وتنتج عن التفكير بهدفِ الشهوة عواطفٌ سارّة و المشاعر السارّة الملائمة لها. الآن، تصبح الرغبة تحت تصرّفكَ.

في هذا المثلِ، يتوضّحُ التمفصل الغامض للشهوات و العواطفَ و المشاعر. متى ما كان هدف الرغبةِ مُباحًا و متحققًا، سوف يسبب الإشباعُ عاطفةً محددةً من الفرحِ، كما يمكن للمرء أن يأمَلَ، و أن يحوّل شعور الرغبة الى شعور إنتشاء. و إن أُحبِطَ الهدفُ، قد ينتجُ الغضبُ بدلاً من ذلك. ولكن، إن بقيَت العملية معلَّقةً لبعضِ الوقتِ، في أرضِ أحلام اليقظةِ العذبةِ البعيدة المنال، فإنّها، في خاتمة المطاف، قد تضمحّلُ، رويدًا رويدًا. عفوًا، ممنوع التدخين بعد الآن. لم نعد نشاهد فيلمًا [رومانسيًا] بالأبيض و الأسود!

هل يختلف الجوع و العطشُ عن الرغبة الجنسية؟ هما أبسَط ، بلا شك، ولكن لا يختلفان عنها في الآلية. هذا هو السبب الّذي يجعل من الثلاث متداخلةً، بشكلٍ سلسٍ، و حتّى إنّها أحيانًا تعوّض بعضها بعضًا. يأتي التمييز الأساسيّ من الذاكرةِ، أو عليّ

أن أقول، من الحال حيث الإستدعاء recall و المراتبة rearrangement المستمران لتجاربنا الشخصية تلعبان دورًا في بسطِ الرغبةِ، أكثرَ ممّا يفعلان عادةً في حالتي الجوع و العطش (و لكن فلنحترز من الذوّاقين و خبراء النبيذ الّذين يبعدوننا عن هذه الفكرة). فليكن الأمر على هذا النحو، نجد تآثراً ثريًا بين موضوع الرغبة و بين غنى الذكريات الشخصية المتعلقة بالموضوع – المناسبات السابقة للرغبةِ، الطموحات الماضية، و المتَع الآنفة، الواقعية أو المتخيَّلة.

هل يذعن التعلّق و الحب الرومنسيّان لإعتبارات بيولوجية مماثلة؟ لا أرى لما لا يكون الأمر على هذا النحو، شريطةَ ألاّ يتم الدفع بتفسير الآلياتِ الأساسية إلى نقطةٍ حيث لا ضرورة لتفسير التجارب الشخصية لأحدٍ ما و تحجيم الفرد. من الممكن طبعًا أن نفصل بين الجنس و التعلّق بفضلِ التحرّي حول كيف لهرمونيْن نصنعهما، بشكلٍ منتظمٍ، في جسدنا، هما ببتيدات الاوكسيتوسين peptides oxytocin و الفاسوبرسّين vasopressin، أن يؤثّرا على السلوك الجنسيّ و التعلّق لدى أنواعٍ [حيوانيةً] جميلة، كفأر الحقلِ. لا يحول منع الاوكسيتوسين عند فأرةِ حقلٍ، في فترة ما قبل التزاوج، دون السلوك الجنسيّ ولكنّه يمنع تعلّقها بشريكها الجنسيّ. جنس؟ نعم. وفاء؟ لا. ونجد التأثير عينه

حين نمنع الفاسوبرسّين عند فأر الحقل ما قبل التزاوج. و يستمر التزواج، لكنّ فأر الحقل لن يلتصقَ بالأنثى، ولن يتجشّم عناء الحفاظِ على مواعدته لها، و بالنتيجة، على ذريتهما [53]. ليس الجنس و التعلّق حبًا رومانسيًا ولكنّهما جزءًا من جينيولوجيته[54].

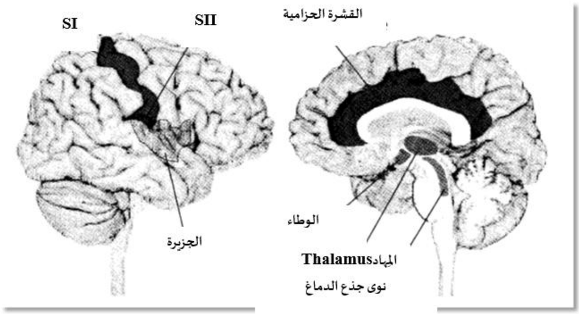
ينطبق الأمر عينه على الكبرياء أو الخجل، و هما انفعالان affect غالبًا ما قيل أنْ لا علاقة لهما على الإطلاق بالتعابير الجسدية. ولكن هما بالطبع على علاقة! هل يمكنك أن تتصوّر وضعيةً جسدية أكثر مماّ تجد عند شخصٍ يتألّق بكبرياء؟ ما الّذي *يتألّق* بالتحديد؟ العينان طبعًا، مفتوحتان، مصممتان على الاستيلاء على العالم؛ الذقن المتعالية، العنق و الجذع أفقيان إلى أقصى حد؛ الصدرُ الشجاع يمتلىء بالهواء، الخطوات الواثقة و المتأنية. هذه بعض التعابير الجسدية التي *نراها*.قارنها بتلك لدى شخصٍ خجولٍ و مُهان. فلنكن على ثقة أنّ الوضعية العاطفية الخاصّة تختلف كليًا في حالةِ الخجل. إنّ الأفكار التي ترافق هذه العاطفة تلي مستهلَّ المشاعر وهي مختلفة إختلاف الليل و النهار. ولكن، هنا أيضًا، نجد تمايزًا كلّيًا و حالةً قابلة للتخريطِ بين الحدث المحرِّض و الأفكار الملاءمة.

وهكذا هو الأمر في ما خصّ الحبّ الأخوي، أكثر المشاعر إخلاصًا، الّذي يرتكز على تعديلاته للمخزن الفريد لمحفوظات السيرة

الذاتية التي تحدد هويّاتنا. نعم ما يزال يتوقّف على ما اكتشفه اسبينوزا بشكلٍ واضح، على مناسبات المتعة – المتعة الجسدية؟ نعم! – التي تطلقها أفكارٌ حول موضوعٍ محدد.

المشاعر في الدماغ: دليلٌ جديدٌ

إنّ مقولةَ أن المشاعر متصّلةٌ بالتخريط العصبي لحالة الجسد هي الآن تحت الفحص التجريبيّ. تولّينا، مؤخرًا، تحقيقًا حول أنماط النشاط الدماغي الّذي يحصل بعد الترابط بين الشعور ببعضِ العواطف[55]. أفادت الفرضية التي قادت العمل أنّه حيث تحصل المشاعر نجد إنخراطًا متميّزًا لمناطق الدماغ التي تستقبل الاشارات من أقسامٍ مختلفة من الجسد، و بالتالي تخرّطُ الحالة المستمرة للمتعضيّ. تحتوي تلك المناطق الدماغية، والتي تتموضوع عند مستوياتٍ متعددة من الجهاز العصبي المركزي، القِشْرَةُ الحِزامِيَّة cingulate cortex، إثنتين من القشور الحِسّيّة الجَسَدِيّة somatosensory (المعروفة بالجزيرة insula و القشرة الدماغية الثانوية SII)، الوطاء [hypothalamus]، و نوى عديدة في سقيفة جذع الدماغ brain stem tegmentum (الجزء الخلفي من جذع الدماغ).



الصورة 3.2: المناطق الحسية الّجسدية الأساسية، من مستوى جذع الدماغ الى القشرة المخيّة. تتطلب المشاعر الطبيعية للعاطفةِ تداخل كل هذه المناطق، ولكن الدور الّذي تلعبه كلّ منطقة على حدة في العملية يبدو مختلفًا. كل المناطق مهمّة ولكنّ بعضَ المناطق (الجزيرة، القشرة الحزامية، ونوى جذع الدماغ) أكثر أهمية من غيرها. ربّما تكون الجزيرة المخبّأة بهدوء أكثرها أهمية.

كي نختبر الفرضية قمنا، زملائي أنطوان بشارة، هانا دامسيو Hanna Damassio، دانييل ترانل Daniel Tranel و أنا، بالاستعانة بأكثر من أربعين شخصًا منقمسين جندريًا بالتساوي. لم يكن أيًّا منهم يعاني من أمراض نفسية أو عصبية. أخبرْنا المجموعة التي نرغب بدراستها عن أنماط النشاط في أدمغتهم بينما كانوا يختبرون واحدًا من أربعة مشاعرٍ ممكنة: السعادة، الحزن، الخوف أو الغضب.

إرتكز التحقيق على قياس كمية الدم المتدفق في مناطق الدماغ المختلفة بإستعمال تقنية تدعى التصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني PET –Positron Emission Tomography. من المعلوم أن كمية الدم المتدفق في أيّة منطقة من الدماغ ترتبط بشكلٍ وثيق مع أيضِ العصبونات في تلك المنطقة، و أنّ الأيض بدوره يرتبط بمستوى النشاط الموقعي للعصبونات. في تقاليد هذه التقنية، فإنّ الإزدياد أو النقصان المميّز إحصائيًا في دفق الدم داخل منطقةٍ ما يشيرُ الى أن العصبونات في هذه المنطقة كانت ، بشكلٍ غير متكافىء، نشِطة أو هامدة خلال أداء عملٍ عقليّ ما.

مفتاح هذا الإختبار كان العثور على طريقة لتحريضِ العواطف. طلبنا من كلّ شخصٍ أن يفكّر بمرحلةٍ عاطفية في حياته. الشرط الأوحد كان: على المرحلة أن تكون قويّة بشكل خاص و تتضمن السعادة، الحزن، الخوف أو الغضب. و من ثمّ طلبنا من كلّ شخصٍ أن يفكّر في تفاصيل المرحلة المحددة بشكل دقيق، وأن يستحضروا كلّ تخيلٍ ممكن من أجل إعادة تفعيل عواطف ذلك الحدث الماضي بشكلٍ كثيفٍ بقدر الإمكان. كما تبيّن آنفًا، فإنّ هذا الصنف من جهازِ الذاكرة العاطفية يشكلّ دعامةً لبعض تقنيات التصرّف، وقد سُرِرنا بأننا وجدنا أن الجهاز

قد اشتغل في سياقِ تجربتنا على حدٍّ سواء. لم يختبر معظم الراشدين هذه المراحل فقط، ولكن، بالمقابل، استحضر معظمهم تفاصيل جيدة، و أعاد، حرفيًا، إحياء تلك العواطف و المشاعر بشدّةٍ غير متوقّعة.

سألنا كل شخصٍ أن يفكّر بمرحلة عاطفية في حياته، وكلّ ما تطلّبه الأمر أن تكون تلك المرحلة قوّية بشكلٍ خاص.

خلال مرحلة ما قبل الإختبار حدّدنا أيّ عاطفةٍ يمكن لأي شخصٍ أن يعيد تنفيذها بالشكل الأفضل، وقمنا بقياس المؤشرات الفيزيولوجية مثل نبض القلب و ناقلية البَشَرة خلال إعادة التنفيذ. و من ثمّ بدأنا إختبارنا الحالي. طلبنا من كلٍّ شخصٍ أن يعيد تنفيذ عاطفةٍ ما – فلنقل انها الحزن – و قد بدأ أو بدأت عملية تخيّلِ مرحلةٍ محددة في غرفةِ المسح scaning room الهادئة. أُخبِر المختبَرون بأن يشيروا بحركة يد خفيفة في اللحظة التي يبدأون بها بالشعور بالعاطفة، و فقط بعد الإشارة بدأنا بتجميع بيانات النشاط الدماغي. اتّجه الإختبار إلى قياس نشاط الدماغ خلال الشعور الجاري، بدلاً من قياسه في المرحلة المبكرة لإستحضار موضوعٍ مختصّ عاطفيًا و لتحريض عاطفةٍ.

قدّمَت تحليلاتُ البيانات دعمًا كبيرًا لفرضيتنا. إحصائيًا، أظهرت كل مناطق الإستشعار الجسدي الخاضعة للفحص – القشرة الحزامية، القشور الحركية الجسدية للجزيرة و الـ S2، و النوى في سقيفة جذع الدماغ – أنماطًا ذات مغزى للتنشيط أو الإخماد. يدلّ ذلك على أن تخريطَ حالات الجسد كان قد تعدّل بشكلٍ كبير خلال عملية الشعور. أيضًا، و كما توقعنا، فقد تغيّرت أنماط التنشيط أو الإخماد على مستوى العواطف. بنفس الطريقة التي يمكن للمرء فيها أن يشعر أن أجسادنا تتكيّف بشكلٍ مختلف خلال مشاعر الفرح أو الحزن، فإننا قد استطعنا أن نبيّن أن خرائط الدماغ المتصّلة بحالات الجسد تلك كانت مختلفة على حدّ سواء.

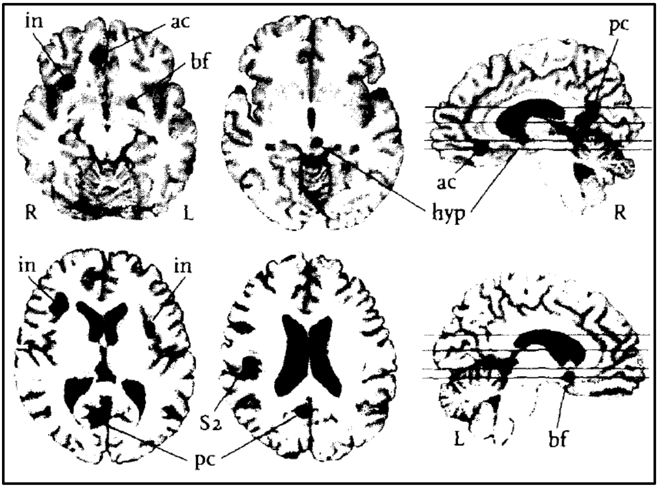
لإعتبارات عدة، كانت هذه الإكتشافات على قدرٍ من الأهمية. كان من المُرضي لنا أن نجد إنّ الشعورَ بعاطفةٍ ما كان بالفعل مرتبطًا مع التغيّرات في التخريط العصبي لحالةِ الجسد. الأكثر أهمية بمكان إنّنا نملك الآن مؤشرًّا قويًا حول أين علينا أن نبحث في الدراسات القادمة في ما خصّ بيولوجيا أعصاب المشاعر. لقد أعلمتنا النتائج أن لا شروط غير مؤكّدة تمكّننا من فكّ بعض ألغاز فيزيولوجيا الأعصاب في الدوائر العصبية

للمناطق الدماغية الجسد-حسّية و في العمليات الفيزيولوجية و الكيميائية لهذه الدوئر.

قدمت الدراسة أيضًا بعض النتائج غير المتوقعة و المرحّب بها. كنا قد راقبنا، وبشكلٍ مستمرٍ، الاستجاباتِ الفيزيولوجية للأشخاص، وكنا قادرين على ملاحظة إنّ *التغيّرات في ناقلية البشَرة سبقت دائمًا الإشارة التي تفيد إنّ شعورًا قد تمّ الإحساس به.* بمعنى آخر، وبشكلٍ لا لبسَ فيه، سجّلت الراصدات الكهربائية النشاط الإهتزازي seismic للعاطفة *قبل* أن يحرّك الأشخاص يدهم في إشارة إلى أن العملية قد بدأت. على الرغم من أننا لم نخطط للنظر في هذه القضية، منحَنا الإختبارُ العديدَ من الأدلة الجديدة على أن الحالات العاطفية تأتي أولاً والمشاعرَ لاحقًا.

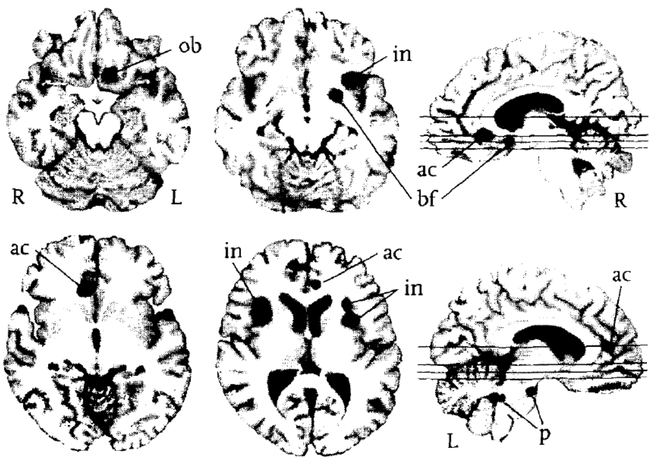
نتيجةٌ أخرى مثيرةٌ للاهتمام تتّصل مع حالةِ مناطق القشرةِ الدماغيةِ التي ترتبطُ مع عملية التفكير، بالتحديد قشور الجوانب الجنبية والقطبية للفص الجبهي frontal lobe. لم نكن قد وضعنا فرضيةً كي نفسّر كيف أن أساليب التفكير المنخرطة بشكلٍ مختلف في المشاعر المتعددة بإمكانها أن تكشف عن نفسها

في الدماغ. ومع ذلك، كانت النتائج منطقيةً جدًا. في حالة الحزن لوحظت إهماداتٌ في القشور الجبهية المقدّمة (إلى حدٍّ كبير، يوحي ذلك بتراجعِ النشاط في المنطقة بأكملها). في حالة السعادة، نجدُ العكسَ (مؤشرٌ مهمٌ على ازدياد النشاط في المنطقة). تنسجم هذه النتائج جيّدًا مع واقعةِ أن طلاقة الأفكار تتباطىء عند الحزن و تتسارع في حالةِ السعادة.



الصورة 3.3: المناطق الدماغية الناشطة خلال مشاعر الفرح عبر التصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني. اللوحتان على يمين الصورة تظهران رؤية داخلية وسطية لنصف الكرة الدماغية الأيمن (في الأعلى) كذلك الأيسر (في الاسفل). تظهر تغيّرات ملموسة في نشاط الغدة

الحزامية الأمامية (ac) والخلفية (pc) والوِطاء (hyp) والدماغي الأمامي القاعديّ (bf). اللوحات الأربع على اليسار تصوّر الدماغ في شرائح محورية (شبه أفقية). النصف الأيمن مؤشَّر إليه بـ R و الأيسر بـ L. نلاحظ نشاطًا بارزًا في منطقة الجزيرة (in) يظهر من خلال شريحتين في النصفين الأيمن والأيسر للدماغ، وكذلك نشاطًا في الغدة الحزامية الخلفية الظاهرة في شريحتين أيضًا.



الصورة 3.4: خرائط الدماغ من خلال الاختبار السابق عينه (الصورة 3.3) ولكن هذه المرة في ما يتعلّق بالحزن. نلحظُ نشاطًا بارزًا في الجزيرة (in) أيضًا في نصفي الكرة الدماغية وفي أكثر من شريحة، و يختلف

النشاطُ هذا عنه في حال الفرحِ. الأمر عينه ينطبق بخصوص التغيّرات المهمّة في الحزامية الأمامية.

تعليقٌ على دليلٍ ذي صلة

إنّه لأمرٍ مفرحٍ أن يجد المرءُ دائمًا دليلاً ينسجمُ مع إتجاهاته النظرية، ولكن عليه ألاّ يتحمّس كثيرًا بإكتشافاته إلى أن يجد الدليل الداعم. إذا كان المؤشّرُ القويّ على المناطق الحسية الجسدية الّذي نلاقيه في دراستنا للمشاعر هو واقعة صلبة، فإنّ على الآخرين أن يجدوا دليلاً مماثلاً. بالفعل، يُثبَّتُ الآن دليلٌ وافٍ مماثلٌ يستندُ على المقاربةِ نفسِها (أي تقنيات التصوير الوظيفيّ مثل التصوير المقطعيّ بِالإصدار البوزيتروني PET و الرنين المغناطيسي الوظيفي FMRI) و متعلّقًا بمجموعة كهربائية من المشاعر.

إنّ أبحاث رايموند دولان Raymond Dolan و زملائه متصّلةٌ هنا على وجه الخصوص، لأنها تتوجّه إلى أعمالنا بالتحديد، مع إنّ الأبحاث غير المتصّلة بذلك قد قدّمت نتائجَ مشابهة [56]. أكان

المشاركُ يختبرُ متعة إلتهام الشوكولا أو الشعور المجنون للحبّ الرومانسيّ، أو ذنبَ كليتمنسترا Clytemnestra أو إثارةً جنسية متأتية من مشاهدة مقتطفاتٍ من فيلمٍ إباحيّ، فإن المناطق التي تخضع لإختباراتنا (القشور الجزيرية و القشور الحزامية) تعرضُ نتائجَ ذات دلالةٍ. تكون هذه المناطق أكثر أو أقلّ نشاطًا، في الأنماط المتعددة داخل المنطقة الرئيسية، و تشهدُ على فكرةِ أنّ حالات شعور تترابط مع الإشتغال البارز لتلك المناطق الدماغية[57]. و كما هو متوقعٌ، تتدخل مناطق أخرى أيضًا، بالتحديد المناطق المتضمَّنة في التكوّن الحالي للعواطف المتّصلة، ولكن ما يلزم الإلتفات إليه هنا هو أن النشاط المتغيّر في المناطق الحسّية الجسدية مرتبطةٌ مع حالات المشاعر. كما سنرى لاحقًا في هذا الفصل، إنّ المشاعر المرتبطة بتعاطي المخدّرات أو بالتوق إليها تبيّن أيضًا في إنخراطٍ مهمّ لنفسِ المناطق الحسّية الجسدية.

هناك إتصالٌ ثلاثيّ لصيقٌ بين بعض الأنواع الموسيقية ، والشعور بحزنٍ عميق أو فرحٍ كبير، و بإحساسات الجسد و الّتي نصفها بالـ"القشعريرة" Chills أو الـ"إرتعاشات" Shivers أو الـ"إرتجافات" thrills. لأسبابٍ فضولية، تستحضرُ بعضُ الآلات الموسيقية، بالتحديد الصوت البشري، و بعض المقطوعات الموسيقية حالاتٍ عاطفيةٍ تتضمّن حشدًا من استجابات الجُلدِ

كأن يقف شعر الجسدِ، مولدةُ اقشعرارًا و ابيضاضًا في البشرةِ[58]. ربّما لن نجدَ دليلاً أكثرَ توضيحًا لمقاصدنا ممّا نجده في دراسةٍ أجراها آن بلوود Anne Blood و روبرت زاتوري Robert Zatorre. لقد أرادا دراسة الترابطات العصبية للحالات الممتعةِ التي تَسبب بها سماعُ موسيقى قادرة على توليد قشعريرة و إرتعاشاتٍ أسفل العمود الفقريّ[59]. وجدتِ التحقيقاتِ هذه الترابطات في المناطق الحسّية الجسدية للجزيرةِ insula و القشرة الحزامية، والتي اشتغلت بشكلٍ مثير للإهتمام بفعل المقطوعات الموسيقية المشوّقة. زد على ذلك، ربطت الأبحاث بين كثافة التنشيط وبين قيمة القشعريرة الواردة على إثر المقطوعات. لقد برهَنا أن التنشيطات كانت متّصلة بالمقطوعات الموسيقية المشوّقة (التي اختبرها المشاركون الأفراد) و ليس فقط بالحضور المجرّد للموسيقى. على نحو لافتٍ، وعلى أسس مختلفة، يُثار الشكُ حول أنّ بروز القشعريرة يتسبب بها التوفّر المباشر لأفيونات ذاتية النشوء في المناطق الدماغية المتبدّلة بفعل تلك المشاعر[60]. حدّدت الدراسةُ أيضًا المناطق الدماغية المنخرطة في توليد إستجابات تعبيرية تلي الحالات الممتعة – القشور الحجاجية الجبهية اليمنى Right orbitofrontal cortices و البطنية المخططة اليسرى Left ventral striatum و المناطق المرتبطة سلبيًا مع

الحالات الممتعة أي اللوزة اليمنى Right amygdala – أكثر ممّا حدّدت دراساتنا.

تكّلمت دراساتٌ متخصصة بعملية الألم عن ذلك أيضًا. في إختبارٍ هامٍ أجراه كينيث كايسي Kenneth Casey، تعرّض المشتركون لألمٍ في اليد (وقد غمِّست أياديهم في الماء المثلِج) أو لمحفّزات رجّاجة غير مؤلمة فيها، بينما كان يتمّ مسح أدمغتهم[61]. أثمرت حالةُ الألمِ عن تغيّرات ملحوظة في النشاط في المنطقتين الحسّيتين الجسديتين (القشرة الجزيرية و الـSII) . و انتجت حالة الألمِ تنشيطًا في منطقية حسّية جسدية أخرى (SI)، و لكن ليس في الجزيرة و الـSII، المنطقتين الأكثر إلتصاقًا بالمشاعر و العاطفة. بعد كلّ حالةِ أعطى الباحثان المشاركين فنتانيل Fentanyl (وهو عُقار يحاكي المورفين بفعل عمله على مستقبلات الأفيون "موو" mu µ) و قاما بمسحٍ لأدمغتهم مرّةً أخرى. في حالة الألم، نجح الفنتانيل في التخفيف من الألم ومن عمل الجزيرة و الـSII. في الحالة الرجّاجة لم تمسّ معاجلة الفنتانيل كلاً من إدراك الإهتزاز و تنشيط الـSI. كشفت هذه النتائج مع قليلٍ من الوضوح مراتبة فيزيولوجية منفصلة للمشاعر التي تتصّل بالألم او المتعة و بـ"مشاعر" الإحساسات اللمسية أو الإهتزازية. بشكلٍ كبير، تتصّل الجزيرة و الـSII بالأولى و الـSI باللاحقة. في موضعٍ آخر، لاحظتُ أن

الحامل الفيزيولوجي للعاطفة و لإحساس الألم يمكن تفكيكه من خلال عقاقير مخدّرة مثل الفاليوم Valium، الّذي يزيل أثر مكوّنات الألم ولكنّه لا يمسّ إحساس الألم. إنّ الوصف الملائم لوضعية كهذه هي أنّك "تشعر" بالألم ولكنّك لا تبالي به[62].

المزيد من الأدلة المؤيِّدة

ظهر، وبشكلٍ مقنعٍ، أن شعور العطش يرتبطُ مع تغيّر هام في نشاط القشرة الحزامية و القشرة الجزيرية[63]. تنتجُ حالةُ العطشِ بحدّ ذاتها عن إكتشافِ إختلال مائيّ وعن التآثر الدقيق بين الهرمونات مثل الفاسوبرسّين و الآنجيوتنسين angiotensin II و مناطق في الدماغ مثل الوِطاء و السنجابية المحيطة بالمَسَال periaqueductal gray، والتي تعمل على إستدعاء سلوكيات لتسكين العطش، وهي مجموعة من الإصدارات الهرمونية عالية التنسيق و البرامج الحركية[64].

سوف أجنّب القارىء الوصفَ عن كيفية ارتباط شعور من يستعجل لأن امتلأت مثانته، ذكرًا كان أو انثى، أو حين يفرغها، مع التغيّرات في القشور الحزامية [65]. ولكن عليّ أن أقول شيئًا ما بخصوص الشهوات والرغبات التي تظهر على إثر

مشاهدة الأفلام الإباحية. كما هو متوقّع، تشتغل القشرة الحزامية كما تلك الجزيرية إلى حدّ كبير حتّى يمكننا أن نشعر بالإثارة. أيضًا، تشتغلُ مناطقٌ كالقشور الجبهية الحجاجية و المخطط striatum، فهي التي، حقيقةً، تستفزّ الإثارة. بما يخصّ جنس المشاركين، يوجد إختلافٌ ملحوظٌ في إنخراطِ منطقةٍ دماغية واحدة، الوِطاء، فهي تشتغل عند الذكور و لا تفعل ذلك عند الإناث[66].

ركيزةُ المشاعر

حين بدأ دايفيد هابل David Hubel و تورستن ويزل Torsten Wieselعملهما الشهير حول الأسس العصبية للبصر في الخمسينات [من القرن الماضي]، لم توجد حينها أيّ تلميحاتٍ حول نوع التنظيم الّذي سوف يكتشفانه داخل القشور البصرية الأولية، بالتحديد التنظيم الحلقي الجزئي Submodular الّذي يسمح لنا بتشكيل خرائطَ تتصلُ بالموضوعات التي نراها[67]. كانت وسائطُ التخريط البصري لغزًا. على المقلب الآخر، كانت هناك تلميحات تامة بما يخصّ المنطقة العامة حيث يمكن البحث عن الألغاز، بالتحديد في سلسلة المسالك و محطات التشغيل التي

تبدأ في الشبكية والتي تتصّل بالقشور البصرية. حين نأخذ اليوم بعين الإعتبار حقلَ المشاعر، يبدو لنا أننا وصلنا أيضًا إلى مرحلة مشابهة، وفق نواحي كثيرة، لذلك البحث حول البصر حين بدأ هابل و تورستن عملهما. حتّى مؤخّرًا، مانع العديد من العلماء في القبول بأنَّ الجهاز الحسّي الجسديّ يمكن أن يكون ركيزة حاسمة للمشاعر. ربّما هي آثار المقاومة الأخيرة لتخمينِ وليام جيمس أنّنا حين نشعر بالعواطفَ فإننا ندرك حالات جسدية. يبدو الرضوخ غريبًا لفكرة أن المشاعر التأثّرية ربّما لا تملك أساسًا حسّيًا شبيهًا بذاك المتوفّر في حالتي البصر و السمع. لقد بدّل الدليلُ المستقى من الأبحاث حول الجروح Lesions، ومؤخّرًا من دراسات التصوير الوظيفيّ المذكورة آنفًا، [بدّل] هذا الرضوخ بشكلٍ قطعيّ. نعم، إنّ المناطق الحسّية الجسدية تنخرطُ في عملية المشاعر، وربّما أيضًا، ينخرطُ قرينٌ رئيسيّ في مجموعة القشور الحسّية الجسدية، الجزيرة Insula، بشكلٍ أكبر من أيّة بنى أخرى. إنّ القشرة الحزامية، كما الـ SI و SII منخرطةٌ أيضًا، ولكنّ مشاركتها على مستوى آخر. لأسبابٍ عدّة، أعتقد أن إنخراط الجزيرة محوريّ.

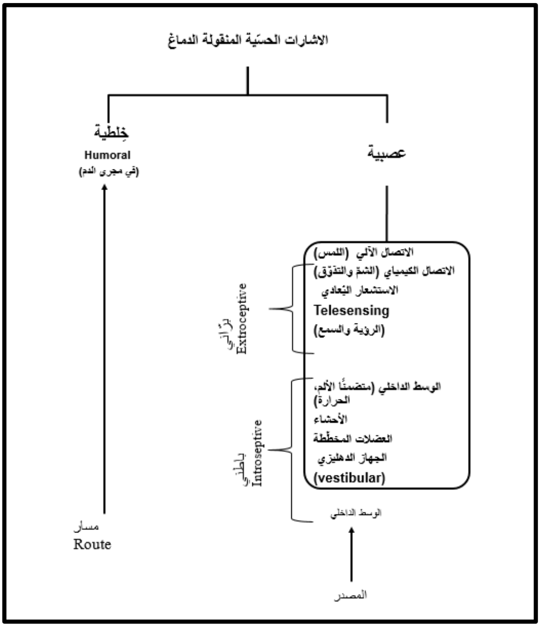
تجمع الوقائع الآنفة بين صفّين من الأدلة: من التحليلات المتعمّقة لحالات المشاعر، نقف على السبب الّذي يوجب على

المشاعر أن تعتمد فيه على المعالجة الحسّية الجسدية. و إنطلاقًا من دليلٍ عصبيّ فيزيولوجيّ / تصويريّ، فإنّ بنيةً مثل الجزيرة هي بالفعل ، وبشكل متغايرٍ، منخرطةٌ في حالات الشعور، كما سبق و رأينا[68].

ولكنّ صفًّا آخرًا من الأدلة يجعل هذا التقاربَ أكثر قوّة. يحدث أنّ ألياف الأعصاب الطرفية والمسالك العصبية المخصصة لنقل المعلومات من داخل الجسد إلى الدماغ لا تنتهي، كما كان يُعتقَد، في القشرةِ التي تستقبل الإشارات المتعلّقة باللمس (SI، االقشرة الحسّية الجسدية الأولية). عوضًا عن ذلك، تنتهي هذه المسالك في المنطقة المخصصة لها، *القشرة الجزيرية* نفسها، وبالتحديد المنطقة عينها حيث أنماط النشاط التي تشوّشها مشاعر العاطفة[69].

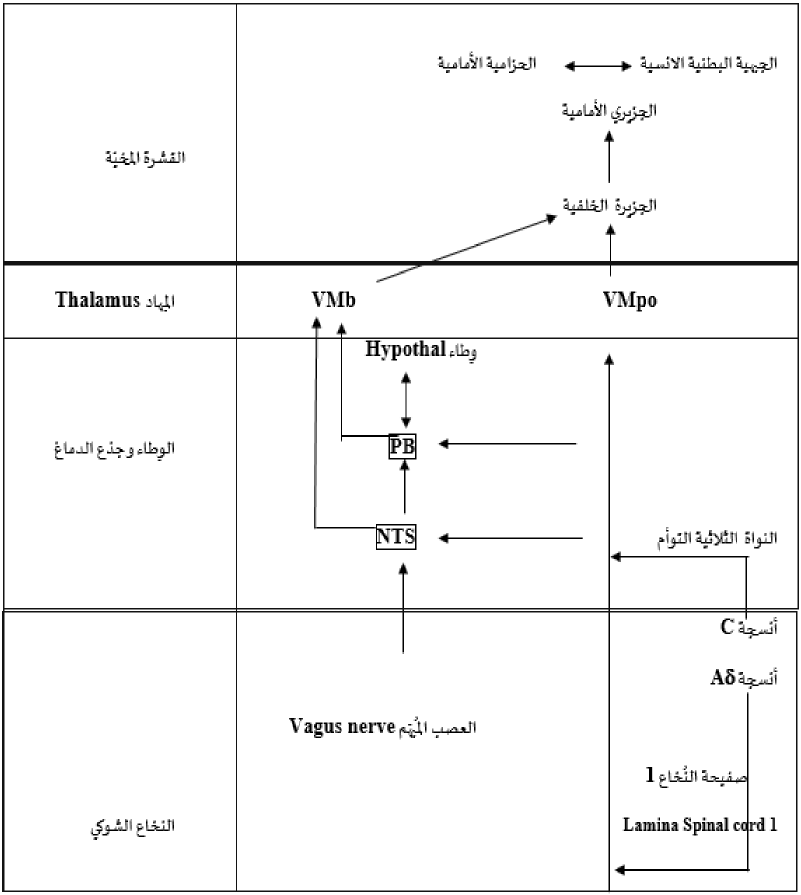
كشف آ.د. كريغ A.D Craig، عالم الفيزيولوجيا و تشريح الأعصاب، عن دليل هامّ[70] و استحق حظوة كبيرة لملاحقته فكرةً كانت ضائعةً في ضباب الفيزيولوجيا العصبية المبكرة، و تقليديًا مرفوضةً ، في مدونة العلوم العصبية – انها تلك التي تفيد إنّنا نمتلك حسّاَ جسديًا داخليًا، أو استتنباهًا *داخليًا* [حسًّا باطنيًا] *Interoceptive*. بمعنى آخر، إنّ المنطقة نفسها، التي تقوم كلّ من الإفتراضات النظرية و الدراسات التصويرية الوظيفية بربطها

بالمشاعر، تبدو أنّها التي تستقبل زمرة الإشارات التي تمثّل، على الأرجح، محتوى المشاعر: الإشارات المرتبطة بحالات الألم، حرارة الجسد، التوّرد، الحكّة، الدغدغة، الارتعاشات، الإحساسات التناسلية و الحشوية، و حالات الجهاز العضلي الأملس في الأوعية الدموية والأمعاء، درجة الحموضة الموضعية pH، الجولكوز Glucose، الأُسمولية osmolality، وجود العوامل الإلتهابية..الخ. هكذا، ومن منظورات متعددة، تبدو المناطق الحسّية الجسدية ركائزَ أساسية للمشاعر، و تبدو القشرة الجزيرية منطقة محورية في مجموع الجهاز. هذه المقولة، التي لم تعد مجرّد فرضية، تشكّل منصّةً يمكن من خلالها إطلاق مستوى جديد من الإستقصاء حول علم أعصاب أدّق للمشاعر في السنوات المقبلة.



الصورة :A 3.5 مفتاحٌ لأنواع الاشارات الحسّية الّتي يستقبلها الدماغ. نجد مسارين للنقال: خِلطيّ (حيث مثلاً يتم نقل الجزيئات الكيميائية عبر مجرى الدم مباشرةً لتنشّطَ المجسّات sensors العصبية في الوطاء أو في الأعضاء المحيطية circumventricular organs مثل الباحة المنخفضة area postrema)، و عصبيّ (حيث تنتقل الجزيئات الكهروعصبية في المسارات العصبية عبر محاور axons العصبونات وتُطلَق صوب خلايا جسدية لعصبوناتٍ أخرى، عبر الوصلات synapses). يوجد مصدران لكلّ الاشارات: العالم الخارجيّ (إشارات برّانية) والعالم الداخليّ للجسد (إشارات باطنية). على العموم، تكون العواطف هي التبدّلات الحاصلة في العالم الداخليّ. وهكذا، تكون الاشارات الحسّية الّتي تشكّل أساس مشاعر العواطف باطنيةً إلى حدٍّ كبير. المصدر الرئيسيّ لهذه الاشارات

الباطنية هو الاحشاء viscera والوسط الداخلي internal milieu. أيضًا، وبنفس القدر، تساهمُ في العملية الاشارات المتّصلة بحالة الجهاز العضليّ والجهاز الدهليزيّ[71].



الصورة 3.5 B: التأشير signaling من الجسد إلى الدماغ. مخطّط البنى الحاسمة المنخرطة في إشارات الوسط الداخلي و الأحشاء إلى الدماغ. الجزء الأساسيّ من التأشير الحاسم يُنقَل عبر المسارات من النخاع الشوكيّ ونواة جذع الدماغ ثلاثية

التوأم trigeminal nucleus. عند كل مستوى من النخاع الشوكيّ، وفي منطقة تُسمّى صفيحة النخاع 1 (في المادة السنجابية gray matter للقَرْن الخلفيّ للنُّخاع posterior horn of spinal cord وفي القسم الذنبي caudal للنواة الثلاثية التوأم) تُحمل المعلومة المنتقلة عبر أنسجة العصب المحيطيّ peripheral nerve من نوع C و Aδ (وهي أنسجة رفيعة، عديمة الميالين unmyelinated و بطيئة التوصيل) إلى الجهاز العصبي المركزيّ. تتأتّى هذه المعلومة، بكل معنى الكلمة، من كلّ أنحاء جسدنا وتتصّل بمعامِل parameters متنوّعة بقدر تنوّع حالة تقلّصات العضلات الرقيقة في الشر ايين، كمية جريان الدم الموضعيّ، الحرارة الموضعية، وجود دالّ جراحي كيميائيّ في النسيج الموضعيّ، مستوى الـpH، الاوكسيجين O_2، و ثاني اوكسيد الكربون CO_2. كذلك تُنقَل كل هذه المعلومة إلى نوى مخصّصة في المِهاد (VMpo) ومن ثمّ إلى الخرائط العصبية في الجزيرة الخلفية والأمامية. بعد ذلك، يمكن للجزيرة أن توشّر إلى مناطقَ مثل القشرة البطنية الانسية الجبهية الأمامية والقشرة الحزامية الأمامية. في طريقها إلى المِهاد، تتوفّر هذه المعلومة أيضًا لنوى السبيل المفرد nucleus tractus solitarius (NTS) الّتي تتلقّى اشارات من العصب المبهَم (وهو طريق رئيسيّ للمعلومة من الأحشاء والّتي تتجاوز النخاع الشوكيّ)؛ إلى النوى شبه العضدية parabrachial nucleus PB وإلى الوِطاء (Hypothal). بدورها، تنقل الـ NTS و الPB الاشارات إلى الجزيرة عن طريق نوى مِهادية أخرى (VMb). المثير للاهتمام أن المسارات الخاصّة بحركة الجسد وبموقعه في الفضاء [المكان] تستخدمُ سلسلة للنقل مختلفة كليًا. إنّ أنسجة العصب الطرفي الّتي تنقل تلك الاشارات Aδ تكون ثخينة وتقود النقل بسرعة فائقة. كما أن أقسام النخاع الشوكيّ و نوى العصب الثلاثية التوأم المستخدمة في تأشير حركة الجسد مختلفة أيضًا، وكذلك النواة المِهادية البديلة و الهدف القشريّ الأخير (القشرة الحسية الجسدية I- somatosensory cortex I).

من بإمكانه أن يشعر؟

في محاولةٍ لإكتشاف العملية التي تسمح بالشعور، يمكن تتبّع الإعتبارات التالية: أولاً، يجب على الكيان القادر على الشعور أن كون متعضيًا لا يملك جسدًا فحسب، بل، أيضًا، وسائلَ لتمثيل هذا الجسد داخل نفسه. يمكننا التفكير بمتعضّياتٍ دقيقة مثل النباتات التي تمتلك، كما هو واضح، جسدًا، ولكن لا تملك وسائل تمثيلٍ لأجزاء من أجسادها و لحالات تلك الأجزاء على شاكلة تلك الخرائط التي يقدّمها دماغنا. تستجيب النباتات للعديد من المنبّهات – الضوء، السخونة، الماء و المغذّيات. يؤمن البعض من أصحاب "الأيادي الخضراء" أنّ النباتات تستجيب لبعض كلمات التشجيع! ولكن يبدو أنّها تفتقر إلى إمكانية أن تملك وعيًا بالشعور. إنّ الشرط الأول المطلوب من أجل الشعور يرتدّ إلى وجود الجهاز العصبيّ.

ثانيًا، يلزم على الجهاز العصبيّ أن يكون قادرًا على تخريط بنى الجسد و حالاته، و أن يحوّل الأنماط العصبية في هذه الخرائط إلى أنماط عقلية أو صوَر. من دون الخطوة الأخيرة، يمكن للجهاز العصبيّ أن يخرّط تغيّرات الجسد والتي هي ركيزة

المشاعر من دون أن يصل الى اللحظة التي ينتج فيها الفكرة التي نسمّيها شعورًا.

ثالثًا، يتطلّب حصول الشعور، بالمعنى التقليدي للكلمة، أن يكون محتواه معروفًا من قبل المتعضيّ، أي أن الوعي شرطٌ ضروريّ. تبدو الصلة بين الشعور و الوعي موارِبةً. بعبارات واضحة، لن يمكننا أن نشعر إن لم نكن واعيين. ولكن يحدث أن تكون آلية إشتغال الشعور هي بنفسها مساهِمة في عملية الوعي، بالتحديد في خلق الذات Self، التي لا يمكن من دونها معرفة أي شيء. يتأتّى طريق تجاوز الصعوبة هذه من ادراكنا أن عملية الشعور متعددة المستويات ومتشعّبة. بعض الخطوات اللازمة من أجل إنتاج الشعور هي عينها تلك الضرورية من أجل إنتاج الأنا البدئية Protoself، التي هي، بالنتيجة، ما يعتمد عليه الوعي و الذات. ولكنّ بعض الخطوات تبدو خاصة بتشكيلة من التغيّرات الإستتبابية التي تم الشعور بها، أي الخاصة بموضوعٍ معيّن.

رابعًا، تُظهِر خرائط الدماغ التي تشكل الركيزة الأساسية للمشاعر أنماطَ حالة الجسد التي تم تنفيذها تحت أمرةِ أجزاءَ أخرى من الدماغ عينه. بمعنى آخر، يولّدُ دماغ المتعضيّ الّذي يشعر حالاتَ الجسد ذاتها التي تستدعي المشاعر إذ تتآثر مع الموضوعات و الأحداث ذات العواطف أو الشهوات. هكذا، ففي

المتعضيات القادرة على الشعور، يبدو الدماغُ ضرورةً مزدوجةً. قطعًا، يجب على الدماغ أن يكون موجودًا من أجل توفير تخريطاتٍ للجسد. و حتّى قبل ذلك، على الدماغ أن يتواجد هنا إمّا من أجل قيادة أو بناء حالات الجسد العاطفية المحددة التي تنتهي بأن تتخرّط كمشاعر.

تستدعي هذه الظروف الانتباه إلى السبب الوحيد المحتمل لما يجعل المشاعر ممكنة من خلال التطوّر. لقد أصبحت المشاعر ممكنة لأن توفرَت خرائط جسدٍ من أجل تمثيل حالات الجسد. و قد أصبحت هذه الخرائط ممكنة لأن آلية الماكينة الدماغية في تنظام الجسد تتطلبها من أجل أن تصنع تعديلاتها التنظيمية، بالتحديد تلك التعديلات التي تحصل خلال تكشّف إستجابة عاطفية. هذا معناه أن المشاعر لا تعتمد فقط على حضورِ جسدٍ و دماغٍ قادرٍ على تمثيلِ الجسد، بل أيضًا على الحضور المسبق لماكينة دماغية لتنظيم الحياة، بما يشمل الجزء الخاص بآلية تنظيم الحياة التي تتسبب بتفاعلاتٍ مثل العواطف و الشهوات. من دون الحضور المسبق لماكينة الدماغ خلف العواطف لن يكون هناك أي شيء مهم لكي نشعر به. مرةُ أخرى، في البدء كانت العاطفة و دعّاماتها. ليس الشعور عمليةً سلبية.

حالات الجسد مقابل خرائط الجسد

إن الخطوط العريضة لما اقترحته حتى الآن تبدو سهلة بما يكفي. ولكن آن الأوان لنجعل المشكلة معقّدةً أكثر. دعوني أقدّم قضيتين تصلحان كخلفية.

تفيدُ فرضيتنا أنّه أيًّا كان ما نشعر به عليه أن يستند على نمطِ نشاطٍ لمناطق الجسد-حسّية في الدماغ. إن لم تتوفّر لنا هذه المناطق فلن نشعر بأيّ شيء، على منوال أنّنا لن نرى شيئًا إن افتقرنا إلى المناطق البصرية الأساسية في دامغنا. إنّ المشاعر التي نختبرها تنجم عن مناطق الجسد حسّية الدماغية. قد يبدو ما سبق واضحًا جدًا، ومع ذلك عليّ أن أتذكّر أنه، وحتى مؤخّرًا، ثابرت العلوم على تجنّب إسناد المشاعر لأيّ منطقة في سيستام الدماغ؛ كانت المشاعر بعيدةً عن ذلك، تتطاير كالدخان حول الدماغ أو داخله. ولكنّ الآن ينطرحُ إحترازٌ جائزٌ يستحق إنتباه الجميع لأنه حصيفٌ وليس لأنّه صائبٌ. ففي حالاتٍ كثيرةٍ، تُنتِجُ مناطق الإستشعار الجسديّ خريطةً دقيقةً حول ما يجري في الجسد، ومع ذلك، في حالاتٍ أخرى، لا تقومُ بذلك، وذلك لسببٍ بسيط هو أنّ النشاط في المناطق المخرّطة أو الإشارات القادمة صوبها يمكن لها أن تكون قد تعدّلت بطريقةٍ ما. فقدت الأنماط

المخرّطة أمانتها! هل يخلخلُ ذلك الفكرة التي تفيد أننا نشعر بما هو مخرّط في دماغ الاستشعار الجسديّ؟ لا. المزيد عن ذلك بعد قليل.

القضية الثانية تتعلّق بوليام جيمس الذّي رفض أن تكون المشاعر بالضرورة إدراكًا للجسد الحاضر المتغيّر بفعل العاطفة. يتعلّقُ سببٌ من أسباب الهجوم على التخمين البصير لدى جيمس ومن ثم التخلّي عنه في نهاية المطاف ولفترة طويلة، بالمقولة التي تقول أنّ جعلَ المشاعر، على نحوٍ ما، تعتمد على إدراك حالات الجسد الجارية يمكن لها أن تعيق عملية الشعور، وأن تجعله عقيمًا. يقتضي الأمرُ وقتًا حتى يتم تغيير الجسد وتخريط التغييرات اللاحقة. على أية حالٍ، متى تمّ ذلك، يتطلب الأمرُ وقتًا أيضًا حتى يحصل الشعور. إنّ إختبارًا عقليًا للفرح أو الأسى يستلزمُ مدّة زمنية طويلة نسبيًا، ولا يتوفّرُ دليلٌ أيًّا كان عن أن إختباراتٍ عقليةٍ كهذه تكون أسرع من الوقت المطلوب من أجل إجراء التغيّرات الجسدية التي ناقشناها. على العكس، يقترحُ دليلٌ حديث أن المشاعر تحصل طوال ثوانٍ معدودة، من ثانيتين إلى عشرين ثانية كما هو شائع[72]. بالإضافة إلى ذلك، يمتلك هذا الإعتراض بعض الجدارةِ لأن إذا اشتغل النسقُ دائمًا بالشكل المحدد الذي تصوّره جيمس، فإنه لن يعمل دائمًا بشكلٍ أفضل.

إقترحتُ بدائلَ ترتكزُ على مقولة أساسية: لا تنبثق المشاعرُ بالضرورة من *حالات الجسد القائمة*، بالرغم من إمكانها ذلك، بل بالأحرى من *الخرائط القائمة* المتشكّلة في أيّة لحظةٍ معطاة في مناطق الإستشعار الجسديّ. على الضد من خلفية هاتين القضيتين، نحنُ مستعدّين الآن لمناقشة وجهة نظري حول تنظيم نسقِ المشاعر و إشتغاله.

حالات الجسد الجارية وحالات الجسد الز ائفة

في كلّ لحظةٍ من حياتنا، تستقبل مناطق الإستشعار الجسدي الدماغية إشاراتٍ يمكنها معها أن تشكّل خرائطَ لحالات الجسد الجارية. يمكننا أن نصف هذه الخرائط على شكلٍ تشكيلةٍ من المراسلات من كلّ حدب وصوب إلى أيّ مكانٍ في الجسدِ صوب مناطق الإستشعار الجسديّ. مع ذلك، هذا الوصف الواضح للوضوح الهندسيّ تغشّيه حقيقة أن مناطق دماغية أخرى بإمكانها إمّا أن تتدخّل مباشرةً في التأشير صوب مناطق الإستشعار الجسديّ، أو أن تتدخّل مباشرةً في نشاط مناطق الإستشعار الجسديّ نفسها. يظهرُ أن نتائجَ هذه "التداخلات" هي الأكثر إثارة للإهتمام. بقدر ما يكون عقلنا الواعي معنيًا هنا، نجدُ

مصدرًا وحيدًا لمعرفة ما الّذي يحصل في الجسد: أنماط النشاط الموجودة، في كلّ حين، في مناطق الإستشعار الجسديّ. وهكذا، قد يخلق أيّ تداخلٍ مع هذه الآلية خريطةً "زائفة" لما يرشح في الجسد في لحظةٍ محددة.

تخديرٌ طبيعيّ

المثلُ الجيّد عن تخريطٍ "زائفٍ" للجسد يحصل بفعل ظروفٍ محددة حين ينقّي الدماغ إشارات الأذيّة nociceptive الجسدية. يستبعدُ الدماغُ، بشكلٍ فعّال، من خرائط الجسد المركزية أنماط النشاط التي يمكن أن تفسح المجال لتجربةِ الألم. توجدُ أسبابٌ وجيهة لسيادة آليات التمثيل "الزائف" خلال التطوّر. فعندَ محاولةٍ لتفادي الخطر، يبدو من المفيد ألا نشعر بأي ألمٍ قد يتأتّى عن جروحٍ تأتّت عن مسبِّبِ الخطر (مثلاً عضّة حيوانٍ مفترس) أو عن فعل الهروب نفسه من الخطر (الفرار و من ثمّ التأذّي بسبب عوائق ما).

لدينا الآن دليلٌ مفصَّلٌ حول حصول هذا النوع من التداخل. إنّ النوى المسمّاة السِّنجابيَّةُ المُحِيطة بالمَسَال، والموجودة في سقيفة جذع الدماغ، تبعثُ بالرسائل صوب المسارات العصبية التي تقوم، وبشكل طبيعيّ، بنقل الإشارات من النسيج المتضرر ممّا يؤدي إلى تجربةِ الألم. تجنّب هذه الرسائل تلك الإشارات من المرور[73]. طبيعيًا، ونتيجةً لهذه التنقية، نحصل على خريطة جسدٍ "زائفة". بالطبع، ليست العلاقة الجسدية في هذه العملية محطّ سؤالٍ، و تبقى تبعية الشعور لـ"لغة" إشارات الجسد مثبّتةً. إنّ الأمر يكمن فقط في أنّ ما نشعر به فعليًا ليس بالضبط ما يمكن أن نشعر به من دون التداخل الحكيم للدماغ. يتساوى أثرُ هذا التداخلِ مع تناول جرعة كبيرة من الأسبيرين أو من المورفين، أو مع الخضوع لتخديرٍ موضعي، بإستثناء أنّ الدماغ يقوم بذلك من أجلك، و بشكلٍ طبيعيّ. عرَضيًا، ينطبق مجازُ المورفين بشكلٍ كبير على ما نحنُ بصدده، ذلك أن واحدةً من تنويعات هذا التداخل تستخدمُ طبيعيًا و تولّد داخليًا مضاهئات للمورفين morphine analogues أي البيبتيدات الأفيونية opioid peptides مثل الأندورفين endorphins. نجدُ العديد من طبقاتِ البيبتيدات الأفيونية، وكلّها يتم تصنيعها بشكلٍ طبيعيّ في جسدنا، ولذلك نسمّيها "باطنية النشوء" Endogenous وتتضمن إنكافالين enkephalin، و الدينورفين

dynorphin، بالإضافة إلى الإندورفين. ترتبط هذه الجزيئات بفئاتٍ خاصةٍ من المستقبِلات في بعض عصبونات مناطق دماغية محدّدة. ولذلك، في بعض أوقات الحاجة، تمنحنا الطبيعة ذات الجرعة المخدّرة التي يصفها الطبيب الرحيم لمريضه المتألّم.

بإمكاننا أن نجد أدلةً على هذه الآليات في أي مكانٍ حولنا. نحنُ، المتحدّثون أمام العامة أو الممثّلون ، الّذين أدّينا عروضًا ونحنُ مرضى، كنا قد اختبرنا الإختفاء الغريب لأسوأ الأعراض الجسدية لأيّ داءٍ حينما كنّا نسير على المسرح. تنسبُ الحكمةُ القديمة التغيّر الإعجازيّ إلى تدفق الأدرنالين في جسد المؤَدّي. وهي فعلاً حكيمة تلك المقولة التي تفيد أنّ جزيئةً كيميائيةً منخرطة في الأمر، ولكنّها لا تخبرنا أين تشتغل هذه الجزيئة ولماذا يتسبب عملها بالأثر المرغوب. أظنّ أنّ ما يحصل هو تعديلٌ ملائمٌ للغاية في خرائط الجسد القائمة. يتطلّب التعديلُ العديد من الرسائل العصبية و ينطوي على بعض الجزيئات الكيميائية، بالرغم من أنّه ليس من المرجّح أن يكون الأدرنالين الجزيئة الرئيسية. وفي أرضٍ المعركةِ، تتعدّل خرائط جسدِ الجنود التي ترسمُ الألم والخوف في أدمغتهم، ومن دون هذا التعديل يمكن لأفعال البطولة أن تقلّل من فرص حصولها . إن لم تتم إضافة

هذه الخاصية اللطيفة إلى قائمة menu أدمغتنا، كان يمكن للتطوّر أن يوقف الولادة لصالح ضروبٍ من الإنجاب أقلُ إيلامًا.

أشتبهُ بأن بعض أشكال علم النفس المرضيّ المشهورة قد اختطفت هذه الآلية الحاذقة، وذلك لأسبابٍ وجيهةٍ: إنّ ما يسمّى بردود الفعل الهيستيرية أو الإقلاب conversion والتي تسمح للمريض بألاّ يشعر أو يحرّك أجزاءً من جسده، يمكنها أن تكون نتيجة تغيّرات عابرة ولكن جذريةٍ في خرائط الجسد. يمكن لنا أن نفسّر العديد من الإضطرابات النفسية "جسدية الشكل" somatoform على نفس المنوال. بشكلٍ عرَضيّ، يمكن لالتواء twist بسيطٍ في هذه الآليات أن يساعد في كبحِ تذكّر الأحداث التي سببت يومًا ما كربًا في حياتنا.

التشاعر

يبدو من الواضح أيضًا أن بإمكان الدماغ أن يحاكي بعض حالات الجسد العاطفية باطنيًا، مثلما يحصل في عملية تحويل عاطفة التعاطف sympathy إلى شعور التشاعر empathy. فكّر مثلاً أنّك أُخبِرتَ بحادثٍ أليمٍ حيث أصابت أحدهم جروحٌ قاتلة. للحظةٍ، قد تشعر بوخزةِ ذاك الألم الّذي يتراءى لذهنك إنّه ألمُ المُصابِ، وقد تشعر إنّك الضحية، وقد يصبح الشعور أقلّ أو أكثر حدّة ربطًا بحجمِ الحادثِ أو بمدى معرفتك بالمُصاب. الآلية المفترَضة

من أجل إنتاج هذا النوع من الشعور هي تشكيلة ممّا سمّيته آلية الـ "كأنها عروة جسدية As-if-boody-loop ". تحتوي هذه الآلية على محاكاة داخل الدماغ تتضمن تعديلاً سريعًا لخرائط الجسد القائمة. يتمّ بلوغ ذلك حين تؤشِّر signal بعض مناطق الدماغ، كالقشور الجبهية الأمامية أو الأمام حركية Prefrontal / premotor cortices، بشكلٍ مباشر مناطقَ الإستشعار الجسدي في الدماغ. وفي وقتٍ سابق، انوجدت أصناف متشابهة من العصبونات وأخذت موضعها، ويمكن لهذه العصبونات أن تمثّل، في دماغ فردٍ ما، الحركة التي يراها الدماغ عينه في فردٍ آخر، وأن تنتجَ إشاراتٍ صوب البنى الحسّحركية sensorimotor بحيث أن الحركات المقابلة يمكن إمّا "استعراضها" previewed في نمط المحاكاة، أو تنفيذها فعليًا. توجد هذه العصبونات في القشور الجبهية لدى القرود و البشر، و تُعرَف بـ"العصبونات المرآتية mirror neurons"[74]. أعتقد أن آلية الـ"كأنّها عروة جسدية" التي افترضتها في كتاب "*خطأ ديكارت*" مستمدة من تنويعات من هذه الآلية.

لا تختلف نتيجة المحاكاة المباشرة لحالات الجسد في مناطق الإستشعار الجسديّ عن تلك الخاصة بتنقية الإشارات الوافدة من الجسد. في كلا الحالتين، يخلق الدماغ، للحظةٍ، تشكيلة من خرائط الجسد لا تتطابق بشكلٍ دقيق مع الواقع

الحقيقي للجسد. يستخدمُ الدماغ الإشارات القادمة من الجسد كأنها طينًا كي ينحت حالة جسدٍ خاصة في المناطق حيث يمكن لنمطٍ كهذا أن يتكوّن، أي في مناطق الإستشعار الجسديّ. هكذا، ما نشعرُ به يستندُ على تكوين "زائفٍ"، وليس على حالة جسدٍ "حقيقية".

تحدّثت دراسةٌ آنفة قام بها رالف آدولف Ralph Adolph، وبشكل صريح، عن قضية حالات الجسد التي تمت محاكاتها[75]. هدفت الدراسةُ إلى الإستقصاء عن دعائم التشاعر و تضمنت أكثر من مائة مريضٍ مصابٍ بآفات عصبية متموضعة في مواقع مختلفة من قشورهم المخّية. لقد طُلِب منهم المشاركة في مهمّةٍ استدعاها صنفُ من العمليات المطلوبة من أجل توليد إستجابات تشاعرية. وُضِعت أمام مرآى كلّ مريضٍ صورُ أشخاصٍ مجهولين يُظهِرون بعض التعابير العاطفية، وكانت المهمّة أن تتم الإشارة إلى ما يشعر به الشخص في الصورة. وقد طلب الباحثون من كلّ فردٍ مصاب أن يتصوّر أو تتصوّر نفسها محلّ الشخص المجهول وتحزر حالته الذهنية. أمّا الفرضية التي تم إختبارها فقد نصّت على أن المرضى بسبب ضررٍ في مناطق إستشعارهم الجسدية في القشرة المخيّة لن يكونوا قادرين على إنجاز المهمّة بشكلٍ طبيعيّ.

أنجز معظم المرضى مهمّتهم بشكلٍ سلسٍ، تمامًا كما يفعل المتعافون، بإستثناء مجموعتين محددتين من المرضى ممَن كان إنجازهم ضعيفًا. لقد أمكن التنبوء بعمل المجموعة الأولى، حيث تألّفت من مرضى يعانون من تلفٍ في قشور الترابط البصريّ، على الخصوص في القشور البصرية اليمنى لمنطقة القذالية الصدغية البطنيةventral occipitotemporal. هذا القطاع من الدماغ أساسيٌّ من أجل تقدير التكوينات البصرية، ومن دون إندماجه، لا يمكن إدراك التعابير الوجهية في الصوَر ككلٍّ as a whole، حتىّ لو أمكن رؤيتها بالمعنى العام للكلمة.

أعلمَت المجموعة الأخرى من المرضى عن الكثير: فهي التي تضمنت مرضى مصابين بتلفٍ في كامل منطقة القشور الحسّية الجسدية *اليمنى*، بالتحديد في مناطق الجزيرة، SII و SI لنصف الكرة المخيّة اليمنى. في هذه المجموعة من المناطق يكمل الدماغُ أعلى مستويات التخريط المندمج لحالات الجسد. في غياب هذه المنطقة، يصبح من المستحيل على الدماغ أن يحاكي حالات الجسد الأخرى بشكلٍ فعّال. يفتقر الدماغ إلى الخلفية حيث يمكن للتباينات في مظهرِ حالة الجسد أن تقوم بدورها.

إنّها لدلالةٍ فيزيولوجية كبيرة أن المنطقة المشابهة في نصف الكرة المخية اليسرى لن تعمل على نفس المنوال: لقد أنجز

المصابون بتلفٍ في المركّب الحسّي الجسديّ الأيسر مهمّة التشاعر بشكلٍ طبيعيّ. وهذا إكتشافٌ جديدٌ يقترحُ أن القشور الحسّية الجسدية اليمنى هي "المهيمنة" بالنظرِ إلى تخريط الجسد المندمج. وهذا هو السبب في أنّ تلفًا في هذه المنطقة ارتبطَ دومًا مع قصورٍ في العاطفةِ و الشعور، مع وضعيةٍ مثل عمه العاهة anosognosia و الإهمال Neglect، والتي تجد أساسها في الفكرة المضطربةِ عن حالة الجسد القائمة[76]. من المرجّح أنّ اللاتناظر asymmetry، اليمين مقابل اليسار، في عمل القشور الحسّية الجسدية عند البشر يرجع إلى المشاركة المخصصة للقشور الحسّية الجسدية اليسرى في اللغة والكلام.

يتأتّى دليلٌ داعمٌ آخر من دراساتٍ على الأشخاص الأسوياء الّذين يشاهدون صورًا فوتوغرافية حيث يُظهرون، بشكلٍ صريحٍ، عاطفةً، و ينشّطون، ببراعةٍ، المجموعة العضلية لوجوهم، وهي ما كانت ضروريةً لهم من أجل أن يقوموا بالتعبيرات العاطفية التي ظهرت في الصوَر. لم يكن الأفراد المشاركون على درايةٍ بتلك الصورة – المرآتية mirror image ذات الضبط المسبق presetting لعضلاتهم، ولكنّ الأقطاب الإلكترونية المنتشرة عبر وجوههم سجّلت التغيّرات[77] التخطيطية الكهربية العضلية electromyography.

خلاصة الأمر، تشكّل مناطق الإستشعار الجسديّ ضربًا من مسرحٍ حيث لا تُعرَض فقط حالات الجسد الجارية، بل أنّ تنويعات من حالات الجسد "الزائفة" يمكن السماح بها على حدّ سواء، مثل الحالات الـ "كما لو أنّها جسدية" as-if-body states، حالات الجسد المنقّى، الخ. من المرجّح أن تصدر أوامر إنتاج حالات الـ"كما لو أنها جسدية" عن تشكيلة من القشور الجبهية الأمامية كما يقترحُ عملٌ حديث حول العصبونات-المرآة عند كلا الحيوانات والبشر.

الجسدُ المهلوَس

يسمح لنا الدماغُ بأن *نهلوِس* ببعض حالات الجسد عبر تنويعة من الوسائل. بالإمكان أن نتصوّر كيف بدأت سمةٌ كهذه بالتطور. في البدء، أنتج الدماغُ مجرّد تخريطاتٍ سويّة لحالة الجسدِ؛ و لاحقًا، ظهرت إمكانياتٌ أخرى،على سبيل المثل، أقصت، بشكلٍ مؤقّتٍ، تخريطَاتٍ لحالات الجسد مثل تلك التي تبلغ ذروتها في الألم. ربّما لاحقًا، ستوجد إمكانيات لمحاكاة حالات الألم حيث لا وجود لها. من الواضحِ ما كان للإمكانيات الجديدة من منافعَ، ولأن إزدهر هؤلاء الّذي حازوا هذه المنافع، فقد سادت، بالتالي، هذه

الإمكانيات. كما في حالة السمات القيّمة الأخرى لخِلقتِنا الطبيعية، يمكن للتغييرات المرَضية أن تُفسِدَ الإستخدام القيِّم، مثلما نرى في حالة الهيستيريا والإضطرابات.

تكمنُ القيمةُ العملية الإضافية لهذه الآليات في سرعتها. يمكن للدماغ أن ينفّذ تعديلاتٍ لحالات الجسد، بشكلٍ سريعٍ جدًا، في نطاقٍ زمنيّ بمئات من أجزاء من ألف بالثانية أو حتّى أقلّ، وهي الفترة الوجيزة التي تحتاجها المحاور العصبية القصيرة و الميالينية myelinated axon من أجل نقل إشارات، فلنقل، من القشرة الجبهية الأمامية إلى الخرائط الحسّية الجسدية للجزيرة الكائنة على بعد سنتيمترات قليلة. إن النطاق الزمنيّ الّذي يحتاجه الدماغ من أجل إحداث تغيّرات في الجسد المخصوص عبارةٌ عن ثوانٍ. غالبًا ما تحتاج المحاور اللا-ميالينية إلى ثانيةٍ واحدةٍ تقريبًا من أجل أن تنقل إشارات إلى أجزاء الجسد الكائنة على بعد عشراتِ السنتيمترات من الدماغ. هذا هو الوقت الّذي يحتاجه هرمونٌ من أجل أن ينتشر في مجرى الدم ويبدأ بإنتاجِ سلسلة من التأثيرات اللاحقة. ربّما هذا هو السبب الّذي يجعلنا، في بعض الظروف، نحسُّ بعلاقةً باهرة و مؤقتة بين الظلال الخفية للمشاعر و بين الأفكار التي أطلقتها أو التي نتجت عنها. تجعل السرعة القصوى لآليات كما-لو-انّها جسدية من الفكر

والشعورالمتحقق متقاربين زمنيًا، وبشكلٍ أسهل ممّا إذا اعتمد الشعور، ببطءٍ، على تغيّرات الجسد القائمة.

من الجدير بالملاحظة أن الهلوساتِ كتلك التي وصفناها ليست بتكيفيّةٍ adaptive حين تحصل في الجهاز الحسّي بخلاف تلك التي على علاقةٍ بداخلِ الجسد. تبدو الهلوسات البصرية خطيرة جدًا، كذلك تلك السمعية. لا فائدة تُرجى منها ولا يستمتع بها المصابون بالأمراض النفسية و العصبية والّذين عليهم أن يعانوا منها. الأمر عينه ينطبق على الهلوسات الشمّية و الذوقية التي قد يختبرها مرضى الصرع. ومع ذلك، تكون هلوسات حالات الجسد، بعيدًا عن حالات الأمراض النفسية التي ذكرتها، مصادرَ قيّمة للعقلِ السويّ.

كيميائياتُ الشعور

الآن، يعرف الجميع أن ما يدُعى بعقاقير تغيير المزاج mood-altering drugs تقلب مشاعر الحزن أو العجزِ إلى مشاعرِ قناعةٍ contentment و موثوقية confidence. مع ذلك، قبل فترةٍ طويلة من ظهور البروزاك Prozac، أظهرت الكحول، المخدّرات، المسكّنات، والهرمونات مثل الاستروجين و التستوستيرون، بالإضافة إلى

قائمة من عقاقير النفسانية psychotropic، أظهرت إمكانية تغيير المشاعر بفعل مواد كيميائية. من الواضح أن فعل كل تلك المركّبات الكيميائية يعود إلى تصميم جزيئاتها. كيف تُنتِج هذه المركِّبات تأثيراتها البارزة؟ يقول التفسير المعتاد أن الجزيئات الكيميائية تعمل على بعض العصبونات في بعض مناطق الدماغ حتّى تولّد نتائجَ مرغوبة. مع ذلك، من وجهة نظر الآليات العصبية البيولوجية، تبدو هذه التفسيرات غريبة بعض الشيء. يشرب تريستان Tristan و إيزولد Isolde شراب الحب: !Bang. و في المشهد التالي يقعان في الحب. ليس من الجليّ أبدًا لماذا يمكن للمادة الكيميائية X التي تعلّق نفسها بعصبونات الدماغ أن تعطّل كرْبَك و تجعلك مغرَمًا. ما هي القيمة التفسيرية للقول أن البالغين الذكور قد يصبحون عنيفين و مهتاجين حين "يغرقهم" التستوستيرون الطازج؟ هناك مستوى وظيفيّ مفقود في تفسير العلاقة بين جزيء التستوستيرون و سلوك البالغ.

يتأتّى قصور التفسير من حقيقة أن الأصل الحالي لحالات الشعور – طبيعتها العقلية - غير ممَفهَم conceptualized بمصطلحاتٍ عصبية بيولوجية. يحلّ التفسيرُ على مستوى الجزيء جزءًا من اللغز ولكنّه لا يصل أبدًا إلى ما نرغب بتفسيره. وتفسّر الآلية الجزيئية التي تنتج عن ادخال الدواء في الجهاز

بدايةَ سلسلةٍ من العمليات التي تقود إلى تبديل المشاعر، لكنها لا تفسّر العملية التي تكوّن، في نهاية المطاف، هذه المشاعر. يمكن قول القليل حول الوظائف العصبونية الخاصة التي تتبدّل بفعل عَقارٍ لكي تتبدّل المشاعر. إنّنا على دراية بموضع مستقبلات العصبونات حيث يمكن لبعض الجزئيات الكيميائية أن تعلّق نفسها بقوّةٍ. (على سبيل المثال، نعلم أنّ المستقبلات الأفيونية لطبقة الموو mu تتموضع في مناطق دماغية مثل القشور الحِزامية، ونعلم أن الأفيونات الخارجية كما الداخلية تعمل عبر تعلّقها بتلك المستقبلات[78]). نعلمُ أن تعلّق الجزيئات بهذه المستقبِلات تسبّب تغيّرات في تشغيل العصبونات المجهَّزة بتلك المستقبلات. نتيجةً لتعلّق الأفيون بمستقبلات موو الموجودة في بعض العصبونات القشرية، تصبح العصبونات في منطقة التجويف البطنيّ في جذع الدماغ نشيطةً وتقود إلى إطلاق الدوبامين في البنى مثل النواة المتكوّنة nucleus accumbens في الدماغ المقدّم القاعديّ. بالمقابل، تحصل بضعةُ سلوكياتٍ مكافِئة، و يمكن الإحساس بمشاعر ممتعة[79]. مع ذلك، فإنّ الأنماط العصبيّة التي تشكّل قاعدة المشاعر لا تعمل في عصبونات المناطق المذكورة آنفًا فقط، وعلى الأرجح فإنّ الأنماط "التكوينية" للمشاعر لا تعمل، إطلاقًا، في العصبونات. في كلّ الإحتمالات، تشتغل الأنماط العصبية الأساسية، التي هي السبب

المباشر لحالة الشعور، في مكانٍ آخر، بالتحديد في مناطق الإستشعار الجسديّ مثل الجزيرة، وذلك كنتيجة لعمل العصبونات التي تأثّرت، بشكلٍ مباشر، بالجزيئات الكيميائية.

إنطلاقًا من الإطار الذي قمت ببنائه، بإمكاننا أن نحدد العمليات التي تقود إلى تبديل المشاعر كما مواضع عمل العقاقير. إذا نشأت المشاعر من الأنماط العصبية التي تخرّط السمات التي لا تحصى لحالة الجسد الجارية، فإنّ الفرضية المقتضبة هي أن كيميائيات تبديل المزاج تولّد سحرها عبر تغيير نمط النشاط في خرائط الإستشعار الجسديّ تلك. ويمكنها القيام بذلك بواسطة ثلاث آليات مختلفة تعمل أو تقترن مع بعضها البعض: تتداخل آليةٌ مع نقل الإشارات من الجسد؛ أخرى تعمل من خلال توليد نمطٍ خاص للنشاط داخل خرائط الجسد؛ و أيضًا، تعمل أخرى ثالثة عبر تغيير الحالة الخاصة بالجسد. تنفتح هذه الآليات كلّها أمام العقاقير كي تعمل ببراعةٍ.

ألوان من الأدوية المسببّة للنعيم

تُظهِرُ جُملة مسارات من الأدلة أهمية خرائط الإستشعار الجسديّ في الدماغ بإعتبارها أساس توليد المشاعر. كما تبيّن لنا،

تشير التحليلات المتعمّقة للمشاعر العادية، بشكلٍ صريحٍ، إلى إدراكِ تغيرات متنوعة للجسد خلال تشعّب المشاعر. لقد ناقشت إختبارات التصوير الوظيفية العديدة الأنماط المتغيّرة المبكرة للنشاط في مناطق الإستشعار الجسديّ بإعتبارها إرتباطات من المشاعر. مصدرٌ آخر للأدلة مثيرٌ للإهتمام هو التحليلات المتعمّقة للمدمنين الّذين يتعاطون المخدرات لهدف جليّ هو إنتاج حالة عارمة من السعادة. تتضمن توصيفات الشخص الأول من المدمنين إحالات متكررة إلى تغيّرات متبدّلة في الجسد خلال الجرعات الكبيرة. هاكم بعض التوصيفات:

كان جسدي مفعمًا بالطاقة و في الآن عينه كان مسترخيًا.

تشعر وكأن كل خلية ، كل عظمة في جسدك تقفز من البهجة.

هناك حالة من التخدير البسيط....الوخز في كل مكان، و إحساس دافئ.

كأنها نشوة جسدية عارمة.

ينتشرُ الدفءُ في كافة أنحاء الجسد.

كان الحمّامُ الدافىء جميلًا حتى أنني لم استطع الكلام.

وكأنك رأسك على وشك الإنفجار...دفءٌ ممتع و إحساس قويّ بالإسترخاء.

كأنه الإسترخاء الّذي تشعر به بعد الجنس..ولكنه أفضل.

جسديّ يرتفع...

تأثير الدبابيس و الإبر ....يخبرك الجسد بأنه مشلول بالتمام والكمال.
تشعر وكأنّك مغطّى بأكثر بطانية دافئة و مريحة وممتعة في العالم.
على الفور، شعر جسدي بالدفء، بالأخص وجنتايَ التي شعرت بدفئهما العميق[80]*.*

تحمل كل هذه التوصيفات تشكيلةً متماثلة من التغيّرات في الجسد – الإسترخاء، الدفء، الشلل، التخدير، التسكين، التنفيس الإرجازيّ، الطاقة. مرةً أخرى، لا فرق إن حصلت هذه التغيّرات فعليًا في الجسد و تحوّلت إلى خرائط حسّية جسدية، أو تم تحضيرها في هذه الخرائط، أو كلا الأمرين. لقد صحُبت الإحساسات تشكيلةٌ من الأفكار المتوائمة – أفكارٌ عن أحداث إيجابية، قدرة متزايدة على "الفهم"، طاقة فكرية و جسدية، تجاوزٌ للعقبات والإنهمكات. الغريب في الأمر أنّ التوصيفات الأربع الأولى تأتّت بعد تناول جرعات كبيرة من الكوكايين. أفاد مستخدمو مواد الإنتشاء بالتوصيفات الثلاث التالية، و مستخدمو الهرويين بالخمس الباقيات. ينتِج تناول الكحول آثار أقل حدّة ولكن مريحة أكثر. حقيقةُ أن الآثار تتشارك صميم الجسد أمرٌ أكثر إثارة للإعجاب بالنظر إلى *أن المواد التي تسببت*

بتلك الآثار مختلفةٌ كيميائيًا و تعمل على أجهزةٍ كيميائية مختلفة في الدماغ. تشتغل هذه المواد من خلال إحتلال أنظمةِ الدماغ كما لو أن الجزيئات يتم خلقها من الداخل. مثلاً، يعمل الكوكايين و الآمفتامين amphetamine على نظام الدوبامين، ولكنّ البديل المألوف حاليًا عن الآمفتامين والمعروف بالانتشاء (جرعة جزيء يسمّى ميتالنيديوكسيميتامفتامين methylenedioxymethamphetamine أو MDMA) يعملُ على نظام السيروتنين. كما رأينا آنفًا[81]، يعمل الهيرويين و مواد أفيونية شبيهة أخرى على المستقبلات الأفيونية μ و б، وتعمل الكحول على مستقبلات GABA A وعبر مستقبلات جلوتامات glutamate NMDA.

من المهم أن نلاحظ إنّ الإنخراط المنهجي عينه لمناطق الإستشعار الجسديّ، الموصوفة سابقًا في أبحاث التصوير الوظيفيّ للعديد من المشاعر الطبيعية، يمكن العثور عليه في أبحاثٍ حيث إختبر المشاركون مشاعرَ نتجت عن تعاطي مواد الإنتشاء، الهيروين، الكوكايين، الماريجوانا، أو عن إشتهاء موادٍ شبيهة. مرةً أخرى، تبدو القشور الحزامية و الجزيرة المواقع المهيمنة الأكثر إنخراطًا[82].

على نفس المنوال، يتغيّر التوزيع التشريحيّ للمستقبِلات التي تعمل عليها تلك المواد المختلفة، ويكون النمط بشكلٍ أو بآخر مختلفًا بالنسبة لكل عقار من العقاقير. ومع ذلك، تبدو المشاعر المتولّدة متشابهة جدًا. من المنطقيّ أن نفترض أنّه، بطريقةٍ أو بأخرى، وفي لحظةٍ ما من عملها، تساعد الجزيئات المختلفة على تشكيل أنماطِ نشاطٍ في مناطق الإستشعار الجسديّ. بمعنى آخر، يتأتّى أثرُ الشعور عن التغيّرات في الموقع أو المواقع العصبية التي تم تشاركها، ما يتأتّى بدوره عن تعاقبات مختلفة للتغيّر في الأنظمةِ تسببت بها مواد مختلفة.

لا يكفي التوصيف على مستوى الجزيئات و المستقبلات وحده من أجل تفسير الآثار المترتبة.

لأن كلّ المشاعر تحتوي بعض سمات الألم أو المتعة كمكوّنٍ ضروريّ، و لأن الصور العقلية التي ندعوها مشاعرَ تنشأً عن الأنماط العصبية المعروضة في خرائط الجسد، فإنّه من المنطقيّ الإفتراض أن الألم وتغيّراته تحصلُ حين تصيب خرائط الجسد الدماغية تعديلاتٍ محددة. بطريقةٍ مشابهة، تبدو المتعة و تغيّراتها نتيجةً لبعض التعديلات في الخرائط. يتألّف شعور الألم أو المتعة من عملياتٍ بيولوجية حيث تتوافق صور جسدنا، كما هي مصوَّرة في خرائط الجسد الدماغية، في نمطٍ محدد. تبدّل

عقاقير مثل المورفين و الأسبيرين هذا نمط. وكذلك تفعل مواد الإنتشاء و الويسكي، و المبنّجات، وأصنافٌ محددة من التأمّل، كما أفكار اليأس، و الأمل و الخلاص.

المنتقدون

في الوقت الّذي يقبلون بالنقاش الدائر حول الأسس الفيزيولوجية للشعور، سوف يبقى بعض المنتقدين غير راضين و يشكون أنّني لم أفسّر بعد لماذا تشعر المشاعر بالشكل الّذي تشعر به. يمكنني أن أردّ بالقول أنّ سؤالهم طُرِحَ بشكلٍ سيّء، وأن المشاعر تقوم بذلك على هذا النحو لأن طبيعة الأمور هي هكذا فحسب. ولكنّني سوف ألقي بالاً لوجهة نظرهم ولن أتوقف عن تقديم الحجج. فلأُكمِل إذًا عبر إضافة تفصيلٍ إلى الإجابات المقدّمة حتى الآن، وعبر الإشارة، بأكبر دقّة ممكنة، إلى الطبيعة الدقيقة للتخريط الذي يساهم في صناعة المشاعر.

لوهلةٍ، قد تظهر التخريطات المتضمنة للشعور كتمثيلٍ مبهم و فجّ لحالة الأحشاء أو العضلات. ولكن فلنفكّر ثانيةً، ولنأخذ بعين الإعتبار أولاً وحرفيًا أنّ كلّ منطقة من الجسد تمّ تخريطها في الوقت عينه لأن كلّ منطقةٍ من الجسد تتضمن

نهايات أعصابٍ nerve endings بإمكانها أن ترسل إشاراتٍ إلى الجهاز العصبيّ المركزيّ كما إلى مكان الخلايا الحيّة التي تكوّن منطقة ما. هذا التأشيرُ معقّد. لا يتعلّق الأمر ببيانات الـ"صفر" و الـ"واحد، كما لو أنّ خليّة حيّة تعمل أو تتوقف on or off. إنّ الإشارات متنوّعة جدًا. مثلاً بإمكان نهايات العصب أن تشير إلى مقدار تركيز الأوكسيجين و ثاني أوكسيد الكربون في موقعٍ يجاور خليّةً. بإمكانها أن تؤشّر إلى قيمة الأسّ الهيدروجيني PH للحوض الكيميائي حيث تنغمس كلّ خليّة حيّة. وبإمكانها أن تؤشّر إلى وجود مكوّناتٍ سامّة، خارجية أو داخلية. وبإمكانها أن تلتقط ظهور جزيئات كيميائية داخلية التولّد مثل السيتوكينات cytokines التي تدلّ على شدّة وتهديد مرضٍ يصيب خليّةً حيّةً. أضف إلى ذلك، يمكن لنهايات العصب أن تشير إلى حالةِ إنقباضات الألياف العصبية، بدءًا من الألياف العصبية الرقيقة التي تشكّل جدار كلّ شريانٍ، كبيرًا كان أم صغير، في أي مكانٍ في الجسد، إلى الألياف العصبية الكبيرة و المخططة التي تكوّن عضلاتِ أطرافنا، جدار صدرنا، أو وجهنا. وبإمكان نهايات العصب أن تشير إلى الدماغ أيّ من الأحشاء كالجِلد أو الإمعاء تعمل في لحظةٍ ما. زد على ذلك، وبالإضافة إلى المعلومات التي تتلقّاها من نهايات العصب فإن تخريطات الجسد التي تؤلّف

ركائزَ المشاعر في الدماغ تُبلَّغ مباشرةً بالتغيّرات الكثيرة في تركيز الجزيئات الكيميائية في مجرى الدم، وذلك عبر مسلكٍ لاعصبيّ.

علي سبيل المثال، في الجزء الدماغي المسمّى الوِطاء، تقرأ مجموعة من العصبونات مباشرةً تركيز الغلوكوز (السكّر) أو الماء في الدم و تقوم بعملها بما يناسب ذلك. إنّ الفعل الّذي تقوم به، وكما ذُكِر سابقًا، مصمّمٌ على شكلِ دافعٍ أو الشهية. يقود التناقصُ في الغلوكوز إلى إنتاج الشهية، - حالة الجوع – و إلى إطلاق سلوكياتٍ تهدف الى إلتهام الطعام و بالتالي تصحيح مستوى الغلوكوز المنخفض. كذلك، يقود التناقص في تركيز جزيئات الماء إلى العطش و الإحتفاظ بالماء. يتحقق ذلك عبر إعطاء الأمر للكبد بألا يقصي الكثير من الماء، وعبر تغيير النمط التنفسيّ بحيث لا يضيع الكثير من الماء في الهواء خلال الزفير. إنّ عددًا من المواقع الأخرى، بالتحديد الباحة المنخفضة Postrema في جذع الدماغ، و الأعضاء تحت القبو subfornical، القريبة من البطينات الجانبية lateral ventricles، يتصرّفُ كما الوِطاء [الهيبوتالاموس]. تقوم هذه المواقع بتحويل الإشارات الكيميائية المنقولة في مجرى الدم إلى إشارات عصبية تنتقل على طول المسارات العصبية داخل الدماغ. النتيجة هي نفسها: ينبغي على الدماغ القيام بتخريط حالة الجسدِ.

إذ يقوم الدماغ بمسحِ كامل المتعضيّ، موضعيًا و بشكلٍ مباشر – عبر نهايات العصب – و بشكلٍ عام وكيميائيًا – عبر مجرى الدم – فإن تفاصيل هذه الخرائط وتنويعاتها تبدو رائعة. فهي تقدّم اعتيانات samplings عن حالة الحياة عبر المتعضّي ، ومن هذه الاعتيانات رائعة الإستفاضة يمكن إستخلاص حالات الجسد المندمجة. أظنّ أنّنا حين نقول أنّنا نشعر بالخير أو نشعر بالذنب، فإن الإحساس الّذي نختبره مُستمدٌ من اعتياناتٍ مركّبة تستند على تخريطِ كيميائيات الوسط الداخليّ. قد لا يكون من الملائم القول، كما كنّا نقول غالبًا، أن التأشير العصبيّ الّذي يستمر في جذع الدماغ و في الوطاء ليس بالمرّة واعيًا. أعتقد أن جزءًا منه يُصنَع، بإستمرار، بحيث يكون واعيًا بشكلٍ أو بآخر وأنّ هذا بالتحديد ما يشكّل مشاعرنا الخلفية. صحيحٌ أن مشاعر الخلفية قد تستمر من دون أن تحضر، وهذه قضية أخرى، إلاّ أنّها غالبًا ما تحضر وبما فيه الكفاية. فكّر بذلك في المرّة القادمة التي تشعر فيها إنّك مصاب بنزلة بردٍ، أو في حالةٍ أفضل، إنّك على قمّة العالم ولا أحد أوفر حظّاً منك.

المزيد من المنتقدين

بخصوص هذه النقطة، يظهرُ المزيد من المنتقدين قائلين أن قمرةَ قيادة طائرة حديثة تبدو ممتلئة بأجهزة إستشعار جسم الطائرة تمامًا كما قمت أنا بوصفها. يسألونني: وهل تشعر الطائرة؟ إن كانت تشعر، هل يمكن أن أعرف لماذا تشعر على هذا النحو؟

كلّ محاولةٍ لربطَ ما يحدث في متعضٍ حيّ معقّد بما يحدث في آلة مهندسة بشكلٍ رائع، فلنقل طائرة بوينغ 777، هي محاولة طائشة. صحيحٌ أن أجهزة الحاسوب على متن طائرةٍ متطوّرة تتضمن خرائطَ ترصدُ مجموعة من الوظائف في لحظةٍ ما: حالة إنتشار الجزء المتحرّك من الأجنحة، الاستقرار الأفقي و دفّة القيادة؛ المعطيات المتنوعة في إشتغال المتحرّك، إستهلاك الوقود. كما تخضع متغيّرات محيطة للرصدِ مثل الحرارة، سرعة الرياح، الإرتفاع...الخ. تقوم بعض الحاسوبات بربط المعلومات المرصودة بشكلٍ مستمر بحيث يمكن تنفيذ التصحيح الذكيّ على حركة الطائرة. يبدو الشبهُ واضحًا مع الآليات الإستتبابية، ولكن هناك إختلافات ملحوظة، لا بل كبيرة بين طبيعة خرائط دماغ كائنٍ حيّ وبين قمرة قيادة البوينغ 777. فلنتكلّم عنها:

أولاً، هناك تدرّجٌ في التفاصيل حيث تتمثّل البنى المكوّنة والوظائف. ليست أجهزة الرصد في قمرة القيادة سوى نسخةٍ باهتة عن أجهزة الرصد في الجهاز العصبي المركزيّ لكائنٍ حيّ معقّد. تقريبًا يمكن أن تتشابه مع بعضها البعض في ما يتعلّق بجسدنا من حيث الإشارة إلى كون أرجلنا تتقاطع أو لا، وقياس دقات القلب و حرارة الجسد، وإخبارنا كم من الساعة يمكن أن تمضي قبل أن نأكل وجبتنا التالية. تبدو مفيدةً جدًا ولكن ليست كافيةً أبدًا من أجل البقاء على قيد الحياة. الآن، ليست فكرتي أن أقللّ من أهمية البوينغ 777 الرائعة، بل أن هذه لن تحتاج إلى المزيد من الرصدِ الّذي تملكه من أجل أن تستمر بالعمل. يعتمد "بقاؤها" على الطيّارين الأحياء الّذين يديرونها، و من دونهم يبدو كل العمل بلا معنى. الأمر عينه ينطبق، تلقائيًا، على الطائرات من دون طيّار [الدرون] التي نطلقها حول العالم، فإن "حياتها" تعتمد على هيئة القيادة.

تبدو بعض مكوّنات الطائرة "حيوية"– الشرائح واللوحات، الموجّه، الكوابح الهوائية و عجلات الهبوط – ولكن أيًّا منها ليس "حيًّا" بالمعنى البيولوجيّ. لا تتكوّن هذه المكونات من خلايا تعتمد في إندماجها على وصول الأوكسيجين والمغذّيات إلى كلٍّ منها. على العكس، *كلُّ* جزءٍ أوليّ من متعضينا، *كلّ* خليّةٍ في

جسدنا، ليس فقط حيويّ بل هو حيّ. لا بل أكثر من ذلك، كلّ خلية هي فردٌ متعضٍ حيّ - مخلوقٌ متفرّد لديه تاريخ ولادة، دورة حياة و بالمثل تاريخ وفاة. كلّ خليةٍ هي كائنٌ يجب البحث عن حياته الخاصة، هو ما تعتمد حياته على بناءاتٍ جينومه الخاص و شروط بيئته. إن أجهزة تنظيم الحياة الفطرية التي ناقشتها سابقًا بالعلاقة مع البشر توجدُ أسفلَ السلّم البيولوجيّ في كل نسقِ متعضّينا، في كلّ عضوٍ، في كل نسيجٍ، في كلّ خليةٍ. إنّ المرشّح المنطقيّ لمنصب "الجسيم" الأوليّ الحاسم لمتعضّينا الحيّ هو الخليّة الحيّة وليس الذرّةً.

لا يوجد حقًا ما يعادل هذه الخلية الحيّة في أطنانٍ من الألمنيوم، والسبائك المركّبة، البلاستيك، المطاط و السليكون التي صنعت طائرة البوينغ العملاقة. هناك أميالٌ من الأسلاك الكهربائية، آلاف الأقدام المربّعة من السبائك المكوّنة، وملايين من الصواميل، و الترابيس و المسامير فوق بدن الطائرة الخارجيّ. صحيحٌ أنّ هذه كلّها مصنوعةُ من موادٍ مكوّنةٍ من ذراتٍ، وهكذا هو اللحم البشريّ على مستوى بُناه المجهرية. ولكنّ المادة الفيزيائية للطائرة ليست مادة حيّة، ولا تتألّف أقسامها من خلايا حيّة تمتلكُ إرثًا جينيًا، وقدرًا بيولوجيًا، و حياتها معرّضة للخطر. حتّى وإنْ جادل البعض أن الطائرة تمتلك "عنايةً هندسيةً" من

أجل استمرار بقائها، ما يسمح لها بإستباق التحكّم الخاطىء لطيّارٍ شارد الذهن، فإن الفرْق الصارخ لا مهرب منه. تهتمّ حاسوبات قمرة القيادة الموحّدة في الطائرة بتنفيذ وظيفتها في الطيران، بينما لدى أدمغتنا و أذهاننا اهتمامٌ شاملٌ لأجل دمجِ مجالنا الحيّ بأكمله، دمجِ كلِّ زاويةٍ و شقٍّ فيه، وما هو أسفل كل ذلك، لكلّ زاويةٍ و شقٍّ في ذاته اهتمامه الموضعي و ذاتيّ التشغيل.

دائمًا ما يجري تمويه هذه التمايزات حول التشابه بين المتعضيّ الحيّ و الآلات الذكية مثل الروبوتات. أتمنّى هنا أن أوضّح أن أدمغتنا تستقبل الإشارات من أعماق الجسد الحيّ و بالتالي تمنحُ خرائطَ موضَعية وبالمثل شاملة للتشريح الدقيق و حالة الجسد دقيقة الإشتغال. هذا الترتيب الباهر في كلّ متعضٍ حيّ معقّد، يبدو وبشكلٍ صريحٍ، مدهشًا عند البشر. لا أرغب مهما يكن بأن أقلل من قيمة المخلوقات الإصطناعية المثيرة للإهتمام والتي تمّ تصنيعها في مختبرات جيرالد إدلمن Gerald Edelman أو رودني برووكس Rodney Brooks. بشكلٍ أو بآخر، تعمّق هذه المصنوعات فهمنا لبعض عمليات الدماغ، وربّما تصبح مكمّلاتٍ مفيدة لعدّةِ دماغنا. أريد فقط أن ألفت النظر إلى أن هذه المصنوعات الحيوية ليست حيّةً بالمعنى الّذي نحن عليه، ولا تشعرُ أيضًا على النحو الّذي نشعر نحنُ به[83].

فنلاحظ أمرًا مثيرًا للاهتمام و غالبًا ما تمّ البحث فيه: إنّ محسّات العصب nerve sensors التي تنقل المعلومة المطلوبة إلى الدماغ، و نوى العصب وصفائح العصب التي تخرّط المعلومة داخلها، هي *نفسها خلايا حيّة، تواجه خطرَ الحياة عينه الّذي تواجهه خلايا أخرى، و تحتاج إلى تنظيم إستتبابيّ شبيه*. ليست هذه الخلايا العصبية بمتفرّجٍ محايد، وليست بناقلاتٍ بريئة أو ألواحَ بيضاء، أو مرايا تنتظرُ شيئًا ما ينعكسُ عليها. إن لعصبونات التأشير والتخريط "رأيها" في ما يتعلّق بما يتم تأشيره، وبالخرئط العابرة المركّبة من الاشارات. إنّ الأنماط العصبية التي تقوم عصبونات الإستشعار الجسديّ بإستقبالها تنطلق من كافةّ الأنشطة الجسدية الّتي يجب وصفها. تشكّل نشاطات الجسدِ النمطَ، فتعطيه كثافةً محددة و شكلاً مؤقّتًا، ما يساهم في كيف أن شعورًا ما يشعر على هذا النحو أو ذاك. بل و بالإضافة، تعتمد نوعية المشاعر على التصميم الدقيق للعصبونات نفسها. وغالبًا ما ترتكزُ النوعية الإختبارية للشعور على الوسطِ الّذي تتحقق فيه.

في النهاية، فلنلاحظ شيئًا مثيرًا للإهتمام و لكن يتمّ إهماله مرّة أخرى حول طبيعة التحرّك في الأقسام المتحرّكة لطائرة البوينغ ولأجسادنا الحيّة. يتعلّق تحرّك البوينغ بغايات

الوظائف التي تمّ تصميم الطائرة من أجل أن تقوم بها – أن تسير على المدرج، أن تلقع و تحلّق و تهبط. ما يكافىء ذلك في جسدنا هو التحرّك الّذي يحصل حين ننظر، نسمع، نمشي، نركض و نقفز أو نسبح. ولكن لاحظوا كيف أن هذا الجزء من التحرّك البشري هو غالبًا قمة جبل الجليد حين نتكلّم عن العواطف وما تخفيه بداخلها. يتعلّق الجزء المخفي من جبل الجليد بالتحرّك الهادف فقط إلى معالجة حالة الحياة في أجزءا و في كليّة جسدنا الحيّ. إنّه بالتحديد ذاك الجزء من التحرّك الّذي يشكّل الركيزة الأساس لمشاعرنا. لا نجد شبيهًا لهذا الجزء من التحرّك في الآلات الذكية الحالية. ردّي على المنتقدين هو أنّ البوينغ لا تستطيع أن تشعر بأيٍّ شيء كما يفعل البشر، ذلك أنّها، ولأسبابٍ كثيرة، لا تملك مكافِئًا لحياتنا الداخلية كي تتم معالجته، بله وصفه.

يبدأ تفسير كيف تشعر المشاعر على هذا النحو: تستند المشاعر على تمثيلات مركّبة لحالة الحياة خلال عملية من التعديل من أجل البقاء في حالة من التشغيلات المثلى. تتدرّج التمثيلات من المكوّنات الوفيرة للمتعضّي وصولاً إلى مستوى كامل المتعضّي. وتتصّل طريقة الشعور بالتالي:

1- التصميم الدقيق لعملية الحياة في الكائن الحيّ متعدد الخلايا صاحب الدماغ المعقّد.

2- إشتغال عملية الحياة.

3- التفاعلات المصحَّحة التي تولّدها بعض حالات الحياة تلقائيًا، و الإستجابات الفطرية و المكتسبة التي تنخرط فيها المتعضّيات أخذًا بالإعتبار التواجد، في خرائطها الدماغية، لبعض الموضوعات و المواقف.

4- حقيقة أنه حين تعمل الإستجابات التنظيمية بفعل أسباب داخلية وخارجية، فإن دفق عملية الحياة يُصنَع بشكلٍ يكون إمّا أكثر كفاءةً وسهولةً، لا يعيقه شيء، أو دون ذلك.

5- يتم تخريط طبيعة هذا الوسط العصبيّ حيث كلّ تلك البنى و العمليات.

في بعض المناسبات، سُئِلتُ كيف يمكن لهذه الأفكار أن تشرحَ "سلبية" أو "إيجابية" المشاعر، ما معناه أنه لا يمكن أن نشرحَ

إيجابية أو سلبية إشارة المشاعر. هل الأمر على هذا النحو حقًا؟ ما تم ملاحظته في النقاط الأربع أعلاه هو وجود حالات متعضٍ يصبح خلالها تنظيم عملية الحياة أكثر كفاءةً وحتى أفضل، حرّ التدفقّ و سهل. هذه حقيقة فيزيولوجية جيّدة البناء، وليس فرضية. إنّ المشاعر التي عادةً ترافق حالاتٍ مؤاتية فيزيولوجيًا موسومة بالـ "إيجابية"، لا تتميّز فقط بغياب الألم بل بتنويعات من المتعة. هناك أيضًا حالات للمتعضيّ حين تكافحُ عملية الحياة من أجل التوازن ويمكن أن تصبح بشكلٍ فوضويّ خارجة عن التحكّم، و المشاعر التي ترافق عادةً حالاتٍ كهذه توصف بأنها "سلبية"، وتتميّز ليس فقط بغيابٍ للمتعةِ بل بأصنافٍ من الألم.

ربّما أمكننا القول ونحن واثقين أنّ المشاعر الإيجابية والسلبية تتحدد من خلال تنظيم حالة الحياة. تنطلق الإشارة على مقربة، أو تبدأ من، تلك الحالات التي تكون الأكثر تمثيلاً لتنظيم الحياة الأمثل. تلقائيًا، من المرجّح أن تتعلّق "شدّة" المشاعر أيضًا بدرجة التصحيحات اللازمة في الحالات السلبية، و بدرجةِ تجاوزِ الحالات الإيجابية لنقطة الإستتباب في الإتجاه الأمثل.

أشتبهُ في أن النوعية القصوى للمشاعر، جزء من كيفية الشعور بالمشاعر على هذا النحو أو ذاك، يمنحها الوسط

العصبيّ. ولكن القسم الأساسيّ من الجواب حول لماذا يتم الشعور بالمشاعر على هذا النحو يتعلّق بحقيقة أن عمليات إدراة الحياة تكون إمّا مرنة أو متكلّفة. فهذه هي، ببساطةٍ، طريقة إشتغالها بالنظر إلى الحالة الغريبة التي ندعوها حياةً و الحالة العجيبة للمتعضيات – كوناتوس سبينوزا – والتي يقود هذه الأخيرة إلى مسعى الحفاظ على بقائها، بكل السبل، إلى أن تتوقف الحياة بفعل الشيخوخة، المرض أو بفعل إصابة خارجية.

حقيقةُ أنّنا، ككائنات حسّاسة و راقية، نستدعي بعض المشاعر الإيجابية و الأخرى السلبية يرتبطُ مباشرةً بسيولةِ أو تصلّبِ عملية الحياة. طبيعيًا، يفضّل *الكوناتوس* الخاص بنا حالات الحياة السائلة؛ إذ أننا ننجذب نحوها، ونبتعد عن تلك المتصلّبة التي لا يفضّلها الكوناتوس. بإمكاننا أن نحسّ بتلك العلاقات، وأن نبرهن أنّه، في مسار حياتنا، ترتبط حالات الحياة السائلة ،التي تشعر إيجابيًا، بالأحداث التي نصفها بالجيّدة، بينما ترتبط تلك الحالات المتصلّبة، التي تشعر سلبيًا، بالأحداث التي نوسمها بالسّيئة.

حان الوقت لكي نصقل الصياغة التي اقترحتها سابقًا في هذا الفصل: مصدرُ المشاعر هو الجسد في عددٍ من أجزائه. ولكن الآن يمكن أن نذهب عميقًا ونكتشف مصدرًا أدقّ وأعمقَ من مستوى وصفنا: الخلايا الكثيرة التي تشكّل أجزاء الجسد والتي توجد في الآن عينه كمتعضياتٍ فردية مع *الكوناتوس* الخاص بها، و كعناصر متعاونة في الجهازِ المنتظمِ الّذي ندعوه الجسم البشري، هذه الخلايا يحفظها مع بعضها البعض *الكوناتوس* الخاص بالمتعضّي.

إنّ محتوى المشاعر هو تعديلات حالات الجسد المتمثّلة في خرائط الإستشعار الجسديّ. والآن يمكن أن نضيف أن الأنماط العابرة لحالة الجسد تتغيّر بشكلٍ متسارعٍ تحت تأثيرات الدماغ والجسد المتبادلة والمتعاكسة خلال تكشّفِ مناسبةٍ ما للشعور. بالإضافة إلى ذلك، كلا التكافؤين السلبي و الإيجابي للمشاعر و شدّتها تتماشى مع السهولة أو الصعوبة التي تسير بها أحداث الحياة.

في الختام، يمكن لنا أن نضيف أن الخلايا الحيّة التي تؤلّف مناطق الإستشعار الجسدية في الدماغ، كذلك المسارات العصبية التي تنقل الإشارات من الجسد إلى الدماغ، ليست في

الغالب قِطعَ جهاز حاسوبٍ جامدة، بل من المرجّح أنّها تساهم بشكلٍ أساسيّ في نوعية الإدراكات التي نسمّيها مشاعرَ.

حان الوقت كي نستعيدَ معًا ما قمت بوضعه جانبًا. سببٌ واحدٌ لتمييزي بين العاطفةِ و الشعور يرتبط بنيّة البحث: من أجل أن نفهم كامل الظاهرة التأثّرية، من المفيد لنا أن نفصل المكوّنات، وأن ندرس إشتغالاتها، وأن نبيّن كيف لهذه المكوّنات أن تتمفصل مع الوقت. متى ما بلغنا الفهمَ المرغوب، أو بعضًا منه، يصبح من المهمّ أن نضمّ أقسام الآليةِ مع بعضها البعض مرةً أخرى بحيث يمكننا أن نرى كامل العمل الذي تقوم به.

تعيدنا صناعة الكلّ إلى زعمِ سبينوزا أنّ الجسد و الذهن صفتان متوازيتان لجوهرٍ واحدٍ. ونحنُ نفصل بينهما تحت مجهر البيولوجيا لأننا نريد أن نعرف كيف يشتغل هذا الجوهر الواحد، وكيف لسمات الجسد والدماغ أن تتولّد داخله. بعد أن تقصّينا العاطفةِ و الشعور من خلال الفصل النسبيّ بينهما، يمكننا، للحظةٍ وجيزةٍ جدًا، أن نجدلهما معًا من جديد، بإعتبارهما انفعالاً Affect.

4. مذكانت المشاعر

حول الفرح والأسى

مسلّحين بنظرةٍ أوّلية عمّا هي المشاعر، حان الوقتُ كي نسأل عمّا قد تخدم المشاعر. في محاولتنا للإجابة عن هذا السؤال، ربّما من المفيد أن نبدأ بتأمّلٍ حول كيف أنّ الفرح و الأسى، وكلاهما شعاران لحياتنا العاطفية، يتحققان وماذا يمثّلان.

تبتدىءُ الأحداث بتمثيلٍ لموضوعٍ ملاءمٍ – المنبّه المختصّ عاطفيًا. تؤدّي معالجة المنبّه، في سياقٍ محدد، إلى إختيار و تنفيذ برنامج عاطفةٍ موجودٍ بشكل مسبق. بالمقابل، تؤدّي العاطفة إلى بناء تشكيلة معيّنة من الخرائط العصبية للمتعضّي الّذي تصل إليه الإشارات من الجسد المخصوص وبشكلٍ دائمٍ. إنّ خرائطَ تعديلٍ ما هي أساس الحالة العقلية الّتي نسمّيها فرحًا مع متغيّراتها، وهي شيءٌ ما مثل نتيجةٍ تتكوّن بنيّة المتعة. هناك خرائطٌ أخرى هي أساسُ الحالة العقلية المسمّاة أسى، والتي تشمل، وفق تعريف سبينوزا المقتضب، على حالات سلبية مثل القلق، الخوف والذنب واليأس. وهذه نتائجٌ تتشكّل بنيّة الألم.

تشير الخرائطُ المرتبطة بالفرح إلى حالاتٍ من التوازن للمتعضّي. ويمكن لهذه الحالات أن تحصل فعليًا أو تبدو كأنّها تحصل. تدلّ الحالات الفرِحة على إرتباطٍ فيزيولوجيّ مثاليّ وعلى

تقدّم سلسٍ في عمليات الحياة. لا تؤدّي هذه الحالات إلى البقاء على قيد الحياة فقط، بل إلى رفاهية في البقاء. كذلك، تتحدد حالاتُ الفرحِ بطلاقةٍ كبيرة في القدرة على الفعل.

يمكننا أن نتّفق مع سبينوزا حين قال أن *الفرح* (laetitia كما في نصّه اللاتيني) يرتبطُ مع إنتقال المتعضّي إلى حالةٍ من الكمال الأكبر[84]. هو، بلا شكّ، كمالٌ أكبر بمعنى التناغم الوظيفيّ الأكبر، وبمعنى الإزديادِ في قوّة و حريّة الفعل[85]. ولكن علينا أن ننتبه إلى حقيقة أنّه يمكن لخرائط الفرح أن تتزوّر بسبب كمية كبيرة من المخدرات، وبالتالي سوف تفشل بأن تعكس الحالة الفعلية للمتعضّي. يمكن لبعض خرائط "المخدّرات" أن تعكس تحسّنًا مؤقّتًا لوظائف المتعضّي. مع ذلك، في نهاية المطاف، هو تحسّن واهٍ وبداية تدهور الوظائف.

إن الخرائطَ المرتبطة بالأسى في المعنيين الواسع و الضيّق للعبارة، تقترنُ مع حالات اللاتوازن الوظيفيّ. تقلُّ سهولة الوظيفة، ونجد ألمًا من نوعٍ ما، وعلاماتِ مرضٍ أو تنافرٍ فيزيولوجيّ؛ وهذه كلّها مؤشرٌ على تناسقٍ أقل من جيّد في وظائفَ الحياة، وإن لم تجرِ معاينتها، سوف تقود هذه الحالة إلى المرضِ والموت.

غالبًا، تعكس خرائط الأسى الجسدية، على الأرجح، الوضع الراهن لحالة المتعضّي. لا توجد عقاقير معنيّة بتوليد الأسى أو الإكتئاب. فمن سوف يرغب بتناولها ويدعها تسيء إليه؟! ولكنّ عقاقير الإساءة هذه تفضي إلى الأسى والإكتئاب على حساب تقهقر المستويات العالية من الفرحِ الّتي ولّدتها في البدء. يُذكَر، مثلاً، أن عقاقير الانتشاء تنتج مستويات مرتفعة تتميّز بحالات فرِحة جدًا ترافقها أفكار عذبةٌ، ومع ذلك، فإنّ الإستعمال المتكرر لهذه العقاثير يولّد مزيدًا من الإكتئابات الشديدة التي تعلو وترتفع ومن ثمّ تنخفض تدريجيًا. تتأثّر العملية العادية لنظام السيروتونين بشكلٍ مباشر، وقد يعتبر مستخدو عقارٍ ما إنّه آمن، فيثبت كونه خطير جدًا.

إذا تابعنا سبينوزا حين عالج الأسى *tristitia*، فإنّ خرائط الأسى تتصّل بإنتقال المتعضّي إلى حالةٍ أقل كمالاً: تتضائل قوّة و حرية التصرّف. ومن وجهة نظر سبينوزية، ينقطعُ من يعيش مخاض الأسى عن الكوناتوس الخاص به، عن ميله لحفظ ذاته.لا ريب بانطباق ذلك على المشاعر الموصوفة خلال الإكتئاب الحادّ، وفي نتيجته القصوى عند الإنتحار. يمكن النظر إلى الإكتئاب كجزءٍ من "متلازمة المرض" sickness syndrome. تشترك الغدد الصمّاء و الأنظمة المناعية في تثبيت الإكتئاب، كما لو أنّ

ممرِضاتٍ pathogen مثل البكتيريا أو الفيروسات التي اجتاحت المتعضّي، مرصودةً للتسبب بالمرض[86]. مفصولةً عن بعضها البعض، غالبًا ما لا يلزم عن حالات الحزن، الخوف، أو الغضب دوامة من إعتلالِ الإكتئاب. مع ذلك، يبقى أن كل حالةٍ من العواطف السلبية وما يلحقها من شعور سلبيّ تضع المتعضيّ في حالةٍ تخرجُ عن طور عملياته الإعتياديّ. حين تكون العاطفةُ خوفًا، قد تكون الحالة الخاصة مجدية، إذ أن الخوف الحاصل يكون مبررًا وليس نتيجة لتقديرٍ خاطىء لموقفٍ ما، أو عرضًا لرهابٍ ما. طبعًا، يكون الخوف المبرر ضمانةً أمانٍ ممتازة، فهو قد حسّن أو أنقذ حيواتٍ عديدة. ولكنّ الإنكباب على الحزن أو الخوف يبدو أقل عونًا، على الصعيدين الشخصي والإجتماعيّ. لا شك أن الغضب الموجّه بشكلٍ جيّد يمكن أن يخفف من العديد من أشكال الأذية، وأن يعمل كسلاحٍ دفاعيّ مثلما يفعل في عالم البراري. مهما يكن، في كثيرٍ من الحالات السياسية والإجتماعية، يكون الغضب مثلاً جيدًا عن عاطفةٍ تتضائل قيمتها الإستتبابية. ينطبق القول نفسه على الحزن، هذا الشكل من النحيب لأجل الراحة، المدعّم ببعض الدموع. مع ذلك، يمكن للحزن أن يكون وقائيًا في شروطٍ صحيحة، مثلاً حين يساعدنا على التكيّف مع الخسارة الشخصية. ولكن، على المدى الطويل، يكون مؤذيًا بشكلٍ مضطردٍ وقد يسبب، في هذا الحال، سرطان الروح.

هكذا، يمكن للمشاعر أن تكون مجسًّا عقليًا لداخلية المتعضّي، وشاهدةً على الحياة الجارية، كما يمكن لها أن تكون رقيبنا الخاص. إنّها تسمح لوعينا الذاتي العابر أو المحدود أن يعلم حول الحالة الراهنة للحياة في المتعضّي لفترةٍ قصيرة. إنّ المشاعر هي التمظهرات العقلية للتوازن و التناغم، للنشاز و التنافر، وهي لا تحيل إلى التناغم أو التنافر للموضوعات أو الأحداث في العالم الخارجي بالضرورة، بل بالأحرى إلى التناغم أو التنافر عميقًا في الجسد. إنّ الفرح و الأسى وكافة المشاعر الأخرى هي أفكار واسعة عن الجسد في عملية توجيهه لنفسه نحو حالاتٍ من البقاء الأمثل، وهي كشوفاتٍ عن أحوال عملية الحياة، بإستثناء حين تعيق العقاقير أو الإكتئاب دقة الكشف (بالرغم من إمكانية النقاش حول أن الإعتلال الّذي يكشفه الإكتئاب هو، في نهاية المطاف، أمينٌ للحالة الحقيقية للحياة).

كم هو مثير للإهتمام أنْ تشهد المشاعر على حالة الحياة العميقة. وحين نحاول أن نعكس تصميم التطوّر ونكتشف أصول المشاعر، يصبح مشروعًا أن نتساءل عمّا إذا كان ما نحمله من شواهد على حياتنا في عقولنا هو السبب في أنّ المشاعر قد سادت بإعتبارها خاصية بارزة في الوجود الحيّ المعقّد.

المشاعر والسلوك الإجتماعيّ

هناك دليلٌ متنامٍ على كون المشاعر، جنبًا إلى جنب الشهوات و العواطف الّتي غالبًا ما تسببها، تلعب دورًا محدِّدًا في السلوك الإجتماعيّ. في عدد من الدراسات المنشورة في العقدين الماضيين، أظهر فريق عملنا وآخرون أنّه حين يحافظ الأفراد الأسوياء سابقًا على الضرر في مناطق أدمغتهم كضرورة من أجل تشكّل بعض الطبقات من المشاعر و العواطف، فإنّ قدرتهم على قيادة حياتهم في المجتمع تتشوّش بشكلٍ كبير، وتنقص قدرتهم على إتخاذ القرارات السليمة في حالاتٍ تكون محصّلتها غير مؤكّدة، كما في قرار الإستثمار المالي أو الدخول في علاقة جدية[87]. تسقط العقود الإجتماعية، وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، تتهاوى الزواجات، وترهق العلاقات بين الأهل وأولادهم، وتُفقَد الوظائف.

بعد بداية ضررهم الدماغيّ، يكون هؤلاء المرضى، غالبًا، غير قادرين على الإحتفاظ بمواقعهم الإجتماعية السابقة على المرض، ويكفّون عن كونهم مستقلّين ماديًا. عادةً، لا يصبحون عدائيين، ولا ينزع سلوكهم الخاطىء إلى خرق القوانين. ومع ذلك، تكون إدارتهم الخاصة لحياتهم متضررة بشكل كبير. ومن الجليّ أنّهم إذا تُرِكوا في سبيلهم الخاص، تصبح عافية حياتهم مهددةً.

إنّ المريض النموذجي في هذه الحالات هو ذاك الّذي كان شخصًا مجتهدًا و ناجحًا أتقن عمله الماهر واستحق حياةً جيدة إلى أن بدأ المرض. العديد من المرضى الّذين درسناهم كانوا نشيطين في الشؤون الإجتماعية وحتّى أنّ الآخرين قد نظروا إليهم بإعتبارهم قادة مجموعات. بعد بداية الضرر في الفص الجبهي الدماغيّ، يظهر شخصٌ مختلفٌ كليًّا. يبقى المرضى مهرة بما يكفي للحفاظ على أعمالهم ولكن لا يعد بالإمكان الإعتماد عليهم في مزاولة عملهم بشكلٍ موثوق، أو في تنفيذ كل المهمات المطلوبة من أجل تحقيق هدفٍ ما. تتأذى القدرة على التخطيط لأنشطةِ يوم واحد أو على المدى الطويل، وبالأخصّ تتهاوى مخططاتهم المالية.

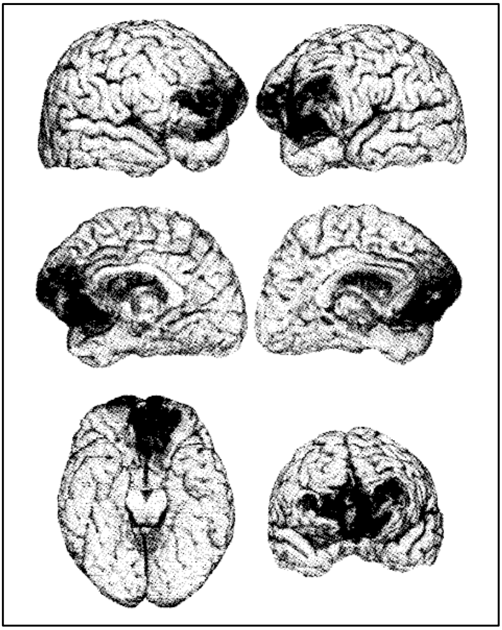
ينتمي السلوك الإجتماعيّ إلى دائرة المصاعب الخاصة. ليس من السهل بمكانٍ على هؤلاء المرضى أن يحددوا من يمكن أن يمنحوه الثقة وأن يديروا سلوكهم المستقبلي بناءً على ذلك. يفتقرُ المرضى إلى الشعور بما هو مناسِب إجتماعيًا، ويتجاهلون الأعراف الإجتماعية وقد يخرقون القواعد الأخلاقية.

تلمس زوجاتهم نقصًا في تشاعرهم. لقد لاحظت زوجة أحد مرضانا كيف أن زوجها، الّذي كان، في السابق، يعتني بها ويرعاها متى ما كانت حزينة، أصبح الآن، وفي نفس الظروف، يتجاهلها. قبل إصابتهم بالمرض، عُرِفَ عن المرضى إهتمامهم

بالمشاريع الإجتماعية بين جماعاتهم، أو بقدرتهم على إسداء النصح إلى الأصدقاء والأقارب عند المصاعب، و[لكنهم] كفّوا عن إظهار أي ميل نحو مساعدة الآخرين. ولأسباب عملية، لم يعودوا بعد بشرًا مستقلّين.

حين نسأل أنفسنا عمّا سبّب هذه الحالة المأساوية، نجد عددًا من الإجابات المثيرة للإهتمام. السبب المباشر للمشكلة هو الضرر الدماغيّ في منطقةٍ محددة. في أغلب الحالات الخطيرة والمعروفة، حين إحتلّ المشهد العياديّ ذوو الإضطرابات في السلوك الإجتماعيّ، نجد الضرر قد أصابَ بعض مناطق الفص الجبهيّ. إن القطاع الجبهي المقدّم، بالأخص ذاك المعروف بالبطنيّ ventromedial، هو الأكثر تضررًا، في أغلب الحالات وليس كلّها. ولا يسبّب التلف المحصور في القطاعات الجانبية اليسرى من الفص الجبهيّ هذه المشكلة، على الرغم من معرفتي بإستثناءٍ وحيدٍ بإمكانه ذلك : التلف المحصور بالقطاع الجانبيّ الأيمن[88] [انظر الصورة 4.1]. يتسبب التلف في بعض المناطق الدماغية الأخرى، بالتحديد القطاع الجداري من نصف الدماغ الأيمن، بمشاكل شبيهة، ولكنها ليست خالصة تمامًا، بمعنى وجود عوارض عصبية أخرى هامّة. عادةً ما يكون مرضى الجدار الدماغيّ مشلولي الجانب الأيسر من جسدهم، على الأقلّ جزئيًا.

ويكمن الإختلاف القائم بين المرضى ذوي الضرر اللاحق بالقطاع البطنيّ للفص الجبهيّ في أن مشاكلهم تبدو محصورة بسلوكهم الإجتماعيّ الغريب. [أمّا] من حيث كلّ النوايا و الأعراض فيظهرون أسوياء.



الصورة 4.1: أنماط التلف المقدّم الجبهيّ لدى مريضٍ راشدٍ على قيد الحياة والّتي تظهر بعد إعادة تشكيل للمسح الثلاثي الابعاد بالرنين المغناطيسيّ لدماغه. يظهر الضرر باللون الاسود ويمكن تمييزه بسهولة عن باقي المناطق الدماغية غير المتضررة.

تظهر الهيئتان الأولتان في الأعلى الدماغ منظورًا إليه من النصف الدماغي الأيمن والأيسر. الهيئتان في الوسط تظهران الصورة الوسطى الداخلية للنصفين الدماغين الأيمن والأيسر (الهيئة اليسرى الوسطى والهيئة اليمنى الوسطى). في أسفل الصورة نجد الأضرار منظورًا إليها من أسفل الدماغ، على اليسار نرى التلف الكبير الّذي أصاب السطح الحُجاجي orbital surface للفصّ الأمامي frontal lobe ، وعلى اليمين التلف في القطب الجبهي frontal pole.

مع ذلك، إن سلوك هؤلاء يبدو بعيدًا جدًا عمّا كانوا يتصرفونه قبل مرضهم العصبيّ. يتّخذون قراراتٍ لا تناسبهم ولا تلاءم القريبين منهم؛ ومع ذلك، يبدون، على الصعيد الذهني، أصحّاء. فهم يتحدثون ويتحرّكون بشكلٍ طبيعيّ، ولا يعانون من مشاكلَ في الإدراك البصريّ أو السمعيّ، كما لا يتشتتون حين ينخرطون في محادثةٍ ما. يتعلّمون ويتذكّرون ما حصل معهم، يستذكرون الأعراف و القواعد الّتي قاموا بخرقها كل يوم، حتّى إنّهم يلاحظون، حين يلفت أحدٌ ما إنتباههم، أنهم قد خرقوا هذه الأعراف والقواعد. إنّهم أذكياء، بالمعنى التقنيّ للعبارة، أي انّهم يسجلّون نتائج عالية في مقياس الذكاء IQ، ويحلّون مسائلَ منطقية.

لمدةٍ طويلة، وعلى أساس الفشل المعرفيّ، أُجريَت عدّة محاولات لرصدِ الصناعة الضعيفة للقرارات الّتي يتّخذها هؤلاء المرضى.

ربّما كانت مشكلتهم متعلقة بالتعلّم أو تذكّر الأداة الضرورية للتصرّف بشكل سليم، أو ربّما تكمن في التفكير الفطِن بإستعمال هذه الأداة. أو ربّما كانت الصعوبة في سهولة التفكير، لفترة زمنية ضرورية، في المقدمات المنطقية للمشكلة التي تحتاج أخذها بالإعتبار من أجل حلّ مناسبٍ (وظيفة "الأخذ بالإعتبار" هذه معروفة بـ"الذاكرة العاملة [التشغيلية]")[89]. مع ذلك، لم تكنْ أيّ من هذه الشروحات وافية.بشكلٍ أو بآخر، ولم تمتلك غالبية المرضى مشكلة أولية في هذه القدرات المفترضة متدهورة. ومن المربك أن ترى أحد هؤلاء المرضى يفكّر بشكلٍ منطقيّ ويحلّ مشكلة إجتماعية بشكلٍ ناجع حين تُطرَح هذه المشكلة بإعتبارها فحصًا في المختبر، على شكلِ موقفٍ إفتراضي. وقد تكون من ذات نوع المشكلة التي فشل المريض في تخطّيها في الحياة الواقعية والزمن الحقيقي. يُظهر هؤلاء المرضى معرفةً واصعة حول المواقف الاجتماعية التي فشلوا بشكلٍ فاضحٍ بإدراتها في الواقع. يعرفون مقدمات المشكلة، وخيارات الفعل، كما العواقب المناسبة لتلك الأفعال، مباشرةً وعلى المدى الطويل، وكيف يديرون هذه المعرفة منطقيًا[90]! ولكن لا جدوى من كل ذلك حين يحتاجونه غالبًا في العالم الواقعيّ.

داخل آلية صنع القرار

خلال دراستي لهؤلاء المرضى أسرتني إمكانية إرتباط الخلل في إستدلالهم reasoning بمشكلة ليست معرفية بشكلٍ أوليّ، بل بالأحرى بخللٍ في العاطفة والمشاعر. ساهم عاملان في هذه الفرضية: أولاً، كان جليًّا الفشل في توقّع المشكلة على أساس الوظائف المعرفية الأكثر وضوحًا؛ ثانيًا، والأكثر أهمية، أصبحتُ مدرَكًا للمدى الذي أصبح عليه هؤلاء المرضى في همودهم على مستوى عواطفهم الإجتماعية. تيّقنت خاصةً من حقيقة أن العواطف مثل الحرج، التعاطف sympathy، والذنب تتدنى أو تختفي. أحرجتني وأحزنتني أكثر فأكثر روايات بعض المرضى الشخصية التي أخبروني خلالها عمّا أصبحوا عليه[91].

هكذا وصلتُ إلى فكرة أن الخلل في الإستدلال الّذي يعاني منه هؤلاء المرضى، وأنّ الخلل في إدراتهم لحياتهم ربّما يعود إلى تلفٍ في إشارة عاطفية مختّصة. كنت أقترح أنّه حين واجه هؤلاء المرضى موقفًا ما – خياراتهم في التصرّف، والتمثّل الذهنيّ لنتائج تصرفٍ ما – أخفقوا في تنشيط ذاكرةٍ عاطفية مختّصة كان بإمكانها أن تساعدهم في إنتقاء أفضل الخيارات بين تلك المتاحة. لم يكن المرضى يستعملون خبرتهم العاطفية المختّصة التي

راكموها طوال حياتهم. قادت القرارات المصنوعة في ظروف العواطف المفقرة إلى نتائج مشوّشة وسلبية بشكلٍ فاضح، بالأخصّ في ما يتعلّق بالعواقب المستقبلية. كانت الخطورة ملحوظةً أكثر في المواقف حيث تكون الخيارات متعارضة بجلاءٍ و النتائج ملتبسة. إختيارُ مهنةٍ ما، قرار الزواج، أو إطلاق عملٍ جديد، وهذه كلّها أمثلة عن القرارات ذات النتائج الملتبسة، بغض النظر عن كون المرء قد تحضّر لها بشكلٍ جيد حين اتّخذ قراره. بشكلٍ نموذجيّ، على المرء أن يختار بين خيارات متعارضة، وفي ظروف كهذه، تصبح العواطف والمشاعر بمتناول اليد.

كيف يمكن لعاطفة أو لشعورٍ أن يساهما في صناعة قرارٍ ما؟ الجواب هو وجود طرق متعددة، ماهرة أو غير ماهرة، عملية أو غير ذلك، تجعل من العاطفة والشعور لا مجرد لاعبين في عملية الإستدلال، بل لاعبين لا غنى عنهما. خذ مثلاً تجربةً شخصية متراكمة و تشكّل فئاتٍ متنوعة من موقفٍ إجتماعي. تتضمن المعرفة الّتي نختزنها بالعلاقة مع هذه التجارب الحياتية ما يلي:

1- وقائع المشكلة الحاضرة.

2- الخيار المنتقى من أجل حلّها.

3- المحصّلة الفعلية للحلّ.

4- و بالدرجة الأولى، محصلة الحلّ على مستوى العاطفة و الشعور.

هل تأتّى عن المحصّلة المباشرة لفعلٍ ما عقابٌ أو مكافأةٌ مثلاً؟ بكلمات أخرى، هل رافقت هذه المحصّلة مشاعر وعواطف ألمٍ أو متعةٍ، أسى أو فرحٍ، زهو أو خجلٍ؟ هل أنّ *المحصّلة المستقبلية* للفعل عقابًا كانت أم مكافأةً سوف تكون أقل أهميةً بغض النظر عن مدى ايجابية أو سلبية المحصلة الفورية؟ كيف تعمل الأشياء على المدى الطويل؟ هل هناك نتائج مستقبلية ايجابية أو سلبية تحصّلت عن فعلٍ ما؟ في حالةٍ نموذجية، هل أدّت المباشرة بعلاقةٍ أو قطعها إلى منافع أو كوارث؟

إنّ التشديد على المحصّلة المستقبلية يلفت الإنتباه إلى ما هو خاص حول السلوك البشريّ، إذ يُعتبَر التفكير بالمستقبل إحدى السمات الأساسية للسلوك البشري المتحضّر. وإنّ حقيبتنا من المعرفة المتراكمة ومن قدرتنا على مقارنة الماضي و الحاضر تفتح المجال أمام إمكانية "تعقّل" minding المستقبل، التنبوء به، ترقبّه بشكلٍ يحاكيه، ومحاولة تشكيله على نحوٍ نافعٍ بقدر الإمكان. نبادل الإشباع اللحظيّ و نؤجّل المتعة العاجلة

لصالح مستقبلٍ أفضل، ونقدّم التضحيات الفورية على نفس الأسس.

كما ناقشنا سابقًا، ترافق كل تجربة في حياتنا درجةٌ من العاطفة وهذا يبدو واضحًا بالأخصّ في ما يتعلّق بالمشاكل الاجتماعية والشخصية المهمّة. لا يهمّ أكانت العاطفة إستجابة لمجموعة تطورية من المنبّهات، كما هي الحال غالبًا في حالة التعاطف، أو لمنبّهٍ مكتسب، كما الحال في الخشية المكتسبة عن طريق ترابط منبّهات خوف أولية: تصبح العواطف الايجابية والسلبية، وما يلحق بها من مشاعر، مكوّنات ضرورية لتجاربنا الاجتماعية.

الفكرة إذًا، أنّه، بمرور الوقت، نقوم أكثر ممّا هو مجرّد أن نستجيب بشكل تلقائيًّا لمكونات موقفٍ إجتماعي بما نختزنه من عواطف إجتماعية فطرية. تحت تأثير العواطف الاجتماعية (من التعاطف إلى الخجل، من الزهو إلى النقمة) وتلك العواطف الناتجة عن العقاب و المكافأة (الأشكال المختلفة من الأسى والفرح)، فإننا نصنّف تدريجيًا المواقف التي نجربّها _ بنية السيناريوهات، مكوناتها، دلالتها من حيث سردنا الشخصي. أضف على ذلك، نحنُ نربطُ الفئات المفهومية conceptual categories التي نشكّلها – عقليًا وعلى المستوى العصبي المختّص

– مع أجهزة الدماغ المستخدمة في تحريض العواطف. مثلاً، تصبحُ الخيارات المتنوعة للفعل و المحصّلات المستقبلية المختلفة مقترنةً مع عواطف / مشاعر مختلفة. بفضل تلك الإقترانات، يكون بإمكاننا سريعًا وبشكلٍ تلقائيّ أن نبسُط العواطف المناسبة، متى ما تمت إعادة النظر في تجربتنا بموقفٍ يلاءم صورة فئةٍ ما.

بمصطلحات عصبية، تشتغل الآلية على الشكل التالي: حين تعالِجُ الدارات circuits الموجودة في القشرة الحسّية الخلفية وفي المناطق الزمانية والجدارية موقفًا ما ينتمي إلى فئة مفهومية معطاة، تنشطُ الدارات الأمامية الحاملة للسجلات المتّصلة بتلك الفئة من الأحداث. يلي ذلك تنشيطُ المناطق الدماغية التي تطلق الإشارات العاطفية الملائمة، مثل القشور البطنية الأمامية، بفضلِ رابطٍ مكتسبٍ بين تلك الفئة من الحدث والإستجابات العاطفية - المشاعرية السابقة. يتيح لنا هذا الترتيب أن نربط بين فئات المعرفة الإجتماعية – المكتسبة أو المصقولة عبر التجربة الفردية – وبين الأجهزة الفطرية الموهوبة جينيًا للعواطف الإجتماعية وما يتبعها من مشاعر. من بين هذه العواطف/المشاعر، أثمّن أهمية تلك المتصلة بالمحصّلة المستقبلية للأفعال، ذلك أنها تؤشّر إلى تنبوءٍ بالمستقبلِ وإلى توقّعٍ

لعواقبِ الأفعال. هذا، على حين غرة، مثالٌ جيدٌ كيف لتجاورات juxtapositions الطبيعة أن تولّد تعقيداتٍ، وكيف يمكن لوضع الأجزاء المناسبة معًا أن ينتج أكثر من مجرّد مجموعها. ليس للمشاعر والعواطف بلّورة سحرية لكشف الطالع! ومع ذلك، متى ما انطلقت في سياقٍ ملاءم تصبح نذيرة بما يمكن له أن يكون حسنًا أو سيئًا في المستقبل القريب أو البعيدة. إن انتشار هذه العواطف / المشاعر الاستباقية يمكن أن يكون جزئيًا أو تامًا، مكشوفًا أو مستورًا.

ما تقوم الآلية بتنفيذه

إنّ إعادة إحياء الإشارة العاطفية يتمّم عددًا من الوظائف الهامّة. بشكلٍ مكشوفٍ أو مستور، تركّز الإعادة هذه الإنتباه على بعض سمات المشكلة ومن ثمّ تعزز نوعية الإستدلال حول هذه المشكلة. حين تكون الإشارة مكشوفة فإنها تولّد إشارات تحذيرية آلية مرتبطة بخيارات الفعل التي عادةً ما تقود إلى محصّلات سلبية. قد يقترح شعورٌ غريزيّ أن نمتنع عن خيارٍ قاد في السابق إلى نتائج سلبية، وقد يقترح ذلك قبل إستدلالنا الإعتياديّ فيأمرنا بالتحديد بـ"ألاّ نفعل كذا وكذا" عينها. يمكن للإشارة العاطفية

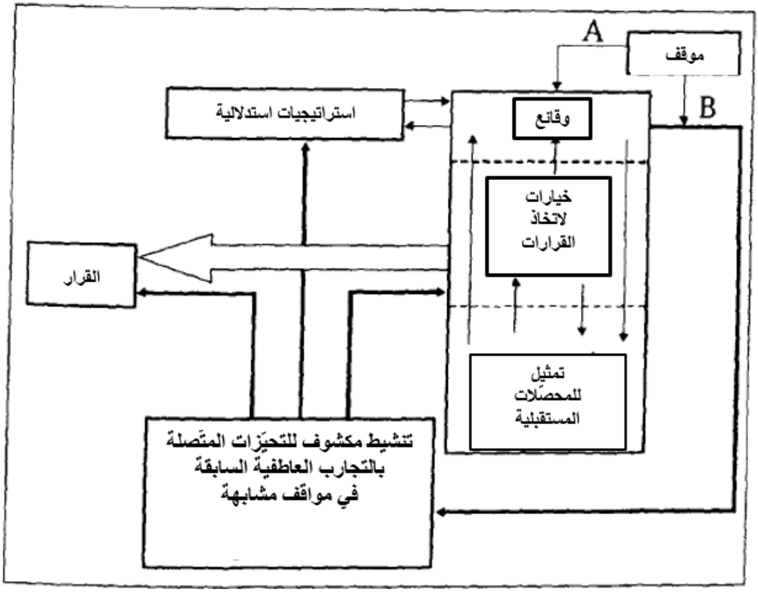
أيضًا أن تولّد ما هو نقيض إشارة تحذير، وأن تتعجّل الإقرار السريع بخيارٍ ما، لأنه كان، في تاريخ النظام، مرتبطًا مع محصّلة إيجابية. بالمختصر، *تشير* الإشارة الى الخيارات والمحصّلات ذات الإشارة السلبية أو الإيجابية والتي تحدّ من مجال صناعة القرار وتوسّع من إمكانيات تكيّف الفعل مع التجربة السابقة. ولأن الإشارات، بمعنى أو بآخر، مرتبطة بالجسد، بدأتُ بالإحالة إلى هذه المجموعة من الأفكار من حيث هي "فرضيات العلامة الجسدية" the somatic-marker hypothesis.

ليست الإشارة العاطفية بديلاً عن الإستدلال الخاص، بل لها دورها المساعد، إذ تعزز من فاعلية عملية الإستدلال وتسرّعها. أحيانًا قد تجعل من عملية الإستدلال سطحية تقريبًا، مثلما حين نرفض مباشرةً خيارًا قد يقودنا إلى كارثةٍ ما، أو على العكس، حين ننتهز فرصةً جيدة بالإستناد على إحتمالات نجاحٍ كبيرة.

في بعض الحالات، تكون الإشارة العاطفية قوية جدًا، وتقود إلى إعادة تنشيطٍ لعاطفةٍ ما مثل الخوف أو السعادة، ملحوقة بشعورٍ واعٍ ومناسب لتلك العاطفة. هذه هي الآلية المفترضة لشعور غريزيّ يستخدم ما أدعوه عُروة الجسد body-loop. مع ذلك، هناك طرق حاذقة كي تعمل الاشارة العاطفية،

ومن المحتمل أن هذه هي الطريقة التي تقوم بها الاشارات العاطفية بعملها غالب الوقت. أولاً، من الممكن إنتاج شعور غريزيّ من دون إستخدام الجسد، معتمدة بالمقابل على الـ "كأنّه عروة الجسد" as if body loop التي ناقشتها في الفصل السابق. ثانيًا، والأكثر أهميةً، يمكن للإشارة العاطفية أن تعمل كليًا تحت مراقبة الوعي، وبإمكانها أن تغيّر في عمل الذاكرة العاملة، الإنتباه، و الإستدلال بشكل تنحاز عملية صنع القرار صوب إختيار الفعل الّذي يؤدي أكثر من غيره إلى أفضل محصّلة ممكنة، أخذًا بالإعتبار تجربة سابقة. قد لا يدرك الفرد أبدًا هذه العملية الخفية. وفي شروط كهذه، نحدسُ قرارًا وننفذه، سريعًا وبشكلٍ فعّال، من دون معرفة الخطوات المتوسطة.

لقد جمّع فريقنا البحثيّ مع آخرين أدلة جوهرية تدعم آليات كتلك[92]. وقد ذكرت الحِكم القديمة الرابطة الجسدية Body- relatedness للعملية تلك. إن التكهنات التي تسيّر سلوكنا في الإتجاه المناسب غالبًا ما رُدَّت إلى جسارة القلب – " أعلم في قلبيّ أنّ هذا ما يجب القيام به". بالمناسبة، المقابل البرتغالي لكلمة تكهّن هي Palpite، كلمة قريبة من الانكليزية Palpitation (الخفقان / النبض).



صورة 4.2: يستخدم الصنع الطبيعي للقرار طريقين متكاملين. بمواجهة موقفٍ يتطلب استجابةً، يطلق الطريق الأول A صورًا متّصلة بالموقف، خيارات للفعل، وتوقعات بالمحصلات المستقبلية. يمكن للإستر اتيجيات الإستدلالية أن تعمل على المعرفة كي تنتج قرارًا. يعمل الطريق الثاني B بالتوازي ويدفع إلى تنشيط التجارب العاطفية السابقة في مو اقف مشابهة. بالمقابل، يؤثّرإستدعاء المادة العاطفية ذات الصلة، أكانت علنية أومخفية، على عملية صناعة القراربتقوية الإنتباه ألى تمثيل المحصلات المستقبلية أو بالتداخل مع مع الاستر اتيجيات الاستدلالية. حسب الفرص، يمكن للطرث الثاني أن يقود إلى القرار مباشرةً، كما حين يقوم الشعور الغريزيّ بالحضّ على إستجابة فورية. تعتمد درجة إستخدام كل طريقٍ على حدة أو بالإقتران مع الطريق الآخرعلى النمو الذاتي للفرد، وطبيعة الموقف ، كما الظروف.

إن أنماط القرارات المُثارة التي يصفها دانييل كاهنمان Kahneman و آموس تفرسكي Tversky في السبعينات تنتج، على الأغب، من إنخراط الطريق الثاني.

بالرغم من انّها بالكاد تكون اتجاهًا سائدًا ، فإن للفكرة التي تقول أن العواطف عقلانية بجوهرها تاريخٌ طويل. إعتقَد كلاًّ من أرسطو وسبينوزا أن بعض العواطف، على الأقل، وفي الشروط المناسبة، تكون عقلانيةً. هكذا، نوعًا ما، فعل هيوم وآدام سميث. وحاجج الفليلسوفان المعاصران رونالد دو سوزا De Sousa و مارثا نوسباوم Naussbaum بشكلٍ مقتعٍ عن عقلانية العاطفة. في هذا السياق، لا يعني مصطلح "عقلانيّ rational" إستدلالًا منطقيًا صريحًا بل بالأحرى ترابطًا مع الأفعال و المحصّلات الملاءمة للعواطف التي يعرضها المتعضّي. ليست الإشارات العاطفية المستعادة عقلانيةً بحد ذاتها، ولكنها تدفع إلى محصلات يمكن أن تكون مستمدة بشكلٍ عقلانيّ. وكما يقترح[93] ستيفان هك Heck، ربّما المصطلح الأفضل الّذي بإمكاننا إطلاقه على العواطف هو كونها "معقولةً" reasonable.

عطل في الآلية السوية

كيف يمكن لضررٍ دماغيّ لدى راشدين ممّن كانوا أسوياء أن يضرّ بالسلوك الاجتماعي الّذي وصفناه آنفًا؟ يؤدّي الضررُ الدماغيّ إلى إعتلالين متكاملين: فهو يدمّر مناطق التحريض العاطفي حيث تنبع العواطف الاجتماعية عادةً، و يتلف المناطق المجاورة التي تدعمُ الرابط المكتسب بين بعض فئات الموقف القائم و بين العاطفة التي تخدم كأفضلٍ موجّهٍ للفعل بالعلاقة مع المحصلات في المستقبل. لا يمكن لما ورثناه من مخزون العواطف الاجتماعية التلقائية أن يعمل كإستجابةٍ لمنبّه مختصّ، كما لا يمكن للعواطف التي تعلمناها أن تتصلّ مع بعض المواقف خلال التجارب الفردية. إضافةً إلى ذلك، تتلاشى المشاعر اللاحقة التي نبعت من كل تلك العواطف. تختلف حدّة الخلل بين مريضٍ و آخر؛ ومع ذلك، وفي كل حالةٍ، يصبح المريضُ غير قادرٍ على أن ينتج بشكلٍ مأمونٍ العواطف والمشاعر المتناغمة مع فئاتٍ محددة من المواقف الاجتماعية.

إنّ إستخدام إستراتيجيات متآزرة من السلوك يبدو ممتنعًا عند المرضى ذوي الضرر في المناطق الدماغية مثل الفص الجبهي البطنيّ. يعجز هؤلاء عن التعبير عن العواطف

الاجتماعية ولا يكون سلوكهم بعدئذٍ ملتزمًا بالعقد الاجتماعيّ، ويكون أداءهم للوظائف المعتمدة على الحكمة الاجتماعية شاذًا[94]. كذلك، ولدى الأفراد الأصحّاء، يوظّف إستخدامُ الاستراتيجيات المتآزرة المناطق الجبهية البطنية الإنسية كما يظهر في الدراسات حول التصوير الوظائفيّ حين طُلب من المشاركين حلّ معضلة السجين[i] Prisoner's Dilemma، وهي عمل إختباريّ يفصل بشكلٍ فعّال بيين المتعاونين والفارّين. في دراسة حديثة، قادت التآزرية [بين الاستراتيجيات] إلى تنشيط للمناطق المنخرطة في إطلاق الدوبامين وإلى السلوك الممتع، مقترحةً أن الفضيلة هي مكافأتها الخاصة[95].

---

[i] هي من السيناريوهات التي تُدرس في مجال نظرية الألعاب **game theory**. موضوع معضلة السجين هو صراع المصالح والاستر اتيجيات العقلانية والاخلاقية المستخدمة من أجل زيادة فائدة الشخص سواءً بالعمل مع الخصم (التعاون) او بالتخلي عنه (الإرتداد). وتفترض المعضلة أنها تقوم بتسليط الضوء على سلوك إنساني حقيقي - سواء بتوضيح لماذا يتصرف الناس كما يفعلون أو بفرض كيف يجب أن يتصرفوا. ومضمون اللعبة – المعضلة هو وجود متهمين اثنين أ و ب، لا يملك المحقق أدلةً كافية على أي منهما لإثبات الجرم. ولكن المحقق يقدم صفقة لكلّ متّهمٍ على حدة تقوم على أن ينكر المتهم أ قيامه بالجريمة وإلقاء اللوم واتهام ب وسيخرج أ من السجن حراً، ويخبره المحقق أيضًا أنه قدم نفس الصفقة للمتهم الآخر ب، لكنه بالطبع لا يعرف ما هو رده.الخيارات المتاحة أمام كل متهم أثناء التحقيق المنفرد لكلّ منهما هي: إما أن يشهد على المتهم الآخر أمام القاضي، أو أن يلتزم الصمت. في حال آثر المتهمان الصمت، لا تستطيع المحكمة إثبات التهمة على أي منهما، ويحكم على كل منهما بالسجن، فلنقل، ستة أشهر فقط. أما لو شهد أحد المتهمين على صاحبه، يخرج الشاهد دون حكم ويحكم على الآخر بالسجن سنتين. وإذا اختار كلا المتهمين أن يشهد على الآخر، يحكم على الاثنين بسنة من السجن. وهكذا، ماذا على المتّهم أن يفعل؟

أخذاً بالإعتبار حالة مرضانا الكهول، ربّما قد تسوّل لأحدهم أن يتكهّن بأنّ معرفتهم الاجتماعية السليمة وكلّ ممارساتهم الجيّدة في حلّ مشكلة اجتماعية، والتي سبقت الضرر الدماغيّ، قد تكون كافية للحفاظ [بعد الضرر] على سلوكٍ إجتماعيّ سويّ. هذا ببساطة غير صحيح. بطريقةٍ أو بأخرى، تتطلب المعرفة الحقيقية عن السلوك الاجتماعي ماكينة العاطفة والشعور حتّى تعبّر عن نفسها بشكلٍ سويّ.

يمتلك حَسَرُ المستقبل myopia of the future ، الّذي تسبب به الضرر في المقدم الجبهيّ، نظيرًا له في حالة من يستمر بتبديل مشاعره السوية بإستخدام المخدّرات أو كميات كبيرة من الكحول. بشكلٍ منتظم، تكون خرائط الحياة الناتجة عن ذلك زائفة، وتضلل، بشكل دائمٍ، الدماغ والعقل حول حالة الجسد الحقيقية. قد يظنّ البعض أن هذا التحوير قد يكون نافعًا! فما الخطأ في كونك سعيدًا و على ما يرام؟ حسنًا، سوف يكون خطأً كبيرًا أن تكون رفاهية المرء وسعادته، فعليًا و وبشكلٍ مزمنٍ، مخالفتين لما يمكن للجسد أن يبلّغه للدماغ. في الواقع، في حالات الإدمان، تفشل عمليات صناعة القرار بشكلٍ يثير الشفقة، ويستمر المدمنون بإتخاذ قراراتٍ يتناقص نفعها لهم وللآخرين القريبين منهم. يصف مصطلح "حسَر المستقبل" هذا المأزق

بشكلٍ دقيق. وإن بقيَ طليق العنان، سوف يقود لا محالة إلى خسارة الاستقلالية الاجتماعية.

قد يرى البعض أنّه في حالة الإدمان يمكن للإعتلالات في القرارات أن تعود إلى التأثير المباشر للمخدر على النظم العصبية الداعمة للتعرّف cognition بشكلٍ عام، أكثر من المشاعر بالتحديد. يمكن للتفسير أن يكون جديًا على نحوٍ أدق. من دون عونٍ خاصٍ، سوف تتلاشى عافية المدمنين بشكلٍ كليّ تقريبًا، بإستثناء في الفترات حين تولّد المادة المخدّرة حالات متناقصة من المتعة. أظنّ أنّ دوامة سقوط حياة المدمنين تبدأ كنتيجة لتشوّهات المشاعر وللإعتلالات اللاحقة في القرارات، رغمًا أنّه، وفي نهاية المطاف، يجلبُ السقم الجسديّ المتأتيّ عن تناول المخدّرات مشكلات مرضية اضافية و غالبًا الموت.

الضرر في القشرة الجبهية لدى صغار السن

إنّ الإكتشافات والتأمّلات حول الفصّ الجبهيّ عند المرضى الراشدين تصبحُ جليّة للغاية على ضوء التوصيفات الأخيرة للراشدين الأصغر سنّا (من عمرهم أقل من عشرين سنة) الّذين يحتفظون بضررٍ جبهيّ مشابه منذ سنيهم المبكرة بدلاً من سن

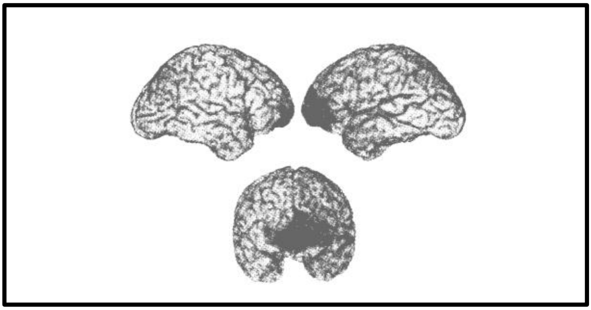
رشدهم[96]. وجد زميليّ ستيفن آندرسون و هانّا دامسايو أن هؤلاء المرضى [صغار السن] يتشابهون، بطرقٍ كثيرة، مع اولئك الّذين أصابهم الضرر في فترة رشدهم. وكما في حالة الراشدين، لم يُظهِر صغار السنّ تعاطفًا، خجلاً، أو ذنبًا، ويبدو أنّهم افتقروا إلى تلك العواطف والمشاعر المتعلقة بها في وجودهم بأكمله. ولكن، وعلى النحو عينه، نجد إختلافات كبيرة. يعاني هؤلاء الّذي اصيبوا بالضرر الدماغيّ في أول سني حياتهم من ضررٍ أكثر حدّة في سلوكهم الاجتماعيّ؛ والأكثر أهمية أنّهم لا يبدون أنهم قد اكتسبوا أبدًا التوافقات و القواعد الاجتماعية التي ينتهكونها.

هاكم مثلٌ توضيحيّ: أول مريض بهذه الحالة قمنا بدراسته كان صبيةٌ بلغت الثانية والعشرين من عمرها حين التقيناها. كانت عائلتها مستقرة و آمنة ماديًا، ولم يكن لأبويها أي تاريخ من الأمراض العصبية أو العقلية. أصيبت بجرحٍ في رأسها حين صدمتها سيارة وكانت تبلغ من العمر 15 شهرًا، ولكن سرعان ما تعافت في غضون أيامٍ. لم يلاحظ عليها أي شواذات مسلكية حتى عمر الثلاث سنوات حين لاحظ أهلها إنها لم تعد تستجيب للعقاب الجسدي أو اللفظيّ، وهذا ما بدا مختلفًا بوضوح عن سلوك اخوانها الّذين أصبحوا مراهقين وراشدين أسوياء. في عمر 14 أصبح سلوكها تخريبيًا لدرجة قام أهلها بادخالها منشأة

علاجية، هي الأولى من بين الكثير بعدها. بينما نجحت أكاديميًا إلاّ انّها أثبتت فشلاً تاماً في الإذعان لكلّ القواعد، وتواجهت مع أقرانها والراشدين، إذ كانت عنيفة، جسديًا و لفظيًا، تجاه الأخرين. كذبت بشكلٍ مستمر، وتم إيقافها عدّة مرات إذ كانت تسرق من المتاجر ومن الأطفال الآخرين وحتّى من عائلتها. تورطت في علاقة جنسية مبكرة وعنيفة، وأصبحت حاملاً في سنّ 18؛ حين وضعت مولودها تميّز سلوكها الأموميّ باللامبالاة تجاه حاجات المولود. إستحال عليها أن تثبت في عملٍ ما بسبب سوء أمانتها وإنتهاكها لقوانين العمل. لم تعبّر أبدًا عن إحساسٍ بالذنب أو الندم عن سلوكها الضار ولم تتعاطف أبدًا مع الآخرين، وكانت تلومهم على صعوبات حياتها. لم تنفع أدوية تهدئة السلوك ولا الأدوية العقلية. وبعد أن تورطت مرارًا وتكرارًا في مخاطر جسدية ومالية، أمست معتمدة على أهلها وعلى الوكالات الإجتماعية من أجل تقديم الدعم المالي ومراقبة شؤونها الخاصة. لم تمتلك خططًا لمستقبلها ولا رغبة في التوظّف.

لم يتم تشخيص هذه الصبية الشابة بإصابةٍ في الدماغ. وبالفعل لم يتم الإلتفات إلى تاريخ إصابتها المبكرة في الرأس بل تم نسيان ذلك! في نهاية المطاف، تساءل والداها حول رابطٍ ممكن بين الإصابة المبكرة والضرر، وأتوا بها إلينا. وحين قمنا بالمسح

الرنيني لدماغها، وجدنا، وكما كنا نتوقع، ضررًا دماغيًا شبيهًا بذلك الّذي يصاب به المرضى ذوو الضرر في الفصّ الجبهي. وكنا قد درسنا حالاتٍ شبيهة بحالة هؤلاء المرضى حيث أبانَ جميعهم عن الإقتران عينه بين السلوك الإجتماعي الشاذ و الضرر في الفصّ الجبهي من الدماغ. ويطوّر فريقنا العلمي برامج تأهيلٍ خاصة بهذه الحالات.



[الصورة 4.3] إعادة تكوين ثلاثية الأبعاد لدماغ راشدٍ أصيب بضررٍ في المنطقة الجبهية الأمامية في مرحلة مبكرة من حياته. كما في الصورة 4.1، تعتمد إعادة التكوين على بيانات التردد المغناطيسيّ. لاحظ التشابه في منطقة الضرر التي رأيناها عند المريض الراشد.

لا نقترحُ أن كلّ مراهقٍ بسلوكٍ مشابه لديه ضررٍ دماغيّ. ولكن مع ذلك، من المرجّح أنّ الكثيرين ممّن يملكون سلوكًا مشابهًا

لا يرجع إلى السبب نفسه يعانون من قصورٍ في الجهاز الدماغي الّذي إحتوى على ضررٍ في حالةِ مرضانا. يمكن لإختلالٍ في اشتغال الدارات العصبية على المستوى المجهري أن يكون سببًا للقصور. ويمكن لمسبباتٍ مختلفة أن تؤدّي إلى هذا الإختلال، من التأشيرات الكيميائية الشاذة على المستوى الجيني إلى الشروط التربوية والإجتماعية.

أخذًا بالإعتبار البناء المعرفيّ والعصبيّ الّذي عرضناه سابقًا، يمكننا أن نفهم لماذ يمكن للضرر المبكر في المنطقة الجبهية أن يؤدّي إلى نتائج مهلِكة. تكمن النتيجة الأولى في أن المشاعر والعواطف الاجتماعية الفطرية تكفّ عن العمل بشكلٍ سويّ. وفي نهاية المآل، يقود ذلك المرضى الشباب إلى تآثراتٍ شاذة مع الآخرين، إذ يتصرفون بشكلٍ غير مناسبٍ في خضم مواقف إجتماعية، وفي المقابل، سوف يرد الآخرين على هذا التصرّف بالمثل. يطوّر أولئك المرضى مفهومًا مشوّهًا عن العالم الاجتماعيّ. ثاني النتائج، فشلُ المرضى الراشدين بإكتساب مخزونٍ من الإستجابات العاطفية المصممة لأفعالٍ أولية محددة. السببُ هو أنّ تعلّم الرابط بين فعلٍ محدد ونتائجه العاطفية يعتمد على سلامة المنطقة الدماغية الجبهية المقدَّمة. تصبح تجربة الألم، وهي جزءٌ من العقاب، منفصلةٍ عن الفعل الّذي تسبب بالعقاب،

وبالتالي *لن تتكوّن ذاكرة عن إقترانهما من أجل الإستخدام المستقبليّ*؛ الأمر عينه ينطبق على المظاهر الممتعة للثواب. ثالث النتائج هي النقص الفردي في تكوين المعرفة الشخصية حول العالم الإجتماعيّ، و تشوّه عمليات تصنيف المواقف والإستجابات المناسبة وغير المناسبة، كما يتشوّه تكوين وربط القواعد والتوافقات [97].

ماذا لو أنّ العالم كله...

هناك تساؤلٌ بسيط حول كون سلامة العاطفة والشعور ضروريةً من أجل السلوك البشري الاجتماعي السليم، أي السلوك الإجتماعيّ الملاءم للقواعد الأخلاقية والقوانين والّذي يمكنه وصفه بأنه صحيح. قد يقشعّر المرء حين يفكّر كيف يمكن للعالم أن يكون، إجتماعيًا، لو كانت أقلية صغيرة من الناس تعاني من الحالة التي ابتليَ بها البشر البالغين المصابين بضرر في الفص الدماغي الجبهي. تبدو القشعريرة أكبر حدّة حين نتخيّل أن عددًا كبيرًا من المرضى يعانون من ضررٍ في الفص الجبهيّ باكرًا في حياتهم. يمكن للأمر أن يكون سيئًا جدًا إذا هاجَ هؤلاء المرضى اليوم. ولكن، يمكننا أن نتساءل حول كيف كان يمكن للعالم أن

يتقدّم إن كانت الإنسانية قد ولّدت سكانًا مسلوبي القدرة على التعاطف مع الآخرين، والإخلاص لهم، وعلى الحرجِ وكافة العواطف الإجتماعية الأخرى المعروفة اليوم في شكلها البسيط لدى بعض الأنواع من غير البشر.

الحرج، الخجل، الذنب

المنبّه المختّص عاطفيًا ECS: ضعف / فشل / الإخلال في سلوك الفرد ذاته أو في شخصيته.

النتائج: تفادي العقوبة من قبل الآخرين (بما في ذلك النبذ، الاستهزاء)، إعداة التوازن إلى الذات، الآخر وإلى الجماعة؛ فرض التوافقات والقواعد الإجتماعية.

الأساس: الخوف، الحزن، ميول خاضعة.

الإحتقار؛ الإستياء

ECS: إخلالُ فردٍ آخر لمعايير (الطهارة، التعاون).

النتائج: عقوبة الإخلال؛ فرضُ التوافقات والقواعد الاجتماعية.

الأساس: الإشمئزاز، الغضب.

التعاطف / الر أفة

ECS: فردُ آخر يعانيّ أو يحتاج.

النتائج: الراحة، إعاداة التوازن عند الآخر و المجموعة.

الأساس: تعلّق؛ حزن.

رهبة / ذهول ؛ سموّ؛ إمتنان؛ زهو

ECS: الإعتراف (عند الآخرين أو عند الذات) بالمساهمة في التعاون.

نتائج: المكافأة على التعاون؛ إعادة فرض للميل نحو التعاون.

النتيجة: السعادة.

الصورة 4.4: بعض العواطف الاجتماعية الاساسية الايجابية والسلبية. تحت كل مجموعة من العواطف نتعرّف إلى: المنبّه المختصّ عاطفيًا (ECS- emotionally competent stimulus) القادرعلى تحريض العاطفة، نتائج العاطفة الرئيسية، و الأساس الفيزيولوجي لها. للمزيد حول العواطف الاجتماعية انظرنصوص واعمال كلّ من ج. هايدت J.Haidet ور.شويدرR.Shweder.[98]

قد يغري البعض أن يرفض هذا الاختبار التأمّلي بشكلٍ وجيز، ويقول أن هذا الصنف من الاختبارات سرعان ما سوف يندثر. ولكن نرجوهم ألاّ يرفضوه بشكلٍ متسرّعٍ لأن بالتحديد هنا نجد ما يهمّنا. في مجتمعٍ يفتقر الى عواطف و مشاعر كهذه، لن نجد ظهورًا عفويًا للإستجابات الاجتماعية الفطرية التي تؤشّر الى نظامٍ أخلاقيّ بسيط ، فلا غيرية مزدهرة، ولا كياسة حين تكون الكياسة واجبة، ولا رقابة حين تكون الرقابة ملائمة، كما لن نجد إحساسًا آليًا بالفشل الذاتي. في غياب مشاعر وعواطف كهذه، لم يكن للبشر أن ينخرطوا في مفاوضاتٍ بهدف حلّ المشاكل التي تعترض الجماعة، مثل تحديد المصادر الغذائية ومشاركتها، الدفاع ضد المخاطر أو بمواجهة الخلافات بين أعضاء الجماعة. لم يكن من الممكن أن يتشكّل بناءٌ متدرجٌ من الحكمة المتّصلة بالعلاقات في المواقف الاجتماعية، ولا أن توجد إستجابات طبيعية وحزمة من الحلول الطارئة كالعقوبات أو المكافآت التي تأخذ على عاتقها السماح أو تحريم الإستجابات الطبيعية. إن

تشفير codification القواعد الّذي غالبًا ما تعبّر عنه الأنظمة القضائية والتنظيمات الاجتماعية يصعب أن يُدرَك في شروطٍ كتلك، حتّى لو إفترضنا أن أجهزة التعلّم، الخيال، والاستدلال يمكن أن تبقى سليمة بوجه ذلك الخراب العاطفيّ، وهذا أمرٌ مستحيلٌ على الأرجح. بوجودِ نظامٍ طبيعيّ من التوجيه العاطفيّ يتعطّل شيئًا فشيئًا، يستحيل وجود امكانية جاهزة لتكوينٍ سليمٍ للفرد بمواجهة العالم الحقيقيّ. بالإضافة، تصبح بعيدة الاحتمال تلك الامكانية لبناء نظامِ توجيه إجتماعي مبني على الحقائق بشكلٍ مستقلّ عن النظام الطبيعي المفقود.

هذا السيناريو الأليم عينه يمكن أن يتحقق بالطريقة نفسها بغضّ النظر كيف يمكن للمرء أن يتصوّر أصل المبادىء الأخلاقية التي تقود حياتنا الاجتماعية. فلو كانت هذه المبادىء تنبثق، مثلاً، عن عملية من المداولات الثقافية المنقادة تحت تأثير العواطف الإجتماعية، فلن يكن بمقدور المصابين بالضرر الدماغيّ الجبهيّ أن ينخرطوا في تلك العملية، لا بل لن يكن بمقدورهم أن يبدأوا بتكوين ترميزٍ أخلاقيّ. وتبقى المشكلة على حالها لو تصوّر المرءُ أن تلك المبادىء أتت من مصدرٍ دينيّ نبويّ سُلّمَت لمجموعة من البشر المختارين . من ناحية إعتبارنا الدين أحد أعظم الإبتكارات البشرية، يُستبعَدُ أن يخلق بشرٌ يفتقرون

إلى العواطف والمشاعر الإجتماعية نظامًا دينيًا بالأساس. كما سوف نناقش في الفصل السابع، يمكن للسرديات الدينية أن تكون قد نشأت كإستجابةٍ للضغوط الأساسية، بالتحديد الأفراح والأتراح المدرَكة بشكلٍ واعٍ، و الحاجة إلى تشكيل سلطة قادرة على تشريع وفرض القواعد الأخلاقية. وفي غياب العواطف السليمة، لم يكن بالإمكان بناء الدين، ولم يكن ممكنًا ظهور الأنبياء وأتباعهم المحرَّكين بميل عاطفيّ إلى الإمتثال بكل إحترامٍ وخشوع لشخصية مهيمنة أُنيط بها دور القيادة، أو لكيانٍ إمتلك سلطة الحماية والتعويض عن الخسائر، وحاز القدرة على تفسير ما لا يُفسَّر؛ وإنّ مفهوم الإله (أو الآلهة) كان من الصعوبة له أن يظهر.

لن تصبح الأمور أفضل لو إفترضنا أن للنبوّة الدينية مصدرًا سماويًا وأن النبيّ يحمل على عاتقه حكمةً موحى بها. ستبقى المبادىء الأخلاقية بحاجة إلى أن تنغرس في ذهن الطفل البريء تحت سطوة العقاب والثواب، وهو ما يمكن استبعاده في حالة الضرر الدماغي الجبهيّ الأماميّ المبكر. إن الفرح والأسى، بقدر ما يمكن لشخصٍ ما أن يختبرهما، لن يكونا متّصلين مع فئات المعرفة الاجتماعية الشخصية التي تحدد القضايا الأساسية للأخلاقيات. بالمختصر، إذا نظرْنا إلى المبادىء الأخلاقية

كنتاجٍ لأسس طبيعية أو دينية، سيبدو لنا أن تغييب العاطفة والشعور في مراحل النمو الإنسانيّ المبكر لن ينبأ بظهور السلوك الأخلاقيّ.

يتضمنُ إقصاء العاطفة والشعور عن الصورة البشرية إفقارًا للتنظيم اللاحق للتجربة. إن لم تتوسّع المشاعر والعواطف بشكلٍ خاص، وإن إنقطعت الصلة بين المواقف الاجتماعية وبين الفرح والأسى، لن يكن بمقدور الفرد أن يصنّف تجاربه مع الأحداث في سجلات ذاكرة سيرته الذاتية بالاستناد على علامة العاطفة / الشعور التي تضفي على تلك التجارب صفات الـ"الجودة goodness" أو الـ"سوء badness". ذلك ما سوف يعيق كل بناءٍ لاحقٍ لمقولتي الجودة والسوء، بالتحديد البناء الثقافيّ العقلانيّ لما يستحق أن يوصف بالجيّد أو بالسّيء، أخذًا بالإعتبار آثاره الجيدة أو السّيئة.

العلوم العصبية و السلوك الأخلاقي

أشتبهُ في أن غياب العواطف الإجتماعية و المشاعر اللاحقة ، حتّى مع الإفتراض المستبعد أن القدرات العقلية الأخرى تبقى كما هي، فإنّ الأدوات الثقافية التي نعرفها على شكل السلوك

الأخلاقي، الإيمان الديني، القوانين و العدالة والتنظيم السياسيّ لن يكن لها أن تتشكّل، أو ربّما كان لها أن تكون مختلفة جدًا كتكوينٍ فكريّ. مع ذلك، أسرع الى القول أنني لا أقصد أنّ العواطف والمشاعر تؤدّي بمفردها إلى ظهور هذه الأدوات الثقافية. أولاً، يُرجَّح أن الاستعدادات العصبية التي تسهّل ظهور أدوات كتلك لا تتضمن فقط العواطف والمشاعر، بل أيضًا ذاكرة شخصية رحبة تسمح للبشر ببناء سيرة ذاتية معقّدة، وبالمثل عملية من الاستيعاء الممتد extended consciousness الّذي يسمح بتعالقات interrelations متقاربة على مستوى المشاعر، الذات، والأحداث الخارجية. ثانيًا، من المعقول أن نجرأ على القول أن العلوم العصبية ستلعب دورًا كبيرًا في التفسيرات المقبلة، ولكن ومن أجل أن نفهم تلك الظاهرة الثقافية بشكلٍ مرضٍ نحتاج إلى أن نتعامل مع أفكارٍ من الانثروبولوجيا، علم الاجتماع، التحليل النفسي وعلم النفس التطوريّ، كما مع اكتشافات من الدراسات في حقول الأخلاقيات، القانون، والدين. في الواقع، يُرجَّح أن توسيع المضمار نحو شروحاتٍ مثيرة يغذّي تحقيقاتٍ تهدف إلى إختبار الافتراضات المرتكزة على معارف تندمج فيها كلّ تلك المجالات مع العلوم العصبية[99]. وبالكاد بدأ هذا التصدّي بالتشكّل، وهو، على أي حالٍ، يذهب أبعد من نطاق هذا الفصل وعملي بأكمله. ومع ذلك، يبدو معقولاً أن نقترح أن المشاعر ربما

كانت أساسًا ضروريًا للسلوك الأخلاقي قبل زمنٍ طويلٍ من بدء البشر بالبناء المتأنّي للمعايير العاقلة الخاصة بالتصرّف الاجتماعيّ. و ربّما لعبت المشاعر دورًا في العصور التطورية الأولى للأجناس اللابشرية، وكانت عاملاً في تكوين العواطف الاجتماعية الآلية و الاستراتيجيات المعرفية للنزعة التعاونية cooperativity. يمكن تلخيص موقفي حول التقاطع بين العلوم العصبية و السلوك الأخلاقي في ما سأدلي به تاليًا.

تتفرّع السلوكيات الأخلاقية عن السلوكيات الاجتماعية، ويمكن البحث فيها عبر تنويعة واسعة من المقاربات العلمية، من الأنثروبولوجيا الى العلوم العصبية. تتضمّن الأولى تقنيات متنوعة بقدرِ تنوّع العلوم النفسية العصبية المجرَّبة (على مستوى الأنظمة الكبرى) و علوم الوراثة (على المستوى الجزيئيّ). ومن المرجّح أن نحصل على نتائج غنية من خلال دمج المقاربتين[100].

لم تبدأ مادة السلوك الأخلاقي مع البشر، إذ تشير الأدلة من الطيور (كالغربان) و الثديات (الخفافيش، الذئات، البابونات و الشمبانزيات) أن أنواعًا أخرى يمكن أن تتصرّف بشكلٍ يبدو، لناظرنا المحنّك، أخلاقيًا؛ فهي تُظهِرُ تعاطفًا وإخلاصًا، وإستحياءً وتكبّرًا مهيمنًا، وإخضاعًا مذلاً؛ وبإمكانها أن تراقب وتجازي بعض أفعال الأخريات منها. إن بإمكان الخفافيش مثلاً أن تكشف

المخادِعات بين جامعات الطعام في مجموعتها وأن تعاقبها بما يتناسب مع ذلك. وبإمكان الغربان أن تعمل بالمثل.

تبدو أمثلةٌ كهذه مقنعةً بالأخص بين الرئيسيات، ولا تنحصر بأولاد عمومتنا القريبين (القرود العليا). على ما يبدو، يمكن للقرد الكبير الريسوسي Rhesus أن يتصرّف بذات الطريقة الغيرية مع القرود الأخرى. في تجربةٍ ملفتة قام بها روبرت ميللر Rober Miller وناقشها مارك هاوزر Marc Hauser، أحجمتِ القرود عن سحب سلسلةٍ يمكنها أن توصل الطعام إليهم إذا نتج عن ذلك تلقّي قردٍ آخر صعقة كهربائية؛ وقد بقيت بعض القرود ممتعنة عن الطعام لساعات، وحتّى لأيامٍ! كما يوحي الأمر، يُرجَّح أن الحيوانات التي تتصرّف بطريقةٍ غيرية هي تلك التي كانت على معرفة بالهدف الممكن للصعقة الكهربائية. هنا يحصل التعاطف بشكلٍ أفضل مع الحيوانات المألوفة أكثر من تلك الغريبة. والحيوانات التي تعرضت سابقًا للصعق الكهربائي كانت على الأرجح ستصرّف بشكلٍ غيريّ، ويمكن بالتأكيد لكائناتٍ غير بشرية أن تتعاون أو تفشل بذلك في نطاق مجموعتها[101]. وهذا ما قد لا يسرّ هؤلاء الّذين يعتقدون أن هذا التصرّف هو حصرًا سمة بشرية. كما لو أنّه لم يكن كافيًا ما أعلنه كوبرنيكوس إنّنا لسنا محور الكون، أو داروين عن اصولنا المتواضعة، و فرويد

حين قال إنّنا لسنا بالتمام أسياد سلوكنا، علينا أن نزعنَ بوجود أسلافٍ وسابقين لنا في علم السلوك الأخلاقيّ. ولكنّ السلوك الأخلاقي البشريّ يمتلك درجةً من التوسّع و التعقيد يجعله بشريًا بشكلٍ متمايز، وتوّلد القواعد الأخلاقية إلزاماتٍ بشرية حصرًا للفرد البشريّ السويّ الّذي ألِفها. إنّ التشفيرَ بشريّ، والسرديات التي كوّنّاها حول هذه المواقف هي بشرية أيضًا. بإمكاننا أن نصالحُ بين أنّ قسمًا من هيكلنا البيولوجي/ الفيزيولوجيّ يمتلك بداياتٍ غير بشريةٍ وبين المقولةِ التي تفيد أنّ فهمنا الأعمق للشرط البشريّ يمدّنا بكرامةٍ فريدةٍ من نوعها.

لا ينبغي لحقيقةِ كون مخلوقاتنا الثقافية الأنبل لها سوابق غير بشريةَ أن تعنيَ أن البشر والحيوانات يمتلكون طبيعة إجتماعية ثابتة. نجدُ أشكالاً متنوعة من الطبيعة الإجتماعية، الجيدة والسيئة، والناتجة عن تقلّباتِ التفاوت التطوّريّ والنمو الشخصيّ. وكما بيّن فرانس دو وال Frans de Wall في عمله، توجد قرودٌ ذات طبيعة إجتماعية سيّئة، وشمبانزيات أرضية عدوانية، كما توجدُ قرودٌ ذات طبيعة جيّدة، البونوبوس Bonobos، والّتي تتشابه شخصياتها الرائعة مع خليطٍ مؤلّف من بيل كلينتون و الأم تيريزا!

ربما نشأ التكوين المسمّى أخلاقي، والمتواجد عند البشر، بإعتباره جزءًا من برنامجٍ شاملٍ من التنظيم البيولوجيّ. كان يمكن للشكل الجنينيّ من السلوك الأخلاقي أن يكون خطوةً أخرى في ارتقاءٍ يحتوي كلّ الآليات التلقائية اللاواعية التي تؤمّنُ تنظيمًا أيضيًا، مثل الدوافع والمحفّزات، والعواطف المتنوّعة، كما المشاعر؛ والأكثر أهميةً، تلك المواقف التي تستدعيَ المشاعر والعواطف كحلولٍ تتضمن التعاون. وليس من الصعوبة بمكانٍ أن نتصوّر إنبثاق العدالةِ والشرفِ عن ممارسات التعاون. ومع ذلك، أمكن لطبقة أخرى من العواطف الإجتماعية، معبرٌّ عنها بشكلٍ من سلوكيات السيطرة والخضوع داخل الجماعة، [أمكن لها] أن تلعب دورًا كبيرًا في التنازلات المتبادلة الناشطةِ التي تعرّفُ التعاون.

من المعقول أن نعتقد إنّ البشر مجهّزون بهذا المخزون من العواطف، وأنّ تلك السمات الشخصية التي تتضمّن إستراتيجيات تعاونية رُجِّحَ لها أن تدوم لمدة أطول أو أن تترك متحدّرين أكثر. ومن شأن ذلك أن يكون هو الطريق لبناء أسس جينية للأدمغة تكون قادرةً على إنتاج سلوكٍ تعاونيّ. لا نعني بذلك وجود جينٍ gene للسلوك التعاونيّ، بله السلوك الأخلاقيّ بشكل عام. سوف يكفي الحضور الثابت لجينات كثيرة من المحتمل أن

تهِبَ الأدمغة مراكزَ معينة من الدوائر والأسلاك التي تخدمها، مثلاً منطقة الفص الجبهي البطنيّ الّتي بإمكانها أن تربط بعض الفئات من الأحداث المدرَكة مع بعض الإستجابات العاطفية/الشعورية. بمعنى آخر، يمكن لبعض الجينات التي تعمل بتناغمٍ أن تحفّز بناءَ بعض المكوّنات الدماغية، والعملية المنتظمة لهذه المكوّنات، والتي بدورها، أخذًا بالإعتبار التركيبات البيئية المناسبة، يمكنها أن تصنعَ أصنافًا من الاستراتيجيات المعرفية والتصرّفات تكون مرجّحة أكثر من غيرها بمقتضى بعض الظروف. في حقيقته، أمكن للتطور أن يمنحَ أدمغتنا الأجهزة المناسبة من أجل التعرّف على بعض التعديلات المعرفية وأن يحرّض بعض العواطف المتّصلة بإدارة المشاكل والفرص التي طرحتها تلك التعديلات. إن الدوزنة الدقيقة لتلك الأجهزة الملفتة للنظر أمكنها الإعتماد على تاريخ و موطنِ المتعضّي النامي[102].

خشيةَ أن نعتقد ببساطة أن التطوّر مع ما يختزنه من الجينات قد جعل الأشياء تبدو رائعةً حين أمدّنا بكل السلوكيات الملائمة، دعوني ألفت الإنتباه إلى أنّ العواطف اللطيفة، والغيرية التكيّفية

الجديرة بالثناء، تخصّ مجموعة *ما*. في عالم الحيوان، تتضمن هذه المجموعات قطعانًا من الذئاب، وحشود من القرود، و في عالم البشر، تتضمن هذه المجموعات العائلة، القبيلة، المدينة و الأمّة. وفي ما يخصّ من هم خارج المجموعة، يُظهِر التاريخ التطوّري للإستجابات إنّها كانت أقلّ من لطيفة، إذ يمكن للعواطف الودّية أن تنقلب بسهولة إلى بغيضة و فظّة حين تخرجُ عن الدوائر الداخلية التي تستهدفها هذه العواطف بشكلٍ طبيعيّ. النتيجة هي الغضب و الإستياء و العنف، أي كلّ ما يمكننا بسهولةٍ أن ندركُ إنّه جنين الحقد القبليّ، العنصرية والحرب. هنا نصل إلى اللحظة لكي نذكّر بأن أفضَل ما في السلوك البشريّ لا يسير بالضرورة تحت قيادة الجينوم. إلى حدّ بعيد، يبدو تاريخُ حضارتنا البشرية تاريخَ جهدٍ مقنعٍ من أجل توسيع مساحة "الأحاسيس الأخلاقية" الفضلى نحو دوائر بشرية أكبر فأكبر، أبعدَ من قيودِ المجموعات الداخلية، إلى أن تحتوي البشرية جمعاء في نهاية المطاف. أمّا أننا ما زلنا بعيدين جدًا عن إنجاز هذا الجهد فهذا ما يمكننا بسهولةٍ أن نفطن إليه فقط بقراءة العناوين الكبرى لنشرات الأخبار!

ثمّ هناك بعض الالتباسات الطبيعيّة التي يلزم بنا أن نتعامل معها. إن خاصّية الهيمنة – وتكملتها، الخضوع – هي

مكوّنٌ هامٌ من مكوّنات العواطف الإجتماعية. تكتسب الهيمنة وجهًا إيجابيًا في كون الكائنات المهيمِنة تعطي حلولاً لمشاكل الجماعة، فهي تقود المفاوضات والحروب، وتجد طريق الخلاص على طول الدروب التي توصل إلى المياه، الثمار والملاجىء، أو في دروب النبوّة والحكمة. ولكن، يمكن للأفراد المهيمنين أن يصبحوا مستأسدين مؤذيين، طغاةً ومستبدّين، خصوصًا حين تأتي الهيمنة جنبًا إلى جنب توأمها الشرير: الكاريزما. بإمكان المهيمنين أن يفاوضوا بشكلٍ سيّءٍ فيجرّون الآخرين إلى الحروب الخاطئة. في ما يخصّ هؤلاء، فهم ، إلى حدٍّ ما، يحتفظون بالعواطف الجميلة للمجموعة الصغيرة الّتي تكوّن من أجلهم، ولهؤلاء الّذين يساندونهم بقوّة. وبالمثل، فإنّ خاصّية الخضوع الّتي قد تلعب دورًا مساعِدًا في الوصول إلى اتفاقاتٍ ومساوماتٍ حول نزاعٍ ما، يمكنها أيضًا أن تجعل حامليها جبناء أمام الطغيان، فيعجّلون في تهاوي المجموعةِ بأكملها بسبب إستخدامهم المفرط للطاعة!

بإعتبارنا كائنات واعية، ذكية، مبدعة ومنغمسة في بيئة ثقافية، أمكن لنا نحن البشر أن نشكّل قواعد للأخلاق، وأن نبنيّ تشفيراتها من خلال القانون، وأن نصمّم تطبيقاتٍ لهذا القانون؛ وسوف نبقى معنيّين بهذا الجهد. تبدو جماعية الكائنات الحيّة

المتآثرة، في بيئة إجتماعية وثقافةٍ كنتاجٍ جماعيّ، [تبدو] على قدرٍ كبير من الأهمية من أجل فهم تلك الظواهر [أعلاه]، حتّى لو كانت الثقافة بحد ذاتها مشروطة إلى حدٍ كبير بالتطوّر و العلوم العصبية. لا ريب أن الدور الناجع للثقافة يعتمد، وفق مقياس واسع، على دقّة الصورة العلمية للكائنات البشرية الّتي سوف تستخدمها الثقافة من أجل صياغة طريقها المستقبليّ. وهنا يمكن لإندماج العلوم العصبية الحديثة مع البناء التقليدي للعلوم الإنسانية أن يحدثا فرقًا.

إلى حدٍّ كبيرٍ، ولنفس السبب، لا يعني توضيحُ الآليات البيولوجية المضمرة في السلوكيات الأخلاقية أنّ هذه الآليات أو تعطّل عملها هو السبب الّذي يضمن حصول سلوكٍ ما. يمكنها أن تكون محدِّدة ولكن ليس *بالضرورة*، فالنظام [الدماغيّ] معقّد ومتعدد الطبقات بحيث يعمل وفق درجاتٍ من الحرية. ليس الأمر بمفاجىءٍ، إذ أنني أعتقد أنّ السلوك الأخلاقي يعتمد على عمل بعض أنظمة الدماغ، ولكنّ هذه ليست مراكزَ، ولا نجد "مركزًا " أو "مراكز أخلاقية"؛ كما لا يجب أن نرى إلى القشرة البطنية الجبهية المقدّمة بإعتبارها مركزًا. إضافةً إلى ذلك، فإن الأنظمة التي تدعم سلوكياتٍ أخلاقيةً ليست محصورة بالأخلاق فقط، بل إنّها متخصّصة أيضًا بالتنظيم البيولوجيّ، الذاكرة، صناعة

القرار والإبداع، وتكون السلوكيات الأخلاقية أفضل وأنفع العوارض الجانبية لتلك الأنشطة. ولكنّني أرى أن لا وجود لمركزٍ أخلاقي في الدماغ، ولا حتّى لنظامٍ أخلاقي.

على ضوء هذه الفرضيات، يرتبط الدور الرئيسيّ للمشاعر بوظيفتها الطبيعية في رصد الحياة life-monitoring. منذ نشأتها كان دورها الطبيعيّ أن تحفظ شرط الحياة في العقل وأن تجعل هذا الشرط بحسبانِ منظومة السلوك. و بالضبط لأن المشاعر تستمر بعملها هذا، أعتقد أنّ عليها أن تلعب دورًا محوريًا في التقييم القائم، وفي النمو، وحتى في تطبيق الأدوات الثقافية الّتي لمّحنا إليها آنفًا[103].

إن كانت المشاعر تؤشّر على حالة الحياةِ داخل كل بشريّ أو كائنٍ حيّ، فإنها تؤشّر أيضًا على حالة الحياة في أيّ مجموعة بشرية، كبيرةً كانت أو صغيرة. إنّ إنعكاس الذكاء على العلاقة بين الظاهرة الاجتماعية واختبار مشاعر الأسى والفرح يبدوان ضروريْن لثبات النشاط البشري في إبتكار أنظمة العدالة والتنظيمات السياسية. وربّما ما هو أكثر أهميةً أنّ بإمكان المشاعر، بالأخص الأسى والفرح، أن تكون ملهمةً في خلق شروطٍ، ضمن البيئات الفيزيائية والثقافية، تؤدّي إلى تقليص الألم و تعزيز رفاهية المجتمع. ضمن هذا الأفق، حسّن التطوّر في

البيولوجيا والتقدّم في تكنولوجيات الطبّ الشرطَ الإنسانيّ طوال القرن الماضي، وهكذا فعلت العلوم والتكنولوجيا المتصّلة بإدارة البيئة الفيزيائية، وكذلك الفنون، ونمو الثروات في البلدان الديمقراطية، إلى حدٍّ ما[104].

الإستتباب وإدارة الحياة الإجتماعية

تنتظمُ الحياة البشرية، أولاً، بفضلِ الأجهزة الطبيعية والتلقائية للإستتباب: التوازن الأيضيّ، الشهوات، العواطف...الخ. يكفل هذا التوزيع الناجح جدًا ما هو مدهشٌ بالفعل: أن كلّ الكائنات الحيّة بإمكانها الوصول بشكلٍ متساوٍ إلى حلول تلقائية في إدارة المشاكل الأساسية في حياتها، بما ينسجم مع تعقيدها وتعقيد موطنها في بيئتها. ومع ذلك، على تنظيم حياتنا الراشدة أن يتخطّى هذه الحلول التلقائية بسبب أنّ بيئتنا معقدّة فيزيائيًا وإجتماعيًا بحيث تظهر النزاعات بسهولةٍ، بفعل المنافسة على المصادر الأساسية للبقاء على قيد الحياة وللرفاهية، حتّى تصبح بعض العمليات البسيطة، كالحصول على الطعام أو على الشريك [الجنسيّ]، نشاطاتٍ معقّدة. تنضم إلى هذه العمليات عمليات عديدة أخرى أكثر تفصيليةً، مثل الصناعة، التجارة، الصيرفة،

الرعاية الصحية، التعليم، والتأمين، وعددٌ لا حصر له من النشاطات الأخرى المرافقة التي تؤلّف جميعها مجتمعًا بشريًا واقتصاديًا. لا يجب لحياتنا أن تنتظم من خلال مشاعرنا ورغباتنا فقط، ولكن أيضًا من خلال *اهتمامنا* برغبات ومشاعر الآخرين، وهو ما يتمّ التعبير عنه من خلال التوافقات الإجتماعية وقواعد السلوك الأخلاقيّ. تصبح هذه التوافقات والقواعد مع المؤسسات التي تسندها (الدين، العدالة، والتنظيمات السياسية والاجتماعية) آلياتٍ تولّد الإستتباب على مستوى المجموعة الإجتماعية. وبدورها، تدعم نشاطات بشرية كالعلوم والتكنولوجيا آليات الإستتباب الإجتماعيّ.

لا تميل أيٌّ من تلك المؤسسات المتواجدة في ادارة السلوك الإجتماعي لكي تُرى كجهازٍ ينظّم الحياة، ربّما لأنها غالبًا ما تفشل في تنفيذ عملها بالشكل المطلوب، أو لأن أهدافها الآنية تحجب ترابط عمليات الحياة. مع ذلك، إنّ الغاية القصوى لهذه المؤسسات هو بالتحديد تنظيم الحياة في بيئة معيّنة. ومع بعض الإختلافات الطفيفة، في ما يخصّ الفرد أو الجماعة، مباشرةً أو ضمنيًا، تقوم الغاية القصوى لهذه المؤسسات على انماء الحياة وتجنّب الموت وعلى تعزيز الرفاهية وتقليص المعاناة. وقد كان هذا الأمرعلى قدرٍ من الأهمية للبشر لأنّ التنظيم التلقائي للحياة يبلغ

فقط الحدّ الّذي تصبح عنده البيئة – الفيزيائية والإجتماعية – معقّدة بشكلٍ كبير. ومن دون مساعدة من المشاورات، التربية، أو الأدوات الشكلية للثقافية، تبدي الأجناس غير البشرية سلوكيات نافعة تتخطّى ما هو متواضِع – كالحصول على الطعام أو الشريك الجنسي – إلى ما هو أرقى، أي إظهار التعاطف للآخر. ولكن، فلننظرقليلاً إلينا نحن البشر: لا يمكننا طبعًا أن نستغنيَ عن أيّ جزءٍ من الأجهزة الجينية الفطرية للسلوك. ومع ذلك، يبدو واضحًا أنّنا كمجتمعات بشرية أصبحت أكثر فأكثر معقّدة، و بالتأكيد لآلاف السنين منذ أن تطوّرت الزراعة، فإن الاستمرار بالحياة والرفاهية لدينا اعتمدنا على *نوعٍ إضافيّ من الادارة اللاتلقائية* في الفضاء الإجتماعيّ والثقافيّ. وأعود هنا إلى ما نربطه عادةً بالاستدلال وحريّة القرار[105]. ليس فقط أنّنا كبشر *نُظهِرُ* رأفةً تجاه الآخرين الّذين يعانون، مثلما بإمكان شامبانزي البونوبو وغيرها من الحيوانات أن تفعل، بل *أننا نعرف أننا نشعر* بالرأفةِ هذه، و ربّما، نتيجةً لذلك، نعمل على الظروف التي تقف خلف الأحداث المولّدة لتلك العواطف والمشاعر بالدرجة الأولى.

كان أمام الطبيعة ملايين السنين من أجل أن تستكتمل الأجهزة التلقائية للإستتباب، بينما لا يتعدّى تاريخ تلك الأجهزة اللاتلقائية سوى بضعة آلافٍ من السنين. ولكنّني أرى إختلافًا

آخرَ ملفتًا بين تنظيم الحياة التلقائي و اللاتلقائي، هو ذاك المتعلّق بـ"الأهداف" مقابل "الوسائل والأساليب". تكون الأهداف والوسائل والأساليب، في حالة الأدوات التلقائية، مكوّنة بشكلٍ جيّد وفعّالة، بينما، في حالة الأدوات اللاتلقائية، نجد أن في حين بعض الأهداف يكون متفّقًا عليها بشكل كبير – مثل ألاّ نقتل الآخرين – تبقى أهدافٌ أخرى كثيرة عرضة للمفاوضات وتنتظر التكريس، مثل كيف نساعد بشكلٍ صحيح المريض والمحتاج. بالإضافة، فقد تنوّعت الوسائل والأساليب بشكل كبير بين المجموعات البشرية وعبر العصور التاريخية، ولم تكن يومًا ثابتة. ربّما ساهمت العواطف في إقتران الأهداف التي حدّدت الإنسانية في أعلى مراتبها (عدم أذية الآخرين، وعمل الخير لهم)؛ ولكن يبقى أن تاريخ الإنسانية يدور حول الكفاح من أجل إيجاد الوسائل والأساليب المقبولة من أجل تحقيق تلك الأهداف. وقد يقول البعض أن أهداف الماركسية، ولو انها محدودة، كانت جديرة بالثناء على هذا النحو أو الآخر متى ما كانت النيّة المعلنة خلقَ عالمٍ عادل؛ ومع ذلك، فإن الوسائل والأساليب المستخدمة في المجتمعات الّتي روّجت للماركسية كانت كارثيةً، لأنها، ومن بين أسباب عديدة، قد اصطدمت دائمًا مع الآليات المتقنة للتنظيم التلقائي للحياة. غالبًا ما يسببُ خيرُ مجموعةٍ كبيرة آلام و معاناة العديد من الأفراد. تتبيّن لنا بسهولةٍ بدائية وهشاشة الأدوات

اللاتلقائية في حالة النازية حيث كانت الأهداف كما الوسائل والأساليب شائنة بشكلٍ كبير. هكذا، وغالبًا، تكون الأدوات اللاتلقائية عملاً يتقدّم باستمرار، تعيقه صعوبات ضخمة تخصّ الأهداف التي يتم التفاوض عليها من أجل الوصول إلى الوسائل والأساليب التي لا تضرّ بالخاصيّات الأخرى لتنظيم الحياة. من هذا المنظار، أعتقد أن العواطف تبقى ضرورية من أجل المحافظة على تلك الأهداف التي تعتبرها المجموعة الثقافية غير قابلة للإنتهاك وتستحق التحقيق بالتمام والكمال. والمشاعر هي أيضًا دليلٌ ضروريّ من أجل الإبتكار والتفاوض حول الأساليب والوسائل التي، بشكلٍ ما، لن تصطدم بالتنظيم الحياتي الأساسيّ ولن تشوّه النيّة القابعة خلف الهدف. تبقى المشاعر على قدرٍ من الأهمية اليوم طالما وجد بشرٌ أن قتل الآخرين هو فعلٌ قابلٌ للمساءلة.

قد يُنظَر إلى التوافقات الإجتماعية و القواعد الأخلاقية، بجزء منها، كإمتداد للترتيبات الإستتبابية الأساسية على مستوى المجتمع والثقافةِ. تتماثل محصّلة تطبيق هذه القواعد مع محصّلة الأدوات الإستتبابية الأساسية في التنظيم الأيضيّ أو الشهوة: توازنٌ في الحياة من أجل ضمان رفاهية البشر وإستمرارهم أحياء. ومع ذلك، لا يتوقف الإمتداد هنا، إذ يصل إلى

مستويات تنظيمية أوسع تكون المجموعات الإجتماعية جزءًا منها: فالدستور الّذي يحكم دولةً ديمقراطية، القوانين الّتي تنسجم مع هذا الدستور، وتطبيقات هذه القوانين في نظامٍ قضائيّ هي أيضًا أدوات إستتبابية، وهي ترتبطُ بحبلٍ سريّ مع التصفيفات الأخرى للتنظيم الإستتبابي والّتي تكون على غرارها: شهوات / رغبات، عواطف / مشاعر، والادارة الواعية لكليهما. وهكذا تولّدت ونمت في القرن العشرين الكيانات الدولية للتنسيق الإجتماعي، كمنظمة الصحّة العالمية، الأونسكو، وتلك المطعون بها أي منظمة الأمم المتحدة. يمكن النظر إلى كل هذه المؤسسات بإعتبارها جزءًا لا يتجّزأ من ميلٍ إلى تثبيت الإستتباب على نطاق كبير. وإلى جانب النتائج الحسنة التي تحققها غالبًا، تعاني هذه الكيانات أيضًا من عللٍ كثيرة، وتبدو سياساتها مستوحاة غالبًا من مفاهيم مبتسرة حول الإنسانية لم تأخذ بالإعتبار الأدلة العلمية الصاعدة. ومع ذلك، حضورها غير المكتمل يبقى علامة على التقدّم ومنارةَ أملٍ، ولو كانت خافتة. هناك أسبابٌ أخرى للأمل: ما زالت الدراسات عن العواطف الإجتماعية في بدايتها، وإن إنضمت الأبحاث المعرفية والعصبية للعواطف والمشاعر إلى بعضها بعضًا إلى جانب علم النفس التطوّري و الإناسةِ [الأنتروبولوجيا] مثلاً، فمن المرجّح أن بعض الإقتراحات المتضمنة في كتابي هذا يمكن إختبارها. ويمكننا أن

نطّلعَ على واقعة أن تشابك البيولوجيا البشرية مع الثقافة تقف خلف المشهدِ، ويكون حتّى بإمكاننا أن نخمّن كيف أن الجينوم والبيئات الفيزيائية و الإجتماعية تتآثر طول التاريخ الطويل للتطوّر.

أشير مرّة أخرى إلى أنّ ما يلي هو أفكارٌ لا تزال تحتاجُ إلى تقويمٍ. وإنّ مُقترحًا شكليًا حول العلوم العصبية السلوكية الأخلاقية يبقى خارج دائرة هذا الكتاب، تمامًا كنقاشِ هذه الأفكار من منظور تاريخيّ[106].

تأسيسُ الفضيلة

ذكرتُ باكرًا في الكتاب أن عودتي إلى سبينوزا أتت صدفةً حين كنت أحاول أن أختبر صحّة مقولةٍ حفظتها على ورقة ملاحظاتٍ، وهي مرتبطة بسبينوزا الّذي قرأته منذ زمنٍ بعيد. لماذا إحتفظتُ بتلك المقولة؟ ربّما لأنّي حدستُ كونها مميّزة وكاشفة؛ ولكنّني لم أتوقّف أبدًا عند تحليلها بالتفصيل إلى أن إنتقلتُ، بذاكرتي، إلى الصفحة التي كنت أعمل عليها.

تنتمي المقولة إلى القضية 18 من القسم الاربع في كتاب ***الإيتيقا The Ethics*** :" ...إنّ مبدأ الفضيلة هو ذات الجهد الّذي يبذله المرءُ في سبيل حفظ كيانه الخاص، وأنّ السعادةُ تتمثّل في قدرته على حفظ كيانه"[i]. وقبل أن نمضي قدمًا أورد تعليقًا على المصطلحات التي يستخدمها سبينوزا. أولاً، كما ذُكِرَ سابقًا، يمكن ترجمة كلمة conatum بجهد أو ميل أو بذل، وربما عنى سبينوزا هذه المعاني الثلاثة، أو ربّما مزيجًا منها. ثانيًا، الكلمة virtutis قد لا تحيل فقط إلى معناها التقليدي [الفضيلة]، ولكن أيضًا إلى القوّة والمقدرة على الفعل. وسوف أعود إلى ذلك لاحقًا. ولأمر يثير الفضول، يستخدم سبينوزا كلمة felicitatem التي يمكن ترجمتها إلى سعادة، ولا يقول laetitia التي يمكن ترجمتها إلى فرح، إبتهاج، سرور، و سعادة.

للوهلة الأولى، تبدو الكلمات وصفةً لثقافة عصرنا الأنانية ، ولكن هذا بعيد كلّ البعد عن المعنى الحقيقي لهذه الكلمات. كما يمكن أن أفسّرها فإن القضية هي حجرُ زاويةٍ لنسقٍ أخلاقيّ غنيّ. إنّها إثباتٌ على أنّ في أساس كلّ قاعدة سلوكٍ يمكن أن نطلب من البشرية إتباعها هناك أمرٌ راسخٌ: إن متعضيًّا حيًا،

---

[i] **Virutis fundamentum esse ip sum conatum proprium esse conservandi, et felicitatem I eo consistere, quod homo suum esse conserva potest. (باللغة اللاتينية)**

يعلمه صاحبه لأن عقلَ هذا الأخير قد كوّن ذاتًا self، يمتلكُ ميلاً إلى حفظ حياته الخاصة؛ وإنّ حالة هذا المتعضّي نفسه في أدائه الأفضل، المضمَّن في مفهوم الفرح، تنتجُ عن جهدٍ ناجحٍ في الصمودِ والظفر. بمصطلحات أميركية يمكنني أن أعيد كتابة القضية السبينوزية على الشكل التالي: أتمسّك بهذه الحقائق الجلية، إنّ كل البشر مخلوقون بحيث يميلون إلى الحفاظ على حياتهم ويسعون إلى الرفاهية، أنّ سعادتهم تتأتّى عن الجهد الناجح للقيام بذلك، وأن مبدأ الفضيلة يكمن في هذه الحقائق. ربّما ليست هذه الأصداء مجرّد صدفة!

يدوّي كلام سبينوزاً عاليًا، ولكنّه يتطلّب توضيحًا حتى يمكن تقدير أثره الكامل. لماذا يجب على اهتمام المرء بذاته أن يكون مبدأ الفضيلة، حتّى تتعلّق تلك الفضيلة بهذه الذات فقط؟ أو فلنقل بشكلٍ أوضح، كيف ينتقل سبينوزا من الذات إلى كل الذوات التي يجب أن تنطبق عليها الفضيلة؟ يقوم سبينوزا بهذا الإنتقال مستندًا مرةً أخرى على الحقائق البيولوجية. هاكم الإجراء: تقود الواقعة البيولوجية لحفظ الذات إلى الفضيلة لأننا في خضّم حاجتنا الراسخة لصون ذاتنا علينا، بالضرورةِ، أن نساهم في الحفاظِ على الذوات *الأخرى*. إذا فشلنا في ذلك فسوف نهلكُ، وبالتالي سوف ننتهكُ المبدأ التأسيسيّ، ونحجمُ عن

الفضيلة الكامنة في حفظ الذات. آنئذٍ، يكون المبدأ الثاني للفضيلة هو واقعةُ بنية إجتماعيةٍ وحضور متعضياتٍ حيّة أخرى في نظامٍ معقّدٍ من الإعتماد المتبادل مع متعضينا الخاص. حرفيًا، نحن في ورطة! ولكن بالمعنى الجيد للكلمة. نجدُ جوهرَ هذا الإنتقال عند أرسطو، ولكنّ سبينوزا يربطه بمبدإٍ بيولوجيّ: تولّي حفظ الذات.

إذًا، وبمنظور أيامنا هذه، نلمس الجمال الكامن في ذلك الاقتباس الثمين ، فهو يحتوي على أساسٍ لنظامٍ من السلوكيات الأخلاقية، وهو أساسٌ بيولوجيّ عصبيّ نتاجُ اكتشافٍ استند على ملاحظةِ الطبيعة البشرية أكثر ممّا استند على وحيٍ نبويّ!

البشرُ هم كما هم، يعيشون وهو مجهزون بشهواتٍ، عواطف، وأدوات أخرى لحفظ الذات، بما في ذلك القدرة على أن يعرفوا و يعقِلوا. وبالرغم من محدوديته، يفتح الوعي الباب على المعرفة والعقل، وهما بدورهما يسمحان للأفراد بأن يكشتفا الخير والشرّ. مرةً اخرى، الخير والشر ليسا وحيًا، بل يُكتشفان، فرديًا أو بالإتفاق بين الكائنات الإجتماعية. وتعريف الخير و الشر سهلٌ و مُحكَم: الأشياء الخيّرة هي تلك التي تطلِقُ، باسلوبٍ موثوقٍ و مستدام، حالات الفرح التي وجد سبينوزا أنّها تعزز قوّة وحرية

الفعل. أمّا الأمور الشريرة فهي تلك الأشياء التي تُحدِث النتيجة المناقضة، وحيث يكون التقاؤها مع المتعضيّ مزعجًا لهذا الأخير.

وماذا عن أفعال الخير و الشر؟ لا تعني هذه الأفعال مجرّد التوافق أو عدمه مع الشهوات والعواطف الفردية. الأفعال الخيّرة هي تلك التي، بينما تنتج الخير للفرد عبر الشهوات الطبيعية والعواطف، *لا تؤذي الأفراد الآخرين*. التنبيه واضحٌ: الفعل الّذي قد يكون نافعًا على الصعيد الشخصي غالبًا ما يمكن أن يترتّب عنه أذيةً لمَن تسبب بالأذى، وبالتالي تكون أفعالٌ كهذه شريرة:"يكمن الخير بالأخصّ في الصداقة التي تربطنا بالآخرين، وفي المنافع للمجتمع" (كتاب **الايتيقا** القسم الرابع القضية 10). أفسّرُ سبينوزا لأقول أنّ النظام يشكّل أوامرَ أخلاقية على أساس حضور آليات حفظ الذات في كل فردٍ، ولكن أيضًا مع الحرصِ على العناصر الإجتماعية والثقافية. خلف كل ذات هناك الآخرون، كأفراد أو ككيانات إجتماعية، ويجب أن نأخذ بالاعتبار حفظهم لذواتهم، أي شهواتهم وعواطفهم. لم يكن جوهر الكوناتوس أو مقولة أن أذية الآخر تعني أذية للذات من بنات أفكار سبينوزا، ولكن ربما يكمنُ ابداعه في ذلك الإدغام القويّ بين الفكرتين.

إن الجهد المبذول في الحياة من خلال توافقٍ تشاركيّ سلمي مع الآخرين هو إمتدادٌ للجهد المبذول في حفظ الذات، والعقود السياسية والإجتماعية هي إمتداداتٌ للتوليّ البيولوجي الذاتيّ. حصل أننا، بطريقةٍ ما، مكوّنون بيولوجيًا، ومخوّلون بالبقاء أحياء وبأن نضاعف إلى أقصى حدّ بقاءنا الممتع وليس المؤلم، ومن هذه الضرورة بتأتّى شكلٌ من أشكال التوافق الإجتماعيّ. من المعقول أن نفترض أن الميل للحصول على توافق إجتماعيّ هو ما يندرجُ بنفسه ضمن ما هو مخوَّل لنا بيولوجيًا، على الأقل في جزءٍ منه، وذلك بفضل النجاح التطوّري للبشرِ الّذين أفصحت أدمغتها عن مستويات مرتفعة من السلوكيات التعاونية.

خلف الأساس البيولوجي نجدُ القرار البشريّ المتجذّر أيضًا بيولوجيًا، ولكنّه لا يظهرُ سوى في الإطار الإجتماعي والثقافي، كنتاجٍ ذهنيّ للمعرفة والعقل. تلمّس سبينوزا بشكلٍ واضحٍ هذا الترتيب: " فالقول مثلاً بأنّ كلّ الأجسام عندما تصطدم بأجسامٍ أخرى أصغر منها تفقدُ من حركتها بمقدار ما تعطي، هو قانون شامل لكل الأجسام يصدر بضرورة طبيعية، وبالمثل فإن القول بأنّ الإنسان عندما يتذكّر شيئًا يتذكّر معه على الفور شيئًا مشابهًا، أو شيئًا أدركه في نفس الوقت الّذي أدرك

فيه الشيء الأول، هو بدوره قانون ينتجُ بالضرورة عن طبيعة البشر. ولكن، عندما يترك الناس أو يضطرون لتركِ شيءٍ من حقّهم الطبيعيّ ، ويجبرون أنفسهم على العيشِ بطريقة محددة، فإنّ ذلك يتوقّف على قرارٍ إنسانيّ. ومع أنيّ أعترف بلا أدنى تحفّظ بأنّ جميع الأشياء محددة بقوانين كليّة في الطبيعة، بحيث توجد وتشتغل بطريقة محددة للغاية، فإنّي أعتقد أنّ مثلَ تلك القوانين الّتي ذكرتها تعتمد على حكمٍ يتّخذه البشر".[107]

سوف يكون سبينوزا مسرورًا متى ما علِم أن سببًا واحدًا لكون القرار البشري له جذوره الثقافية يكمن في أن تصميم الدماغ البشري يميل إلى تسهيل ممارسة هذا القرار. يُرجَّحُ أنّ أبسط أشكالِ بعض السلوكيات الضرورية من أجل تحقيق القرار البشريّ، مثل الغيرية المتبادلة والرقابة، ينتظرُ فقط أن تقوم التجربة الإجتماعية بإيقاظه. علينا أن نعمل بجهدٍ من أجل تشكيل وإتمام القرار البشريّ، ولكن إلى هذا الحدّ أو ذاك تكون أدمغتنا مجبولةُ على التعاون مع الآخرين في عمليةٍ تجعلُ هذا القرار ممكنًا. وهذا هو الخبر الجيّد. أمّا الخبر السيّء، طبعًا، فهو أن العديد من العواطف الإجتماعية السلبية، جنبًا إلى جنب إستغلالها في الثقافات الحديثة، تجعل القرار البشريّ عصيًّا على التنفيذ والتحسين.

لا يمكننا أن نغالي في أهمية الحقائق البيولوجية في نظامِ سبينوزا. منظورًا إليه من ناحية البيولوجيا الحديثة، يبدو النظامُ مشروطًا بوجود الحياة، بتواجد ميل طبيعيّ إلى حفظ الحياة، وبحقيقة أن حفظ الحياة يعتمد على التوازن بين وظائفها، وبالتالي على تنظيم الحياة، وحقيقة أن مكانةِ تنظيم الحياة يُعبَّر عنها على شكلِ انفعالاتٍ Affects – الفرح و الأسى – وتكون مضمّنة بالشهوات، وهذه الأخيرة مثلَ العواطف وتداعي شروط الحياة يمكن التعرّف عليها وتقديرها من قبل الفرد البشريّ وفقًا لتكوين الذات self، والوعي وللمعرفة المستندة على العقل. يتعرّف البشرُ الواعون على الشهوات والعواطف على إنّها مشاعر، وهذه المشاعر تعمّق من معرفتهم لهشاشة الحياة وتتحوّل إلى *اهتمام*. ولكل الأسباب المذكورة أعلاه، يفيض هذا الاهتمام من الذات إلى الآخر.

لا افترض أن سبينوزا قال يومًا ما إنّ الأخلاقيات، القانون والتنظيم السياسيّ هي أدوات إستتبابية، ولكنّ الفكرة هذه تنسجم مع نظامه أخذًا بالإعتبار الطريقة التي رأى فيها الأخلاقيات، و بُنى الدولة، والقانون من حيث هي وسائل للأفراد من أجل تحقيق التوازن الطبيعيّ المعبّر عنه بالفرح.

وغالبًا ما قيلَ أن سبينوزا لم يؤمن بالإرادة الحرّة، وهي مقولة تبدو في نزاعٍ صريحٍ مع نظامٍ أخلاقي يقرر فيه البشر أن يتصرّفوا بطريقةٍ ما وفقًا لأوامر واضحة. ولكنّ سبينوزا لم ينفِ يومًا أننا نكون واعين عند اتّخاذ القرار، وأننا، بدافع كلّ النوايا والأهداف، يمكن *لنا* أن نتّخذ القرارات، وأن نتحكّم، عن قصدٍ، بسلوكنا. ولطالما اقترح علينا أن نستغنيَ عن أيّ فعلٍ نعتبره خاطئًا لصالحِ ما نراه صحيحًا. لقد إستندت إستراتيجيته من أجل الخلاص البشري على إتخّاذ القرارت المتأنّية، ورأيه أن العديد من التصرّفات التي تبدو متأنّية يمكن تفسيرها بالعودة إلى شروط تكوّننا البيولوجيّ، وبالتالي، فإنّ كلّ ما نعتقده ونفعله ينتجُ عن بعض الشروط المسبقة والعمليات التي لا يمكننا التحكّم بها.ولكن، يبقى بمقدرونا أن نقول "لا" حاسمة، تمامًا كما كان يمكن لإيمانويل كانط أن يقول بشكلٍ حازمٍ وحتميّ، بغض النظر عن الوهم الّذي قد تحمله حرية الـ"لا" هذه.

نجدُ معنىً إضافيًّا لقضية سبينوزا رقم 18 يتعلّق بالمعنى المزدوج لكلمة فضيلة، حول التأكيد المعطى لمقولة السعادة، والتعليقات العديدة التي تتبع القسمين الرابع والخامس من ***الايتيقا***.قد تتأتى بعض درجات السعادة بسهولةٍ من خلال التصرّف بتناغمٍ مع الميل إلى حفظ الذات، وفقًا للحاجة لا أكثر.

إضافةً إلى حثّه على تشكيل عقد إجتماعيّ، يخبرنا سبينوزا أن السعادة هي القوة التي تجعلنا نتحرر من طغيان العواطف السلبية. ليست السعادة مكافأةَ الفضيلة: إنّها الفضيلة بحد ذاتها.

بماذا تخدمنا المشاعر؟

حسنًا، لماذا نملك مشاعرَ؟ ما الّذي تحققه المشاعرُ لنا؟ وهل نكون بحالٍ أفضل من دونها؟ لطالما تم الافتراض أن لا جواب لهذه الأسئلة، ولكنني أعتقد أنّه بمقدورنا أن نبدأ بالإجابة عنها الآن. لسببٍ أول، إذ لدينا فكرة عملانية عمّا هي المشاعر، وهذه خطوة أولى في محاولة إكتشاف *لماذا* و *ماذا* تفعله المشاعر لنا. ولسبب آخر، إذ سبق ورأينا كيف تساهم الشراكة بين العواطف والمشاعر بشكلٍ فاعلٍ في السلوك الإجتماعيّ، وبصورة موسّعة في السلوك الأخلاقيّ. مع ذلك، قد يبقى شَكّاكٌ ما غير مقتنعٍ ويجادلنا بأن العاطفة اللاواعية تكفي وحدها لقيادة السلوك الإجتماعيّ، أو أن التخريطات العصبية للحالات العاطفية تكفي أيضًا، من دون الحاجة لتصبحَ تلك الخرائط أحداثًا ذهنية أي مشاعرَ.

وبإختصار، لن نحتاج العقل، ناهيكَ عن العقل الواعي. دعوني أحاول الرد على المشككين.

الجواب على "لماذا" يبدأ بالتالي: لكي يكون بإمكان الدماغ أن يربط الوظائف الجسدية الوفيرة والتي تعتمد عليها الحياة، يحتاجُ إلى خرائطَ تتمثّل فيها الحالات المتعددة للأنظمةِ الجسدية لحظةً بلحظة. يعتمد نجاحُ هذه العملية على التخريط المكثّف. ومن المهم بمكان أن نعلم ما يجري في قطاعات الجسد المختلفة بحيث يجعل بعض الوظائف تتباطأ، تتوقّف أو تُستدعى للعمل، وبالتالي يصبح بالإمكان القيام بتصحيحات مناسبة في إدارة حياة المتعضّي. الأمثلة على هذه الحالة تتضمن جرحًا موضعيًا، ملتهبًا من الخارج أو تسبب به إلتهابٌ ما، أو عطبًا في عضوٍ ما كالقلب أو الكلى، أو إختلالاً في الهرمونات.

يبدو أن الخرائط العصبية الأساسية من أجل إدارة الحياة هي أساساتٌ ضرورية للحالات العقلية التي نسمّيها مشاعر. هذا ما يسير بنا خطوةً إلى الأمام للإجابة عن سؤال "لماذا": من المحتمل أن المشاعر تظهرُ كمنتجٍ ثانويّ لإنخراط الدماغِ في إدارة الحياة، وبإفتراض غياب خرائط عصبية للجسد لن يظهرَ شيئًا ما كالمشاعر.

قد تثير هذه الأجوبة بعض الإعتراضات. على سبيل المثال، يمكن الاعتراض عليها بالقول أنه طالما إنّ العملية الأساسية لإدارة الحياة تلقائية ولاواعية، سوف تكون المشاعر الواعية، بالمعنى المعتاد للكلمة، زائدة عن اللزوم. ويمكن لمتشككٍ أن يقول أنّ الدماغ يربط عمليات الحياة وينفّذ فيزيولوجيًا تصحيحاتٍ على أساس الخرائط العصبية وحدها، من دون مساعدة المشاعر الواعية، ولا حاجة للعقل أن يعرف بمحتوى هذه الخرائط. تبدو هذه الحجّة صحيحةً من جانبٍ واحد. إلى حدٍّ كبير، وبما يكفي من الحقيقة، تساعدُ خرائط حالةِ الجسد الدماغَ على إدارة الحياة حتّى عندما لا يعرف "صاحب" المتعضّي أن هذه الخرائط موجودة. ولكنّ هذا الإعتراض يغفل عن نقطة محورية أوردناها سابقًا: بإمكان خرائط حالة الجسد أن تمنحَ مساعدةً محدودة من دون المشاعر الواعية، وتعمل هذه الخرائط فقط على بعض المشاكل المعقدّة إلى هذ الحدّ أو ذاك ، ولكن حين تصبح المشكلة معقّدةً جدًا،أي حين تتطلّب مزيجًا من الإستجابات التلقائية و الاستدلال القائم على معرفة متراكمة، تكفّ الخرائط اللاواعية عن تقديم المساعدة، وتصبح المشاعر جاهزة للاستخدام.

ما الّذي بإمكان المشاعر أن تقدمّه إلى حل المشكلة وصناعة القرار والّذي لا يستطيع تقديمه مستوى الخريطة العصبية لتلك الأحداث التي وصفتها العلوم العصبية سابقًا؟ من وجهي نظري، هناك مستويان من الجواب، أولّها يتعلّق بمنزلة المشاعر كأحداث عقلية في العقل الواعي، وثانيهما يتعلّق بما تمثّله هذه المشاعر.

تبدو حقيقة كون المشاعر أحداثًا عقلية على صوابٍ للسبب الآتي: تساعدنا المشاعر على حلّ المشاكل *غير القياسية* المنطوية على الإبتكار، الحكم، وصناعة القرار، والتي تتطلب بروز ومعالجة كمّا هائلاً من المعارف. فقط "المستوى العقلي" للعمليات البيولوجيّ يتيح الإندماج المناسب لمجموعات كبيرة من المعلومات الضرورية لعملية حل المشكلة. ولأنها تمتلك المستوى العقليّ اللازم، يمكن للمشاعر أن تدخل ميدان العقل وتؤثّر على العمليات. في نهاية الفصل الخامس، سأعود إلى مسألة ما الّذي يجلبه مستوى العملية العصبية إلى المتعضيات في حين لا تفعل المستويات الأخرى ذلك.

نلمسُ أهميةً كبيرة في ما تجلبه المشاعر إلى ميدان العقل. إنّ المشاعر الواعية هي أحداث عقلية بارزة تلفت الإنتباه إلى العواطف التي ولّدتها، وإلى الأشياء التي أثارت هذه العواطف. عند

الأفراد الحائزين على ذات أوتوبيوغرافية [سيَرية ذاتية] – ومعنى الماضي الشخصيّ والمستقبل المتوقّع يُعرف أيضًا من حيث هو وعي ممتد – فإن حالة المشاعر تحفّز الدماغ على معالجة الأشياء والعواطف المتصّلة بالعواطف بشكلٍ *ملحوظ*. ويمكن، عند الضرورة، مراجعة وتحليل العملية التي يُقدّر انها قادت إلى عزل الشيء وإستهلال العاطفة. زدعلى ذلك، تستدعي المشاعر ملاحظة نتائج الموقف القائم: ما الّذي على وشك أن يقوم به ذلك الشيء الّذي حرّض العاطفة ؟ كيف أثّر الشيء المسبِّب على الشخص الّذي شعر؟ ما هي أفكار هذا الشخص الآن؟ بحصولها ضمن إطار اوتوبيوغرافيّ تولّد المشاعر اهتمامًا لدى الأشخاص الّذين يختبرونها. الماضي، الحاضر والمستقبل المتوقّع تُمنَح أهميةً مناسبة وفرصةُ أفضل من أجل التأثير على الاستدلالِ وعملية إتخّاذ القرار.

متى ما عرفت الذاتُ المشاعرَ داخل المتعضّي الّذي يعالجها، تحسّن هذه المشاعر وتوسّع من عملية إدارة الحياة. وتوفّر الآلية الكامنة خلف المشاعر التصحيحاتَ البيولوجية الضرورية من أجل البقاء بمنحها معلومات مباشرة و مميّزة عن حالة كلّ مكوّنات المتعضّي وفي كل لحظةٍ. وتسمُ المشاعرُ الخرائط العصبية ذات الصلة بعلامةٍ تقول :"لاحظ ذلك!"

يمكنن أن نلخّص ما سبق بالقول أن المشاعر ضرورية لأنها تعبير عن المستوى العقلي عن العواطف وما يكمن خلفها. لا نجد دمجًا كافيًا للحاضر، الماضي، وللمستقبل المتوقَّع إلاّ على المستوى العقليّ للعمليات البيولوجية، وبإنكشاف كامل للوعي؛ فقط عند هذا المستوى يصبح من الممكن للعواطف أن تبتكِر، عن طريق المشاعر والاهتمام الّذي يبديه الفرد لذاته. يتطلب الحل الفعلي للمشاكل اللاقياسية تلك المرونة والتجميع عالي القدرة للمعلومات التي يمكن للعمليات العقلية وللاهتمام العقلي الّذي تقدمه المشاعر توفيرهما.

تختلف عملية التعلّم والإستعادة الكفوءة عاطفيًا للأحداث مع المشاعر الواعية عمّا تكونه من دون مشاعر. تحسّن بعض المشاعر التعلّم والتذكّر، وبعضها الآخر، المؤلمة منها بالأخص، تشوّش التعلّم و، بشكلٍ وقائيّ، تكبح التذكّر. بشكلٍ عام، تساعدة ذاكرة الحالات الّتي تمّ الشعور بها، بشكلٍ واعٍ أو لا، على تجنّب الأحداث المرتبطة بمشاعر سلبية و على السعي نحو الحالات التي قد تسبب مشاعر إيجابية[108].

علينا ألاّ نتفاجأ بكون الماكينة العصبية الكامنة تحت المشاعر قد سادت بثباتٍ خلال التطوّر. ليست المشاعر زائدة عن اللزوم، وكلّ القيل والقال حولها ينقلب رأسًا على عقبٍ ليجعل

منها نافعة جدًا. ليس من السهولة أن نثق بالمشاعر من حيث هي فيصل الخير والشرّ. إنّها مسألةُ إكتشاف للظروف التي تجعل من المشاعر فيصلاً بالفعل، ومن إستخدام الادغام السببيّ *للظروف و المشاعر* دليلاً على السلوك البشريّ.

5. جسد، دماغ وعقل

الجسدُ والعقل

هل الجسدّ والعقل مختلفان أم هما شيءٌ واحدٌ؟ إن لم يكونا شيئًا واحدًا، فهل هما مكوّنان من جوهرين مختلفين أم من جوهرٍ واحد؟ وإن كانا جوهرين، هل يسبق جوهر العقل جوهر الجسد ويكون السبب في وجوده والدماغ، أم يأتي الجسد والدماغُ أولاً ويسببان ظهور العقل؟ ومن ثمَّ، كيف يتآثر هذان الجوهران؟ الآن، وبما أننا نعلم بعض التفاصيل حول اشتغال الدارات العصبية، فكيف يرتبط تنشيط هذه الدارات بالعمليات العقلية الّتي يمكننا استبطانها؟ تلك هي بعض المسائل الأساسية المتعلّقة بما يدعي مشكلة الجسد - العقل، وهي مشكلة يبدو حلّها مركزيًا من أجل أن نفهم من نحن. ومن وجهة نظر العديدين من العلماء والفلاسفة، هذه المشكلة إمّا زائفة أو تمّ حلّها، ولكن، وبما يتعلق بالأسئلة المطروحة آنفًا، نلقى توافقًا عامًا حول مقولة أن العقل هو عملية وليس شيئًا. وحين يندفع هؤلاء العقلانيون، المفكّرون والمتعلّمون رافضين تلك القضايا المذكورة، فإنّ أقل ما يمكن قوله أن الحلّ المطروح إمّا ليس مرضيًا أو لم يتم تظهيره بشكلٍ مرضي.

حتّى مؤخرًّا، بقيت مشكلة الجسد - العقل موضوعًا فلسفيًا، خارج مملكة العلوم التجريبية. وحتّى في القرن العشرين، حين بدا أن الوقت قد حان لكي تعالِج علوم العقل والدماغ هذه المشكلة، إرتفعت حواجزٌ كثيرة أمامها – من ناحية المنهج و المقاربة – ما أدّى إلى توقّف المعالجة هذه. فقط خلال العشرية الأخيرة عادت المشكلة ودخلت إلى جدول الاعمال العلميّ، بشكلٍ كبير كجزء من التحقيقات حول الوعيّ. مع ذلك، من الجدير أن نذكر أن الوعي والعقل ليسا مترادفين: تحديدًا، يعني الوعي العملية حين يكون العقل مصبوغًا بمرجعية ندعوها الذات، وعارفًا بوجوده الخاص وبوجود الأشياء حوله. لقد شرحتُ، في موضعٍ آخر، إنّه في بعض الشروط العصبية يبدو واضحًا أن عمليات العقل تستمر، ولكن الوعي يتدهور. على أيةِ حال، الوعي والعقل الواعي أمران مترادفان[109].

أوضحت الدراسات المعرفية والعصبية بعض نواحي لغز الجسد – العقل هذا، ولكن التأمّلات المستخلصة من ذلك بقيت موضع جدالٍ بحيث لا يوجد محفّز قويّ للتفكير بالأدّلة الموجودة أو للبحث عن دليلٍ جديد. إنّه لأمرٍ مؤسف، ذلك أنّه، وبالرغم من وجود عوائق، نلحظُ تقدمًا، ويوجد المزيد من المعرفة المتوفرة

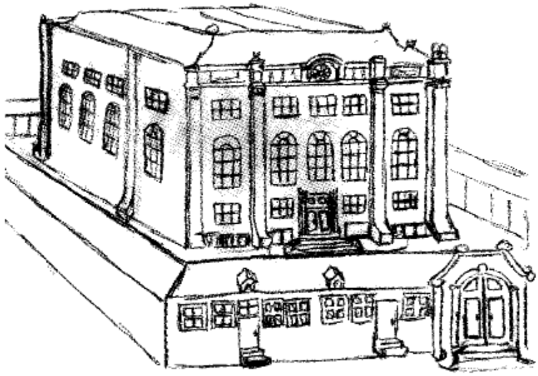
أمام العين، ولكن فقط إذا كانت العين متحررة نظريًا لكي تستطيع أن ترى[110].

في هذا الموضع من الكتاب، يبدو مناسبًا أن نتناول مشكلة الجسد – العقل لسببين: الأول، أنّ الكثير ممّا اقترحته في ما خصّ الشعور والعاطفة وثيقُ الصلةِ بالنقاش الدائر حول هذه المشكلة. الثاني، أن هذه المشكلة تتبوّأ مكانًا مركزيًا في تفكير سبينوزا. وبالفعل، قام هذا الأخير بالكشفِ عن جانبٍ من الحلّ، وهي إمكانية، على نحوٍ صحيح أو خاطىءٍ، عزّزت من قناعاتي حول هذه القضية. وربما من أجل هذا السبب بالتحديد أتذكّرُ المكان والزمان حين عززت نظرتي الحالية حول المشكلة. المكان كان مدينة لاهاي Hague والمناسبة كانت محاضرات هاغنز Huygens lecture التي كنتُ مدعوًّا إليها.

لاهاي، 2 ديسمبر 1999

سُميَّت محاضرات هاغنز السنوية نسبةً إلى كريستيان هاغنز. لم يُعنى هاغنز بالعقل والدماغ أو بالفلسفة، فيما إنكبّ على علم الفلك و الفيزياء. إهتّم بالفضاء فاكتشف حلقات زحل، وقدّر المسافة بين الأرض و النجوم. وإهتمّ بالوقت، واخترع رقّاص

الساعة، كما بالضوء، حيث يعود مبدأ هاغنز إلى نظريته حول موجة الضوء. وبإعتباره أشهر علماء هولندا عبر التاريخ، فهو شفيعُ محاضراته السنوية، والتي تُعنى بكل حقول العلم. وبالمناسبة، كان والدُ هاغنز، كوستنتين، شهيرًا بقدر ولده، إذ تنوعت معارفه بين اللغة اللاتينية، الموسيقى، الرياضيات، الأدب، التاريخ، والقانون؛ كان متذوّقًا للفنون، وشاعرًا، ورجل دولةٍ (أمين سر حاكم عام هولندا، كما كان والده قبله). وقد نجمَ عن اصراره على ملء قصور الدولة باللوحات المناسبة أن أصبحَ سيّدًا في الفنون. وكان إكتشافه الأعظم: رمبراندت.



إنّ موضوع محاضرتي هو الأساس العصبيّ للعقل الواعي، وأخذا بالإعتبار ما أنتجته من أفكار طوال سنينٍ سابقةٍ، تبيّن لي أن الصلة مع هاغنز كانت مناسبة جدًا. فقد كان هذا

الأخير وسبينوزا معاصريْن، إذ وُلدا بفارق ثلاث سنواتٍ وتجاورا لفترةٍ من الزمن. طبعًا، عاش هاغنز مرفهًّا وليس في شقّة مستأجرة كما سبينوزا، إذ إمتلكت عائلة هاغنز قصرًا ضخمًا في مقاطعةٍ شاسعة بين لاهاي وفووربورغ Vooburg. ولكنّ الإثنين تنشّقا الهواء عينه وإلتقيا في عدّة مناسباتٍ. إبتاع هاغنز عدساتٍ من سبينوزا وكتب إليه بين فترة وأخرى متسائلاً حول قضايا فلسفية. بينما اطلّع سبينوزا على أعمال هاغنز وحاز على نسخاتٍ من كتبه. بقيَت، على الأقل، ثلاث رسائل من سبينوزا إلى هاغنز، مؤرّخةٌ في العام 1666، وهي ردود من الأول على أسئلة الثاني حول أحادية الله. تبادلا الرسائل بصيغة "السيّد الجليل"، وخلف اللهجة الهادئة هذه يشعر المرء بأكثر من الجفاء. يذهب سبينوزا مباشرةً صوب الموضوع من دون إضاعة أيّ وقتٍ بالمجاملات. ويمكن القول أن العوالم المتنابذة بين اليهودي الهولندي و الارستقراطيّ الهولندي المتأصّل القائمة قد تم تجسيرها من خلال فضوليتهما المعرفية، ولكن شخصيتهما بدت مختلفة جدًا بحيث منعت إمكان قيام أي صداقة بينهما. على كل حال، كلّ منهما عرف قدر الآخر: هاغنز كان على دراية بأن سبينوزا لم يكن متسامحًا مع ديكارت، وهذا كان معلّم هاغنز في وقتٍ ما - إذ كان ديكارت قد لقّن الشاب كريستيان ألغاز الجبر- وهذا ما لاءم هاغنز وناسبه لأنّه كان قد ترعرع متحررًا تقريبًا من أفكار ديكارت تمامًا كسبينوزا،

ولو أن أسباب الإثنين مختلفة. قد يكون هاغنز قد أشار إلى سبينوزا بأنه "يهودي فووبورغ" أو "الاسرائيلي الخاصّ بنا"، ولكنه اعتقد أن العدسات التي صنعها سبينوزا كانت الأفضل، وهو احترم أفكاره بما يكفي لكي يراه منافسًا ممكنًا له. من باريس حيث عاش لفترات طويلة متجنّبًا، بكلّ راحةٍ، معظم الحروب التي تورّط بها الهولنديون، أمكن لهاغنز أن يراسل أخاه ناصحًا إياه ألاّ يشارك سبينوزا الأفكار الجديدة. لقد كانت البرودة متبادلة!

تجري محاضرة هاغنز في الكنيسة الجديدة، وهي معلَمٌ بارزٌ من القرن السابع عشر، بعيدةً بضعة ياردات عن مدفن سبينوزا وبضعة مبانٍ عن بيته[111]. حينما كنت اتكلّم انصرف عقلي إلى أفكار سبينوزا، المدفون تقريبًا خلفي، الى اليسار، والّذي كان يسكن خلفي إلى اليمين. أكملتُ واجبي وأنهيت قراءاتي المخطط لها، ولكنّ أفكاري كانت منجذبة إلى فكرة أن سبينوزا ربّما هو من شكّل بعض استنتاجاتي التي كنت اقدّمها.

الجسد الخفيّ

من السهولة أن نفهم لما قد يظهر العقلُ على شكلِ لغزٍ غامضٍ وعصيّ. إن العقل، ككيانٍ، يبدو مختلفًا عن الأشياء الأخرى التي نعرفها، بالتحديد عن الأشياء التي تحيط بنا وعن أعضاء

أجسادنا الخاصة التي نراها ونلمسها. تثير مسألة الجسد-العقل المسمّاة "ثنائية الجوهر" هذا الإنطباع الأول: الجسد وأجزاؤه مادة فيزيائية بينما العقل ليس كذلك. وحين يشاهدُ جزءٌ من عقلنا الأجزاءَ الأخرى، بشكلٍ طبيعيّ و بسيط، ومن دون أن يتأثّر بالمعرفة العلمية المتوفرة ، تبدو المشاهدةُ هذه كأنّها تكشف القناع عن المادة الممتدة فيزيائيًا والتي تكوّن الخلايا، الأنسجة وأعضاء أجسادنا. هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، تكشف هذه المشاهدة عمّا لا يمكن لمسه – المشاعر المتشكّل بسرعة، الخواطر و الأصوات التي تشكّل الأفكار في عقولنا، والتي نسلّم، من دون أيّ دليلٍ مع أو ضد، بأنّها جوهرٌ مختلفٌ، من طبيعة غير مادية.

هذه الرؤية لمسألة الجسد-العقل والتي تنتج عن تلك التأمّلات المتّسقة تضع العقل في جهة و الجسد مع الدماغ في جهة أخرى معاكسة. لم تعد هذه الرؤية، حول ثنائية الجوهر، تيارًا سائدًا في العلوم أو في الفلسفة، بالرغم من كونها، على الأرجح، الرؤية الأكثر انتشارًا الّتي يتبنّاها عامة الناس في أيامنا.

في خطوطها الكبرى، الرؤية الثنائية للجوهر تُنسب إلى ديكارت الّذي ساهم في الرفع من شأنها، في وقتٍ تصعب مصالحتها مع إنجازاته العلمية الملفتة للإنتباه. لقد إحتلّ ديكارت طليعة

معاصريه في طريقة تصوّره للآليات المعقّدة في إشتغال الجسد، إذ قطع مع التقليد المدرسي scholastic حين نسجَ عالمين معًا بقيا منفصلين حتى زمانه: عالم المادة اللاعضوية و عالم الحياة العضوية. و كان أيضًا بارعًا في تصوّرالعمليات المعقّدة للعقل، مشدّدًا على أن العقل والجسد يؤثّران في بعضهما البعض. ومع ذلك لم يقترح أبدًا ذرائعَ وجيهة لكيفية قيام هذه التأثيرات المتبادلة بعملها. وبنوعٍ من الإلتفاف الغريب افترض ديكارت أن الجسد والعقل يتآثران ولكنه لم يفسّر يومًا كيف يمكن لهذا التآثر أن يجري إلاّ بالقول أن الغدة الصنوبرية pineal gland كانت قناة هذه التأثيرات المتبادلة. وهذه الغدّة هي بنية صغيرة موجودة في الخط الناصف السفلي من الدماغ، ويتبيّن أنّها بالكاد تتصّل وتقوم بالوظيفة الخطيرة التي نسبها ديكارت إليها. على الرغم من رؤية ديكارت المطوَّرة حول عمليات الجسد العقلية والفيزيولوجية، والتي فصل في ما بينها، إلاّ أنّه ترك الترابطات المتبادلة بين العقل والجسد غير محدّدةٍ أو جعل منها غير قابلة للتصديق. وقد رأت أميرة بوهيميا إلزابيث، وهي تلميذة بارعة ولطيفة، و بوضوحٍ، ما رأيناه نحنُ واضحًا أيضًا: من أجل أن يقوم كلٌّ من الجسد والعقل بعملهما، بحسب ما تصوّر ديكارت، عليهما أن يتّصلا. ومع ذلك، مع إفراغه العقل من أي محتوى مادي، جعل ديكارت من هذا الإتصال مستحيلاً.[112]

وبالنسبة لديكارت، يفتقر العقل إلى الإمتداد المكاني و التركيب المادي، وهما سمتان سلبيتان تجعلان من العقل قادرًا على الإستمرار حتّى بعد فناء الجسد. لقد كان العقل جوهرًا، ولكنّه جوهرٌ غير مادي؛ ومهما ظنّ ديكارت يبقى هذا التوصيف، بكل الأحوال، غير دقيق. وربّما آمن ديكارت بهذا التوصيف إلى هذا الحدّ أو ذاك، وربّما انقلب على ايمانه هذا، ما لا يعني أبدًا أن إنقلابه هذا يصبّ في خانة النقد؛ بل بكلّ بساطةٍ يعني ذلك أن ديكارت كان شكّاكًا ومتناقضًا حول مفهومٍ لطالما استحوذ على البشر، متعلّمين كانوا أو جهلة، اذكياء أو أغبياء، و أودى بهم بالتحديد نحو اللايقين والتناقض. بشريّ جدًا و مع ذلك غير مفهومٍ بالمرّة! لكنْ، صدّقوا أو لا، أتاحت حقيقة توصيفه الّذي أعاد فيه التأكيد على خلود العقل الشخصي [أتاحت] لديكارت أن يفرّ من اللعنة التي ستصيب سبينوزا بعد سنوات قليلة. وعلى عكس سبينوزا، لطالما كانت ديكارت مشهورًا جدًا في عصرنا، بين الفلاسفة والعلماء والرأي العام، و لو من دون تعاطفٍ دائم.

على الرغم من عيوبها العلمية، تلتقي رؤية ديكارت مع الذهول والتساؤل اللذين يحقّ لنا امتلاكهما في ما خصّ عقولنا. لا يوجد أدنى شكّ أنّ عقلنا مميّزٌ، مميّزٌ في قدرته الكبيرة على الشعور بالمتعة والألم وعلى وعي متع وآلام الآخرين، في قدرته على

الحب والمسامحة، في ذاكرته الهائلة، وفي قدرته على الترميز والسرد، على منح اللغة والنحو، في قوّته على فهم الكون وخلق عوالم جديدة، كما في السرعة والسهولة على معالجة ودمج المعلومات من أجل حلّ المشاكل. ولكنّ هذا الذهول والتساؤل حول العقل البشري يتوافقان مع وجهات نظر اخرى عن العلاقة بين الجسد والعقل لا تجعل من وجهة نظر ديكارت صحيحة أكثر.

وكما أصبحت الملاحظات ممكنة بفضل الإستبطان introspection فإنّها تزداد معرفةً بفضل الوقائع العلمية الحديثة للبيولوجيا العصبية، ما يُفقد الرؤية الثنائية للجوهر في مسألة العقل والجسد جاذبيتها. لقد تكشّفت الظاهرة العقلية عن كونها تعتمد بشكلٍ عميق على العديد من عمليات أنظمة الدارات الدماغية. مثلاً: يعتمد البصر على مناطق عصبية متعددة موجودة على طول المسارات من الشبكية إلى نصف الكرة المخّية. حين يتم اقتلاع إحدى هذه المناطق ينعدم البصر كلّياً. الأمر عينه يحصل في ما يخصّ السمع، الشمّ، الحركة والكلام، أو أيّ عمل عقليّ آخر يمكن تصوّره. حتّى أنّ اضطرابًا بسيطًا في نظامٍ عصبيّ معيّن سوف يؤدّي إلى تبدّلات كبيرة على مستوى الظاهرة العقلية. كما أنّ الإضطرابات التي سببها ضررٌ ما في الخلايا العصبية لمناطق عصبية محددة (كما يحصل في حالة الجلطة التي تسبب آفاّت

مرضية) تغيّر بشكلٍ واضحٍ محتوى و شكل المشاعر و الأفكار. كما سبق ورأينا، يحدث الأمر عينه على اثر التعديلات الكيميائية و العقاقيرية في عمل الخلايا العصبية تلك بسبب التغيّر في جرعةِ عقارٍ ما، حتّى في حال انعدام وجود ضررٍ دائم. هكذا، و ربّما بالنسبة لغالبية علماء الدماغ والعقل، لم تعد واقعة أنّ العقل يعتمد بشكلٍ كبير على عمل الدماغ موضع نقاشٍ، ويمكننا أن نشيد بتبصّر أبوقراط[i] الّذي كان له الرأي عينه منذ بضعة آلاف من السنين.

يبدو الكشفُ عن صلةٍ بين الدماغ والعقل، وتبعية هذا لذاك، خبرًا جيدًا، ولكن علينا أن نعترف أننا لم نحلّ مسألة العقل-الجسد بشكلٍ يرضينا، وأن العملية هذه تعترضها عقبات كثيرة، كبيرة وصغيرة. إحدى العقبات يمكن تخطّيها بتبدّل بسيط في المنظور، إذ ترتبط العقبة هذه بموقفٍ دقيق: بينما يتم الترحيب بالمزاوجة العلمية الحديثة بين العقل والدماغ، لا يتمّ ذلك في ما خصّ القسمة الثنائية بينهما. لا تقوم هذه المزاوجة سوى بتغيير موقع القسمة. وفي وجهات النظر الحديثة الأكثر شعبية وإنتشارًا، يسير العقل والدماغ جنبًا إلى جنب في إتجاهٍ،

[i] ابوقراط أو هيبوقراطس Hippocrates (460 ق.م – 370 ق.م) طبيب وفيلسوف يوناني شهير ب"أبو الطبّ" لمساهماته الرائدة في هذا المجال، وتأسيسه مدرسة ابوقراط في الطب.

ومن ناحية أخرى يسير الجسد (وهو المتعضّي الكبير الّذي يحوي الدماغ) في الإتجاه الآخر. وهكذا إذ تفصل القسمة بين الدماغ والجسد المخصوص body - proper، يصبح تفسير كيف يرتبط العقل والدماغ أصعب طالما أن الجزء الدماغي من الجسد منزوعٌ عن الجسد المخصوص. للأسف، يستمر هذا الإطار الثنائي بالعمل كأنه حجابٍ فاصلٍ لا يسمح لنا برؤية ما هو واضح أمام أعيننا، بالتحديد الجسدَ في معناه الأوسع و علاقته بصناعة العقل.

يذكّرنا هذا الجسد الخفيّ برجل تشسترتون[i] الخفيّ[113]. وربّما تعلمون قصّته: ارتكُبت جريمة قتل متوقّعة داخل منزلٍ بينما كان أربعة رجالٍ يحرسونه ويراقبون بدقة من يدخل ومن يخرج. هذه الجريمة المتوقّعة تمامًا لم تكن لغزًا؛ لقد كان اللغز أن الضحية كان وحيدًا والمراقبون الأربعة كانوا مصرّين على رأيهم أن لا أحد دخل أو خرج من المنزل. ولكن كلّ ما حصل كان كذبة كبيرة: دخل ساعي البريد الى المنزل، فعل فعلته، وغادر المنزل أمام الجميع؛ لا بل أنّه ترك وراءه آثار أقدامه على الثلج. بالطبع، قام الجميع بالبحث عن ساعي البريد هذا ومع ذلك ادّعوا أنهم لم يروه:

---

[i] **جيلبرت كايث تشسترتون Gilbert Keith Chesterton (1874-1936) كاتب، لاهوتي وناقد أدبي وفيلسوف انكليزي. المقصود هنا بالرجل الخفي عنوان رواية بوليسية لشسترتون تحمل الاسم نفسه.**

ببساطة، هو لم يلاءم النظرية التي وضعوها حول المجرم المتوقّع...بحثوا ولكنّهم لم يروا.

أخشى أن شيئًا شبيهًا بذلك كان يحصل في ما خصّ الغموض الّذي يلفّ مسألة العقل-الجسد. يقتضي الوصول إلى حلّ، ولو كان حلاً جزئيًا، تغييرًا في المنظور، وأن نفهم أنّ العقل ينشأ عن الدماغ الموجود في الجسد المخصوص الّذي يتآثر معه، وأنّ توسّط الدماغ يسمح للعقل بأن يرتكز على الجسد المخصوص، وأن العقل قد بقيَ خلال التطوّر لأنه يساعد على الحفاظ على الجسد المخصوص؛ كما أنّ العقل ينشأ عن أو في النسيج البيولوجي – الخلايا العصبية – التي تتشارك الصفات عينها التي تحدد الأنسجة الحيّة الأخرى في الجسد المخصوص. التغيير في المنظور لن يحلّ بحد ذاته المسألة، ولكنني أشكّ إن كان بالإمكان أن نصل إلى الحلّ من دون هذا التغيير.

فقدان الجسد وضياع العقل

أحيانًا ينصدم المرءُ بالملاحظات التي تغيّر من طريقة تفكيره، وأحيانًا قد يحصل العكس وقد ينصدم بكيف يمكن لتفكيره القائم أن يغيّر من دلالة ملاحظته السابقة. وأحيانًا أخرى، إن كان

المرءُ محظوظًا، يمكن لإعادة تقييم الملاحظة أن تركّز بالفعل تفكيره. اختبرتُ هذا الوضع الأخير بمشاهدتي لمريضٍ حين كنت طبيبًا شابًا: مشيرًا إلى جسده بشكلٍ دقيق، وصف المريضُ إحساسًا غريبًا كان يبدأ في حفرة معدته ومن ثمّ يرتفع إلى صدره حيث يبدأ بفقدان الشعور بجسده دون هذا المستوى كما لو كان تحت تأثيرِ تخديرٍ موضعيّ. هذا الشعور الشبيه بالتخدير أمكن له أن يستمر بالصعود، وحين يصل إلى حلقه يفقد المريض وعيه.

كان المريضُ يصف المسار الصعودي للتشوّه في الاحساس بجسده وقد لحِقَ ذلك مباشرةً فقدانٌ تامّ للوعي حين تحوّل الشعور بجسده من كونه غريبًا إلى إختفائه كلّيًا. لحظات قليلة بعد هذه الاحداث الخطيرة، المجهولة من طرفه، يتعرّض المريض لإهتزازٍ بسبب التشنّج كجزءٍ من نوبة الصرع الّتي أصابته. وبعد دقائق معدودة، ينتهي التشنّج ويعود المريض إلى حياته الطبيعية.

من الشائع لدى المصابين بالصرع أن يصفوا إحساساتٍ غريبة في بداية التشنّجات، وتُسمّى هذه الظاهرة *الأورة auras*، والأورات التي تبدأ، كما في حالة المريض آنفًا، في المنطقة القريبة من المعدة أو عند أسفل الصدر، يُطلق عليها اسم "شُرسوفية" epigastric aura، وهي من أكثر أشكال هذه الظاهرة إنتشارًا ، إذ

غالبًا ما يصف المرضى صعودَ الاحساس الغريب من البطن صوب العنق، مصحوبًا بفقدانٍ للوعيّ.[114]

لماذا أصبحت قصة هذا المريض اللامتوقعة مهمّة بالنسبة لي؟ لأن، وبعد أن حصلت بوقتٍ طويل، أثارت حالته هذه الإمكانية: حين تتوقف خرائط الجسد الدماغية عن عملها، يتوقّف العقل عن العمل أيضًا. بمعنى أو بآخر، إزالة الحضور العقلي للجسد تبدو شبيهةً بسحب البساط من تحت العقل. قد يترتب على الإنقطاع في مجرى تمثيلات الجسد التي تدعم شعورنا وحسّنا بالإستمرار، في حد ذاتها، تعطيلٌ كلّيّ لأفكارنا حول الموضوعات والمواقف[115].

لاحقًا، بعد عدّة سنين، وبمشاهدة مريضٍةٍ مصابةٍ بحالةٍ معروفة بعمهِ أقسام الجسد asomatognosia، بدا أن الإفتراض المذكور أعلاه وجيهًا أكثر. في حالة هذه المريضة ، تلاشت تدريجيًا بعض أحاسيس الجسد، وليس كلّها، في فترة زمنية وجيزة واستمرت هكذا لبضعة دقائقَ، ومع ذلك بقيَ العقل والذات غير معطّلين. إختفى الإحساس بقوامِ الجسد وجهازه العضلي في الجذع والأطراف، ولكن لم يختف الإحساس بباطن الجسد، وبقيت دقّات القلب، بالأخص، محسوسةً. ظلّت المريضةُ صاحيةً ومتيّقظةً خلال تجلّي هذه الوقائع المزعجة، بالرغم من أنّها لم

تستطع دفع نفسها إلى الحركة ولم يكن بإستطاعتها أن تفكّر سوى بحالتها الغريبة. الواضحُ أنّ حالة عقلها كانت بالكاد طبيعية، ولكنّها كانت واعية بما يكفي كي تلاحظ وتصف ذلك الإضطراب. وقد عبّرت المريضة بوضوحٍ شديدٍ:" لم أفقد الحسّ بوجودي، *لقد فقدت جسدي فقط*"، على الرغم من أنه، حتى نكون دقيقين، كان عليها أن تقول أنّها قد فقد جزءًا من جسدها. تبرِز الحالة هذه إمكانية أنّه طالما هناك بعض تمثيلات الجسد – طالما أن البساط لم يُسحَب بالكامل من تحت العقل – يمكن تفسير عملية العقل، كما أنّها تبرز إمكانية أن بعض تمثيلات الجسد يمكن أن تحوز قيمة أرقى من غيرها كي تفسّر العقل، بالأخص، تلك التي تتصّل بداخلية المتعضّي، وبالتحديد الأحشاء والوسط الجوّاني. بالمناسبة، ما تسبب بحالة المريضة كانت سكتة دماغية عطّلت إحدى المناطق الجسدية الحسية للنصف الأيمن من الدماغ وشكّلت مساحة صغيرة من الأنسجة الدماغية المجروحة. كانت هذه الأنسجة في أصل النوبة الصرعية الموضعية، وموجة كهربائية متقدمة شوّشت عمل بعض دارات خرائط الجسد مؤقتًا. نعتقد أن تلك الخرائط في SII، SI، وربَما في التلفيف الزاوي الأيمن right angular gyrus أصبحت معطّلة خلال النوبة،ولكنّ الجزيرة insula نجت من ذلك.

طوال سنينٍ، أثارت إهتمامي الحالات النادرة التي تتبدّل فيها بعض أجزاء الجزء بسبب المرض. لو تعرّض طرفٌ واحدُ فقط، أمكن للأمور أن تصبح غريبة. مثلاً، طرفٌ تعرضت أعصابه للبتر يمكن للشعور به أن يصبح مشوّهًا، في غير محله، أو منعدمًا؛ وطرفٌ مبتورٌ قد يُشعَر أنه موجود بفضلِ وهمٍ ما. ليست بحالةٍ جيدة، ولكنّها مقبولة على المدى الطويل![116] على أيةِ حال، حين يتشوّشُ إدراكُ أقسامٍ *متزايدة* من الجسد ، حتّى ولو مؤقتًا، يكون الثمن الّذي يدفعه المريض بعض حالاتِ الإرتباك العقليّ. الآلية الضمنية المشاركة في إحدى مناطق الإستشعار الجسديّ أو المسارات الجسدية ذات الصلة التي ناقشناها في الفصل الثالث. والحالات المتصلة بمسارات الاستشعار الجسدي هي الأندر بين الكل لأن هناك الكثير من الممرات المؤشِّرة من الجسد إلى الدماغ التي قليلاً ما تعطّلها الاضطرابات العصبية[117] .

لا أستطيع القول أنّ منظوري الحالي لمسألة الجسد-العقل قد ارتكزت على الوقائع الآنفة الذكر، ومع ذلك، فإنّ هذه الوقائع جنبًا إلى جنب الإكتشافات حول المشاعر والعواطف المعروضة في الفصلين الثاني والثالث، ركّزت تفكيري وساعدتني على أن

أصالح الشأن النظري مع الواقع البشري. بإختصار، يشير الشأن النظري إلى التالي:

- يشكّل الجسد (الجسد المخصوص) والدماغ متعضيًا مندمجًا، متآثراً بشكل كاملٍ ومتبادل عن طريق المسارات العصبية والكيميائية.

- يهدف النشاط الدماغيّ ، بالدرجة الأولى، إلى المساعدة على ضبط عملية حياة المتعضيّ من خلال كلّ من تنسيق عمليات الجسد المخصوص الداخلية، وتنسيق التآثر بين المتعضيّ ككلّ وبين المظاهر الفيزيائية والاجتماعية للبيئة.

- يهدف النشاط الدماغيّ، في المقام الأول، إلى حفظ البقاء وتأمين العافية؛ ويمكن لدماغٍ مجهزٍ بهدفٍ أساسيّ كهذا أن يعمل على كلّ ما هو ثانوي من كتابة الشعر إلى تصميم سفن الفضاء.

- في متعضيات معقّدة كتلك التي نملكها، تعتمد عملية التنظيم الدماغيّ على خلق وتحوير الصور العقلية

(الأفكار و التصوّرات) داخل تلك العملية التي نسمّيها عقلاً.

- أن القدرة على إدراك الأشياء والأحداث، الموجودة خارج المتعضّي أو داخله، تتطلّب وجود الصور. ومن الأمثلة على الصور المرتبطة بالخارج نذكر الصور البصرية، السمعية، اللمسية، الشمّية والتذوّقية. الألم و الدوخة هما مثلان عن الصور من الداخل. ويتطلب تنفيذ الإستجابات الآلية والمتعمَّدة صورًا، وكذلك التوقّع و التخطيط للمستقبل.

- أن الوصل البيني الشائك بين أنشطة الجسد المخصوص وبين الأنماط العقلية التي نسمّيها صورًا تشتمل على مناطق دماغية محددة تستخدم دارات من العصبونات من أجل أن تشكّل أنماطًا عصبية دينامية ومستمرة ترتبطُ بأنشطة مختلفة في الجسد، أي إنّها، في الحقيقة، تخرّط تلك الأنشطة عند حدوثها.

- ليس التخريط عملية سلبية بالضرورة، بل أنّ البنى حيث تتشكّل الخرائط لها وقعها الخاص على التخريط وتقع تحت تأثير بنى دماغية أخرى.

ولأن العقل ينشأ في دماغٍ مندمجٍ في متعضٍّ، يكون العقل هذا جزءًا من جهازٍ جيّد الحبكِ. بكلمات أخرى، الجسد، الدماغ والعقل هي تمظهرات لمتعضٍّ واحد. وبالرغم من إستطاعتنا أن نشرّحها تحت المجهر، لأغراضٍ علمية، ولكنّها في الواقع لا تنفصل عن بعضها البعض في ظروفٍ طبيعية قائمة.

احتشادُ صورِ الجسد

من منظوري الخاص، ينتِج الدماغُ نوعين من صور الجسد: الأولى أدعوها *الصور من البدن flesh*، وهي تتألّف من صور داخل الجسد، وتترسم، مثلاً، من خلال الأنماط العصبية التخطيطية التي تخرّط بنية و حالة الأحشاء كالقلب، والأمعاء و العضلات، إلى جانب حالة الكثير من المُعامِلات الكيميائية chemical parameters في داخل المتعضّي. الثانية هي الصور الخاصّة بأجزاءٍ محددة من الجسد، مثل الشبكية خلف العين و القوقعة cochlea في الأذن الداخلية. اسمّي هذه الصور *صور المجسّات الحسيّة الخاصّة images from special sensory probes*. إنّها صورٌ ترتكزُ على حالة النشاط في تلك الأجزاء من الجسد حين تخضع للتبدّل بفعل الأشياء التي ترتطم فيزيائيًا بتلك الأجهزة من خارج الجسد. في

حالة الشبكية والقوقعة، تباعًا، تشوّشُ الأشياء أنماطَ موجات الضوء و الصوت، وتلتقط الأجهزة الحسّية النمطَ المعدّل. في حالة اللمس، سوف يغيّر المسُّ الآليّ الجاري لشيءٍ ما على تخوم الجسد من نشاط نهايات الأعصاب الموزّعة عند هذه التخوم بحد ذاتها، أي الجلد. وتكون صور الشكل والتركيبات اشتقاقات من هذه العملية.

تكون إمتدادات التغيّرات الجسدية التي يمكن تخريطها في الدماغ متنوّعة بشكل كثيف، وهي تتضمن التغييرات المجهرية microscopic التي تجري على مستوى الظاهرة الكيميائية والكهربائية (كما في الخلايا المتخصصة للشبكية التي تستجيب إلى أنماط الفوتونات التي تحملها أشّعة الضوء)، كما أنّها تتضمن تغييرات جهرية macroscopic يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة (كتحريك الأطراف) أو يمكن الإحساس بها عند طرف الإصبع (نتوء في الجلد).

في أيٍّ من صور الجسد تلك، أكانت من البدن أو من المجسّات الحسية الخاصة، فإنّ آلية الإنتاج هي نفسها. في البدء، يترتب على النشاط في بنى الجسد تغيّرات جسدية بنيوية مؤقّتة؛ ثمّ يقوم الدماغ بتكوين خرائطَ لهذه التغيّرات الأخيرة في عدد من المناطق الدماغية بمساعدة الإشارات الكيميائية المنقولة عبر

مجرى الدم، وإشارات كهروكيميائية منقولة من خلال مسالك العصب؛ وفي النهاية، تصبح الخرائط العصبية صورًا ذهنية.

في الصنف الأول من صور الجسد، أي الصور من البدن، تحصل التغيّرات على طول مساحتنا الداخلية وتؤشِّر إلى مناطق الإحساس الجسديّ في الجهاز العصبي المركزي من خلال الخلايا الكيميائية ونشاط العصب. في الصنف الثاني من الصور، الصور من المجسّات الحسّية الخاصة، ، تحصل التغيّرات في الأجزاء الجسدية عالية التخصصّ، مثل الشبكية. أمّا الإشارات الناتجة غتُنقَل عبر الروابط العصبونية إلى المناطق الدماغية المخصصة لتخريط حالة ذلك المستقبِل الجسديّ المتخصص specialized body receptor. تتألّف المناطق الدماغية من تشكيلة من العصبونات التي تشكّل حالة نشاطها أو عدمه نمطًا يمكن تصورّه على شكل خريطةٍ أو تمثيلٍ لأيّ حدثٍ كان قد تسبب في حصول النشاط، عند لحظةٍ ما، في مجموعةٍ محددة من العصبونات وليس في غيرها. في حالةِ الشبكية، على سبيل المثال، تتضمن تلك البنى البصرية ذات الصلة النواة الرُكْبية geniculate nucleus (جزء من المِهاد)، الأكيمة العلوية superior colliculus (جزء من جذع الدماغ) واللحاء البصريّ (جزء من نصفي الكرة المخيّة). وتشتمل لائحة أجزاء الجسد المتخصصة : القوقعة في الأذن

الداخلية (ذات الصلة بالصوت)، الأنفاق الهلالية للدهليز الأذني the semi-circular canals of the vestibule الكامنة داخل الأذن الداخلية أيضًا حيث يبدأ العصب الدهليزي (ويتصّل الدهليز الأذني بتخريط موضع الجسد في الحيّز المكانيّ، ويعتمد إحساسنا بالتوازن عليه)؛ نهايات العصب الشمّي في الغشاء المخاطي للأنف (الإحساس بالرائحة)؛ الحُليمات الذوقية gustatory papillae في الجزء الخلفي من اللسان (للتذوّق)، ونهايات العصب الموزّعة في الطبقات السطحية من الجلد (من أجل اللّمس).

أعتقد أنّ الصور التأسيسية في مجرى العقل هي صورٌ من نوع أحداث الجسد، أَحصَلَت هذه في عمق جسدنا أو في بعض الأجهزة الحسّية المتخصصة القريبة من محيطه. أساس هذه الصور التأسيسية هو تشكيلة من خرائط الدماغ، أي تشكيلة من أنماط نشاط العصبون أو إنعدام نشاطه (بإختصار، الأنماط العصبونية) في مناطق حسّية متنوّعة. تمثّل هذه الخرائط الدماغية، وبشكلٍ شاملٍ، بنية وحالة الجسد في وقتٍ محدد، وتتصّل بعض الخرائط بالعالم داخل الجسد، أي بداخلية المتعضّي. هذا في حين ترتبط خرائط أخرى بالعالم الخارجيّ، العالم الفيزيائي المتشكّل من الأشياء التي تتآثر مع المتعضّي عند مناطقٍ محددة من غلافه. في كل الحالات، ما ينتهي

مخرَّطًا في المناطق الحسّية في الدماغ و ما يظهر في العقل، على شكلِ صورٍ، ينتميَ إلى بعض البنى الجسدية، في حالةٍ معيّنة وضمن مجموعة من الظروف[118].

الكفاءة

من الأهمية بمكانٍ أن أصفَ كفاءة هذه الملاحظات الآنفة، وبالأخص الأخير منها. توجد فجوة عميقة في فهمنا الحالي لكيف تصير الأنماط العصبية صورًا عقلية. إن وجود أنماطٍ عصبية دينامية في الدماغ (أي خرائط) متّصلة بشيءٍ ما أو بحدثٍ أمرٌ ضروريّ ولكن لا يكفي كأساسٍ لتفسير الصور العقلية لهذا الشيء أو الحدث. وبإمكاننا أن نصف الأنماط العصبية بإستخدام وسائل التشريح العصبي والفيزيولوجيا العصبية والكيمياء العصبية،ويمكن لنا أن نصفَ الصورَ بإستخدام الإستبطان. أمّا كيف ننتقل من السابق إلى اللاحق فأمرٌ معلومٌ جزئيًا، مع أنّ جهلنا الحالي لا يتعارض مع فرضية أن الصور هي عمليات بيولوجية، ولا ينفي فيزيائيتها. وقد تناولت دراسات متعددة في علوم أعصاب الوعي هذه القضية، ومعظم دراسات الوعي تتمحور في أيامنا هذه على قضية صناعة العقل هذه، وعلى

لغز الوعي الّذي يتضمّن دماغًا يصنع صورًا تتزامن وتتعدّل في ما أطلقتُ عليه إسم "الفيلم داخل الدماغ" [أو الفيلم الدماغيّ movie-in-the-brain]. ولكنّ الدراسات تلك لا تقدّم حلاً للّغز، وأرجو أن أوضّحَ أنّني لا أقدم بدوري حلاً. وحين حاولتُ، مثلاً، في الفصل الثالث، أن أفسّر المشاعر، كنتُ أحاولُ أن أشرحَ كيف يمكنها أن تتشكّلَ في جسدٍ له دماغ، ولماذا هذا التشكّل للمشاعر يختلف، بالمعنى العصبيّ، عن تشكّل أحداث عقليةٍ أخرى. على مستوى الأنظمة، يمكنني أن أشرحَ العملية وصولاً إلى تنظيم الأنماط العصبية على الأساس الّذي سوف تظهر عليه الصور العقلية؛ ولكنّني سأفشل في تحقيق ذلك! ناهيك عن شرح كيف يمكن للخطوة الأخيرة من عملية صناعة الصور أن تتحقق[119].

بناء الواقع

هذا المنظور يمتلك تضمينات مهمّة عن كيف نتصوّرالعالم الّذي يحيط بنا. إنّ الأنماط العصبية و ما يتعلّق بها من صور عقلية عن الأشياء والأحداث خارج الدماغ متولّدة من الدماغ ومتّصلة بالواقع الّذي استدعى تكوّنها أكثر من كونها صور مرآتية سلبية تعكس ذلك الواقع. خذ مثلاً حين ننظر، أنت و أنا، إلى شيءٍ

خارجيّ، فإنّنا نشكّل صورًا متشابهة في دماغينا، ويمكننا أن نصف الشيء بطريقة مشابهة. ومع ذلك، هذا لا يعني أن الصور الّتي نراها هي نسخة طبقة الأصل عن الواقع، بل أن الصورة التي نراها تستند على تغيّرات تحصل في متعضّيينا، في الجسد وفي الدماغ، حين تتآثر البنية الفيزيائية لهذا الشيء المحدد مع الجسد. إنّ مجموعة الكاشفات detectors الحسّية متموضعة على طول أجسادنا وتساعد في تشكيل الأنماط العصبية التي تخرّط *التآثر* الإجمالي للمتعضّي مع الشيء إلى جانب أبعاده العديدة. إذا كنتَ تشاهدُ وتستمع إلى عزفٍ لمقطوعة ما على البيانو، فلنقل السوناتا 960 د لشوبيرت Schubert، فإن التآثر الإجمالي يتضمن أنماطًا بصرية، سمعية ، حركية (مرتبطة بالحركة التي نقوم بها كي نسمع ونرى) و عاطفية. وتنتج الأنماط العاطفية عن ردّة فعل تجاه العازف، وتجاه كيف يتم العزف، وصوب مميزات الموسيقى بحد ذاتها.

وتتكوّن الأنماط العصبية الخاصة بالمشهد الآنف بمقتضى قواعد الدماغ الخاصة به، وتتحقّق خلال مدة وجيزة في المناطق الحسّية والحركية في الدماغ. ويرتكز بناء هذه الأنماط على الإختيار المؤّقت للعصبونات والدارات الّتي يتعهدها التآثر. بمعنى آخر، توجد أطواب البناء في الدماغ وتكون جاهزةً

للإستعمال، ويتم إختيارها وتجميعها في ترتيب محدد. تخيّل غرفةً مخصصة للعبة الليغو* Lego تمتلىء بأكبر عدد من قطع الليغو التي يمكن تصوّرها، هكذا هو الوضع في الدماغ[120]. بمقدورك أن تبنيَ أيّ شيءٍ يخطر على بالك، تمامًا كما يفعل الدماغ لأنه يمتلك قطعًا مركّبة لكلّ صيغة حسّية.

هكذا، فإنّ الصور التي توجد في عقولنا هي نتيجة تآثرات بين كلٍّ منّا و الأشياء التي تؤثّر على متعضّينا، كما هي مخرّطة في الأنماط العصبية التي تتكوّن وفقًا لتصميم المتعضّي. يجب أن نلفت الإنتباه إلى أنّ ذلك لا ينفيَ واقعية الأشياء، فهذه حقيقية؛ كما أنّها لا تنفي واقعية التآثرات بين الشيء والمتعضّي. وبالطبع، الصور واقعية كذلك، ومع ذلك فإنّ الصور التي نختبرها هي بناءات دماغية *أثارها* الموضوع أكثر مما هي مرآة تعكس هذا الموضوع. لا يوجد رسمٌ عن الموضوع يُنقَل بصريًا من الشبكية إلى القشرة البصرية، ذلك أن البصريات تتوقّف عند الشبكية، وما يلي ذلك عبارة عن تحوّلات تجري بإستمرار من الشبكية نحو القشرة المخّية. على نفس المنوال، فإنّ الأصوات التي نسمعها لا تصوّت من القوقعة إلى القشرة السمعية من خلال بعض مكبّرات

---

* **لعبة الليغو Lego، لعبة تركيب لمستطيلات ومربعات ومكعبات بلاستيكية ينتج عن تركيبها مجسمات بأشكال مختلفة.**

الصوت، على الرغم من أنّ التحوّلات الفيزيائية تنتقل من مكبّر إلى آخر بالمعنى المجازيّ للعبارة. هناك طقمٌ من *التناظر* تم تحقيقة عبر التاريخ الطويل للتطوّر بين السمات الفيزيائية للأشياء المستقلّة عنّا وبين لائحة الإستجابات الممكنة لمتعضينا. وتبدو العلاقة بين السمات الفيزيائية للأشياء الخارجية وبين المكونات المسبقة التي يختارها الدماغ من أجل تكوين تمثيلٍ ما، تبدو على قدرٍ من الأهمية من أجل الكشف عنها في المستقبل. يتشكّل النمط العصبيّ المخصص لموضوعٍ محدد من خلال إصطفاء وتجميع البنود Tokens الملائمة. على أية حال، نحن نتشابه جدًا في ما بيننا على الصعيد البيولوجيّ بحيث نكوّن أنماطًا عصبية متشابهة للشيء عينه. ولا يجب أن يكون مفاجئًا أن الصور المتشابهة تظهرُ من خلال تلك الأنماط العصبية المتشابهة، فلهذا السبب نقبل، ومن دون إعتراض، الفكرة المتوافق عليها والّتي مؤّداها أن كلّ منا شكّل في عقله الصور التي تعكس بعض الأشياء المحددة. أمّا في الواقع فإننا لا نقوم بذلك.

رؤية الأشياء

كيف نعرف أن الصور الذهنية والأنماط العصبية هي على قدر كبير من الترابط، وأن الأولى تتأتّى عن الثانية؟ بدأنا بمعرفة هذه العلاقة الوطيدة بعد دراسات دايفيد هابل David Hubel و تورستن ويزل Torsten Wiesel. لقد أظهر الإثنان أن حيوانًا خاضعٌ للإختبار(القرد) ينظرُ الى خطٍّ مستقيم، متعرّج أو إلى خطوطٍ موضوعة بزوايا مختلفة، سوف يشكّل أنماطًا متمايزة للنشاط العصبي في القشرة البصرية[121]. كما انّهما ربطا ظهور الأنماط المتمايزة بالتشريح المجهري للقشرة البصرية، وبالتالي إكتشفا أن المكوّنات المطبقية modular التي يمكن من خلالها تكوين شكلٍ ما. تأتّى المزيد من الأدلة من تجربة قام بها روجيه تووتل Roger Tootel حيث واجه حيوانٌ خاضع للإختبار (قردٌ أيضًا) منبّهًا بصريًا، فنقلُ صليبًا، وأمكن بالتالي التعرّف مباشرةً على النمط الملائم في طبقة محددة من القشرة البصرية لهذا الحيوان (الطبقة 4_B في القشرة البصرية الأولية والمعروفة بباحة برودمان Brodmann 17 أو الباحة VI.[122]) يمنحنا هذا العرض التوضيحي بين الجوانب الرئيسية للعملية: المنبّه الخارجي الّذي نراه نحن المشاهدون كصورة عقلية، يمكننا أن نفترض بشكل عقلانيّ أن الحيوان الخاضع للإختبار يراه كصورة عقلية أيضًا، وكذلك الأمر بالنسبة

الى النمط العصبيّ الّذي بدا واضحًا أنّه نشأ نتيجة رؤية هذا المنبّه. وتبرهن التجربة على تناظراتٍ متعددة – المنبّه البصريّ والصورة ذات الصلة التي نشكّلها، والتي يُفتَرَض أن يشكّلها اليحوان على نفس المنوال، كذلك النمط العصبي في دماغ هذا الحيوان. وفي ذلك النمط العصبي يمكننا نحن ، المشاهدون، أن نرى تطابقًا بين نمط الصورة الخاص بنا، وبشكلٍ موسّع، وبين نمط الصورة عند الحيوان.

نستحصلُ على فكرةٍ سريعة حول الكيفية المذهلة لتطوّر آلية الجسد حين نتمعّن بالأجهزة البصرية المتوفّرة عند كائنٍ حيٍّ بسيط، مجموعة اللافقاريات البحرية المعروفة بنجم البحر ophiocoma wendtii. وهو نجمٌ هشٌّ قادرٌ على الهروب بسرعةٍ وفعّاليةٍ من المفترس القريب، ويأوى في الكهوف الصخرية والشقوق المجاورة. وبالنظر إلى أنّ العمود الفقري الخارجي لهذا الحيوان مصنوعٌ من الكالسيوم الصلب، وأنّه يفتقد العيون وأنّ جهازه العصبيّ بدائيٌّ جدًا، فإنّ هذا السلوك التملصيّ لطالما شكّل نوعًا من اللغز. مع ذلك يبدو أن قسمًا معتبرًا من جسد هذا الحيوان يتكوّن من عدساتٍ كالسيوم صغيرة تعمل على شكلِ عيون. تركّزُ العدساتُ الضوءَ القادمَ في منطقة صغيرة تحت كلّ عدسةٍ وحيث يمكن لحزمة من الأعصاب أن تنشطَ نتيجةً لذلك.

يمكن لنمطِ المفترسِ أن يتخرّط على هذا المنوال، وكذلك للنمطِ المتشكّلِ نتيجة شقٍّ صخريّ قريبٍ يمكن له أن يخدم كملاذٍ. تؤدّي معالجةُ نمطِ المفترسِ إلى تنشيط العصب وإلى ملائمة الإستجابات الآلية صوب الشقِّ الواقي[123] . لا أقصدُ بالمرّة القول أنّ هذا الكائنُ قادرٌ على التفكير، مع تأكّدنا من أنّه يتصرّف، وأنّه يقوم بذلك بناءً على الأنماط العصبية المتشكّلة حديثًا. كما أنّني لا أميل إلى الإعتقاد، مع جهازٍ عصبيّ بسيطٍ كهذا، أن تلك الأنماط العصبية قد تصبح صورًا عقلية بالضرورة. ببساطة، أستخدمُ هذه الوقائع من أجل أن أوضّحَ جينيولوجيا الجهاز العصبيّ المتصّل بالجسد ملمِّحًا إلى الأسس التي تمكننا من فهم تأثيرات مسألة العقل والجسد. وتقوم العين البشرية مع شبكيتها بأمرٍ شبيه بما يقوم به نجم البحر، ولكنّ آلية العيون أعتقد بكثير في الإرتطامات الفيزيائية التي يمكن تخريطها، في ظلّ ثراء الخرائط اللاحقة التي يمكن أن تتشكّل. على أية حال، يبقى الجوهر واحدًا: قسمٌ متخصصٌ من الجسد يتم تعديله و تنتقلُ نتيجة هذا التعديل إلى الجهاز العصبيّ المركزي.

إنّ تواجد طبقة خاصّة من الخلايا الشبكية الّتي تستجيب إلى الضوء و تؤثّر على عمل النواة في المِهاد – النواة فوق التَصالُبة suprachiasmatic – وهي المعروفة بأنها تنظّم دورة النهار

– الليل وأنماط النوم الخاصّة، صار [هذا التواجد] موضوع اكتشافٍ ذي صلةٍ أصبحَ جليًّا. ومن المعروف لزمنٍ طويل أن العُصّيات rods و المخروطات التي تشكّل الطبقة الأمامية للشبكية تستجيب إلى الضوء، وأن إستجاباتها ضرورية من أجل الرؤية. أمّا الإكتشاف الجديد المثير للإنتباه هو أن تأثير الضوء على المِهاد لا تشكّل واسطته تلك العُصّيات والمخروطات، ذلك أنّه وبعد إتلاف هذه الأخيرة، يستمرّ الضوء بمجاراة دورة النهار-الليل. ويبدو أن طقمًا من الخلايا في الطبقة المجاورة – طبقة خلايا العقدة الشبكية – يقوم بهذا العمل. عِلاوة على ذلك، إن طقم الخلايا هذا الّذي يقوم بالعمل يبدو مميّزًا جدًا، إذ أن خلايا العقدة الشبكية التي تستقبل الإشارات من العصّيات والمخروطات *ليست معنّية* بالعملية. وعلى ما يبدو، توجد مجموعة ثانوية من أجل القيام بهذه العملية فقط وليس بالمرّة من أجل تساعد في الرؤية [124]. بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، تمارسُ الأنشطةُ في الخلايا تأثيرًا على العقل. مثلاً يخفّضُ الخلود الى النوم من الانتباه وبالتالي يعطّل الوعيَ؛ كذلك تقع عواطف الخلفية والمزاج المتّصل بها تحت تأثير التعرّض الكلّي للضوء من ناحية الساعات والكثافة. مرّةً أخرى، كلّ تغيّرٍ في حالة الجسد – بالتحديد في الجزء المتخصص من الجسد – يترجم نفسه في تغيّرات عقلية. وإنّها لذات أهميةٍ كبيرة الواقعة الّتي تفيد أن الخلايا التي نحن

بصددها – وهي ليست كتلك التي تساعد في الرؤية – ليست معنية تحديدًا في حال انقطاع الضوء. مثل العدّدات الضوئية الّتي نستخدمها في التصوير، تستجيب الخلايا المذكورة، بكلّ هدوءٍ وبشكلٍ بطيء، للبريق الكلّي وللضوء السطاع المنتشر داخل العين. من المغري أن نرى تلك الخلايا باعتبارها جزءًا من مجسّات جسدية أقدَم وأقلّ تعقيدًا و ومنهمكة في الشروط المجمَلة – بالتحديد مقدار الضوء المحيط بكلّ المتعضيّ – أكثر من أن نراها مع التشكيل التفصيليّ للضوء الّذي تسبّب به موضوعٌ خارجيّ. بهذا المعنى تصبح هذه الخلايا شبيهة بنجمِ البحرِ O.wendtii وبكلّ إحساسات الجسدِ الّتي يمكن أن نجدها في المتعضيات الأبسط الّتي لا تكون أجسدها مجهّزة بمنطاق حسّية متخصّصة[125] .

في العشرين سنة الماضية، كشفت العلوم العصبية تفاصيلّ كثيرة حول معالجةِ الدماغ لمظاهرَ متعددة من الرؤية، ليست فقط من ناحية الشكل أو اللون بل من ناحية الحركة أيضًا[126].وقد سَجّل تقدمٌ أيضًا في فهمِ السمعِ، اللمس و التذوّق، وفي الأونة الأخيرة لمسنا إهتمامًا متجددًا في فهم الإحساسات الداخلية – الألم، الحرارة وما شابه. ومع ذلك، من العدل القول أنّنا بالكاد بدأنا في الكشف عن التفاصيل الدقيقة لهذه الأجهزة.

حول أصول العقل

يمكن لصورتيْ الجسد اللتين تكلمنا عنهما آنفًا، الصور من البدن والصور من المجسّات الحسّية الخاصة، أن يتم التلاعب بهما في عقولنا وأن تستخدم لتمثيل العلاقات المكانية والزمانية بين الموضوعات. هذا ما يسمح لنا أن نمثّل الأحداث التي تدخل فيه تلك الموضوعات. فهل الصور في عقلنا وجسدنا هي صورٌ بالمعنى الّذي عرضناه آنفًا؟ حسنًا، ليس بالضبط. بفضل خيالنا الإبداعيّ يمكن لنا أن نبتدع صورًا جديدة كي نرمّزالموضوعات والأحداث و نمثّل التجريدات. مثلاً، بإمكاننا أن نجزّأَ الصور الأساسية من الجسد أي تلك التي ناقشناها سابقًا، و من ثم نعيد تركيب الأجزاء. يمكن لأيّ موضوعٍ أو حدثٍ أن يُرمَّز عن طريق صنفٍ خاصّ من العلامات المتبدعة أو المتخيّلة، كالأعداد و الكلمات، ويمكن لهذه العلامات أن تندمج في معادلات و جمل. قد تمثّل هذه العلامات المتخيَّلة و المبتدعة جواهرَ وأحداثٍ، مجرّدة أو عينية.

ويمكن رصد أثرَ الجسدِ في تنظيم العقل أيضًا في المجازات الّتي طوّرها جهازنا المعرفيّ لكي يصف الأحداث والكيفيات في العالم. يستند الكثير من المجازات هذه على عمل

خيالنا الخاص نظرًا للنشاط النوعيّ و تجارب الجسد البشريّ، كما في حالة الوضعيات، المواقف، إتجّاه الحركة، المشاعر وهكذا. فلنأخذ مثلاً أفكار السعادة، الصحّة، الحياة والرخاء، فهذه كلّها تقترن مع " الصعود" ككلمة و إيماءة. أمّا الحزن، المرض، الموت و الشرّ فمقترنة مع "السقوط"، و يقترن المستقبل مع "التقدّم". لقد شرح كلٌّ من مارك جونسون Mark Johnson و جورج لاكوف George lakoff، بشكلٍ مقنعٍ، كيف أن التصنيف الفئوي لبعض أفعال و وضعيات الجسد قد قادت إلى ترسيمات schemas محددة تمّت الإشارة إليها، في نهاية المطاف، بكلمات أو إيماءات[127].

عند هذه النقطة، عليّ أن أضيف إضافةً نوعيةً أخرى على نقاشنا هذا. حين نقول أن العقل يتكوّن من أفكارٍ هي، بمعنى أو بآخر، تمثيلات دماغية للجسد، فمن السهولة بمكن أن نتصوّر الدماغَ صفحةً بيضاءَ تبدأ حياتها نظيفةً، وجاهزة لتُنقَشَ بإشاراتٍ من الجسد. ولكن، هذا بعيدٌ كليًّا عن الحقيقة!لا يبدأ العقل صفحة بيضاء Tabula rasa، بل هو مشرَّبٌ منذ بدء الحياة بالمعرفة الخاصَة بكيفية إدارة المتعضّي، أي بالتحديد بكيف يجب على عملية الحياة أن تجريَ، وكيف لأحداثٍ متعددة في العالم الخارجي أن يتم التعامل معها. يوجد العديد من تخريطات

المواقع و الإتصالات منذ الولادة: خذ مثلاً أنّنا نعرف أن القرود حديثة الولادة تمتلك عصبوناتٍ في قشرتها المخيّة جاهزةً لرصد الخطوط في بعض الإتجاهات[128]. خلاصة الأمر، يجلب الدماغُ معه المعرفة الفطرية و البراعة التلقائية، محدِّدًا بشكلٍ مسبق أفكار عديدة من الجسد. تكمن نتائجُ هذه المعرفة و البراعة في أن العديد من إشارات الجسد المعدّة كي تصبح أفكارًا، بالمعنى الّذي تكلمنا عنه، يحصل أن تتولّد عن الدماغ. هذا الأخير يأمر الجسد لكي يتّخذ حالاتٍ وسلوكياتٍ معيّنة، وتكون الأفكار مرتكزة على هذه الحالات والسلوكيات الجسدية. المثل الأول حول هذا الترتيب يتعلّق بالدوافع والعواطف. كما رأينا سابقًا، لا يوجد ما هو حرٌّ أوعشوائيّ في ما خصّ الدوافع و العواطف، فهي مخزونات سلوكية محفوظة ذات درجة عالية من التخصصّ والتطوّر والّتي تنفّذ بأمانة تامة أوامر الدماغ، في بعض الظروف. حين تقلّ مصادر الطاقة في الجسد، يرصد الدماغُ التراجع هذا، فيثير حالةً من الجوع أي الدافعَ الّذي سوف يقوم بتصحيح اللاتوازن. تنشأ فكرة الجوع عن تمثيلٍ لتغيّرات الجسدِ المستحَثّة بفعلِ إنتشار هذا الدافع.

القول أنّ عددًا لا يُستهان به من أفكار الجسد هو نتيجة للدماغ الّذي وضع الجسدَ في حالةٍ معيّنة معناه أن بعض أفكار

الجسدِ هذه، والتي تشكّل أساس العقل، هي مقيّدة للغاية بتصميم مسبق للدماغ ولحاجات المتعضّي بأكمله. إنها أفكارُ حركةِ الجسد، ومع ذلك هذه الحركات الجسدية هي أول ما حلم به دماغٌ أمر بتنفيذها في جسدٍ ملائم.

يشدّد هذا الهيكلُ على الطابع الجسديّ للعقل. يوجد هذا الأخير بفعل وجود جسدٍ يزوّده بالمحتوى. ومن ناحية أخرى، ينتهي العقل بتنفيذ أعمالٍ عملية و نافعة للجسد: فهو يتحكّم بتنفيذ الإستجابات التلقائية بالعلاقة مع الهدف الصحيح، يتوقّع و يخطّط لإستجابات جديدة، ويخلّق كل أشكال الظروف والموضوعات المفيدة لبقاء الجسد حيًّا. أمّا الأفكار التي تخطرُ في العقلِ فهي إنعكاساتٌ للتآثر بين المتعضّي والبيئة المحيطة، و انعكاسات لردّ فعلِ العقل على البيئة الّتي توثّر على الجسد، و لكيفية حصول تعديلات الجسد في حالة الحياة الجارية.

قد يجادل البعضُ أنَه طالما يمنح الدماغُ أكثر الركائزَ فوريةً للعقل، أي الخرائط العصبية، فإنّ المكوّن الأهم الّذي يجب أخذه بعين الإعتبار في مسألة العقل – الجسد هو دماغ الجسد، وليس الجسد المخصوص. ماذا نجني من إعتبار أن العقل من منظور الجسد يتعارض وإعتباره من منظور الدماغ فقط؟ الجواب أنّنا نجني تعليلاً منطقيًا للعقل لن يكون بإمكاننا

أن نكتشفه إذا أخذنا بالإعتبار العقل من منظور الدماغ فقط. يوجد العقل من أجل الجسد وهو ينخرطُ في رواية أحداث الجسد المتنوّعة، ويستخدمُ الرواية هذه من أجل أن يحسّن من حياة المتعضّي. وبقدر ما أمقتُ الجمُل التي تتطلّب تحليلاً شاقًّا، فإنّني ملزمٌ بعرضٍ واحدة منها على شكل خلاصة لوجهة نظري: العقلُ الّذي يغذّيه الجسدُ، هذا العقلُ الّذي يفكّر بجسدِ الدماغ ، يخدمُ الجسدَ كلَّه.

نصل الآن إلى بعض الأسئلة الحرِجة: لماذا نحتاجُ إلى "مستوى عقلي" في عمليات الدماغ كشيءٍ متعارضٍ مع "مستوى الخريطة العصبية" وحدها كما تم وصفها بأدوات العلوم العصبية؟ لماذا يمكن لمستوى الخريطة العصبية، مع نشاطها اللاعقليّ واللاواعي، أن يكون أقل فعالية في إدارة عملية الحياة من مستوى العقل الواعي؟ وفي عبارات أوضح، محافظِّين على مسارنا في التفكير: لماذا نحتاجُ إلى المستوى البيولوجي العصبيّ للعمليات التي تتضمن أيضًا ما ندعوه العقل و الوعي؟

يمكن لنا أن نجيب عن بعضٍ من هذه الأسئلة وأن نفكّر في بعضها الآخر. مثلٌ على ذلك أنّه في غياب الوعي، بالمعنى العام للمصطلح، أي بمعنى كونه عملية تتضمن *الفيلمَ- في- الدماغ* *movie-in-the-brain* و الإحساس بالذات – فإنّنا نكون واثقين من

إستحالة أن تُدار الحياة كما ينبغي، [بل] حتّى الإنقطاع المؤقّت للوعي يؤدّي إلى إدارة واهنة للحياة. في الواقع، يؤدّي أقلّ إنقطاعٍ للمكوّن الذاتي للوعي إلى تعطيلِ إدارة الحياة ويعود بالكائن البشريّ إلى حالة من الإعتماد والتبعية شبيهة بحالةِ طفل حديث المشي (وهذا ما يحصل في حالات مثل خرسِ تعذّر الحركة akinetic mutism) ومن المؤكّد أن مستوى العقل الواعي ضروريٌّ جدًا من أجل البقاء على قيد الحياة.

ولكن، ما هي بالتحديد المساهمة الضرورية التي يمنحها المستوى البيولوجي للعقل الواعي إلى المتعضّي؟ هنا نجد الجواب تأمّليًا: كما هو مقترحٌ في الفصل الرابع، ربّما يسمح التعقيد الهائل للظاهرة الحسّية على المستوى العقليّ بتكاملٍ أيسر بين الحواس، أي بين البصرية و والسمعية، بين البصرية والسمعية و اللمسية..الخ. أضف إلى ذلك أن المستوى العقل يسمح أيضًا بالتكامل بين الصور الحالية لكلّ رباطٍ حسّي مع الصور الملائمة المستعادة من الذاكرة. كما أنّ هذه التكاملات الوفيرة تشكّل الأرضية الخصبة لمعالجة الصوَر المطلوب لحلّ مشكلةٍ ما، و لأجل الإبتكار بشكلٍ عام. إذا، الجواب هو أنّ الصور العقلية سوف تفسحُ بالمجال للسهولة في معالجةِ المعلومات وهذا ما لا يتوفّر على مستوى الخريطة العصبية (كما وصفناه آنفًا). على الأرجحِ،

وبهدفِ تمكين هذه المُهِمّات الجديدة، يمتلك المستوى العقلي للعمليات مواصفاتٍ بيولوجية بجانب تلك الموجودة عند المستوى "العادي" للخريطة العصبية . مع ذلك، لا يعني ذلك أن المستوى العقلي للعمليات البيولوجية يرتكزُ على جوهرٍ مختلفٍ، بالمعنى الديكارتي للعبارة، ذلك أن صورَ العملية العقلية، المعقّدةَ والمتكاملة للغاية، يمكن تصوّرها من حيث كونها بيولوجية و فيزيائية.

علينا، الآن، أن نلفت الإنتباه إلى ما يمنحه الإحساسُ-بالذاتِ إلى العملية، والجواب هو *التوجيه*. يُدخِلُ الاحساسُ-بالذاتِ، في المستوى العقلي للمعالجة، الفكرة التي تفيد بأن كل النشاطات الحالية الممثّلة في الدماغ والعقل تتصّل بمتعضٍ وحيدٍ تكون حاجات الحفظ الذاتي التلقائي فيه السببُ الأساسيّ لمعظم الأحداث التي يتمّ تمثيلها. يوجّه الاحساس-بالذات عملية التخطيط العقليّ بإتجاه إشباعِ تلك الحاجات. وهذا التوجيه ممكنٌ فقط لأن المشاعر تتكامل مع حشدِ العملياتِ التي تكوّنُ الاحساس-بالذات، ولأن المشاعر تولّد بإستمرار، في داخل العقل، *إهتمامًا* بالمتعضّي.

بالمختصر، من دون صورٍ عقليةٍ لن يكون بمقدور المتعضّي أن ينفّذ، بالأسلوب الملائم، الدمجَ الواسع النطاق

للمعلومات الضرورية من أجل البقاء، من دون أن نذكر عافية الكائن. أضف على ذلك، وبغياب الإحساس بالذات و المشاعر التي تقوم بدمجِها، سيستحيل توجيه هذا النطاق الواسع من الدمج صوب مشاكل الحياة، بالتحديد تلك الخاصّة بالبقاء والعافية.

لا تملأ وجهة النظر هذه حول العقل الفجوة المعرفية التي ألمحتُ إليها سابقًا حين قلت أن التوصيفات الحالية التي تقدمها علوم الأعصاب لنشاط الخرائط العصبية لا يمنحنا ما يكفي من التفاصيل لكي تخبرنا حول المركّب البيوفيزيائي للصور العقلية. الفجوة معروفة، ولكنّ الأملَ بإمكانية سدّها في المستقبل موجودٌ[129].

في الوقت الحاضر، لا يبدو من غير المعقول أن نتصوّر العقل ناشئًا عن تعاون مناطق دماغية عدّة. يحصل هذا الأمر حين يصل تراكمُ التفاصيل عن حالة الجسد المخرّطة في تلك المناطق إلى "نقطة حرجة". قد تكون الفجوة المعرفية التي تعرّفنا علينا سابقًا أكبر بقليل من مجرّد كونها إنقطاعًا في تعقيد التفاصيل المتراكم، وفي تعقيد التآثرات بين المناطق الدماغية المنخرطة في عملية التخريط.

الجسد، العقل، و سبينوزا

حان الوقت كي نعود إلى سبينوزا وننظر في المعنى المحتمل لما كتبه حول الجسد والعقل. أيًّا كانت التأويلات التي نفضّلها حول التصريحات التي قدّمها حول القضية هذه، يمكن لنا أن نكون واثقين من أنّ سبينوزا قد غيّر من المنظور الّذي ورثه من ديكارت حين قال في القسم الأول من كتاب **الإيتيقا** ، أنّ الفكر والإمتداد، بالرغم من كونهما متمايزين، هما، مع ذلك، صفتان للجوهر عينه، أي الله أو الطبيعة. تخدمُ الإحالة إلى صفةٍ واحدة القول أنّ العقل لا ينفصل عن الجسدِ، فالإثنان مصنوعان، بطريقةٍ ما، من النسيجِ عينه. و الإحالة إلى الصفتين، العقل والجسد، تقرّ بالتمايز بين شكلين من الظاهرة، وهي صيغة تحتفظُ بـ"ملمحٍ" ثنائي تام و ملموس، ولكنّها ترفض الثنائية الجوهرية. وبوضعه الفكر والإمتداد على قدم المساواة، ومن خلال ربطهما بجوهرٍ واحد، أمِلَ سبينوزا أن يتجاوز المشكلة التي واجهها ديكارت و فشل في حلّها: وجود جوهرين و الحاجة إلى ادماجهما. بوجه هذه المشكلة، لم يعد الحلّ الّذي قدّمه سبينوزا يتطلّب عقلاً و جسدًا من أجل أن يتآثرا أو أن يندمجا، فقد أصبح بإمكانهما أن ينبجسا بالتوازي عن جوهرٍ واحدٍ، محاكييْن بعضهما بعضًا بشكلٍ تام

وتبادليّ من خلال تمظهراتهما المختلفة. بمعنى صريح، العقل لم ينتج عن الجسد، وهذا الأخير لم يُنتِج الأول.

حيث تتوقف مساهمة سبينوزا عند الصيغة المذكورة أعلاه، يمكن للمرء أن يقرّ له بهذا التقدّم الّذي حصل. ومع ذلك، بالإمكان أن نلاحظ أنّه عندما نسبَ العقل و الجسد إلى جوهرٍ واحد ، فقد أدار سبينوزا ظهره إلى محاولة تفسير نشوء التمظهرات الجسدية والعقلية عن الجوهر. ويمكن لنقدٍ منصفٍ أن يضيف أن ديكارت كان قد حاول على الأقل تقديم حلٍّ، بينما لم يقم سبينوزا سوى بالتحايل على المشكلة. ولكن ربّما لن يكون هذا النقد المنصف دقيقًا. في تأويلي الخاصّ، حاول سبينوزا بشكلٍ حثيثٍ فكّ اللغز. أغامر بالقول، وأنا جاهزٌ للإعتراف بإحتمال كوني مخطئًا، وإعتمادًا على كلامه في القسم الثاني من كتاب **الإيتيقا** ، قد يكون سبينوزا قد حدس الإستعدادات الوظيفية و التشريحية العامة التي يضطلع بها الجسد من أجل العقل كي يعمل إلى جنبه، أو بالتحديد، معه و داخله. دعوني أشرح لماذا اعتقد ذلك.

علينا أن نبدأ بمراجعة مقولة سبينوزا حول الجسد و العقل. مقولته حول الجسد مألوفة، إذ هكذا يصف الجسد في **الإيتيقا** ، القسم الأول :"*كمٌّ محدّد، جدًا طويل، رحِب، عميق و*

محدود بهيئةٍ ما". وبإستعمال كلمات سبينوزا سيصبح تعريفي الخاص:" كمٌّ معيّن من جوهرٍ مسوّرٌ بنفسه". وبما أنّ الجوهر عند سبينوزا هو الطبيعة، يمكنني أن أضيف :" الجسدُ هو قطعة من الطبيعة، مسوّرٌ بحدود الجِلد".

من أجل تفاصيلٍ أكثر حول مفهوم سبينوزا عن الجسد، علينا أن نعود إلى لائحة مصادراته الستّ كما وردت في القسم الثاني من كتابه:

1- يتألّف الجسد البشريّ من عددٍ من الأجزاء الفردية ذات الطبائع المختلفة، كلّ واحدٍ منها هو بحدّ ذاته شديد التعقيد.

2- هذه الأجزاء الفردية التي تؤلّف الجسد البشري، بعضها سائل، وبعضها طريّ و بعضها صلب.

3- الأجزاء الفردية التي تؤلّف الجسد البشري، وبالتالي الجسد بأكمله، تتأثّر، بأوجهٍ مختلفة، بالأجساد الخارجية.

4- يحتاج الجسد البشريّ من أجل الحفاظ على نفسه، إلى عددٍ من الأجساد الأخرى، الّتي يتجدد بواسطتها.

5- حين يُحدَّد الجزء السائل من الجسد البشري بجسدٍ خارجيّ لكي يرتطمَ مرارًا بجزءٍ طريّ آخر، فإنّه يغيّر من

سطحِ هذا الأخير، وعقب ذلك، سوف يترك عليه، إذا جاز التعبير، الإنطباع من الجسد الخارجيّ الّذي يدفعه.

6- يمكن للجسد البشريّ أن يحرّك الأجساد الخارجية وأن يرتبّها بأشكالٍ كثيرة.

تبدو الصورة الدينامية التي ينقلها سبينوزا على درجةٍ من الرقيّ، خصوصًا حين نتذكّر انّها كُتِبَت في القرن السابع عشر وأن الحبرَ المسكوب على البحوث الأولى حول التشريح لم يكن قد جفّ بعد! كان لهذا الشيء الجسديّ المعقّد أجزاءٌ عديدة وكانت سريعة التلف وبحاجة للتجديد. كان يمكن لها أن تغيّر من شكلها بإحتكاكها مع أجسادٍ أخرى. لم يصل سبينوزا إلى عتبة القول أن التغيّرات في الشكلِ يمكن لها أن تنتقل عبر الأعصاب إلى الدماغ، ولكنه يبدو وكأنه فعل ذلك.

الإختراق الحقيقي، الّذي أراه، يتصّل بمقولة سبينوزا حول العقل البشري الّذي يعرّفه بشكل واضحٍ بإعتباره *فكرة الجسد البشري*. يستعمل سبينوزا كلمة "فكرة" كمرادف للصورة أو للتمثيل العقلي أو لمكوّن من مكوّنات الفكر، ويطلق عليها "المفهوم العقليّ الّذي كوّنه عقلُ جوهرٍ مفكّرٍ". (في محلٍ آخر، ومع ذلك، يستخدم سبينوزا الفكرة للدلالة على إشتغالٍ على الصور كنتاجٍ للذهنِ intellect أكثر ممّا هي نتاجٌ للخيال البسيط).

فلننتبه لكلمات سبينوزا الدقيقة :" *موضوع الفكرة المكوّنة للعقل البشري هو الجسد*" والتي تظهر في القضية 13 من القسم الثاني في **الإيتيقا** [130] .سوف تُعاد صياغة هذا القول بشكلٍ موسّعٍ في قضايا لاحقة. خذ مثلاً البرهان على القضية 19، حين يقول سبينوزا " *العقل البشريّ هو فكرة الجسد البشري ذاتها، أو المعرفة به* "؛ في القضية 23 يصرّح :"*لا يملك العقل المقدرة على الإدراك..إلاّ حين يدرِك أفكار التغيّرات (التأثّرات) في الجسد*".

ولنتأمّل زيادةً على ذلك هذه المقاطع ذات الصلة، وكلّها مقتبسة من القسم الثاني من الكتاب:

أ- *... موضوع الفكرة المكوّنة للعقل البشريّ هي الجسد كما هوموجود بالفعل.... ولهذا السبب فإن موضوعَ عقلنا هو الجسد كما هو موجود بالفعل، وليس شيئًا آخرَ.*

ب- *هكذا، لا نفهم فقط أن العقل البشريّ متّحدٌ مع الجسد، بل نفهم أيضًا طبيعة هذا الإتحاد بين العقل والجسد.*

ج- *... من أجل تحديد أينَ يختلف العقل البشريّ عن الأشياء الأخرى، و أين يمتاز عليها، من الضروريّ لنا أن نعلمَ طبيعة موضوعه، والّتي هي طبيعة الجسد البشريّ.*

يتعذّر عليَّ شرحَ ذلك في هذا المقام، كما أن ذلك ليس ضروريًا لما أريد البرهان عليه لاحقًا. بيد أنني أقول بصفةٍ عامة إنّه كلما كان جسدٌ مؤهّلاً، بالمقارنة مع الأجساد الأخرى، على القيام بالعدي دمن بالأفعال وعلى تلقّي الانطباعاتالمتنوّعة بطرقٍ كثيرة في الآن عينه، كان العقلُ مؤهّلاً أيضًا، بالمقارنة مع عقولٍ أخرى، على تشكيلِ العديد من الإدراكات المتزامنة...(هذه مقتبسة من الملاحظة اللاحقة للقضية 13)

صيغَ المفهوم الأخير بشكلٍ رنّان في القضية 14 :" *بإمكان العقل البشريّ أن يدركَ عددًا كبيرًا من الأشياء، ولا سيما إذا كان جسده قادرًا على إستقبالِ عددًا كبيرًا من الإنطباعات*".

وربّما الأكثر أهمية نجده في القضية 26 :"*لا يُدرِك العقلُ البشريّ أيَّ جسدٍ خارجيّ كما هو موجود إلاّ من خلال أفكار التغيّر (التأثّرات) في جسده الخاص*".

لا يقول سبينوزا فقط أن العقل ينبثقُ متشكّلاً بشكلٍ تام من المادة على قدم المساواة مع الجسد، بل هو يفترضُ آلية حيث يمكن تحقيق قدم المساواة هذه. ولهذه الآلية استراتيجيا: الأحداث في الجسد يتم تمثيلها كأفكارٍ في العقل. إنّها "تناظرات"

تمثيلية تسير في إتجاهٍ أوحد – من الجسد إلى العقل. توجد وسائلُ تنفيذ هذه التناظرات التمثيلية في المادة. وتبدو مثيرة للإهتمام تلك العبارات التي يجد فيها سبينوزا الأفكار "متّسقة" مع "التغييرات في الجسد"، من ناحية الكمّ والشدّة. تعبَر مقولة "التناسق" عن "التناظرِ" و حتّى عن " التخريط". وأظنّ أنّ سبينوزا يعتمد على شكلٍ من التشاكل [تساوي الشكل - isomorphy] الّذي يحفظ البنية. مثيرةٌ أيضًا مقولته أنّ العقل ليس بإمكانه أن يدرك الجسد الخارجيّ كما هو موجود، بإستثناء من خلال التغيّرات في جسده الخاص. بالفعل، يقوم سبينوزا بتعيين مجموعة من التبعيات [الإعتماديات] الوظيفية: يشيرُ إلى كون فكرة موضوعٍ ما في العقلِ لا يمكن أن تحصل من دون وجود الجسد، أو من دون حصول بعض التغيّرات في هذا الجسد والّتي يسببها الموضوع. من دون جسد لا يوجد عقل!

لا يغامرُ سبينوزا أبعد من حدود معرفته، ولهذا السبب لا يقول أن وسائل تشكيل أفكار الجسدِ تتضمن مسارات كيميائية أوعصبية كما لا تتضمّن الدماغ أيضًا. بحكم الواقع، لم يعرف سبينوزا سوى القليل عن الدماغ وعن وسائل الجسد والدماغ في تواصلهما المتبادل. وكان حذرًا من التذرّع بجهله للتفاصيل التشريحية و الفيزيولوجية للجسد، بما في ذلك الجزء

من الجسد المسمّى دماغًا. لقد تجنّب بكلِّ حذرٍ الإشارة إلى الدماغِ حين تكلّم عن العقل والجسد، بالرغم من إستطاعتنا أن نتيّقن، ومن خلال تصريحاته في مكانٍ آخر، أنّه رأى الدماغ والعقل متلازمين بشكلٍ وثيقٍ. مثلٌ على ذلك هو العرضُ الّذي يختم به القسم الأول من كتاب **الإيتيقا** ، حيث يقول أن"*كلًّا يحكمُ على الأشياء وفقًا لحالة دماغه*". وفي العرض نفسه يفسّر القول المأثور أنّ "*الأدمغة تختلف تمامًا كالأذواق*" لكي يعني أن "*المرء يحكم على الأشياءَ وفقًا لإستعداده العقلي*".فليكن! يمكننا الآن أن نتكلّم عن الدماغ بشكلٍ تفصيليّ و أن نخاطر بالتكلّم مع سبينوزا عن ما لم يتمكن من قوله بشكلٍ واضحٍ.

من منظوري الحالي، يتساوى القول أن عقلنا مصنوعٌ من أفكار جسد العقل مع قولنا أن عقلنا مصنوعُ من الصور، التمثيلات، أو من أفكارِ أجزاء جسدنا الخاص المتحرّك عفويًا أو الّذي يخضع لعملية تغيّرات تتسبب بها الأشياء في البيئة المحيطة. هذا الموقف يتعارض جذريًا مع الحكمة الشائعة وقد يبدو للوهلةِ الأولى غير مقبولٍ: فنحنُ عادةً ننظرُ إلى عقلنا من حيث هو ممتلىءٌ بالأفكار أو أفكار الأشياء، الحركات والعلاقات المجرّدة، والتي ترتبط غالبًا بالعالم الخارجيّ أكثر ممّا ترتبط بأجسادنا. ولكنّ الكلام هذا يصبح مقبولاً ربطًا بالدليل الّذي قدمناه حول

عمليات المشاعر والعواطف في الفصلين الثاني والثالث، وحول الفيزيولوجيا العصبية في هذا الفصل. يمتلىء العقل بالصور من البدن و بالصور من المجسّات الحسّية الخاصّة، وإنطلاقًا من أبحاثِ البيولوجيا العصبية الحديثة، لا نستطيع فقط أن نعتبر أن الصور تنبثق في الدماغِ، بل أيضًا أن نتجرأ بالقول أن نسبةً كبيرةً من الصور المنبثقة في الدماغ تتم صياغتها عن طريق الإشارات القادمة من الجسد المخصوص.

في كتاب **الإيتيقا** ، في قسمه الأول، يتكلّم سبينوزا عن قضايا العقل والجسد بشكل عام، كما يتكلّم فلاسفة بارعون عن الكون برمّته. في القسم الثاني،اهتمّ سبينوزا بمشكلةٍ موضعية، وأعتقدُ أنّه كان يحدسُ حلاً لها لم يستطع تحديده. تتأرجح نتيجة هذا المنظور المزدوج بين التوتر الخفيّ و الصدمة الجلّية، كحال كتاب **الإيتيقا** غالبًا. بعد كلّ شيء، لا تعمل المساواة بين العقل والجسدِ إلاّ على صعيد الوصف العام. متى ما تطرّق سبينوزا إلى الآلية بحد ذاتها تظهرُ في العملية إتجاهات متميّزة، من الجسد إلى العقل حين ندرك، ومن العقل إلى الجسدِ حين نقرر أن نتكلّم وحين نتكلّم...الخ

لا يتردد سبينوزا في تفضيل الجسدِ أو العقل في بعض الشروط. في معظمِ القضايا الّتي ناقشناها حتّى الآن، بالطبع،

ينتصرُ للجسدِ بشكلٍ واضحٍ. ولكن في القضية 22 (من القسم الثاني)، يفضّل سبينوزا العقل :"*لا يدركُ العقلُ تغيّراتِ الجسدِ فقط، بل أفكارَ هذه التغيّرات*". ما معناه فعليًا أنّك متى كوّنت فكرةً عن موضوعٍ محدد، بإمكانك تكوين فكرةٍ عن الفكرةِ، وفكرة عن فكرة الفكرة، وهكذا دواليك. تتشكّل كلّ هذه الأفكار في الجانب العقلي من الجوهر، والّذي يمكن، في المنظور الحالي، مساواته بالقطاع الدماغي-العقلي من المتعضّي.

تمتلك مقولة " أفكار الأفكار" أهميةً لاعتباراتٍ عديدة. مثلاً، هي تفتح الطريق أمام تمثيل العلاقات و صنع الرموز؛ وعلى نفس القدر من الأهمية، تسمح بصناعة فكرة الذات. كنت قد افترضتُ أن الأساس الأعمق للذات هي فكرة، الفكرة من الدرجة الثانية. ولماذا من الدرجة الثانية؟ لأنّها تستندُ على فكرتين من الدرجة الأولى، أوّلها فكرة الموضوع الّذي ندركه، والثانية فكرة جسدنا وهو يخضعُ لتغيّراتٍ نتيجة إدراك الموضوع. فكرة الذات من الدرجة الثانية هي فكرة العلاقة بين الفكرتين الأخرتين، أي الموضوع المدرَك و الجسد المتغيّر بفعل الإدراك.

تندرجُ الفكرة من الدرجة الثانية الّتي أسمّيها ذاتًا في دفقٍ من الأفكار في الدماغ، وهي تقدّم للدماغِ قطعةً من المعرفة حديثة التكوّن: معرفة أن جسدنا ينخرطُ في تآثر مع موضوعٍ ما. أعتقد

أن آلية كهذه على درجة من الأهمية من أجل توليد الوعي، بالمعنى الشامل للكلمة، وكنت قد افترضتُ عمليةً تسمحُ بإنجازِ الآلية هذه في الدماغ[131]. لدينا عقلٌ واعٍ حين يكون دفقُ الصورِ الّذي يصف الموضوعات والأحداث وفق طرائقَ حسّية متنوّعة – الفيلم-في-الدماغ – [حين يكون] مترافقًا مع صور الذاتِ الّتي سبق وتكلّمتُ عنها. العقل الواعي عبارة عن عملية عقلية مبلَّغة بعلاقات العقلِ المتزامنة و المستمرة مع الموضوعات ومع المتعضّي الّذي يأويه. مرةً أخرى، من المثير للإهتمام أن سبينوزا تركَ في فكره مساحةً لعمليةٍ بسيطة بقدر ما هي مثيرة للإهتمام كعملية صناعة أفكار الأفكار.

يضيقُ سبينوزا ذرعًا بالحججِ المؤسَّسة على الجهلِ، كتلك التي غالبًا ما نجدها حين يرفض أحدهم فكرةَ أنّ العقل ينشأُ عن النسيج البيولوجي لأنها "مستحيلة التصوّر". ولقد كان سبينوزا واضحًا جدًا حول واقعة أن " أحدًا حتّى الآن لم يحدّد ماذا يمكن للجسد أن يقوم به، أي أنّ أحدًا حتّى اللحظة لم تعلّمه التجربة ما يمكن للجسد أن يقوم به بمفرده بموجب قوانين الطبيعة، بقدر ما نعتبرها إمتدادًا. لم يكتسب أحدٌ بعدُ المعرفةَ الدقيقة حول الآلية الجسدية الّتي بإمكنها أن تفسّر كل وظائف الجسد...

ولم يعلم أحدٌ بعد كيف أو بأيّ وسيلة يحرّك العقلُ الجسدَ، و لا كمّية درجات الحركة المختلفة الّتي يمكن أن ينقلها إلى الجسد، أو بأيّ سرعةٍ يمكنه أن يحرّكه. هكذا، حين يقول أحدهم أن هذه الحركة الفيزيائية أو تلك تجد مصدرها في العقل، وهذا الأخير يسود الجسد، فإنّه يستخدمُ كلماتٍ لا معنى لها، أو هو يقرًّ في عباراتٍ خادعةٍ أنّه جاهلٌ بمسبِّبِ الحركة هذه"[132].

أشكُّ أنّ سبينوزا يشير إلى الجسدِ بشكلٍ اجماليّ، بالتحديد إلى الجسد المخصوص والدماغ. ربّما لم يكن فقط يقوَّضُ المقولة التقليدية التي تفيد بأنّ الجسد يمكن أن ينشأ عن العقل، بل كان يعدًّ العدّة لإكتشافاتٍ سوف تدعم المقولة المعاكسة.[133]

قد يعترض آخرونَ على أفكاري بالقول أن قراءتي لسبينوزا تقوّضها مقولة سبينوزا نفسه حول أزلية العقل. ومع ذلك، الإعتراضُ ليس وجيهًا. عن طريقِ إضافاتٍ كثيرة في كتاب **الإيتيقا** ، تحديدًا في القسم الخامس، يعرّف سبينوزا الأزلية eternity على انه وجودُ حقيقةٍ أزليةٍ، ماهية الأشياء، وليس بكونه إستمراريةً في الزمان. الماهية الأزلية للعقل لا تختلط مع الخلود immortality. وفي التفكير السبينوزي ماهية عقولنا موجودة قبل عقولنا، وتبقى بعد أن تفنى عقولنا وأجسادنا. العقول هي *في الآن عينه*

فانيةٌ و أزلية. ثمَّ في موضعٍ آخرٍ من **الإيتيقا** و **الرسالة في اللاهوت والسياسة** Tractatus ، يعلنُ سبينوزا أن العقل يهلكُ مع الجسدِ. وفي الحقيقةِ، فإن نكرانه لخلود العقل، وهي سمة تفكيره منذ عشرينيات عمره، ربّما يكون سببٌ رئيسيّ في إقصائه عن جماعته الدينية. [134]

ما الّذي وجده سبينوزا إذًا؟ وجدَ أنّ العقل والجسد متوازيان و مترابطان، يحاكيان بعضهما بعضًا عند كل تقاطعٍ، لأنّهما وجهان للشيء نفسه، وأنّ في قلبِ الظاهرة المتوازية هذه آليةً لتمثيل أحداثِ الجسد في العقل. وعلى الرغم من المنزلة المتساوية للعقل والجسد، كما يبدوان للمدرِكِ، إلاّ أننا نجد لاتناظرًا asymmetry في الآلية الكامنة خلف هذه الظاهرة. يقترح سبينوزا أن الجسد يصوغُ محتويات العقل أكثر ممّا يفعل العقل مع الجسد، بالرغم من أنّ عمليات العقل تنعكسُ في عمليات الجسد إلى حدٍ كبير. من ناحية أخرى، يمكن للأفكار في العقل أن تتضاعف، وهذا ما لا يمكن للأجساد أن تقوم به. إذا كان تفسيري لأفكار سبينوزا صحيحًا ولكن على نحوٍ ضعيف، فإنّ بصيرته كانت ثوريةً في زمانه مع أنّها لم تتركَ أثرًا على العلوم، كشجرةٍ سقطت رويدًا رويدًا و لم

يكن هناك مَن يشهد على ذلك. إن التضمينات النظرية لتلك المقولات لم تُقبَل كبصيرة سبينوزية و لا كحقائق ثابتة مستقلّة.

تصفية حساب مع د. تولب

أنهيتُ محاضرتي الهاغنزية بأن أبرزتُ نسخةً من لوحة رمبراندت *درس التشريح مع الدكتور تولب Anatomy Lesson of Dr. Tulp* المعلّقة في متحف موريشويتس Mauritshuits في لاهاي. لم تكن المرة الأولى الّتي استخدمتُ فيها هذه اللوحة كمرجعٍ في مسألة العقل-الجسد، ولكن هذه المرّة كان المكان والموضوع المطروح متناغمين بشكلٍ مثاليّ.

في ظاهرها، تحتفلُ لوحةُ رامبرندت بشهرة الدكتور تولب كطبيبٍ وعالمٍ بمناسبة درسٍ في التشريحِ في يناير 1632. أرادت نقابة الجرّاحين تكريم د.تولب بلوحةٍ ولم تجد أفضل للّوحةِ موضوعًا أفضل من التشريح المسرحيّ، فهو حدثٌ عامٌّ، ومقابل بدلٍ ماديّ إجتذب فضول المتعلّمين و الأثرياء. ولكنّ اللوحةَ تحتفي أيضًا بعصرٍ جديدٍ في دراسة الجسد البشري ووظائفه،

دوّنته كتابات وليم هارفي[i] و رينيه ديكارت الّذي افتُرِضَ أنّه موجودٌ بين الحضور حينها. إكتشافات هارفي حول الدورة الدموية على نفس القدر العميق من الأهمية. حقبة ما بعد فيزاليوس[ii] post-Vesalius في استعمال المباضع الدقيقة، العدسات، والميكروسكوبات التي كان بإمكانها أن تشقّ و تكبّر البنية الفيزيائية للجسد البشريّ. عبّر العمل عن إهتمام الهولنديين في دراسة وتصوير الطبيعة، جنبًا إلى جنب الجسد البشريّ، و ما هو موجود تحت بشرةِ هذا الجسدِ، وشكّل هذا العمل دلالة قيّمة على إزدهار العلوم الّتي طبعت ذلك العصر.

ربّما ما هو أكثر أهميةً أنّ لوحة رامبرندت تذكّرنا بالحيرة الّتي ولّدتها الإكتشافات التشريحية الجديدة عند المكتشفين. تُمسكُ يدُ الدكتور تولب اليمنى بالأوتار العضلية ليد الجثّة اليسرى التي تطوي أصابعها، بينما بيده اليسرى يبيّن الدكتور الحركة التي يمكن لهذه الأوتار أن تنفّذها. يتكشّف اللغز الكامن وراء الحركة أمام أعين الكلّ. هي ليست، بالطبع، أداة ضخٍّ مائية أو هوائية، بالرغم من أنّه كان يمكن لها أن تكون كذلك، وهنا يكمن جمال تلك اللحظة المرسومة على القماش: تمّت حركة اليدِ

---

[i] وليم هارفي William Harvey (1578-1657) طبيب انكليزي يُنسب إليه اكتشاف الدورة الدموية.

[ii] نسبةً إلى الطبيب التشريحيّ والفيزيائي الفنلندي آندرياس فيزاليوس Andreas Vesalius (1514-1564). يُعتبَر مؤسس علم التشريح الحديث.

بفعل تقلّصٍ عضليّ وشدّ وتريّ خاصّ مربوط بالأجزاء العظمية، بدلاً من طريقةٍ أخرى. يبرهن الدكتور تولب على ما هو الشيء عليه ويفصل بين ما هو عليه وبين ما يمكن له أن يكون. التخمينات تفتح الأبواب أمام الحقائق.



ومع ذلك، يبدو مشهد اللغز المكتشَف محيّرًا للبعض، وهذا أقلّ ما يمكننا أن نقرأه في نظرة الدكتور تولب. لا يواجه هذا الأخير مشاهديه، ولا يلتفت إلى ما يقوم به، ولا يرمق زملاءه، بل يتجّه يسارًا في مسافةٍ أبعد من إطار اللوحةِ، وأبعد من حدود الغرفة؛ و إذا كان المؤرّخ سيمون شاما صائبًا في كلامه، من المفروض أن

الدكتور تولب يتطلّع صوب الخالق بحد ذاته، ويتفّق هذا التأويل مع حقيقة أن تولب كان كالفينيًا ملتزمًا، وينسجمُ مع هذه الأبيات التي دوّنها كاسبار بارلوس[i] بعد سنين قليلة نالت خلالها اللوحة شهرةً واسعةً:" إسمع، علّم نفسك، وبينما تتقدّم نحو الأجزاء، تيّقن أنّ الربّ يكمن في أدق التفاصيل"[135]. أجدُ كلمات بارلوس بمثابةِ ردٍّ على القلق المصاحب للإكتشاف، هذا القلق الّذي تولّدَ عن التساؤل المحتوم التالي: إذا أمكن لنا أنّ نفسّر طبيعتنا على هذا النحو، فما الّذي لا يمكننا تفسيره؟ لماذا لا يمكننا أن نفسّر كلّ شيء آخر يحصل في الجسدِ، بما في ذلك العقل؟ هل يمكننا أن نكتشف كيف لأفكار أحدهم أن *تريد* لليدِ أن تتحرَك؟ خائفًا من أفكاره، تمنّى بارلوس أن يهدّأ من روع العامة ، أو الربّ أو من روعِ كليهما، بالقول أنّه، على الرغم من إختراقها للكواليس و إكتشافها كيف تتمّ الأمور، إلاّ أنّها تفتقر إلى جلال عمل الخالق.لا شكّ أنّه يستحيل فكّ رموز المعنى المُزمَع لتعابير وجه الدكتور تولب ، وأحيانًا حين أقف أمام اللوحةِ أتوقّع أنّه سيتوجّه لِمَن يشاهده قائلاً ببساطةٍ: " أنظر ماذا فعلتُ!". وبغضّ النظر عن المعنى الدقيق، أراد رامبراندت أو تولب، أو ربّما كلاهما، أن نعرف

[i] كاسبار بارلوس Caspar Barleus (1584-1648) جغرافي، لاهوتي، شاعر و مؤرّخ هولندي.

أن أحدًا لم يستسهل ماذا كان يحصل على مسرح التشريح Theatrum anotimicum.[136]

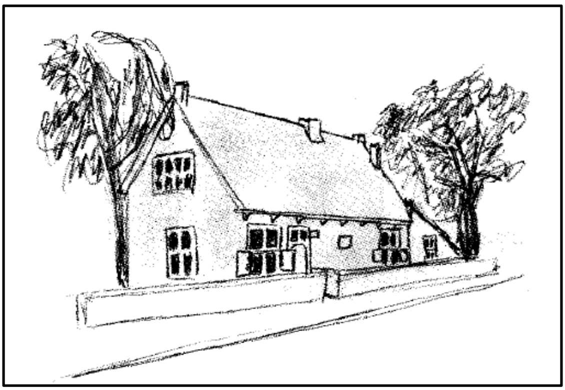
لقد كانت طمأنينة بارلوس الورعة ضروريةً بالفعل مثل ترياقٍ لما كان ديكارت يفكّر به، يومها، في ما يتّصل بالعقل والجسد، وعلى وجه الخصوص نقيض ما سيعتقده و يكتب عنه سبينوزا حول هذه المسألة لاحقًا خلال العقدين التاليين. ومن المدهش أن نلاحظَ – حين نُظهِرَ كيف يمكن للكلمات أن تخدعنا – أنّك إذا إنتزعت موعظة بارلوس من سياقها و وهبتها لسبينوزا، فإنّ المعنى سوف يكون كلّيًا مختلفًا. وهو يشاهدُ تحفة رامبرندت، كان يمكن لسبينوزا أن يقول جازمًا أن *ربّه* تواجد في كلِّ إنشٍ وحركةٍ في هذا الجسد المشرّح، إنّما كان سيحمل كلامه معنىً مختلفًا.

6. زيارة سبينوزا

رايسنبرج، 6 يوليو 2000

أجلسُ في الحديقةِ الصغيرة خلف منزلِ سبينوزا. الشمس مشرقة، الهواء دافئ والصمتُ، تقريبًا، مطبقٌ. قلّةٌ يقودون سياراتهم أو يتجوّلون في شارعِ سبينوزا spinozalaan. فقط قطةُ سوداء تتحرّك، وهي تبدو هادئةً ومتسغرَقةً في تحضيراتها من أجل يومٍ فلسفيّ صيفيّ مبهج!

أنظرُ إلى السماء نفسها الّتي نظر إليها سبينوزا حين خرجَ مرارًا من غرفته وجلس في البقعة عينها. وإنْ لم يخرج، في مثل يومٍ كهذا، كانت الشمس تدخل وتصلُ مكتبه، كحدثٍ مرحبٍ به في هذا الطقس. مكان لطيفٌ، أضيَقُ من المنزلِ في لاهاي ولكنّه يبقى متواضعًا بالنسبة لشخصٍ كان يراقبُ الكون كلّه.



كيف يمكن للمرء أن يصبحَ سبينوزا؟ أسأل نفسي. أو، بعبارةٍ مختلفةٍ، كيف يمكن أن نفسّر غرابته؟ هنا نجدُ رجلاً لم يتفقّ أبدًا مع الفيلسوف الرائد في عصره، وحاربَ، بالعلنِ، ديانةً منظّمة ومن ثمّ أُقصيَ منها، ورفضَ طريقة حياة معاصريه، واضعًا غاياتٍ لمسيره الخاص في الحياة حتّى اعتبره البعضُ قدّيسًا، والبعض الآخر رآه مجنونًا. هل كان سبينوزا ذلك الضال الاجتماعيّ الّذي أعدّ نفسه لكي يكونه؟ أو كان عصيًّا على الفهمِ بالنظرِ إلى ثقافةِ زمانه و مكانه؟ هل يمكن تفسير سلوكه بأحداثِ حياته الخاصة؟ لقد أثارتني هذه الأسئلة، وإذ أتركُ جانبًا تهوَّر وصفِ حياةِ أحدهم على نحوٍ مرضي، أعتقدُ أن بعض الأجوبة الأوّليّة ممكنةٌ.

العصر

بالرغم من أصالته، لم يكن سبينوزا وحيدًا في زمانه التاريخيّ. نشأ في منتصفِ قرن العباقرة، القرن السابع عشر، الفترة الّتي ظهرت فيها أسس العالم الحديث. كان سبينوزا راديكاليًا، ولكن هكذا

كان غاليلي[i] حين أيّد و دعم كوبرنيكوس[ii] لحظة ولادة سبينوزا تقريبًا. كان هذا القرن قد بدأ مع جيوردانو برونو[iii] الّذي أُحرِقَ على الوتدِ، وحينها ظهرت **هاملت** أولى مسرحيات شكسبير في نسختها القديمة (1601). بحلول عام 1605، كان العالم قد استمتعَ بكتاب فرنسيس بيكون[iv] **إرتقاء التعليم**، ومسرحية **الملك لير** لشكسبير، وراوية ثربانتس[v] **دون كيخوتي**. ربّما يكون هاملت شعارَ ذلك العصر كلّه لأنّه يخترقُ مسرحيةَ شكسبير الطويلة يحيّره السلوك البشريّ ويربكه المعنى الممكن للحياة و الموت. للوهلةِ الأولى، قد تبدو الحبكة انّها تدور حول فشلٍ في الإنتقام لوالدٍ مخطىءٍ و قتلِ عمٍّ فظّ، ولكنّ موضوعَ المسرحية

---

[i] غاليلو غاليلي Galileo Galilei (1564-1642) فلكي، فيزيائي وفيلسوف إيطالي أثبت خطأ نظرية أرسطو حول الحركة و أن الأرض كوكب يدور حول الشمس. أرغمته الكنيسة الكاثوليكية على أن يقرّ علانية بأن الأرض لا تتحرك على الإطلاق وأنها ثابتة ، ولكنّه ظلّ ثابتًا على أفكاره بالسرّ.

[ii] نيكولاوس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus (1473-1543) فيلسوف، فلكي، قانوني، طبيب ودبلوماسي بولندي، أول من صاغ نظرية مركزية الشمس ممّا عُدَّ ثورة معرفية (وسياسية) أصبحت رمزًا نموذجيًا للانقلابات العلمية الثورية لاحقًا.

[iii] جيوردانو برونو Giordano Bruno (1548-1600) فيلسوف، رياضي، فلكي، شاعر وكاهن دومانيكي إيطالي. جدّد وطوّر النموذج الكوبرنيكي الفلكي، مؤكّدًا على لانهائية الكون وعدم وجود مركزٍ له. أُحرِق بعد اتهامه بالهرطقة والتجديف على يد الكنيسة الكاثوليكية في روما.

[iv] فر انسيس بيكون (1561-1626) فيلسوف تجريبيّ انكليزي يعدّه البعض مؤسس الفلسفة الغربية الحديثة إلى جانب ديكارت.

[v] ميغيل دي سربانتس Miguel de Cervantes (1547-1616) روائي، شاعر، كاتب مسرحيات اسباني، أحد أشهر الشخصيات الأدبية في التاريخ، كما أن روايته دون كيخوتي Don Quixote de la Mancha هي واحدة من روائع الأدب العالمي.

هو حيرة هاملت، تشوّشُ رجلٍ يعرفُ أكثر ممّن هم حوله، ومع ذلك لا يكفيه ذلك كي يُخمِدَ إنزعاجه من الوضع البشريّ. يحيطُ هاملت بعلم عصره، في الفيزياء والبيولوجيا، فهو، قبل كل شي، طالبٌ في جامعةِ ويتنبرج Wittenberg – وهو على درايةٍ بالإختلالات الفكرية الّتي تسبب بها كل من مارتن لوثر [i] و جان كالفن. ولأنّه غير قادرٍ على منحِ المعنى لما يراه، يطرحُ الأسئلة والشكوى عند كلّ مناسبةٍ ممكنة. ليس من الصدفةِ بمكانٍ أن كلمة "سؤال" تترددُ أكثر من دزينةٍ من المرات في المسرحية، أو أنّ المسرحية تبدأ بالسؤال المحدد :" من هناك؟". وُلِدَ سبينوزا في عصر التساؤلات، الفترة الّتي يمكن أن نطلق عليها عصر هاملت.

كذلك، أبصرَ سبينوزا النورَ في عصرِ الحقائق المُلاحَظة، حين بدأت دراسة مقدّمات ونتائج حركةٍ ما بالتجربةِ وليس من خلال الجدال النظريّ البحت. وقد سبقَ و أتيحَ للذهن البشريّ أن يتحكّم بوسيلةٍ للتفكير منطقيًا و إبداعيًا على النهجِ الّذي برهن عليه إقليدس[ii] Euclid. على أيّةِ حال، نستعيد كلمات

[i] مارتن لوثر Martin Luther (1483-1546) لاهوتي ومصلح ديني ألماني وفيلسوف أوغسطيني مؤسّس البروتستانتية الّتي كان لها الأثر الكبير على مسيرة الحضارة الغربية.

[ii] هو إقليدس بن نوقطرس بن برنيقس الإسكندري (300 ق.م – 265 ق.م) رياضياتي وفيلسوف اغريقيّ، يلقّب بأبو الهندسة. ظلّت اكتشافاته وأعماله الهندسية (المعروفة بالهندسة الاقليدية) سائدة لقرون عديدة على عالم الهندسة والرياضيات.

آينشتاين[i] "قبل أن يحصد البشرَ علمًا يحيط بالمعرفة كلّها، فإنّ حقيقةً ثانوية كانت ضروريةً... كل معارف الواقع تبدأ بالتجربة و تنتهي بها"[137]. وقد ذكر آينشتاين غاليلو Galileo على أنّه المثال الأنسب على هذا المسلك، إذ وجد فيه "أبَ العلوم كلّها"، مع أنّ بيكون Bacon كان هو الآخر رائدًا في هذه المقاربة الجديدة. كلاهما، غاليلو وبيكون، دافعا عن التجربةِ وأقبلا على الإستبعاد التدريجيّ لكلّ التفسيرات الزائفة، وأضاف غاليلو أمرًا آخرَ إذ إعتقد أنّ بالإمكان وصف الكون بلغة الرياضيات، وهي مقولة سوف تكون بمثابة حجر زاويةٍ لإنبثاق العلوم الحديثة. [وهكذا] تزامنت ولادة سبينوزا مع الإزهرار الأوّل للعلوم في العالم الحديث.

في ذلك العصرِ، ظهرتَ أهمية القياسِ measurement وأمستِ العلوم كمّيةً. بدأ العلماء بإستخدام المنهجِ الإستقرائيّ inductive كوسيلة، وأصبحَ التحقّق التجريبيّ أساس التفكير بالعالم، وبدأت تتهاوى الأفكار التي لم تعد تتوافق والوقائع.

---

[i] آلبرت آينشتاين Albert Einstein (1879-1955) المنظّر الفيزيائي الألماني. ربّما هو أشهر علماء الفيزياء في التاريخ. وضع نظرية النسبية (الكبرى والصغرى) مساهمًا بشكلٍ كبير في تطوير علم الفلك و الجزيئات. نال جائزة نوبل للفيزياء عام 1921. كان قارئًا فلسفيًا نهمًا وتأثر بإرنست ماخ، ونيتشه وبرغسون، وبالطبع سبينوزا.



كانت هذه الحقبة محتشدِةً بالأفكار. تقريبًا قبيل تاريخ ولادة سبينوزا، كان ديكارت و توماس هوبز[i] يبرزان كوجهين فلسفيين بارزين، وهارفي كان يصف دورة الدماء. في حياة سبينوزا القصيرة، كان يمكن للعالم أن يتعلّم من أعمال بليز باسكال[ii] ،

[i] توماس هوبز Thomas Hobbes (1588-1679) فيلسوف انكليزي، كان لكتابه الشهير اللفيثان *Leviathan* تأثيرًا كبيرًا على الفلسفة السياسية الحديثة، ويعالج هذا الكتاب نشأة الدولة والسيادة وفق عقد اجتماعي-سياسي ينقل المجتمع من حال الفوضى و الاقتتال إلى الأمن والاستقراروالتعاون تحت سيادة وهيمنة الحاكم المفوَّض بحفظ الدولة والمجتمع.

[ii] بليز باسكال Blaise Pascal (1623-1662) لاهوتي وفيلسوف و عالم ومخترع فرنسي. ساهم بدراسات قيّمة عن السو ائل وفي تطوير المنهج العلمي.

جوهانس كبلر[i] ، هاغنز، غوتفريد لايبنتز واسحق نيتون[ii] (الّذي وُلِد تقريبًا بعد عشرة سنوات من ولادة سبينوزا). وكما قال آلفرد نورث وايتهيد[iii] بفطنةٍ:" ببساطة، لم يكن هناك متّسعٌ من الوقتِ أمام القرنِ لكي يفسح المجال، بشكلٍ كافٍ، لأحداثه الكبرى في ما يتعلّق العباقرة!"[138]

كان موقف سبينوزا العام من العالم جزءًا من تساؤله الجديد المختمر ، وكان متأصّلاً في بعض التغيّرات اللافتة للنظر في ما خصّ طريقة صياغة الشروحات و الحكم على المؤسسات. ولكنّ معرفة أين كان سبينوزا يتأطّر في التخطيطة التاريخية الكبيرة وإكتشاف أنّ ألمعيته لم تكن وحيدةً لا يفسّر لماذا كان شخصية القرن الّتي مُنِعَت أعمالها بعنفٍ، بعنفٍ شديدٍ حتّى أنّ كلّ إحالة إلى أفكاره ظلت تعترضها صعوباتٍ لقرونٍ عدة، باستثناء في حالات الطعنِ فيها. وربّما لم يكن سبينوزا أكثر راديكاليةً من غاليلو في ملاحظاته، ولكنّه كان أكثر صلابة، لا بل أكثرَ تصلّبًا؛ لقد كان من أشدّ المتمرّدين. و بشجاعةٍ وفي الآن عينه

---

[i] جوهانس كبلر Johannes Kepler (1571-1630) فلكي شهير من أتباع كوبرنيكوس. أثبت أن الكواكب لا تدور حول الشمس وفق مدار دائري بل اهليليجي.

[ii] اسحق نيوتن Isaac Newton (1642-1727) عالم رياضيات وفيزياء، فيلسوف ولاهوتي، فلكيّ وكيميائي بريطاني. مؤسس الميكانيكا الحديثة.

[iii] آلفرد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead (1861-1947) فيلسوف ، منطقي ورياضياتي بريطاني.مؤسس المدرسة الفلسفية المعروفة بفلسفة السيرورة أو اونطولوجيا الصيرورة.

بتواضعٍ، هدّد سبينوزا صرح الديانةِ المنظمة في أساساتها. بصورة أشمل، هدّد سبينوزا البنى السياسية ذات الصلة الوثيقة بالدين، ويُتوَقَّع أن ممالك عصره قد أحسّت بالخطر، كذلك فعلت مقاطعاتها الهولندية، وهي الدولة الأكثر تسامحًا حينها. أيَّ نوعٍ من قصص الحياة التي يمكنها أن تساعدنا في تفسير تطوّر عقليةٍ كهذه؟

لاهاي، 1670

حين أحاول أن أفهمَ مسار حياة سبينوزا، أعود مرارًا إلى لاهاي وإلى وصوله تُرعة بافلجنزغراشت Paviljoensgracht، خلال سكونٍ وجيز بين عاصفتين، في رؤيةٍ بانورامية تشرحُ الما-قبل، والما-بعد و الأسباب. كان سبنوزا يبلغ 38 عامًا حين وصل إلى لاهاي، وكالعادة بمفرده؛ بالإضافة إلى مكتبته، إبتاع حقيبة كتب، مكتبًا، سريرًا، ولوازمَ لصناعة العدسات. كان بإمكانه أن ينهيَ كتابه **الإيتيقا** في الغرفتين اللّتين استأجرهما في بافلجنزغراشت، وهو يعملُ بشكلٍ يوميّ في صناعة العدسات، يستقبل مئات الزوّار، ونادرًا ما كان يبتعد لمسافة طويلةٍ. سوف يذهب إلى أوتريخت Utrecht مرةً، وإلى آمستردام مراتٍ عدّة، لمسافة لا تزيد عن ثلاثين ميلاً من لاهاي،

ولم يذهب مطلقًا أبعد من ذلك. نتذكّر إيمانويل كانط[i] ، المنعزل المرموق بدوره والّذي تفوّق على سبينوزا حين بقيَ طوال حياته في كونيسبرغ Konigsberg، وقيلَ أنّه لم يخرجَ من مدينته هذه إلاّ مرةً واحدة. في ما يتجاوز النفور من السفر، والمعيار الثقافي، نلحظ عند الاثنين تشابهًا صغيرًا: طمح كانط إلى مجابهة مخاطر الهوى Passion بعقلٍ خالٍ من ذلك، وطمحِ سبينوزا إلى مكافحة الهوى الخطير يعاطفةٍ لا تُقاوَم، و تطلبت العقلانية التي توسّلها العاطفةَ كمحرَكٍ. كما لم تكن طريقة الرجلين متماثلة بقدر ما أتصوّرهما، فكانط، على الأقل كانط المتأخر، كان متوتّرًا و متكلّفًا، في مثالٍ على الإحتراس المهذّب. سبينوزا كان، وإن يكن مع أمارات المجاملة و الرسميات، ودودًا و مسترخيًا. أمّا سبينوزا المتأخر – إن أمكن لنا إطلاق هذه الصفة على من لم يبلغ الأربعين من عمره – فكان لطيفًا، عذبًا تقريبًا، بالرغم من ألمعيتهِ وكلامه الحادّ.

لأشهر قليلة قبل أن يرحل عن بافلجنزغراشت ، استأجر سبينوزا غرفًا قاب قوسين أو أدنى من ستيلفركاد stille veerkade. ولأن كان الأجر مرتفعًا، أو هكذا كان يعتقد، سرعان ما غادر

---

[i] ايمانويل كانط Immanuel Kant (1724-1804) فيلسوف الماني شهير، مؤسس النقد الفلسفي و الفلسفة المثالية المتعالية. المفكّر الأكبر لعصر الأنوار ما تزال فلسفته تلقي بظلالها على كافة التيارات الفلسفية اليوم.

المكان. وقبل ستيلفركاد كان سبينوزا قد سكن لسبعِ سنين في فووبورغ Vooburg، وهي ضاحية صغيرة شرق لاهاي، وقبل ذلك أمضى سنتين في رينسبورغ Rijnsburg، وهي بلدة قريبة من ليدن Leiden، منتصف المسافة بين امستردام و لاهاي. ومنذ غادر منزل عائلته إلى حين إنتقاله إلى رينسبورغ، عاش سبينوزا في أماكنَ عديدة في أمستردام أو على مقربة منها؛ أحيانًا كان يحلّ ضيفًا على أصدقاء، وأحيانًا أخرى كنزيل. لم يمتلك يومًا منزله الخاص ولم يكن بحاجة إلى أكثر من غرفةِ نومٍ و حجرة كتابة.

فرضَ سبينوزا على نفسه أن يكون مقتصِدًا في معيشته، و على الرغم من تقلّب تجارة والده صعودًا وهبوطًا، ترعرع سبينوزا في كنفِ عائلة ثرية، وكان عمّه آبراهام واحدًا من أثرى تجّار آمستردام، وقد اشترت والدة سبينوزا متاعًا كثيرًا وقت زفافها. ومع ذلك، حين بلغ العشرينيات من عمره لم يعد سبينوزا مكترثًا بثروته الشخصية ولا بمكانته الإجتماعية، ولكنّه لم ينظر إلى الأرباح التجارية بعين الريبة. ببساطة، لم يجد في النقود والأملاك ما يستحقّ العناء، بالرغم من معرفته بأنها كانت كذلك بالنسبة للآخرين، وأنّ تحديد حجمِ الثروة التي يجب على المرء أن يجمعها وكمية ما يلزم أو ما يحتاج أن ينفقه ترتبط بكل فردٍ على حدة. فليكن كلّ واحدٍ قاضيَ ذاته.

تدريجيًا، و في خضّم صراعٍ، اتّخذ سبينوزا موقفه هذا من الثروة و المكانة الاجتماعية: ثمّن قيمة دراسته مع معرفته بإنها كانت مستحيلة التحقق من دون توفّر الموقع المالي والاجتماعي لعائلته. وما بين مراهقته المتأخرة و الرابعة والعشرين من عمرهِ، كان رجلَ أعمالٍ تولّى لفترةٍ مؤسسة عائلته التجارية؛ وحينها لا بد من أنّه كان يهتمّ بالمال بما يكفي كي يسوق يهوديًا مثله إلى المحكمة الهولندية عندما يتخلّف عن دفع ديونه. من منظور طائفته كان هذا العمل الّذي قام به وقحًا، بسبب أنّ كلّ خلافٍ بين أتباع الجماعة اليهودية كان يلزم أن يُسَوّى داخل أسوار الجماعة وبأمرٍ من قادتها. حين توفيَ والده تاركًا الشركة ترزح تحت كمية معتبرة من الديون، لم يتردد سبينوزا بجعل نفسه وصيًا لدى المحكمة الهولندية ومستفيدًا أوّلاً من ميراث الوالد. وفي ما يخصّ المال والملكية كانت هذه الواقعة الأخيرة بمثابة حدٍّ فاصل: تخلّى سبينوزا عن كامل الميراث بإستثناء شيءٍ واحدٍ: سرير نوم والديه! هذا التخت *ledikant* الّذي سوف يرافقه من مكانٍ إلى آخرٍ، والّذي سوف يموت على فراشه في نهاية المطاف. وبالمناسبة أجد من المدهشِ حقًا أنه احتفظَ بهذا التخت! طبعًا، توجد أسباب عملية للإحتفاظ به، على الأقل لبعض الوقت، فهو تختٌ مغطّى، ذو أربعة أعمدة، مع ستائر ثقيلة يمكن جذبها لكي يصبح التختُ مثلَ جزيرة دافئة ومعزولة. و في عصر سبينوزا كان التختُ هذا علامةً

على البحبوحة، فيما كانت الأسرّة المعتادة في منازل أمستردام موجودةً في الخزانات armoire bed – أي ذلك السرير الموجود، حرفيًا، داخل خزانة حائطٍ واسعة يمكن فتح أبوابها ليلاً وقت النوم. ولكَ أن تتخيّل إحتفاظكَ بسريرٍ حيث حبلت بكّ أمّك، وحيث كنت تلعب حين كنتَ طفلاً، وحيث توفيَا والداك، ولك أن تتخيَّل أنّك تنام عليه حتى يومِ مماتك، وأن تحيا، عمليًا، فيه! لم يحتج سبينوزا أن يحلم ببراعم الورد الطويلة [المنقوشة على الفراش] لأنّه لم يتركها يومًا!

في منتصف حياة سبينوزا القصيرة، قلّلت الظروف التاريخية من قيمة و نفعية مؤسسة العائلة، بالرغم من أنّه لا يمكن وصف ذلك بالكارثة. لا شكّ أنّ سبينوزا، كرجلٍ أعمال ذكيّ ومغامر، كان بمقدوره أن يقلب تلك الخسارة في الثروة رأسًا على عقب، ولكنّه كان قد اكتشف حينها أنّ التفكير و الكتابة يرضيانه، وإنّه لا يحتاج سوى إلى القليل لأجلِ أن يسند الحياة التي سوف يكرّسها لهما. غالبًا ما حاول صديقه سيمون دو فريس Simon de Vries تزويده براتبٍ شهريّ، ولكنّ سبينوزا رفض ذلك دومًا؛ وحين حاول دو فريس المقبل على الموت جعلَ سبينوزا وريثه، أقنعه سبينوزا بالعدول عن ذلك وأصرّ أنّه لن يقبل منه إلاّ دخلًا سنويًّا بسيطًا (500 فلورين) يمكن أن يساعده على

تغطية نفقاته. وحين توفي دو فريس وحاول الورثة إعطاء سبينوزا المبلغ المتفق عليه، قام الأخير بتقليله أكثر ولم يقبل سوى بـ 300 فلورين، وقد أخبر شقيق الراحل دو فريس المنهدشَ إنّ هذا المبلغ القليل من المال يكفيه. لاحقًا، رفض أيضًا عرضًا سخيًّا لكي يصبح استاذًا في الفلسفة في جامعة هايدلبرغ Heidelberg – وهوموقعٌ عُرِضَ عليه بعد توصية من لايبنتز – بالرغم من أنّ السبب الحقيقي لرفضه هذا يتعلق، على الأرجح، بإحتمال خسارته لحريته الفكرية؛ رغم ذلك، عنى هذا الرفض إنّ سبينوزا يثمّن فكره أكثر من وسائل الراحة التي كان يوفّرها القاضي الأعلى المنتخب في هايدلبرغ. اعتاش سبينوزا من عمله في صناعة العدسات، وبعد العام 1667، على المعونة السنوي من دو فريس. كانت الأموال كافيةً لتسديد إيجار الغرفة والمأكل، لشراء الأوراق، الحبر، الزجاج، والتبغ؛ ولكي يسدد فواتير الطبيب. و لم يحتَج أكثر من ذلك.

آمستردام 1632

لم تكن الحياة هكذا دائمًا، أكان للأفضل أو للأسوأ. كان ميغيل دو سبينوزا Miguel de Espinoza، والد الفيلسوف، تاجرًا برتغاليًا

ثريًا، وهكذا كان جدّ سبينوزا لأبيه. حين وُلِد في العام 1632، كان والد سبينوزا يتاجر بالسكّر، التوابل، بالفواكه المجففة وبالخشب البرازيلي من مستودعه. كان عضوًا له موقعه المحترم في الجماعة اليهودية الّتي كانت تعدّ حوالي 1400 عائلة، تقريبًا كلّها من أصول سفردية[i] Sephardic برتغالية. وكان ميغيل مساهمًا كبيرًا في الكنيس اليهوديّ. لمرّاتٍ عدّة، تولّى منصب رئيس (a parnas) المدرسة اليهودية والكنيس، وفي سني حياته الأخيرة كان عضوًا في الماماد ma'amad، المجموعة العلمانية التي تدير شؤون الجماعة اليهودية. وكان صديقًا مقرّبًا للحاخام شاؤول ليفي مورتيرا Saul Levi Mortera وهو أحد أبرز الحاخامات وأكثر تأثيرًا في آمستردام حينها. أمّا عمّ سبينوزا آبراهام فكان صديقًا للحاخام منسّى ابن اسرائيل Menassah ben Israel، وهو حاخامٌ آخر على قدرٍ من الاعتبار في عصره. وكالعديد من اليهود السفرديم، ترك الأخوان سبينوزا البرتغال ومحاكم التفتيش[ii] Inquisition إلى مدينة نانت Nantes الفرنسية في البدء، ومن ثمّ نحوالبلاد المنخفضة

---

[i] السفرديم أو السفرديون هم مجموعة عرقية يهودية استوطنت شبه جزيرة ايبريا قبل سقوط الاندلس عام 1492.

[ii] من اللاتينية inquisition. محاكم خاصة أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية منذ القرن الثالث عشر في فرنسا لأجل محاكمة ومعاقبة كلّ من اتُّهم بلخروج عن تعاليم الكنيسة وقوانينها. جمعت بين ضحاياها المسيحيين البروتستانت واليهود والمسلمين وكلّ من وصمتهم بالهراطقة والمجدّفين. هي رمز لعصر الظلمات الاوروبي، والتشدد العقائدي.

حيث استقروا وأسسوا أعمالهم قبل ولادة سبينوزا بزمنٍ قصير. والدة هذا الأخيرة، هانا دبوراه Hana Deborah، أيضًا كانت سليلة عائلة سفردية ثرية من أصول برتغالية واسبانية.

قبل اسبانيا بزمنٍ طويل، كانت محاكم التفتيش قد تأسّست في البرتغال. في العام 1536، بدأت هذه المحاكم عملها في هذه البلاد ولم تعمل بزخمٍ سوى بعد العام 1580. أتاحت هذه المهلة الطويلة لليهود البرتغاليين الفرصة للهجرة إلى آنتورب Antwerp ولاحقًا إلى آمستردام، أرض الميعاد الأكبر من شمال افريقيا وشمال ايطاليا ومن تركيا إلى حيث هاجر اليهود ايضًا في القرن الأسبق.

في بداية القرن السابع عشر، كانت هولندا، وآمستردام بالتحديد، أرض ميعادٍ بالفعل. تقريبًا وعلى عكس أيّ مكانٍ آخر في أوروبا، تميّزت البنية الاجتماعية والسياسية بتسامحٍ عرقيّ نسبيّ (طال اليهود، بالأخص إذا كانوا من السفرديم) و سياسيّ (طال اليهود ايضًا وبكل ترحابٍ، ولكن لم يكن كذلك مع الكاثوليك). وكانت الارستقراطية متعلّمة بالقدر الكافي ومحِبّة

لأعمال الخير. كان هناك أمراءٌ من الأورنجيين[i] Orange ولكنّهم تبوّأوا منصب الحاكم العام وهو رئيس تولّى مسؤولية مجلس المحافظات الهولندية. كانت هولندا جمهوريةً، ولفترة طويلةٍ خلال حياة سبينوزا لم يكن الحاكم العام أميرًا من آل اورانج بل ألمعيٌّ من العامّة. كان الهولنديون أول من أدخَل العدالة المعاصرة والرأسمالية الحديثة. كانت التجارة محترمة، ومُنِحَت النقود قيمةً عظمى، و وضعت الحكومة قوانينًا سمحت للمواطنين بالبيع والشراء بكلٍّ حريةٍ وبأفضل الميزات. ازدهرت برجوازية متّسعة الصفوف كرّست نفسها للسعي إلى المُلكية وحياة الرفاه، ورحّب القادة الكلفانيون المتنورون بمساهمات التجّار البرتغاليين اليهود في ذلك السعي الحثيث.

على الرغم من الاجتثاث الثقافي، كانت الجماعة اليهودية على درجة عالية من الثقافة ومن رغد العيش. بلا شكّ، وُجِدت بعض الصعوبات التي فرضها المنفى، كذلك الخلافات الدينية الداخلية، والحاجة إلى مراعاة البلد المضيف، ومع ذلك يُرجَّح أن الجماعة اليهودية كانت أكثر تماسكًا ممّا كانت عليه في البرتغال حين كانت متناثرة فوق مساحة واسعة تحت الظلّ الجامح

---

[i] نسبة إلى مدينة أورانج (اليوم في فرنسا). والأورنجية تسمية للقوى السياسية التقليدية والمحافظة الّتي عارضت أنصار الجمهورية الليبراليين في هولندا منذ القرن السابع عشر حتى بدايات القرن التاسع عشر.

لمحاكم التفتيش. بكامل حريتهم، مارس اليهود طقوسهم الدينية في منازلهم و في الكنيس. ازدهرت تجارتهم حتّى استطاعت أن تنجو من الكساد الاقتصادي الّذي تلى الحروب المتكررة مع اسبانيا وبريطانيا، و كان بإمكان اليهود أن يستخدموا لغتهم البرتغالية، من دون وصمة عارٍ، في المنزل و العمل وفي الكنيس.

لم يوجد حيٌّ يهوديّ في امستردام، وأمكن لليهود أن يسكنوا أينما طاب لهم ومتى أمكنهم ذلك. اختار بعض المترفين منهم السكن حول سياج البرغوال burgwaal، وهنا اختارت عائلة سبينوزا أن تعيش، ليس بعيدًا عن الكنيس السفردي الّذي متّن العلاقة بين الجماعات اليهودية الثلاث في امستردام، وهو الّذي بُنِيَ مؤخّرًا في هوتغراخت Houtgracht في العام 1639 (و الكنيس اليهوديّ البديع الّذي بقيَ اليوم تم تشييده قرابة العام 1675). وقد امتلك العديد من غير اليهود منازلَ في المنطقة عينها، وأحدهم كان رمبراندت الّذي عاش في بريشترات Breestraat في منزلٍ ما زال قائمًا حتى اليوم. لا نملك دليلاً على لقاءٍ حصل بين رمبراندت وبين سبينوزا بالرغم من أنّ التداخل في التواريخ (عاش رمبراندت بين 1606 و 1669، سبينوزا من 1632 إلى 1677) قد يؤكّد التقاءهما. عرِف رمبراندت عددًا من أعضاء الكنيس اليهودي، بعضهم كان من جامعي التحف الفنية المتعطّشين. لقد



رسم رمبراندت بعض هؤلاء في بورتريهات، بينما هم في الشوارع، أو في الكنيس، و صوّر كتاباً لمنسّى ابن اسرائيل، أحد أشهر المدرسيين اليهود في زمانه و هو في النهاية، أحد أساتذة سبينوزا. كما استشار رمبراندت بن اسرائيل حول تفاصيل لوحته *عيد بلشزار Belshazzar's Feast*.

سيكون أمرًا جميلاً لو اكتشفنا أن رمبراندت رسم بورتريه سبينوزا، ولكن لا يوجد دليل على ذلك. وتقول الاسطورة أن رمبراندت قد استخدم رسمًا شبيهًا بسبينوزا من أجل لوحته *شاؤول و داوود*، والتي أكملها في الوقت الّذي طُرِد فيه سبينوزا من الكنيس. تصف هذه اللوحة داوودَ وهو يضرب على القيثار لأجل شاؤول (وهذه اللوحة مختلفة كلّيًا عن لوحة رمبراندت الأخرى المسمّاة *داوود ضاربًا القيثارة لأجل شاؤول*). فعلاً، قد تكون هيئة وسِمات داوود هي تلك الخاصة بسبينوزا. وما هو أكثر أهميةً أن

سبينوزا أُعيدَ رسمه على صورةِ داوود – قصير القامة ولكن قوّي بشكلٍ غير متوقّع، بمقدوره أن يصرع جولياث Goliath ويُغضِبَ شاؤول، وأن يصبح بنفسه ملكًا [139].

كانت القيود التي فرضها الهولنديون البروتستانت قليلةً و واضحةً، فقد عاملوا الكاثوليك كأعداء، بالأخص الاسبان منهم، مع مخططاتهم الشيطانية والحربية. اليهود أيضًا عاملوا الكاثوليك كأعداء، بالأخص الكاثوليك الاسبان الّذين لم يكتفوا بإنشاء محاكم تفتيشٍ وحشية، بل ضغطوا على البرتغاليين لإنشاء محاكمهم الخاصة المماثلة. تحت ظروفٍ كهذه، كان من الطبيعي أن يكون اليهود والهولنديين أصدقاء. كما أن التجارة كانت مهنة الهولنديين وقد جلت اليهود البرتغاليون أعمالاً تجارية مربحة للمقاطعات الهولندية. تفوّق اليهود في سيطرتهم على شبكة واسعة من الصلات التجارية والبنكية في شبه الجزيرة الايبيرية [اسبانيا والبرتغال]، أفريقيا والبرازيل. حصل لديكارت أن ذكر إنّ كلّ من كان في امستردام ، باستثنائه، انخرطَ بحماسةٍ في التجارة، شديد الانتباه لمصلحته الخاصة حتّى يمكن للمرء أن يعيش كلّ حياته في هذه المدينة من دون أن يلفت النظر (إلى حدٍّ ما كان هذا الكلام الصحيح نابعًا عن رغبة ذاتية، بالرغم من أن ديكارت قلّما كان يفلت من الانتباه). خلال فترة ترعرع سبينوزا،

شكّل اليهود حوالي 10% من أعضاء بورصة آمستردام وكان دورهم حيويًا في ما يتعلّق ببعض المهام الخاصّة بتجارة السلاح والخدمات المصرفية الدولية. بحلول عام 1672، ارتفع عدد يهود آمستردام إلى ما يقارب 7500 شخص، أقل من 4% من السكّان، ولكن 13% من اجمالي عدد المصرفيين. (ويشير سيمون شاما أن رخاء الجماعة اليهودية في آمستردام يعود، على الأرجح، إلى كونهم مكوّنًا مرموقًا، ولكن ليس متحكّمًا، في حياة المدينة، بما في ذلك خدماتها المصرفية[140]). لذلك، ليس مفاجئًا أن يدعم الهولنديون اليهود؛ وطالما لم يحاول هؤلاء تحويل البروتستانت إلى اليهودية، أو أن يصاهروهم، فلهم الحرية في ممارسة طقوسهم الدينية وتعليم دينهم لأولادهم.

بغضّ النظر عمّا قدّمته آمستردام من حسن الاستقبال لضيوفها، لا يمكن أن نتخيّل حياة سبينوزا الشاب من دون آثار المنفى. ظلّت اللغة بمثابةِ منبّهٍ يوميّ ، وإذ تعلّم سبينوزا الهولندية والعبرية، ولاحقًا اللاتينية، ولكنّه تحدّث بالبرتغالية في البيت، و هذه أو الاسبانية القشتالية في المدرسة. والده تحدّث دائمًا بالبرتغالية في البيت وفي العمل، وقد سُجِّلَت كلّ المعاملات بالبرتغالية، ولم تستُخدَم اللغة الهولندية إلاّ وقت التعامل مع الزبائن الهولنديين. والدة سبينوزا لم تتعلّم الهولندية. وقد تحسّر

سبينوزا على أنّ براعته في الهولندية واللاتينية لم ترتقِ يومًا إلى مستوى البرتغالية أو القشتالية :" كم تمنيّت حقًّا لو كان بمقدوري أن اكتب إليك باللغة التي تربيت عليها"، هكذا كتب إلى أحد مراسليه.

إذا وضعنا الثراء جانبًا، كانت أساليب الحياة والثياب تذكيرًا آخرَ بأن آمستردام كانت منفى أكثر ممّا هي وطن. كان السفرديم أرستقراطيي اللباس والمشية، كوزموبوليتانيين ودينيويين، وقد عكست أساليبهم حياةَ رجال أعمالٍ أرستقراطيين في جنوب أوروبا – وكلمة سفرديم تحيل إلى هؤلاء القادمين من مدن الجنوب، أي السفاراد Sepharad. في الجنوب هذا مزجتِ الحياةُ بين العملَ و المعاشرة الاجتماعية إلى درجة كبيرة، وربّما شجّع اعتدال الطقس على هذا المزج. ظهرَ اهتمامٌ بالألبسةِ الأنيقة والفاخرة، وبسماع الأخبار المعتادة من الأماكن القاصية، والتي كانت تصل يوميًا عبر السفن التجارية المتّصلة بالموانىء الكبرى في لشبونة أو بورتو Porto. وعلى سبيل المقارنة، بدا لليهودِ أنّ الهولنديين مجتهدون وعمليون أكثر من غيرهم.

ربما كان مقدَّرًا لسبينوزا في البداية أن يكون تاجرًا، ولكنّه، بالمقابل، أصبحَ طالبًا لامعًا في الديانة اليهودية، بتوجيهٍ من الحاخام مورتيرا و الحاخام ابن اسرائيل. وقد أحضر قادة

الجماعة اليهودية هذين الفقيهين اليهوديين إلى آمستردام على أملِ تدارك تراجع الممارسات الدينية التي تلت قرونًا من اللجوء في شبه الجزيرة الايبيرية. كان الوقت ناضجًا لإعادة احياء التقاليد اليهودية بعد أن أصبحت الجماعة ثرية، مترابطة جغرافيًا، ولم تعد طقوسها الدينية تتطلّب أن تبقى سرية. كوّن اليهود وطنًا، وأصبحت آمستردام أورشليم الجديدة في هذا الوطن. وفي هذا الجو من الأمل والإحياء، خُصَّ ذكاءُ سبينوزا المذهل باحتضانٍ خاص.

أثبت سبينوزا انّه طالبٌ جادّ ومجتهدٌ، ولكنّ الاجتهادَ هذا كما الفضولية اللذين جعلا منه عليمًا بالتلمود، دفعاه أيضًا إلى مساءلة أسس تلك المعرفة التي استوعبها بكليّتها. كان يطوّر مفاهيمَ حول الطبيعة البشرية ابتعدت، في نهاية المطاف، عن تلك المعرفة. بدا أن هذا التباعد يسير بشكلٍ تدريجيّ، ومن المرجّح أن الجماعة اليهودية لم تلحظ ذلك إلى أنّ أصبح سبينوزا رجلَ أعمالٍ وكان بحدود الثمانية عشر من عمره. وحتّى يومها لم تحصل أيّ مواجهات مباشرة مع الكنيس، إلاّ على سبيل الاشاعات، واستمر سبينوزا عضوًا فيه بمكانة مرموقة. ومع ذلك، كانت الاشارات واضحة: كوّن سبينوزا صداقات مقرّبة مع العديد من غير اليهود، من بينهم زميله سيمون دي فريس، وهو

رجل أعمال ثريّ امتلكت عائلته بيتًا رائعًا في سينجل Singel وعقاراتٍ في شيدام Schiedam، بالقرب من آمستردام، وكان في بداية ابتعاده عن الجماعة. ولكنّ الأسوأ لم يأتِ بعد!

لم يكن سبينوزا قد أكمل العشرين من عمره، وربّما أبكر في الثمانية عشر، حين تسجّل في مدرسة فرانس فان دن اندن[i] بغرضٍ معلنٍ هو دراسة اللاتينية. فان دن اندن هذا كان كاثوليكيًا متخليًا عن واجباته الدينية، مفكّرًا حرًّا، ومتعدد اللغات واسع الاطّلاع؛ حاز شهاداتٍ في الطبّ كما في الناموس، ذا دراية في الفلسفة، السياسة، الدين، الموسيقى، الفنون، واذكروا أيضًا ما شئتم! هذا النهَم الهائل للحياة لم يورّط فان دن اندن في المشاكل، ولكنه خلق مشاكلَ لسبينوزا الشاب. خِفيةً في البداية، ولكن لاحقًا علنيةً، أولاً كمراهق، وتاليًا كشابٍ، خبِرَ سبينوزا الحياة خارج فردوس جماعته. أعلن عمّا في باله، وتصرّف بموجب ذهنه، ردّت الجماعة بخيبةٍ، و من ثمّ بغضب!

بحلول سنة 1656، بعد عامين من وفاة والده، استمر سبينوزا، ابن الاثنين والعشرين ربيعًا والمسؤول عن شركة عائلته " بنتو وغابرييل دي سبينوزا"، بدعمِ مالية الكنيس. ومع ذلك،

---

[i] أو فرانسيسكوس فان دن اندن Franciscus van den Enden (1602-1674) فيلسوف هولندي واستاذ سبينوزا. حمل أفكارًا مساواتية، ديمقراطية معادية للاهوت.

متحررًا من الإحراج أمام الجماعة بعد وفاة الوالد ، لم يستر أفكاره المتعلقة بطبيعة الكائنات البشرية، الإلَه وممارسة الشعائر الدينية، والتي لم تتوافق، بسهولةٍ، مع التعليم اليهودية. كانت فلسفته تتبلوّر وهو يتكلّم بحريةٍ عن أفكاره، ولم تنفع توسّلات مرشديه السابقين في اسكاته، لم تثنيه أيّ مغرياتٍ، أو الرشاوى أو بدّلت التهديداتُ أفكاره. كادت محاولة قتلٍ قام بها أحد الأتباع اليهود أن تضع حدًا لحرجِ الجماعة، بالرغم من أنه ليس مؤكّدًا وقوف الكنيس وراء هذه المحاولة. العباءة الواسعة التي كان سبينوزا يرتديها تلك الليلةِ التي طُعِنَ فيها أبقتَ النصلَ بعيدًا عن جسده النحيف، وقد نجا سبينوزا، ليرويَ، بصلابةٍ، ما حدث له، محتفظًا بالعباءةِ كتذكارٍ. في خاتمة المطاف، وكعلاجٍ أخير، قرّر الكنيسُ إقصاءه كلّيًا عن الجماعةِ، وفي العام 1656، نُفيَ سبينوزا بشكلٍ رسميّ. هكذا انتهت حياة الثراء التي عاشها من وِلدَ بإسم بنتو سبينوزا، وهو الاسم الّذي كان يوقّع به كرجلٍ أعمالٍ، ومَن عرفته الجماعة تحت اسم باروخ سبينوزا. و هكذا بدأت الواحد والعشرون سنة من حياة بنيدكتوس سبينوزا Benedictus، الفيلسوف الّذي أمضى سني نضجه في لاهاي.

أفكار وأحداث

إن دلّت مكتبة سبينوزا الصغيرة إلى شيء، فعلى كون الفلسفة الجديدة والفيزياء الجديدة في عصره قد أثّرتا بشكلٍ كبير على نموّه الفكريّ. كانت كتب ديكارت والفيزيائيين هي الأكثر حضورًا في خزانة كتبه، وهوبز Hobbes كان حاضرًا أيضًا، ولكن يبدو أن سبينوزا الشاب كان قارئًا نهمًا، استعار من حلقة أصدقائه المقرّبين كتبًا لن نستطيع تتبّع آثارها. بلا شكّ، تعرّف سبينوزا على الطرائق الجديدة في تقييم الأدلة العلمية، وعلى الحقائق الجديدة في الفيزياء والطبّ، وعلى الأفكار الجديدة التي مثّلها ديكارت وهوبز، وربّما كان هذان أكثر من قرأه سبينوزا في سنواته التكوينية. لم يكن سبينوزا تجريبيًا بشكلٍ منهجيّ، ولكنّ بيكون، لاحقًا، لم يكن كذلك أيضًا. ومع ذلك فقد حاز سبينوزا على معرفةٍ في العلوم التجريبية بفضل قراءاته وربّما بفضل عمله في العدسات. من المؤكّد أنه عرِف كيف يقيِّم الحقائقَ، وتأتت انجازاته عن التأمّلاتِ المنطقية حول مجموعة واسعة من الأدلة العلمية الجديدة، واكتملت بفضل حدسٍ غنيّ.

ربما كانت مدرسة فرانس فان دن اندن، ورئيسها أيضًا، محفّزًا قويًا لتطوّر سبينوزا الفكري. وكانت حلقة فان دن اندن

مثاليةً بالنسبة لسبينوزا كي يناقش الأفكار التي كانت، كما هو واضح، تغلي في ذهنه الشاب والتي احتاجات لبعض الانفتاح، ولو بشكلٍ محدود، من أجل أن تختمر. أدار فن دن اندن مدرسةً فخمةً (في سنغل Singel، أحد الشوارع الرئيسية في آمستردام) تردد اليها أبناء ميسوري الحال من التجّار الهولنديين الّذين أرادوا لأبنائهم أن يكونوا متمّرسين. وقبل أن يفتتح مدرسته، أدار فان دن اندن مكتبةً ومعرضًا فنيًا في كونست وينكل Kunst-Winkel الّذي كان مكان التقاء جذبَ المثقفين الشباب التوّاقين إلى أفكار غير تقليدية. مع إلمامه الواسع وطاقته، امتلك فان دن اندن صورةً كاريزماتية تجعل من السهل أن نتصوّره قائدًا محنّكًا وعبقريًا للمنشقّين السياسيين والدينيين الشباب. ولقد كان في حدود الخمسين من عمره حين التقاه سبينوزا، وفي السبعين حين شُنِقَ في فرنسا بعد مؤامرةٍ فاشلة للتخلّص من الملك لويس السادس عشر. وإذ اتقّن الفرنسية، لم يكن ارستقراطيًا بما فيه الكفاية كي يحظى بمجدِ الموت تحت المقصلة!

انتسب سبينوزا، بدايةً، إلى مدرسة فان دن اندن من أجل دراسة اللاتينية، the lingua franca، اللغة المشتركة للفلسفة والعلوم التي لم يتضمنهما تعليمه الواسع المختلف؛ ولكنّه لم يدرس اللاتينية فقط، بل الفلسفة، الطبّ، الفيزياء، التاريخ

والسياسة، بما في ذلك دروس الحبّ الحرّ التي دافع عنها التحرري libertine فان دن اندن. وربّما كان سبينوزا قد اقترب من الملّذات المحرّمة باسترسالٍ و ملّذة. و كان دن اندن مدرسةً في الفضائح، ويبدو أنه أفسحَ المجال أمام سبينوزا لأول اختبارٍ في الحب مع مدرِّسة اللاتينية الشابة كلارا ماريا فان دن اندن.

ولّدت صداقة فان دن اندن تأثيرًا كبيرًا على حياة سبينوزا في وقتٍ كانت التغيّرات الشخصية الأخرى تأخذ مجراها. بعد سنين قليلة من تسجيله الدراسيّ، وبحدود السابعة أو الثمانية عشرة من عمره، أصبح سبينوزا رجلَ أعمالٍ ناجح في شركة أبيه، وقد أعاق الدخول إلى عالم الأعمال متابعة دراساته المنهجية، مع أنه بقيَ عضوًا في حياة الكنيس ويبدو أنه انخرط في مجموعة نقاشٍ أدارها الحاخام بن اسرائيل، وهي شكل من التجمّع الثقافي كانت مشرّعة الأبواب فقط أمام الطلاّب المتقدّمين في دراساتهم لليهودية. عنى دخول عالم التجارة أيضًا الإلتقاء مع زملائه من رجال الأعمال الشباب، الّذين يشبهونه في التفكير، ومن غير اليهود، وقد ضمّ هؤلاء ياريج يلس Jarig Jelles، وهو مينونيتيّ[i] ثلاثينيّ mennonite، وبيتر بالينغ Balling، كاثوليكيّ مجهول السنّ،

[i] نسبةً إلى المينونيت وهي حركة اصلاحية بروتسستانتية تعارض الحرب واستخدام السلاح والقمع.

كما سيمون دو فريس وهو كويكري[i] Quaker يكبر سبينوزا بثلاث سنوات. لم يصل الثلاثةُ إلى مستوى سبينوزا الفكري، ولكنّهم تشاركوا خطًّا منشقًّا، دينيًا وسياسيًا، وطمعًا في مجادلة الأفكار الجديدة، كما شهيةً شبابيةً للحياة. خوان دو برادو[ii] ، وهو الصديق اليهودي الوحيد الّذي عاصر سبينوزا، كان هو الآخر شابًا منشقًّا لطالما منعه الكنيس بسبب تعليقاته التجديفي، وفي نهاية الأمر تمّ طرده أيضًا. لقد كان المسرحُ مهيّئًا أمام كل جديدٍ و علماني ليكن له أثرًا كبيرًا على مرحلة رشد سبينوزا وهي بالكاد كانت قد بدأت.

يجب أن نرى تأثير ما هو جديد من منظور القديم: لقد تصارعت أفكار سبينوزا الجديدة في سني حياته التساؤلية، وبشكلٍ كبير، مع الأفكار القديمة للجماعة التي تعلّم بكنفها، وهو الّذي درس التلمود والتوراة، وقرأ نصوص القبّالة[iii] Kabbalah المستقاة من التقليد السفردي والتي كانت ذات شعبية بين يهود آمستردام

---

[i] نسبة إلى الكويكرية أو مجتمع الاصدقاء الديني. وهي حركة تعارض التراتبيات المؤسستية الدينية وتدعو لجعل الايمان شأنًا شخصيًا بحتًا، وتؤمن بحرية المعتقد.

[ii] خوان دو برادو Juan de Prado (1612-1670) فيلسوف عقلاني من اليهود المارانيين.

[iii] بالعبرية קַבָּלָה كابالا. وتعني الاستقبال أو الورود reception. شكل من الايمان اليهودي الباطني القريب من التصوّف والرياضات الروحية، مليئة بالرموز السريّة. مضمونها ومضمون ما تستقبله هو القوانين والتعاليم الّتي تلقّاها الانبياء اليهود من الرب يهوه . في جانبها النظري تسعى القبالة الى معرفة الله وماهيته، وفي جانبها التطبيقي تسعى الى الاتحاد به

البرتغاليين. وبدا أن الصدام سيصبح دراماتيكيًا أكثر: فقد امتلأت النصوص القديمة بالمعجزات، ولكنّ التفسيرات العلمية لهذه كان يمكن تشكيلها من خلال الحقائق الجديدة، وإذ عمّت الثقة العمياء بالألغاز والمعاني المخفية للنصوص القديمة، أمكن للأدلة الجديدة تفسيرها. هكذا، أصبح بالإمكان كشف حقيقة كل المعتقدات اللاعقلانية القديمة.

ربّما لم يكن هناك مفرّ من الصدام، ولكنّ التاريخ الشخصي لسبينوزا جعل هذا الصدام مرجّحًا أكثر. ماتت والدة سبينوزا حين كان في السادسة من عمره، بينما لم تكن هي قد تخطّت الثلاثين، و قد ألقت خسارتها بظلالها على تلك التنشئة الّتي كان يمكن لها أن تكون محظوظةً أكثر [141]. لا يُعرف الكثير عنها، ولكنّ مساهمتها في نمو الشاب سبينوزا كانت، على الأرجح، ذات اعتبار، وكان موتها حدثًا عميق الأثر. لا أتصوّر أن طفولةً استمرت بعد هذا الحدث، إذا كان من المفترض أن توجد هكذا طفولة: تترك توصيفات سبينوزا ابن السنوات العشر الّذي يساعد والده في تجارته بينما كان يتردد على مدرسته، تترك انطباعًا ببلوغٍ مبكرٍ. اطّلع الفتى على عالم التجارة الحقيقي و على أمجاد وهشاشة الكائنات البشرية التي تكافح من أجل عيشها في عالم آمستردام الصغير المكتظّ. تزوّج ميغيل دي سبينوزا بعد

انقضاء ثلاث سنوات على رحيل والدة سبينوزا، وبدا أن العلاقة بين الأب و الابن قد توطدت أكثر. وتقول الرواية أن ميغيل، رغم مشاركته النشطة في حياة جماعته الدينية، كان نافذ الصبر أمام السلوك المنافق، وكان يسخر من التقوى الاحتفالية، وهو الّذي علّم ابنه كيف يميّز الصدق من الكذب في ما خصّ العلاقات الانسانية. لا نتفاجأ أن سبينوزا الشاب كان يزدري الخرافات والمظاهر الزائفة، فكان مغرورًا بشكلٍ ملحوظ، وغالبًا ما أحرجت حصافته معلمّيه. كما أن ميغيل لم يخفِ أبدًا شكوكه في ما يتعلّق بالروح الخالدة، وسبينوزا كان، بلا شك، مهيّئًا لكي يرى أبعد من مظهر التقوى، وقد تيّقظَ للفجوةِ الكبيرة بين تعليمات النصوص الدينية و الممارسات اليومية للبشر العاديين. يبدو إنّ تساؤلات سبينوزا عن جدوى الشعائر الدينية قد بدأت وهو في منزل والده.

قضية أوريل دا كوستا

ربّما أمكننا تتبّع تمرّد سبينوزا وصولاً إلى الأحداث التي طبعت السنة الأخيرة من حياة أوريل دا كوستا[i] ، أحد أنسباء سبينوزا من ناحية أمّه، والشخصية المحورية في الجماعة اليهودية في آمستردام زمن فتوّة سبينوزا.

وفقًا لبعض المصادر، دارت أحداث المرحلة الأخطر في العام 1640، أو في العام 1647 وفقًا لمصادر أخرى، ما يعني أن سبينوزا كان في بين الثامنة و الخامسة عشر من عمره. إذًا، هاكم ما حدث.

وُلِد اوريل دا كوستا تحت اسم غابريل دا كوستا في بورتو، المدينة البرتغالية التي تنتسب إليها والدة سبينوزا. انتمى دا كوستا إلى عائلة من التجار السفرديم الاثرياء الّذين تحوّلوا، ظاهرًا، إلى الكاثوليكية، وقد تربّى غابريل ككاثوليكيّ وتمتّع بحياةٍ موسرة. كان نبيلاً أرستقراطيًا شابًا ترعرع وفي قلبه شغفين، الأحصِنة والأفكار، وقد قاده عزمه الفكريّ إلى مهنةٍ في جامعة كوامبرا Coimbra وفيها أكمل دراسته الدينية ومن ثمّ أصبح

---

[i] أوريل دا كوستا Uriel da Costa (1585-1640) فيلسوف برتغالي حاول التنظير فلسفيًا لديانة عقلانية

استاذًا. ومع ذلك، وبقدر ما عمّق دا كوستا ذو الوجه المتجهّم معارفه بالدين، بقدر ما كان يجد أخطاءً متزايدةً في ما خصّ الكاثوليكية، واستنتج تدريجيًا أن إيمان عائلته اليهوديّ القديم هو الأصحّ، والأكثر استحسانًا. كان لا بد لهذه الاستنتاجات أن تبقى مخبّأةً، ولكن ربّما لم يفعل ذلك؛ وقد تحوّل دا كوستا، ووالدته، وربّما بعض الأقارب، من *متحوّلين* *conversos*- وهم اليهود الّذين تحوّلوا إلى المسيحية – إلى مارّانيين *marranos* أي مسيحيين [بالظاهر] يمارسون العبادة اليهودية بالسرّ. مع أو من دون تبريرات، شعر دا كوستا بأن محاكم التفتيش تهدده، وأصبح مقتنعًا أنه وعائلته في خطر. أقنعهم بالمغادرة إلى هولندا، اخوانه الثلاثة، والدته و زوجته، مع خدمهم وطيورهم، وأثاثهم الفخِم، الأواني الخزفية المشغولة بدقّة، كما شراشف الكتان الزاخرة التي كانت تغطّي مسكنهم في بورتو وبيتهم الصيفيّ، [كلّهم] صعدوا القارب الّذي اجتاز نهر دويرو Douro تحت جناح الظلام[142]. وحين أصبحوا بعيدين، كما الكثيرين قبلهم وبعدهم، توجّهوا لربط الساحل الاطلنطي بساحل هولندي أو ألمانيّ وبحياةٍ جديدة.



كتبتُ هذه المقدّمة الطويلة ليمكنني الإشارة إلى أنّ دا كوستا، وبعد أن توطدت حياته في آمستردام، تخلّى عن اسمه البرتغالي، غابرييل، واعتمد بديلاً يهوديًا عنه، أورييل، وانكبّ على تحليلٍ عميق لليهودية، وبعض الأفكار الأخرى. حينها، اكتشف أغلاطًا في ما خصّ الطقوس والتعليم اليهودية، وأمسى يصرّح علنًا عن اكتشافاته: هذه الممارسات الدينية كانت خرافات؛ لا يمكن للإلَه أن يكون شبيهًا بالبشر، ولا يجب أن يرتكزالخلاص على الخوف..الخ لم يقف عند حدّ التفوّه بهذه الأمور، بل دوّنها أيضًا. كما هو متوقّع، ردّ الكنيسُ بالنقدِ و والتوبيخ. خلال العقود

التالية، وُضِع الحرمُ الكنسيّ على دا كوستا، ومن ثمّ اعيدَ الاعتبار له، ومن ثمّ حرِمَ مرةً أخرى، فوجدَ ملجأه، في مرحلةٍ ما، لدى الجماعة اليهودية في هامبورغ والتي أبعدته أيضًا في نهاية المطاف. أصبحت قضية دا كوستا ذات أهمية كبيرة للأمة اليهودية، ذلك أن قادة هذه الأخيرة انتابتهم المخاوف من أن يقوم قائدٌ هرطوقيّ مثل دا كوستا بتشويه سمعة الجماعة أو ربّما أسوأ من ذلك. وربّما أملَت السلطات الهولندية معاقبةَ جماعة كاملة خوفًا من تمدّد المشاعر المعادية للدين إلى السكّان البروتستانت.

بحدود العام 1640، (أو 1647، على أبعد تقديرٍ) بلغت رواية دا كوستا نهايتها الملحمية. أراد الكنيسُ حلاً لهذه القضية المحرجة، وكذلك رغب دا كوستا الّذي كان في منتصف الخمسينات من عمره، مستلَهكًا بما يكفي جسديًا وذهنيًا بسبب هذه المعركة التي لا تنتهي. تمّ التوصّل إلى تسوية: كان على دا كوستا أن يأتيَ إلى الكنيس وينكر بدعته، فيمكن للكلّ أن يكون شاهدًا على توبته، ومن ثمّ كان عليه أن يتلقى عقابًا جسديًا حتّى لا يُفسَح المجال لكي لا تمرّ جريمةٌ كهذه مرور الكرام. وهكذا كان بامكانه أن يستعيد موقعه في أمتّه اليهودية.

في كتابه *صورة عن الحياة البشرية* *exemplar vitae humanae* يتمرّد دا كوستا على ذلك التسلّط القاسيّ و لا يخفي

بأنّ قبوله بتلك التسوية لا يعني أبدًا أن أفكاره قد تبدلّت قيد أنملة. ومع ذلك، يتابع موضّحًا أن الإذلال المستمر والإنهاك الجسديّ الشديد لم يتركا له أيّ خيارٍ آخر.

كان توقيت العقوبة قد أبلِغَ عنه للجمهور، وكان الجميع بانتظار هذا المزيج من المسرح والسيرك! امتلأ الكنيس بالرجال والنساء والأطفال الجالسين أو الواقفين في مكانٍ بالكاد يسمح لهم بالتحرّك، كلّهم ينتظرون بداية الفقرة الترفيهية غير المسبوقة. اختنق الهواء بالأنفاس المضطربة، ولم يخرق الصمتُ المخيّم سوى صوت احتكاك الأحذية بحبّاتِ الرمال الّتي غطّت الأرضية الخشبية. في اللحظة المناسبة، طًلِب من دا كوستا أن يصعد المسرحَ ويقرأ بيانًا حضّره قادة المجمَع. بكلماتهم ولكن بلسانه، اعترف بآثامه الكثيرة، بإنتهاكه عطلة يوم السبت والشريعة، وبمحاولته إبعاد الآخرين عن الانضمام إلى الإيمان اليهوديّ، وهذه كلّها تستوجب الحكم عليه بالموت المتكرّر! ولكنّ تم تجاوز هذا الحكم لأنّه وعَد، بالمقابل، بألاّ ينخرط مرةً أخرى في ترويج الاساءات البغيضة و الضلالات.

حين انتهى من تلاوته، طُلِبَ منه أن ينزل عن المسرحِ و همس حاخامٌ في اذنه طالبًا منه أن يقف في إحدى زوايا الكنيس. قام بذلك، وفي الزاوية سأله شمّاسٌ Chamach [خادم الكنيس] أن

يخلع ثيابه حتّى خصره، وحذاءه، وأن يربط منديلاً أحمرَ حول رأسه. ثمّ أُجبِرَ على أن يتكّأ على عامودٍ أوثقت يداه به. ساد الصمتُ كئيبًا. اقترب الهازان *Hazan*، وفي يديه سَوط جلديّ، وبدأ بالجلدات التسعة والثلاثين على ظهرِ دا كوستا العاري. وفي حين كان الجلدُ مستمرًا، وربَما من أجل التسريع بالجلدات، بدأ المجمَع بإنشاد مزمورٍ ما. أحصى دا كوستا الجلدات وقدّر لجلاّده الإلتزام الدقيق بالشريعة الّتي تحدد أن العدد الأقصى للضربات لا يجب أن يتخطّى الأربعين.

انتهت العقوبة، وسُمِح لدا كوستا بأن يجلس على الأرض واضعًا ثيابه تحته. ومن ثمّ أعلن حاخامٌ إعادته إلى الجماعة أمام الملأ المجتمع. رُفِع التحريمُ وأصبحت أبواب الكنيس مشرّعةً أمام دا كوستا كما ستكون أبواب السماء يومًا ما. لم يُخبرنا أحدٌ إذا كان هذا النبأ قد استقبله الجمهور بالصمتِ أو بالتصفيق. تخميني هو الصمت. ولكنّ المراسم لم تكن قد انتهت بعد. طُلِب من دا كوستا أن يقف عند الباب الرئيسيّ ويستلقيَ على الأرض عند العتبة، وقد ساعده الشمّاسُ ممسكًا رأسه بكلّ عنايةٍ و دماثة. ثمّ، واحدًا تلو الآخر، رجالاً ونساءً وأطفالاً بدأوا بمغادرة المعبدِ وكان على كلّ منهم أن يعبر فوق دا كوستا في طريقه إلى

الخروج. في الحقيقة، لم يمرّ *عليه* أحد، كما أكّد في مذكراته، بل فقط *فوقه*.

الآن، أصبح الكنيسُ فارغًا. هنّأه الشمّاسُ وآخرونَ بحرارةٍ على العقوبة الّتي انزلت به بشكلٍ متّقن، وعلى بزوغ يومٍ جديدٍ في حياته. ساعدوه كي يقف، وأزالوا الغبار الّذي تساقط من الاحذية الكثيرة على ثيابه. وهكذا أصبح دا كوستا مرةً أخرى عضوًا جيّد المكانةِ في أورشليم الجديدة.

لا يبدو واضحًا كم من الأيام دام هذا التوافق. نُقِل دا كوستا إلى بيته و واصل عمله حتّى انتهى من مخطوطة كتابه *نسخة من الحياة البشرية*. عالجت الصفحات العشر الأخيرة من هذا الكتاب مرحلة العقوبة وتمرّده العاجز ضدّها. بعد أن انهى المخطوطة، أطلق دا كوستا النار على نفسه: لم تصب الرصاصة الأولى هدفها، ولكنّ الثانية فعلت. كان يمكن لكلمته الأخيرة أن تُقال بأكثر من طريقةٍ واحدةٍ!

في أيٍّ من كتبه أو من مراسلاته التي بقيَت لنا، لم يذكر سبينوزا دا كوستا بالإسم ولو لمرةٍ واحدة. ومع ذلك، كان سبينوزا على معرفةٍ تامّة بدا كوستا، وفي الحقيقة تواترت حالات الحِرْم و التوبة والعقوبات العلنية خلال الفترة عينها. في العام 1639،

خضع رجلٌ يدعى ابراهام منديز Abraham Mendes لعقوبةٍ مماثلة – اعلان التوبة، الجَلد، ومرور الجماعة فوقه – ممّا يدلّ على أن الكنيس لم يتردد يومًا بفرض النظام على أتباعه[143]. ولكنّ قضية دا كوستا كانت، كما هو واضحٌ، الأبرز بين مثيلاتها. لم يكن دا كوستا مجرّد مهرطقٍ heretic، بل نشر أعماله و ثابر على الترويج لأفكاره عقودًا من الزمن، ممّا يفسّر جوّ الفضيحةِ الّتي مثّلها. سبينوزا، الّذي كان في الثامنة أو الخامسة عشر من عمره، كان حاضرًا مع والده وأنسبائه بين الجمهور خلال المحاكمة. زد على ذلك، ولسنينٍ تلت، ظلّت القضية مدار كلامٍ على شكلٍ مرجعٍ تاريخيّ، ويمكن أن نتصوّر أنّها أطّرت بعضًا من كتابات سبينوزا حول الديانة المنظّمة. في نهاية المطاف، وربّما ما هو أكثر أهميةً، أن الموقف العام لأوريل دا كوستا في علاقته بالديانة المنظمة أصبح موقف سبينوزا نفسه[144]. لم يكن دا كوستا مفكّرًا عميقًا مثل سبينوزا، بل كان رجلاً مضطربًا لم يستطع أن يمنع نفسه عن مقاساة كلّ مظلمةٍ فعلية والردّ بكلّ سخطٍ. كان يوحي بالرياء وهي صفة تشاركها الكثيرون حينها، و أصالته الحقيقية كانت تكمن في الاستشهاد. من المحتملِ أن صمتَ سبينوزا عن قضية دا كوستا تعكس قراره بإنكارِ أيّ تأثيرٍ لأفكار هذا المهرطِقِ، مع العلم أن أفكارًا كتلك كانت، على كلّ حالٍ، شائعة وأن دا كوستا لم يعالجها يومًا بالشكل المتعمّق كما سيفعل سبينوزا في نهاية

المطاف. أو ربّما، وببساطة، تعرّض سبينوزا لتأثيرات من دا كوستا جعلته قلِقًا فلم يرد أن يعترف، عفوًا وعن قصدٍ، بديْنٍ له مفترض. والأمر عينه يمكن قوله، عرضًا، عن علاقته بفان دن اندن الّذي لم يذكره سبينوزا بالإسم ولو لمرّةٍ. فليكن! من المنطقيّ أن نعتقد أن قضية دا كوستا أثّرت بشكلٍ كبيرٍ على سبينوزا، ليس بسبب دراميتها بل بالأحرى بفضل التحليلات المعروضة في كتاب *نسخة عن الحياة البشرية*. من الممكن أنّ ذكريات قضية دا كوستا كانت قد شدّت من ساعد سبينوزا بخصوص المعركة التي سوف يواجهها، و تثبّتَت من قراره بألاّ يحضر جلسة حرمانه. و قد تُليَ بيان *حيرِم* *cherem* [حرْم] سبينوزا على المسرح عينه، حيث تلا دا كوستا بيان توبته، ولكن هذه المرّة غيابيًا *in absentia*.

الاضطهاد اليهوديّ والتقليد المارّاني

بالرغم من رفاهية العيش الظاهرة للعيان، لم يحظَ يهود آمستردام بأمانٍ كافٍ، إذ لطالما كان الخوف مهيمنًا وأيّ حركةٍ خاطئة كانت ستعني أن السلطات الكالفينية سوف تسيء تفسيرها مع ما ينتج عن ذلك من نقدٍ و عقابٍ للجماعة ككلّ. لقد اعتاد اليهود على الاضطهاد، وتطلّبت معاهدة النبلاء التي عاش في

كنفها اليهود حذرًا شديدًا: فُرِض عليهم اعلان ايمانٍ صريحٍ بالربّ، ولكن مُنعوا من الدفاع عن ديانتهم أو محاولة استقطاب السكان المحليين إليها، كما مُنعت الزواجات بينهم وبين هؤلاء. وقبل كلّ شيء طُلِب منهم التكتّم عن إيمانهم الدينيّ.

كان اليهود ضيوفًا مفيدين ولكن لم يكونوا مواطنين. أمكن لهم نيل الحريات المدنية مقابل سلوكٍ جيّد، ولكن خطر خسارة هذه الحريات ظلّ جاثمًا فوقهم. لقد كانت محاكمة اورييل دا كوستا مصممة لتذكّر الجماعة بذلك الخطر. من المرجّح أن جيل سبينوزا من اليهود رأى نفسه، بمرور الزمن، هولندي الهوية، ولكنّ أسس هذه الهوية كانت جديدة و رخوة.

يخبرنا التصميم الهندسي للكنيس البرتغالي في آمستردام بالقصة كلّها: لم يكن الهيكل المميز لهذا البناء الّذي افتُتِح في العام 1675، عبارةً عن بناءٍ واحدٍ بل تركيبة مسوَّرة مصممة لتتضمن حرَمًا، مدرسةً و ملعبًا يلتقي فيه الشبّان و يلعب فيه الأطفال وهم محميّون من المجتمع الخارجي حولهم.

كان يعتري قادة الجماعة قلقًا حقيقيًا من الخروقات الممكنة التي قد يرتكبها المضيفون الهولنديون: في البداية، لاحظ هؤلاء القادة أن الترحيب الّذي تلقّوه كان مردّه المصالح التجارية

الهولندية، وأنّ بقاء هذا الترحيب يعتمد على التسامح الملحوظ والموقف الكريم من قبلِ فرعٍ من السلطات الهولندية؛ وقد اختلف حجم هذا الفرعِ وفق التقلّبات السياسية، كما تقلص نفوذ المتعاطفين أو ازداد بالتناسب مع تلك التقلّبات. ففي الوقت الّذي كان فيه دي ويت، مثلاً، صاحب اليد الطولى، بدت المقاطعات الهولندية كأنها أكثر الجمهوريات ديمقراطيةً في عصرها، وتمّ تحجيم السياسات المحافِظة والمتشددة (التي سار في ركبها الأورانجيون The Orangists). ولكن العكس تمامًا حصل بعد اغتيال دي ويت في العام 1672، وتمّ تعليق العمل بالحلم الديمقراطي.

في المحل الثاني، وبالرغم من التماسك الكبير، استمرت التوتّرات داخل الجماعة اليهودية: خذ مثلاً النزاعات حول الممارسات الدينية، والتي لم تكن مفاجئة طالما أن غالبية إن لم يكن كل أعضاء الأمة nação قد مارسوا طقوسهم الدينية بالسرّ في البرتغال من دون مساعدة الكنيس؛ كما وُجدت خلافات ارتبطت بمجموعة من القضايا الاجتماعية، وهي أيضًا لا تثير الاستغراب ولم يكن بالامكان تجنّبها ضمن مجموعة تقليدية معزولة. لقد قام قادة الجماعة بكلّ ما هو ممكن لتجنّبِ ظهور تلك الخلافات أمام أعين الهولنديين، ألاّ تتحطّم صورة الإله

المحبّ والشعب المكافح التي أرادوا ابرازها. ولقد كان من المحرجِ بمكانٍ التعامل مع التأثيرات الاجتماعية لشهوة السفرديين الجنسية والّتي تردّد كونها غير قابلة للاشباع، أو التعامل مع مجموعات مختلفة جدًا من المهاجرين اليهود الآتين من شمال و غرب أوروبا والّذين كانوا، بمعظمهم، فقراء وغير متعلّمين. ترعرع سبينوزا كشاهدٍ يقظٍ للصراع البشري، البين شخصي، الاجتماعي، الديني والسياسيّ؛ وحين كتب عن الكائنات البشرية وضعفها، وحيدةً كانت أو داخل المؤسسات الدينية والسياسية التي أقامتها، كان يعلم عمّا يتكلّم. وكان سبينوزا مدركًا تمام الإدراك تاريخ اليهود السفرديين منذ ما قبل وصولهم إلى البلاد المنخفضة، وبالتالي كان معتادًا على الأبعاد الدينية والساسية للمسألة اليهودية – وقد علّق على ذلك في مؤلفه **الرسالة في اللاهوت والسياسة**. لم يفلت اختياره و صياغته لمحاور فلسفته من ثقل هذا التاريخ الّذي يشكّل المارّانيون جزءًا معتبرًا منه.

قام التقليد المارّاني على سرية ممارسة الطقوس الدينية لليهود الّذين أُجبروا على التحوّل إلى المسيحية. وقد بدأ هذا التقليد منذ العام 1492 في اسبانيا، أي قبل طرد اليهود بعقودٍ من الزمن، ولكنّه أصبح شديد الانتشار في البرتغال بعد العام 1500،

واستمر بنفس القوّة في القرن التالي حين كانت نخبة الجماعة تشدّ رحالها إلى البلاد المنخفضة[145].

بعد العام 1492 ارتحل اليهود السفرديون من اسبانيا إلى البرتغال بأعداد كبيرة، قدّرها البعض بأكثر من مائة ألف عبروا الحدود، وقد شدّهم التعامل المسالم الّذي اعتدمه البرتغاليون مع اليهود. مع ذلك، كانت الجماعة اليهودية البرتغالية متواضعة العدد، وقد أدّى التزايد المفاجىء في أعدادها إلى مجموعة من المشاكل الاجتماعية. على رأس هذه المشاكل برزت مسألة دمجِ السكّان الجدد في نسيج المجتمع البرتغالي، وقد بدا أن رخاء جزءٍ لا يستهان به من الوافدين الجدد وأوضاعهم المرموقة – كان العديد منهم تجّارًا، مصرفيين، مهنيين و حرفيين مهرة – قد ميّزهم بشكلٍ جليّ عن البرجوازية الصغيرة حينها، بقدر ما ميّزهم عن المواطنين العاديين وعن الارستقراطية. لم يكن الأمر مناسبًا. وبرغم ذلك، حاول الملك جون الثاني John II وخليفته مانويل الأول Manuelمعالجة المسألة وفقًا لاستراتيجيات مختلفة كلّيًا. في العام 1492، حين برزت المشكلة إلى العيان للمرة الأولى، فرض جون الأول ضرائبَ مرتفعة جدًا على القادمين الجدد: ثمانية كروزادوس cruzados على كل يهوديّ ضريبةً إقامته في البرتغال لأشهر قليلة فقط. ولاحقًا، أصبح على القادمين الجدد أن يدفعوا

ضريبة ضخمة غير مفصح عنها للعرش ضمانةَ اقامة دائمة؛ أمّا المتهربون من الضرائب فقد منعوا من الحقوق المدنية والمواطنة. في واقع الأمر، أصبح هؤلاء جميعهم تحت أمرة الملك وفي خدمة ملذاته. أمّا مانويل الأول، خليفة جون الثاني، فقد حذا حذوًا مختلفًا: كانت البرتغال متورطة في مشروعٍ استعماريّ ضخم، وفي بناء امبراطورية وراء البحارلا تتناسب بالمرّة والحجم المحدود للبلاد وسكانها. تنبّه ايمانويل إلى القيمة الكامنة لدى اليهود في ادارة هذا المجهود الضخم، وربطًا بذلك، أعاد لهم حقوقهم المدنية. ولكنّ الوجه السلبيّ لهذه الاجراءات الايجابية تطلبت، مع ذلك، دفع ثمنٍ باهظ: أُجبِرَ اليهود على التحوّل إلى المسيحية، وكان عليهم أن يتعمّدوا[146] أو أن يتركوا البلاد.

في أمدٍ قصير، تعمّد العديد من هؤلاء اليهود الّذين كانوا من المطرودين والمستغَلّين. أمّا ما حصل لاحقًا فيصعب وصفه بلغة الأرقام، ولكنّه جرى تقريبًا على هذا الشكل: قسمٌ لا يستهن به من السكّان السفرديين تم استيعابهم بالكامل في المسيحية، على الطريقة البرتغالية، بدرجات مختلفة من الغمّ. أصبحوا متحوّلين conversos أو مسيحيين جدد cristãos-novos. اليوم، وبعد مرور أجيال عديدة، يمكننا أن نجد متحدّرين منهم، من بين الكاثوليك والبروتستانت أو من دون انتماء ديني. اندمجوا في حياة

ذاك البلد القديم و اخفُيَ أصلهم اليهودي على مرّ خمسة قرونٍ. أمّا القسم الآخر من السفرديين فقد أصبحوا مارّانيين. بالعلن، تصرّف هؤلاء كمسيحيين، ولكنّهم كافحوا لأجل أن يبقوا يهودًا حذرين خلف الأبواب الموصدة وهم يحافظون على تقليدهم حيّةً. من غير المحتمل أن غالبية المسيحيين الجدد كانوا يمارسون طقوسهم الدينية الأصلية بالخفاء، ولكن لا يُعرَف كم كان عدد هؤلاء الّذين حافظوا عليها أو لأيّ مدّة استمرّوا بذلك. للمصادفة، يدلّ المصطلح مارّانيّ marrano، المشتق من الفعل الاسباني marrar، في الآن عينه، على إهانة واضحة ("القذِر") وعلى الضحالة الفكرية ("الناقص" و "الفاشل").

عرفَ المارّانيون مصيرًا مختلفًا: بعضهم لقى حتفه في محاكم التفتيش الّتي، في آخر الأمر، تأسست في البرتغال[147] عام 1536 بعد أن حوّلت نظرها عن الهراطقة البروتستانت – الّذين كانوا قليلي العدد – نحو المارّانيين في مسعى مربحٍ أكثر لكلّ من الكنيسة و الدولة[148]. فضّلت مجموعة أخرى من المارّانيين أن تلقي سلاح المواجهة من أجل المحافظة على التقاليد التاريخية المعرّضة لخطرِ الاضمحلال، و انضمّ هؤلاء أيضًا إلى صفوف اليهود البرتغاليين السابقين. أمّا القسم الأصغر من المارّانيين فقد

غادر البرتغال في نهاية المطاف، وهم هؤلاء الّذين سمحت لهم ثرواتهم وصلاتهم الدولية بالهجرة.

غالبًا ما بدّل المارّانويون من أسمائهم، ليس لأسباب رمزية فقط – كما حين سمّى غابرييل نفسه اورييل – بل من أجل حماية حياتهم. أربكت الأسماء المستعارة هذه مخبري محاكم التفتيش وأخّرت من إلقاء الشبهة على أبناء العائلات التي بقيت في البرتغال. واقعة أن ليس النشاطات وحدها بل أيضًا الأفكار عليها أن تبقى مكتومة كانت ما تزال حيّةً في وجدان الشبّان الّذين ترعرع سبينوزا معهم. الموقف المتأنّي كان كذلك إرثًا من حياة المارّانيين، فقد صانوا الحياة بشكلٍ عام وايمانهم بالتحديد في شروطٍ صعبة التحمّل لعقود كثيرة ومن دون عونِ المؤسسات الدينية (فالكنيس كان بالطبع مغلقًا)، مع التحلّي بشجاعةِ طمس الهوية الذاتية. أخيرًا، حين توجّب على سبينوزا كتمَ أفكاره الخاصة، لم تكن الأسباب مختلفةً، وبدا أن تجربة أسلافه كانت مفيدةً. ظهرَ أنّ التنكّر البارع طبيعيٌ، وكذلك الخصلة الرزينة (الرواقية) التي كانت من السمات المميزة لممارسات سبينوزا الانسانية والتي لا تجد أصولها في الفلسفة اليونانية فقط. لكن ما هو أكثر أهمية أن التاريخ السافاردي القريب دفع سبينوزا إلى التصدّي للتزاوج الغريب بين الدين و القرارات السياسية، هذا التزاوج الّذي حافظ

على تجانس شعبه عبر القرون؛ وأعتقدُ أن هذا ما جعل سبينوزا يأخذ موقفًا من هذا التاريخ، وكانت النتيجة بناء صورة طموحة عن الطبيعة البشرية التي ربّما تتخطّى المشاكل التي واجهها الشعب اليهودي، ويمكن لها أن تطبّق على كامل البشرية.

هل كان سبينوزا سيكون على ما هو عليه من دون دوار الحرية الّذي اختبره المارّانيون في آمستردام؟ لا أعتقد ذلك. هل كان سبينوزا سيبقى سبينوزا الّذي نعرفه لو بقيَ أهله في البرتغال؟ هل يمكننا تخيّل بنتو يترعرع في بورتو، فيديغيرا Vidiguera أو بلمونتي Belmonte؟ طبعًا، لا فرصة لذلك، ولألف سبب وسبب. صحيحٌ أن الصراع الداخليّ بين العقل المارّاني دفعه بعيدًا عن القوى الدينية المتضاربة صوب الفكر الطبيعي والعلمانيّ[149] ، ولكن، ومهما كانت شدّة هذه الصراع، بقيَت الحاجة لشرارةٍ تشعل نار الابداع، وهذه الشرارة كانت الحرية. قد يبدو هذا الكلام متناقضًا متى أخذنا بالاعتبار كيف تعامل الهولنديون مع أعمال سبينوزا بعد وفاته، ولكنه ليس كذلك: لم تكن الحرية الهولندية كافية بما يكفي لكي تستضيف، بله أن ترحّب، بأعمال سبينوزا حين كانت هذه جاهزة ومنشورة، ولكنّها كانت بما يكفي لكي تسمح له بالوصول إلى القراءات الجديدة و الصائبة في عصره، ولكي يناقش أفكاره الجديدة مع آخرين من خلفيات دينية

واجتماعية متعددة، ولكي تسمح له، ولو بالكاد، بأن يصبح فردًا مستقلاً مكرّسًا لعمله الوحيد في إعادة التفكير بالطبيعة البشرية. لم يكن كلّ ما سبق ممكنًا في البرتغال أو في أيّ مكانٍ آخر خلال القرن السابع عشر. لقد كانت البيئة الفريدة للعصر الهولندي الذهبي ضروريةً لتحويل الصراعات المكبوتة عند شعب مُطارد إلى حيويةٍ مبدعةٍ لإنسانٍ موهوب.

الحرم الكنسيّ

وُلد سبينوزا بين جماعة من المنفيين، وبحلول سنواته العشرين أصبح هو نفسه منفيًا منها! كان في سبيله لكي يصبح، جسديًا وإجتماعيًا، في عزلةٍ أكبر لو لم يخلّصه الطابعُ الكونيّ لأعماله. لقد كانت الأحداث التي أحاطت بالفصول الأخيرة لعلاقته مع الكنيس درامية بقدر درامية ما حدث لاريل دا كوستا: عرف الحاخامات بمضمون أعمال سبينوزا وقلقوا من كونه كان يطوّر حججًا تناقض جوانب عدّة من الشريعة [اليهوديّة]. لكنّه، وحتّى لحظة رحيل والده، وباستثناء جدالاته مع بعض الحاخامات على حدة، بدا أنّ سبينوزا لم يكن يحاول نشرَ أفكاره على الملأ، كما لم يلتزم بتدوينها. استمرّ بالذهاب إلى الكنيس، ولأن والده كان قد

توفي، أخذ ابن الثانية والعشرين على عاتقه مسؤولية شركة العائلة. وهنا بدأت نقطة التحوّل: أصبح صريحًا أكثر فأكثر، ولم يعد خائفًا من الاحراجات التي سببتها آراؤه؛ عقد صداقات مقرّبة خارج جماعته، واتّخذ مواقف علمانية مورِّطًا أعضاء الجماعة اليهودية في العالم الهولندي العلمانيّ. غاب عن بال سبينوزا القاعدة المتشددة التي تعتبر أنّ كل المشاكل الاجتماعية المتعلقة باليهود – كالنزاعات التجارية، حول الملكية وما شبه – يجب أن تُعالجَ بين "أحضانِ" الأمّة اليهودية الوافدة وليس في المحاكم الهولندية.

لجأ شيوخ الكنيس إلى كل وسيلةٍ ممكنة من أجل إقناع سبينوزا بأن يفكّر و يتصرّف بشكلٍ آخر، ووعدوه براتبٍ بلغ ألف فلورين Florins، ويمكن للمرء أن يتصوّر مبلغ الازدراء شبه المهذّب الّذي رفض به سبينوزا هذا العرض. لاحقًا، أصدر الحاخامات حرمًا كنسيًا "مخفّضًا" فصل سبينوزا عن الجماعة لثلاثين يومًا. وربّما هم من أمر في وقتٍ لاحق بمحاولة قتله التي نجا منها. لم تعمل هذه المناورات سوى على شدّ عزيمة سبينوزا!

أخيرًا، في 27 يوليو 1656، أصدر الكنيس الحرم "الأعلى". ويمكن لنا التحدّث قليلاً عن هذا الأمر: من المهم أن نلحظَ أنه بينما تتم ترجمة كلمة حرم cherem إلى excommunication، فإنّ

ترجمةً أخرى تبدو ملاءمةً أكثر وهي النفي Banish أو الطرد exclusion. لم تكن العقوبات تُنفّذ على يدِ سلطات كهنوتية بل يقوم شيوخ الجماعة بذلك، أي "الأسياد" Senhores. وعلى رغم من استشارة الحاخامات، لم تكن النتائج تُعدّ دينية فقط: من يتلقّى الحرم يُقصى من الجماعةِ ماديًا و اجتماعيًا. من ناحية أخرى، يجب على المرء أن يلاحظ كم كان الحرم معتدلاً نسبيًا بالمقارنة مع معادله الكاثوليكيّ: حرق المهرطقين auto-da-fé. وحتّى الجلدات التسعة والثلاثين التي تلقّاها المسكين دا كوستا تبدو باهتةً بالمقارنة مع غرفة التعذيب وخشبة الإحراق التي كانت مصير المهرطقين غير التائبين على يد محاكم التفتيش، توفّر لهم ما يمكن أن يتوبوا عنه أو لم يتوفّر. على أية حال، للجحيم درجات مختلفة!

بمقاييس جماعة آمستردام اليهودية أمكن اعتبار الحرم الملقى على سبينوزا قاسيًا وغير مألوف، عنيفًا ومدمّرًا؛ وهناك قليل من الشكّ حول ما اذا كانت الجماعة قد أصابها الحرج بسبب هذه العقوبة: حين حاول يوناس كولروس Colerus، أبرز كتّاب سيرة سبينوزا المعاصرين، الحصول للمرة الأولى على نصّ الحرم، عارضه الشيوخ بشدّةٍ.

تُظهر سجّلات الجماعة حصول خمسة عشرة حرمًا كنسيًا قاسيًا منذ ولادة سبينوزا وصولاً إليه، ولم يكن أيًّا من الحروم السابقة عنيفًا من ناحية اللغة أو شاملاً في ادانته. ما يثير الغرابة أن اللّعنة الكنسية anathema التي كانت جزءًا من الحرم المفروض على سبينوزا كُتبَت منذ عقودٍ من قبل شيوخ جماعة البندقية السفردية، وقد جلب شيوخ آمستردام هذه اللعنة طويلاً قبل عام 1656 وضمنّوها كتابَ لائحة عقوباتٍ ليتم استعمالها عند الضرورة في حالات الخروج عن القانون. قام الحاخام مورتيرا Mortera، أحد مرشدي سبينوزا السابقين وصديقٌ مقرّب لوالده، باختيار هذه القائمة المحددة من العقوبات لتطبيقها على سبينوزا. تمت إعادة نسخ الكتاب، وبجدارة، عن لغته البرتغالية الأصلية على يد أحد دارسي سبينوزا وهو فريدريك بولوك Frederick Pollock عام 1880:

إنّ رؤوساء المجلس يشهدون إنّهم كانوا على بيّنة من الآراء والأعمال الآثمة لباروخ دو سبينوزا، وقد سعوا جاهدين، بطرقٍ مختلفة و تعهّداتٍ عدّة، لتخلصيه من أساليبه الشرّيرة، وهم غير قادرين على ايجاد علاجٍ له؛ لا بل على العكس، عملوا يومًا بعد يوم على التعرّف على تلك الهرطقاتِ البشعةِ التي مارسها و درّسها، كما على قبائحَ أخرى اقترفها، وعلى هذا كان هناك العديد

من الشهود الثقة الّذين أدلوا بشهادتهم الثابتة بحضور المدعو سبينوزا، الّذي بقيَ مدانًا من قبلهم؛ كلّ ما تمّ فحصه بحضور الشيوخ تمّ إقراره بموافقتهم على لزوم حرم المدعو سبينوزا وعزله عن أمّة اسرائيل؛ وفي هذه اللحظة يُعتبَرُ محرومًا وفق اللعنة التالية:

باسم الملائكة و القدّيسين نحرُم، نعزل، نرجم، ونلعن باروخ دو سبينوزا، بتصديقٍ من الشيوخ وكلِّ هذا الجمع المقدّس، بحضور الكتب المقدّسةِ: وفقًا للتعاليم الـ613 المكتوبة فيها، عبر اللعنة التي بها رجم يوشع أريحا، والتي وضعها إليشاع على أبنائه، ومع كلّ اللعنات المكتوبة في الناموس، فليكن ملعونًا يومًا إثر يومٍ، ليلةً بعد ليلة. فليكن ملعونًا في نومه ويقظته، في ذهابه وإيابه. إن الربّ لن يغفر له. من الآن وصاعدًا، غضب الربّ و سُخطه سوف يضرمانِ بوجهِ هذا الرجل، وسوف تنزل به كل اللعنات المكتوبةِ في كتاب الشريعة. إن الربّ سوف يمحي اسمه ويبعده، بسبب ما ارتكبه، عن عشائر اسرائيل، مع كلّ لعنات السماوات المكتوبة في كتاب الشريعة. ولكن أنتم المتمسكون بالربّ إلهكم، لكم الحياة اليوم. ونحذّركم ألاّ يتحدّث أحدٌ منكم إليه بالفمِ أو كتابةً، وألاّ يظهر معروفًا له، وألاّ يكن معه تحت سقفٍ واحد، وألا يقترب منه مسافةَ أربعِ أذرعٍ، وألاّ يقرأ ورقةً يكتبها أو يحررها.[150]

وهكذا انقطع سبينوزا عن جماعته. مُنعت عائلته من رؤيته وأجبرَت على البقاء بعيدةً عنه.كان حرًا مثل طيرٍ، وتقريبًا مشرّدًا. حينها سمّى نفسه بينيدكتوس. ويجب أن نذكر أنه ورغم هذه المرحلة من العار المفضوح، لم يكن هناك ما يوحي بأن سبينوزا حاول أن يستفيد من الحرجِ الّذي وقع فيه قضاته لكي يدافع عن نفسه، وكان بإمكانه، على الأرجح، أن يبيّن تعسّف سلطة الكنيس، وأن يردّ على الحرم بوابلٍ من الحجج البلاغية الكاسحة، ولكن لم يفعل ذلك[151]. كان تحفّظ سبينوزا علامة مبكّرة على الحكمة التي قادته، بعد سنين، حين أصرّ على ألاّ تنشَر نصوصه بغير اللاتينية ، حتّى يمكن فقط لهؤلاء الّذي حازوا معرفةً كافية على قراءتها ومناقشة الأفكار المبلبلة المحتملة التي سوف تُنقل إليهم. أعتقدُ أن سبينوزا كان حقًا قلقًا بشأن تأثيرِ أفكاره على هؤلاء الّذين لا يملكون سوى الايمان من أجل الحفاظ على توازن حيواتهم.

في منتصف نهارٍ صيفي ليوليو 27 من العام 1656، على الارجح في بيت صديقٍ هولندي ليس بعيدًا عن الكنيس، يُفترض أن سبينوزا قد تلقّى أخبار الحرم بهذه الكلمات:"*هذا لا يلزمني إلاّ بما كان عليّ القيام به*".هكذا بكل بساطةٍ و وقار!

الإرث

يُعتبر إرث سبينوزا مادة معقّدة ومثيرة للحزن. قد يجوز القول ، أخذًا بالاعتبار السياق التاريخي والمواقف غير المساوِمة التي تبنّاها، أن عنف التهجمات على أعماله وفاعلية حظرها كانت أمرًا متوقّعًا؛ وإلى حدٍّ ما، هذا ما توقّعه سبينوزا نفسه كما تدلّ تحذيراته. ومع ذلك، بدا أن ردّة الفعل كانت أقوى ممّا يمكن توقّعها.

لم يترك سبينوزا أيَّ وصيةٍ ولكن كان قد أعطى ريوورتز Rieuwertz صديقه وناشر أعماله في آمستردام، تعلمياتٍ مفصّلةٍ حول ترتيب مخطوطاته. بقيَ ريوورتز وفيًا لصديقه، وكان أيضًا شجاعًا و ذكيًا جدًا. توفي سبينوزا في أواخر فبراير 1677، ولكن وعند نهاية العام نفسه طُبِع كتابٌ بعنوان **Opera Posthuma** (أعمال ما بعد الوفاة)، وفي قلب المجموعة كتاب **الإتيقا**. بدأت الترجمات الهولندية و الفرنسية بالظهور منذ العام 1678. كان على ريوورتز ومجموعة من أصدقاء سبينوزا أن يواجهوا الغضب المستشاط على أفكار صديقهم. أما الإدانات من جانب اليهود والفاتيكان والكالفانيين فكانت، طبعًا، متوقعة، ولكنّ ردّة الفعل

ذهبت أبعد من ذلك، إذ كانت السلطات الهولندية أول من منع الكتاب ، ومن ثمّ تلتها البلاد الأوروبية المتبقية؛ وفي أماكنَ عدّة، بالتحديد هولندا، فُرض المنع بكلّ إحكامٍ: تحرّت السلطات عنه في محلّات بيع الكتب، وصادرت النسخات التي وُجِدَت؛ وأصبح بيع الكتاب أو نشره بمثابة جريمة وبقي الأمر كذلك طالما هناك بعض الفضول حوله. أفلت ريوورتز من قبضة السلطات ببراعةٍ متقنة إذ استمر بإنكار أي معرفةٍ بالنسخات الأصلية وأيّ مسؤولية عن طباعتها، واستطاع توزيع عددٍ من النسخات المطبوعة بطريقةٍ غير قانونية، في هولندا كما في البلاد المجاورة. أمّا كم بلغ عدد هذه النسخات فلا أحد يعلم.

هكذا أصبحت أفكار سبينوزا بمأمنٍ في العديد من المكتبات الخاصة عبر البلاد الأوروبية، في تحدٍّ واضحةٍ للكنائس و السلطات. في فرنسا، على وجه التحديد، كان سبينوزا مقروءًا بشكلٍ واسع. ولا شكّ أن الجوانب الأيسر على الفهم في عمله – أي القسم الّذي يتناول الدين المنظّم وعلاقته بالدولة – كانت مفهومة وحظيت باحترام أوساطٍ عديدة. بالرغم من ذلك، انتصرت الكنائس و السلطات في معركتها، إلى حدٍّ كبير لأنه كان من الصعوبة بمكانٍ أن تٌقتبَسَ أفكار سبينوزا بين دفتي الكتب على نحوٍ ايجابيّ. كان الإنذار القضائيّ ضمنيًا وليس مقوننًا بشكلٍ

صريح، ومع ذلك فعل فعله بشكلٍ أفضل، إذ تجرّأ القليل من الفلاسفة أو العلماء على الدفاع عن سبينوزا فذلك قد يجلب لهم الكوارث؛ كان يمكن للدفاع عن أيّ فكرةٍ بالاستناد إلى حجج سبينوزا أو بتتبّع اقتباساتٍ من نصوصه أن يقضي على فرص الحصول على آذانٍ صاغيةٍ. أصبح سبينوزا لعنةً! وبقيَ الأمر على هذه الحال في كلّ أوروبا و لعقودٍ عديدة بعد وفاته. بالمقابل، كثُرَت و تم الترحيب بكل إشارةٍ سلبية إلى سبينوزا. وفي بعض البلاد، كما في البرتغال، التصقت بذكر اسم سبينوزا صفاتٌ إلزامية تحقيرية، مثل "الشائن"، "النتِن"، " الجاحد" أو "الأحمق"[152].

أحيانًا، كانت الآراء النقدية ستارًا للإخفاء واستطاعت تمرير أفكار سبينوزا بطريقةٍ ملتوية. أبرز الأمثلة على ذلك التلاعب الملتبس مقالٌ لبيير بايل[i] عن سبينوزا في *القاموس الفلسفي و النقديّ*. ادّعت ماريا لويزا ريبيرو فرّيرا Maria luisa Ribeiro Ferreira أن بايل كان غالبًا متناقضًا في كلامه وربّما تقصّد الغموض في نصه؛ في الواقع، استطاع أن يلفت النظر إلى وجهات نظر سبينوزا بينما كان يبدو أنّه يدحض أفكاره[153]. وعلى نحوٍ لافتٍ للنظر، فإنّ المدخل حول سبينوزا كان الأكبر حجمًا في القاموس كلّه.

---

[i] بيير بايل Pierre Bayle (1647-1706) فيلسوف و كاتب فرنسي.

مع ذلك، وبين حينٍ و آخر، مُنِعَت الالتباسات البارعة والأفكار المترددة من أن تُذكر، وأُخطِر المعجبون السرّيون بأن يشطبوا كلّ ما كتبوه عن الجاحد سبينوزا. أو أيضًا، نجد مثلاً بارزًا في ما تعلّق بمساهمة مونتسكيو[i] الرئيسية في عصر التنوير أي كتابه *روح القوانين* (1748): إن أفكار مونتسكيو حول الأخلاق، الإله، الدين المنظّم، والسياسة كانت بشكل شاملٍ سبينوزية، كما إنّها، وبما لا يدعو للاستغراب، لاقت شجبًا أيضًا. يبدو أن مونتسكيو لم يكن يتوقّع ضراوة التهجّمات عليه، إذ، وليس بعد وقتٍ طويلٍ من نشر كتبه، أُجبِر على إنكار سبينوزية وجهات نظره وأعلن على الملأ إيمانه بربّ خالقٍ مسيحيّ. فكيف يمكن لمؤمن كهذا أن يكون على صلةٍ بسبينوزا؟ وكما يروي جوناثان اسرائيل عن ذلك، استمرّت التحفظّات في ما خصّ مونتسكيو ، وبقي الفاتيكان غير مقتنعٍ [بإيمانه]. فلنحذر *Caute*!

بينما أُزيلَت الإحالات المرجعية إلى سبينوزا، أصبحت أفكاره، شيئًا فشيئًا، مجهولةً أكثر للأجيال اللاحقة، ولم يعد لها أثر. استُبيح اسمه وشُهِّر به. خلال حياته، كانت هويته معروفة بينما أفكاره محجوبةً، وبعد وفاته شقّت أفكاره طريقها ولكنّ

---

[i] مونتسكيو واسمه الكامل **Charles Louis de Secondat, baron de La Brède et de Montesquieu** (1755-1689) فيلسوف وسوسيولوجي وكاتب فرنسي. كانت لأفكاره حول فصل السلطات أثرًا على تشكيل الفكر السياسي الديمقراطي الحديث.

هويته لم تكن واضحة إلاّ لمعاصريه، و أخفتها بعنايةٍ تامّة الأجيالُ اللاحقة.

في نهاية المطاف، تبدّل الوضعُ: في الآونة الأخيرة، توضّح لنا أنّ أعمال سبينوزا كانت محرّكًا حاسمًا لعصر الأنوار، وأنّ أفكاره ساعدت في ولادة الجدل الفكري المركزيّ في أوروبا القرن الثامن عشر، برغم أن تاريخ تلك الفترة يجعل من الصعوبة لأحدٍ ما أن يتصوّر ذلك. يجعل جوناثان اسرائيل Jonathan I. Israel هذه المسألة مقنعةً أكثر ويكشف عن وجوهٍ مهمّة خلف الصمت الّذي جعل الكثيرين يظنّون أن تأثير سبينوزا قد انتهى بموت صاحبه[154]. ويقدّم اسرائيل براهينَ ضدّ الانبطاع المعمم الّذي يفيد أن كتابات جون لوك[i] قد هيمنت على ذلك الجدل في المراحل الأولى لعصر الأنوار. مثلاً، أفرد واحدٌ من أهم المنشورات المركزية لعصر الأنوار، الموسوعة Encyclopédie لمحرّريْها ديدرو[ii] و آلمبر[iii]، مساحةً لسبينوزا تزيد خمس مراتٍ عن المساحة المخصصة لجون

[i] جون لوك John Locke (1632-1704) فيلسوف عقلاني انكليزي معارض للديكارتية. من أعلام الليبرالية الاقتصادية.

[ii] دنيس ديدرو Denis Diderot (1713-1784) أديب وفيلسوف و موسوعي فرنسي، من فلاسفة الأنوار. أبرز أعماله *الموسوعة أو القاموس المنطقيفي العلوم والفنون و المهَن*. ***Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers***

[iii] آلمبر و اسمه الكامل Jean Le Rond d'Alembert (1717-1783) فيلسوف وفيزيائي وعالم رياضيات فرنسي. من محرري *الموسوعة* الى جانب ديدرو.

لوك، وذلك برغم أنها تضفي استحسانًا أكبر على لوك منه على سبينوزا، ربّما ، وهذا ما يقترحه اسرائيل، لغرض "تحويل النظر". ويشير اسرائيل أيضًا إلى كتاب يوهان هاينرش زدلر Zedler المعنون "المعجم العالمي الكبير" (1750) Grosses Universal Lexicon – وهو أكبر موسوعة في القرن الثامن عشر- حيث كان المدخل إلى "سبينوزا" و "السبينوزية" أكبر بكثير من المدخل المتواضع عن لوك. وسوف تضيء نجمةُ لوك، ولكن لاحقًا![155]

للأسف، قليلٌ من الفلاسفة العقلاء، شيبةً وشبانًا، أعرب عن تقديره العلني لسبينوزا، دع عنك تأكيده لموقعه كتلميذٍ له أو مكمِّلٍ لأعماله. حتّى لايبنتز لم يقم بذلك، بالرغم من اطّلاعه على كلّ مؤلفات سبينوزا قبل نشرها، وربّما كان أبرز العقول القادرة على تقدير سبينوزا حينها. تناول لايبنتز سبينوزا بسطحيةٍ، واعتمد، بالمقابل، موقفًا نقديًا مدروسًا بدقّة. الأمر عينه قام به الممثّلون البارزون لعصر الأنوار: سرًا، قادتهم أنوار سبينوزا، أمّا علنيةً فقد شجبوه! ترمزُ قصيدة فولتير[i] القصيرة عن سبينوزا إلى النقد المعلَن الإضطراريّ ولكن أيضًا إلى تردّد صاحبها في ما خصّ الفيلسوف[156] . في ترجمتي للقصيدة نقرأ:

---

[i] فرنسوا ماري آروي François-Marie Arouet - Voltaire أو فولتير (1694-1778) أديب و فيلسوف فرنسي معادٍ للاهوت. أحد أبرز المفكّرين الّذين استهلمتهم الثورة الفرنسية 1789.

ومن ثمَّ، يهوديّ صغير بأنف طويلةٍ و بشرةٍ شاحبةٍ،
فقيرٌ ولكن مكتفٍ، متأمّلّ ولكن بتحفظّ،
روحٌ مرهفة ولكن هزيلة، يُحتفى به أكثر ممّا يُقرأ،
يختبىءُ تحت عباءة معلّمه ديكارت ،
يمشي بخطوات محسوبة، يقترب أكثر فأكثر من الكائن العظيم:
استمحيك عذرًا، يقول، متوجّها بالكلام إلى الربّ
ولكنّي أعتقد، بيني وبينك، أنك لم تكن يومًا موجودًا.

بعد التنوير

بعد عصر التنوير أصبح تأثير سبينوزا أكثر حضورًا، ولم يعد ذكره كمرجعٍ يثير الخلاف، وبدا أن عالمًا علمانيًا واسعًا حوّل سبينوزا "المقروء قليلاً، فقير الحضور عادةً، أو غير المقروء البتّة"[157] كما قال غابرييل آلبياك Gabriel Albiac بشكلٍ ملائمٍ جدًا، حوّله إلى نبيّه الخاص. ولكنّ البعض قرأه وعاش تحت ظلاله: فلاسفة كفريدريش هاينريش ياكوبي[i] ، فريدريش فون

[i] فريدريش ياكوبي Friedrich Heinrich Jacobi (1743-1819) فيلسوف و كاتب ألماني.

هاردنبرغ نوفاليس[i] و غوتولد ليسينغ[ii] قدّموا سبينوزا إلى جمهور مختلفٍ وإلى قرنٍ مختلف. تبنّى غوتِه آراء سبينوزا الّذي أصبح بطله الخاص قاطعًا الشكّ بتأثير سبينوزا على أعماله وحياته الشخصية:" *الرجل الّذي أفادني بشكلٍ رائع، الّذي قدّر له أن يؤثّر عميقًا في طريقة تفكيري، كان سبينوزا. بعد أن بحثت دون جدوى عن وسائل لإنماء طبيعتي، التقيت بكتاب هذا الفيلسوف* ***الإيتيقا*** *. من خلال ما قرأت في هذا الكتاب، وبعد أن قرأت ما بداخله، ليس بإمكاني إلاّ أن أصمت؛ وجدتُ فيه ترياقًا لأهوائيّ، وبدا أنّه يكشف الغطاء عن رؤية واسعة للعالم المادي والأخلاقيّ. ولكن ما شدّني إليه في المقام الأول هذه اللامبالاة اللامحدودة الّتي كانت تشعّ مع كلّ عبارةٍ. الإحساس الرائع: مَن يحبّ الربّ لا يتوقّع منه أن يبادله الحبّ.*"[158]

وعلى قدم وساق، أصبح الشعراء الإنكليزي مناصرين صريحين لسبينوزا: استغرق صاموبل تيلور كولريدج[iii] في أعمال سبينوزا، وكذلك فعل وليام ووردزورث النشوان بالطبيعة كما هي

[i] فريدريش نوفاليس Friedrich von Hardenberg Novalis (1772-1801) شاعر، روائي، فيلسوف ، حقوقي، جيولوجي ومهندس ألماني.

[ii] غوتولد افرايم لسينغ Gotthold Ephraim Lessing (1729-1781) كاتب ألماني.

[iii] صامويل كولرديج Samuel Taylor Coleridge (1772-1834) شاعر وناقد أدبي بريطاني.

و بسكَرِ سبينوزا بإلهية الطبيعة. وهكذا كانت حال برسي شيلي[i] ، آلفرد لورد تينيسون[ii] و جورج إليوت[iii]. كان من الضرورة أن يعود سبينوزا مرةً أخرى إلى الفلسفة ولكن على نحو مبكر بحيث لن يرفض كانط أن يطّلع عليه، وبحيث يكون ديفيد هيوم[iv] صبورًا أكثرَ. في النهاية، صرّح جورج هيغل[v] قائلاً:" *لكي تكون فيلسوفًا عليك قبل كل شيء أن تقرأ سبينوزا: إن لم تكن سبينوزيًا فلستَ فيلسوفًا.* "159

إنّ تأثير سبينوزا على حقول العلوم المعاصرة، البيولوجيا و العلوم المعرفية، والمرتبط تلقائيًا بأفكاره، يبدو غائبًا. ولكن لا يبدو الأمر على هذا الشكل في القرن التاسع عشر حين كان إثنان من مؤسسي علوم الذهن والدماغ، فيلهلم فوندت[vi] وهرمان فون

---

[i] برسي شيلي Percy Bysshe Shelley (1792-1822) شاعر وروائي بريطاني.

[ii] لورد تينيسون Alfred Lord Tennyson (1809-1892) أشهر الشعراء البريطانيين في الحقبة الفيكتورية (1837-1901)

[iii] جورج إليوت George Eliot واسمها الحقيقي Mary Ann Evans (1819-1880) أبرز روائي العصر الفيكتوري في بريطانيا. استخدمت اسمًا مذكّرًا خوفًا من الاستخفاف بكتاباتها، ورغبةً منها بمعرفة الرأي الحقيقي للنقّاد بعد أعمالها المنشورة باسمها الحقيقيّ.

[iv] ديفيد هيوم David Hume (1711-1776) فيلسوف ، اقتصادي و مؤرّخ اسكتنلندي. ريبيّ راديكالي، مؤسس الفلسفة التجريبية الحديثة.

[v] واسمه الكامل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) فيلسوف ألماني شهير. فلسفته نسقية موسوعية ديالكتيكية.

[vi] فيلهلم فوندت Wilhelm Maximilian Wundt (1832-1920) عالم نفس و فيلسوف الماني. مؤسس علم النفس التجريبي.

هلمهولتز[i] ، من أتباع الفيلسوف. وحين نقرأ لائحة العلماء من دولٍ مختلفة الّذين تقاطروا في العام 1876 لتشييد تمثالٍ لسبينوزا موجود الآن في لاهاي، أجد كلاًّ من فوندت وهلمهوتز، وكذلك كلود برنار[160]. أيمكن لسبينوزا أن يكون ملهم انشغال برنار بفكرةِ الحياة المتوازنة؟

في العام 1880، ذكر الفيزيولوجي يوهانس مولر[ii] في ملاحظاته " التشابه الصاعق بين النتائج العلمية التي وصلها إيها سبينوزا قبل قرنين من الزمن مع تلك التي تم التوصّل إليها على يد مشتغلين، مثل فوندت و ارنست هايكل[iii] في المانيا، وهيبوليت تان[iv] في فرنسا، وآلفرد ولاس[v] و داروين في انكلترا، وكلّهم توصّلوا إلى تساؤلاتٍ سيكولوجية من خلال الفيزيولوجيا"[161]. ما أفترضه هو أن سبينوزا كان ممهد الطريق أمام التفكير البيولوجي الحديث الّذي بدا جليًا لمولر، كما لفريديريك بولوك الّذي قال، في الزمن

---

[i] هلمهولتز Hermann Ludwig Ferdinand von Helmholtz (1821-1894) عالم نفس وفيزيولوجي وفيزيائي بروسي.

[ii] يوهانس مولر Johannes Müller (1801-1858) طبيب وفيزيولوجي و عالم تشريح الماني.

[iii] ارنست هايكل Ernst Heinrich Philipp August Hæckel (1834-1919) مفكر و عالم بيولوجيّ الماني. طوّر نظرية داروين حول أصل الأنواع.

[iv] هيبوليت تان Hippolyte Taine (1828-1893) فيلسوف و مؤرّخ فرنسي.

[v] آلفرد راسل والاس Alfred Russel Wallace (1823-1913) جغرافي، أنتروبولوجي، بيولوجي وعالم طبيعة ومكتشف بريطاني. وضع مع داروين نظرية الانتقاء الطبيعي.

عينه تقريبًا، أن سبينوزا "*ينحو أكثر فأكثر ليصبح فيلسوف العلماء*"[162].

بدا أن الإعتراف هذا بدأ بالتلاشي مرةً أخرى في القرن العشرين: ظهر مثلاً أن لسبينوزا التأثير الكبير على فرويد، إذ تتضمّن نظامُ هذا الأخير منظومة الحفاظ الذاتي الّتي افترضها سبينوزا في الكوناتوس، واستخدم المحلل النفسي، بكثافةٍ، فكرة أن أفعال الحفظ الذاتي تعمل بشكلٍ لاواعٍ؛ ومع ذلك، لم يذكر فرويد مرةً واحدةً الفيلسوف في كتاباته. وحين سُئل عن هذا الأمر، لاقى صعوبةً كبيرة في تفسير هذا الإغفال؛ ففي رسالةٍ إلى لوثار بيكر Lothar Bickel في العام 1913، كتب فرويد:" *أعترف، دون ترددٍ، باعتمادي على تعاليم سبينوزا. وإن لم أقم أبدًا بذكرِ اسمه مباشرةً، فلأنّني لم أستمدّ مبدأ تفكيري من دراسة هذا الكاتب، بل بالأحرى من الجوّ الّذي صنعه*"[163]. وفي العام 1932، وفي رسالةٍ أخرى إلى سيغفريد هسّينغ Siegfried Hessing، أوصدَ فرويد الباب أمام أيّ إعترافٍ ممكن:" *لطالما حظيَت شخصية وأفكار هذا الفيلسوف العظيم بتقديري الكبير ، ولكنّني لا أعتقد أن هذا الموقف يمنحني حقّ قولَ أيّ شيءً عنه في العلنِ، لسببٍ وجيه أنّ ليس لديّ ما أضيفه على ما قاله الآخرون عنه*"[164].

إنصافًا لفرويد علينا أن نتذكر أن سبينوزا لم بعترف هو الآخر

بفضل فان دن اندن أو دا كوستا، وربّما لو سئل حينها عن هذا الإغفال لكان جوابه مثل جواب فرويد.

بعد ثلاثة عقود تعامل المحلل النفسي الفرنسي البارز جاك لاكان[i] مع سبينوزا بطريقة مختلفةٍ نوعًا ما. في العام 1964، في افتتاحية محاضرته في كلية المعلمين العليا والتي حملت عنوانًا إيحائيًا :"الحرم"، تقفّى لاكان أثر الرابطة الدولية للتحليل النفسيّ الّتي حاولت منعه من ممارسة التحليل النفسيّ وطردته من صفوفها، وقارن هذا القرار بالحرم الكنسيّ الكلّي، مذكّرًا مستمعيه أن ما حصل له هو بالتحديد العقوبة التي نالها سبينوزا في يوليو 27 من العام 1656[165].

نجد استثناءً وحيدًا مهمًّا في خضّم كل تلك الانكارات للأب [سبينوزا]. انّه ألبرت آينشتاين، رمز العلوم في القرن العشرين، والّذي لم يتردد بالقول أن سبينوزا ترك اثرًا عميقًا عليه، وبدا أنه ينسجم ووجهة نظر سبينوزا حول الكون بشكلٍ عام، وحول الإلَه بالأخصّ[166].

---

[i] جاك لاكان Jacques Lacan (1901-1981) محلّل نفسي (فرويدي بنيوي) و طبيب عقلي فرنسي. عدّل لاكان وأضاف على النظرية الفرويدية موسّعًا المقاربة التحليلية النفسية بفتحها على البيولوجيا و الألسنية والبنيوية.

لاهاي، 1677

توفيّ سبينوزا في منتصف حياته بعمر الأربعة والأربعين، وقد عانى من إعتلالٍ في جهازه التنفسيّ لسنين. سعاله المزمنّ موثقٌّ جيّدًا، كما كان يدخّن بانتظام؛ كان غليونه إمتيازه العلنيّ في عالم الملذّات الحسّية. إلى ذلك، ربّما كان يعتقد بالفكرة التي تقول إنّ التدخين كان يقي من الأوبئة الّتي اجتاحت اوروبا خلال حياته، وقد نجا سبينوزا من أوبئة عديدة قتلت الكثيرين من حوله، وربّما أنقده التدخين. قبل شهرٍ من وفاته، ساءت حالته الصحية، على رغم أنّه لم توقّف عن العمل واستقبال الزائرين، ولم يكن موته متوقعًا. قضى نحبه عصرَ يوم أحدٍ، في الواحد والعشرين من فبراير، ولكن في صباح هذا اليوم بالتحديد، وكعادته، ذهب ليتناول غداءه مع عائلة فان در سبيك Van der spijk. عصرَ ذاك الأحد، كان العائلة بعيدة في الكنيسة. وحين فاتته المنية كان لودفيك ميير Ludowick Meyer، طبيبه الآمستردامي، إلى جانبه يعتني به.

عُزِيَت وفاة سبينوزا إلى السلّ، برغم عدم توفّر دلائل على إصابته بذلك. وفق كلّ الاحتمالات، لم يكن مرضه شائعًا، وربّما

تعرّض لخطرٍ معقّد، السيليكوز silicosis، كما اقترحت مارغريت غويانهور Margaret Gullanwhur[167]. والسليكوز هو مرضٌّ لم يُعترَف به بعد، ويعود إلى استنشاق غبار الزجاج المشحوذ، وهذا، بالتحديد، ما كان يفعله سبينوزا غالبية سني رشده. لأنه لم يتوفرّ له القناع الّذي كان بالإمكان أن يتوفرّ له اليوم، ومن دون الإصابة بالسلّ أو بوباءٍ آخر، ربّما امتلأت رئتاه ببودرة زجاجية مصقولة حتّى استحال عليه أن يتنفسّ.

قبل ذلك الوقت، كان الثقة التي امتلكها أول قدومه إلى لاهاي قد أمست أقوى، متّخذة شكلَ قناعاتٍ لا تهتزّ. ولكنّ حلم الإعتراف و التأثير، على فرض أنّه أخذه على محمل الجدّ، كان قد تلاشى كلّيًا، وحلّ محلّه الاستحسان والسكينة.

المكتبة

بالعودة إلى منزل ريسنبرغ، نظرتُ مجددًا إلى الكتب التي اقتناها سبينوزا: نجد ميكيافيلي، دو غروتيوس[i] ، توماس مور[ii] و

[i] غروتيوس Hugo Grotius (1583-1645) محامٍ و قاضٍ ولاهوتي انسانوي هولندي.

[ii] توامس مور Thomas More (1478-1535) مؤرّخ، فيلسوف، لاهوتي، وسياسيّ انكليزي. مؤلّف كتاب *يوتوبيا* De optimo reipublicae statu, deque nova insula Utopia

توماس هوبز، مزيجٌ من السياسة والفقه الحقوقيّ. كذلك نجد كالفين، مجموعة من الأناجيل، كتابًا حول القبالة والعديد من المعاجم وكتب القواعد اللغوية، أساسيات الكتب التي تتواجد في البيوت. هناك كتبٌ حول التشريح – من تأليف الدكتور تولب (في اللوحة الشهيرة لرامبراندت)، والدكتور ثيودور كركرينغ Theodor Kerckring. هذا الأخير كان من معاصري سبينوزا، زميلاً ومنافسًا له: هو أيضًا كان من تلامذة مدرسة فان دن اندن، وكان متيّمًا بكلارا فان دن اندن، ولكنّه [على عكس سبينوزا] أتمّ مراسم زواجه عليها. ومن النبلِ أن نجد سبينوزا يحتفظ بكتابين له. بإمكاني أن أتخيّل سبينوزا وقد غفر لهما ونسيَ كلّ شيءٍ حول القلادة التي أهداها ثيودور إلى كلارا، حين لم يستطع أميرنا الخالي الوفاض أن يفعل شيئًا سوى أن يلقي بنظره الحزين على كلارا المتألقة.

وتتناثر كتب الأدب المعاصرة هنا وهناك: نجد سيرفانتس وغونغورا[i] الاسبانيين ولكن ليس كامويس[ii]، شاعر البرتغال

[i] هو الشاعر الاسباني لويس دي غونغورا آرغوتي Luis de Góngora y Argote (1561-1627) . تأثّر به الشاعر الاسباني الكبير فريدريكو غارسيا لوركا.

[ii] لويس فاز دو كاميوس Luís Vaz de Camões (1525-1580) شاعر البرتغال التاريخي. البعض يعتبره بمثابة شكسبير أو دانتي البرتغال. مجموعته الشعرية Os Lusíadas أو اللوسياد تمجّد الشعب البرتغالي وتاريخه.

الوطني. هل من المعقول ألاّ نجد لدى سبينوزا، هنا أو هناك، كتاب كاميوس اللوسياد Lusiad؟ ربّما سُرِقَ الكتاب، أو أن سبينوزا لم يرغب باقتناء ما يذكّره بالبرتغال، أوربّما لم يكن يميل إلى الشعر الحديث. لا نجد العديد من المراجع الشعرية أو الموسيقية أو الفنيّة في مكتبة سبينوزا، برغم أنه اعترف بما للموسيقى، المسرح و الفنون، وحتّى للرياضة من دور يفضي إلى تحقيق سعادة الفرد. شكسبير وكريستوفر مارلو ليسا موجودين أيضًا، هذا لأن سبينوزا لم يقرأ الإنكليزية، ومن المرجّح عدم توفّر ترجمات لمؤلفات الاثنين حينها. في هذه الخزانة، يبهت حضور الفلسفة أمام الرياضيات، الفيزياء وعلم الفلك. فقط ديكارت يحضر بشكلٍ مقبول.

إنها لمخاطرة أن نحكم على عادات قراءة شخصٍ ما بالقياس إلى حجم ما يقرأ ومحتوى مكتبته، ولكن، بشكلٍ ما، يبدو الحكم صحيحًا في ما خصّ خزانة كتب سبينوزا: ربّما كانت تلك الكتب هي كلّ ما احتاج إليه في سني حياته الأخيرة. المكتبة تمثّل جزءًا لا يتجزّأ من بقية آثاره المتبقيّة، وبساطتها تبدو مفرطة. ثمّ أنتقل مرةً أخرى إلى كتاب الزوّار وأجد آينشتاين وما كتبه محاولاً أن أتصوّر مشهد زيارته إلى هذه الغرفة في 2 نوفمبر 1920.

سبينوزا الّذي أتصوّره

كان لقاء سبينوزا في مخيلتي سببًا من أسباب كتابتي لهذا الكتاب بين أيديكم، ولكنّ اللقاء لم يكن قد حصل بعد. كان ذهني يبدو فارغًا كلّما حاولت أن أفكّر بما كان عليه سبينوزا، وكيف عاش وعمل. وهذا ليس بالأمر المفاجىء، لسببِ أن سردَ سيرة حياته يتغيّر مثل ما كان يتغيّر عنوان سكنه، ولا تبدو سيَر حياته الّتي كتبها معاصروه غنيةً بما يكفي بالتفاصيل كما قد يرغب المرء. بالنسبة لآخرين، يبدو أسلوب سبينوزا محكم الغلق، وبعض مقاطعِ كتابيه **الإيتيقا** أو **رسالة في اللاهوت والسياسة** تبدو طريفة جدًا. وهذا، من دون شكّ، تلميحٌ واضحٌ! أيضًا، يصحّ القول أن سبينوزا لم يتوانَ يومًا عن إظهار الاحترام لغيره من الناس، حتّى لأولئك الّذين احتقر أفكارهم؛ وهذا أيضًا تلميحٌ آخر. ومع ذلك، لا تكفي هذه التلميحات لترسم صورته المكتملة، فهو يبقى محكم الغلق أمام قارئه، بسبب عقبة اللغة اللاتينية، أو لأن سبينوزا أراد، عن قصد، أن يطهّر نصوصه من المشاعر الشخصية والبلاغة اللغوية. يشير ستيوارت هامسفير Hampshire إلى هذه الفكرة الأخيرة، وأظنّه محقًّا[168].مهما يكن ، بدأت صورة من لحم ودم تظهر في مخيلتي تدريجيًا، بفعل اختمار

الإشارات والتلميحات. الآن لم أعد استصعب رؤية سبينوزا خلال سنواته المختلفة، في أماكن ومواقف متعددة.



في روايتي عنه بدأ كالصبيّ المتحفّظ، السّؤول، العنيد، بعمرٍ عقلي يتجاوز العمر الفعليّ. في مراهقته، كان صاحبَ ذكاءٍ حاد، مغرورًا لا يطاق؛ كان في أسوأ حالاته بعمر العشرين، حين كان، في الآن عينه، رجل أعمالٍ له مكانته و فيلسوفًا طموحًا، يتصرّف كأرستقراطي إيبيريّ، ولكنّه منشغلٌ أيضًا بهويته الهولندية. تخطّى الصراع هذا في منتصف عشريناته: فجأةً، لم يعد يهوديًا أو رجل أعمالٍ، بل بلا عائلة أو بيتٍ يأويه، ولكنّه لم يُهزَم. هيمن على الاجتماعات الصغيرة بفضل حدّة عقله وحماسته؛ و هنا وُلدت اسطورة سبينوزا الحكيم. أيضًا، انهمكَ

في أعمالٍ جديدة: صناعة العدسات الّتي أصبحت مورد رزقه، ومن خلالها عمّق دراسته للبصريات؛ و الرسم، وهي هواية يبدو أنّه برع فيها ولكنّنا لم نعثّر على سجّلات تخصّها.

في عمر الثلاثين، تحولٌّ آخر أيضًا: بدأ سبينوزا بقياس خطواته، فضبط بصيرته، وأصبح ألطف من قبل مع من حوله، وصبورًا مع السذّج. سبينوزا الناضج صارمٌ في معتقداته ولكنّ أقل تصلبًا، و حتى لو بدا أنّه أصبح أكثر تسامحًا، فقد فضّل المزيد من الانسحاب، ناشدًا محيطًا أكثرَ هدوءًا. هذا السبينوزا الّذي أتخيّله يتواصل بثباتٍ مع من حوله، ويوقّره الكثيرون.

هل أنا معجبٌ بسبينوزا هذا الّذي التقيته في النهاية؟ الجواب ليس سهلاً: لا شكّ أنني أحترمه، ويعجبني جدًا، أحيانًا. ولكنّني أتمنى لو كنت واضحًا في ما خصّ طرائق تفكيره كما كنتُ حين تعلّق الأمر بملامحه وسلوكه. هناك شيءٌ فيه لن يكون متاحًا لكي نمعنَ النظر به، كما أنّ غرابته لن تخمد أبدًا. ومع ذلك، أنا واضحٌ بما يكفي لأعبّر عن اندهاشي أمام الشجاعة التي شكّل بها أفكاره في الوقت الّذي صنع وكيّف حياته مع النتائج المحتومة. و وبأسلوبه الخاصة فقد "أفلحَ".[169]

7. مَن هناك؟

الحياة الراضية

قبل أن تتشكّل في ذهني صورةً واضحة لسبينوزا، اعتدتُ أن أطرح على نفسي سؤالاً مقلِقًا: هل كان سبينوزا فعلاً راضيًا خلال حياته في فووبرغ و لاهاي أو كان يدّعي القداسة؟ هل كان يبني بحذرٍ شخصيةً رقيقةً تتنكّر للماديات ما منحَ كلماته قوةً وصعّب المهمّة أمام منتقديه؟ سبينوزا كما أتخيّله يجيب عن سؤالي ببساطةٍ: لقد كان بالفعلِ راضيًا. لم يكن تقتيره خدعةً، ولم يتصرّف كمثال للتضحية أمام الأجيال القادمة، ومن المرجّح أن حياته وفلسفته قد نضجتا بحلول الثالثة والثلاثين من عمره.

على افتراضِ أن سبينوزا كان راضيًا ، وعلى اعتبار أنّ حياته كان ينقصها الزخارف التي نلصقها، عادةً، بالسعادة (أمكن لصحته الضعيفة، ثروته القليلة، وافتقاره إلى العلاقات البشرية الحميمة أن تمنع أرسطو من أن يصف حياته بأنها ناجحة!) — فمن المنطقيّ أن نسأل كيف أمكن لسبينوزا أن يبلغ الرضا. ما السرّ في ذلك؟ لا أعالج هذا الموضوعَ بدافع الفضول المجرّد بل لأنّ ذلك يتيح لي الفرصة لأسأل سؤالاً آخرَ: إلى أي مدى يمكن الوصول إلى تحقيق حياةٍ راضية من خلال معرفة المشاعر، العواطف وبيولوجيا العقل-الجسد التي ناقشناها في هذا

الكتاب؟ لا شكّ أن المشاعر و العواطف هي بحد ذاتها جزءٌ أو قطعةٌ ممّا نحن عليه، على الصعيد الشخصي أو الاجتماعي. والسؤال هو: هل *لمعرفة* كيف تعمل المشاعر والعواطف أهمية فعلية بخصوص كيف نعيش؟ اقترحتُ سابقًا أن معرفةُ كهذه تصنع فرقًا في ادارة الحياة الاجتماعية، ولكنّني أتسآل هنا إن كانت تتصّل بإدارة الحلقة الداخلية لحياتنا الشخصية.

من المنطقيّ أن نربط هذا السؤال بسبينوزا حين نلاحظُ أن مفهوم الطبيعة البشرية الّذي يظهر بتأثير البيولوجيا الحديثة يتداخل، إلى هذا الحدّ أو ذاك، مع مفهوم سبينوزا عن هذه الطبيعة. لا بد من أن نأخذ مقاربة سبينوزا حول الرضا بعين الاعتبار.

إنّ أفضل توصية معروفة قدّمها سبينوزا من أجل تحقيق حياةٍ مستحَقة أتت على شكل نسق من سلوكٍ أخلاقي و وصفةٍ لدولة ديمقراطية؛ ولكنّ سبينوزا لم يعتقد أن اتبّاع قواعدَ أخلاقية وقوانين دولة ديمقراطية بإمكانها أن تكفيَ من أجل أن يصل الفردُ إلى أعلى مرتبةٍ من الرضا، أي ذلك الفرح المستدام الّذي يساويه بالخلاص البشري. انطباعي عن الأمر أن غالبية البشرّ لا

يعتقدون اليومَ، على الأرجح، أن ذلك يكفيَ أيضًا. فالعديد من الناس يبدو أنّهم يحتاجون إلى المزيد من حياةٍ أبعد من التصرف الأخلاقي والملتزم بالقوانين، وأبعد من تلبية رغبات الحبّ، العائلة، الصداقة والصحّة الجيّدة؛ وتتجاوز المكافآت التي تتأتّى عن العمل الحسن الّذي يختاره المرء (اشباع شخصي، استحسان الآخرين له، الفخر، التعويض المالي)، وأبعد من سعي المرء إلى ملذّاته الخاصة وتراكم الممتلكات، وأبعد من التماهي مع الوطن أو الانسانية. الكثيرون من البشر يحتاجون إلى ما يتضمّن، على أقلّ تقديرٍ، بعض الوضوحِ حول معنى حياتهم الشخصية. سواء أبدينا هذه الحاجة بوضوحٍ أو بشكلٍ غامضٍ، فإنّها تبلغُ درجة التوق الشديد لمعرفة من أين أتينا وإلى أين نحن ذاهبون، وربّما هذه الأخيرة بالدرجة الأولى: ما هو الهدف الّذي تمتلكه حياتنا والّذي يفوق بأهميته وجودنا الحالي؟ على هذا السؤال نريدُ جوابًا، نريد الغاية المكتَشَفة أو المرغوبة!

لا يملك كلّ كائنٍ بشريّ حاجةً كتلك. إنّ حاجات ومتطلبات البشر تختلف إلى درجة معتبَرة باختلاف شخصياتهم، فضولهم، وظروفهم الثقافية الاجتماعية، وحتّى باختلاف أعمارهم. عادةً، لا يصرفُ الشباب سوى القليل من الوقت في تصدّيهم لعيوبِ الطبيعة البشرية. والحظّ الجيّد مرآةٌ ناجعة

أيضًا! قد يرتبك الكثيرون عند ذكر متطلبات اضافية أبعد من الشباب، الصحة الجيّدة، و حسن الحظ. فلماذا هذا القلق اللامبرر؟ مع ذلك، وبالنسبة لهؤلاء الّذي يسلّمون بمتطلباتٍ كهذه يبدو من المشروع أن نسأل لماذا عليهم أن يبحثوا عن شيءٍ قد لا يحصل بشكلٍ طبيعيّ أو قد لا يحصل أبدًا؟ لماذا نرغب بمعرفة المزيد والمزيد؟

قد يردّ أحدهم بالقول إنّ التوق yearing سمةٌ عميقة من سمات العقل البشري، فهو يتجذّر في هندسة الدماغ البشري وفي المجموعة الجينية التي توّلده، كذلك في السمات العميقة الأخرى التي تقودنا، بفضولٍ كبير، نحو الاستكشافات المنظمة لوجودنا وللعالم حولنا، السمات عينها التي تدفعنا إلى بناء تفسيرات للموضوعات والحالات في هذا العالم. إن الكلام عن الأصل التطوّري للتوق مرحبٌ به دائمًا، ولكنّ هذا التقييم يتطلّب تفسيرًا آخرَ حتّى يمكننا أن نفهم لماذا تتضّمن التركيبة البشرية هذه السمة. أعتقد بوجود هذا العامل منذ القدم، وهو كان يعمل كما يستمر بالعمل إلى اليوم؛ وما ثبات بقائه إلاّ بفعل الآلية البيولوجية القوية التي تكمن خلفه: إنّه السعي الطبيعي لحفظ الذات، الّذي أوضحه سبينوزا بكلّ جلاءٍ باعتباره جوهر كياناتنا،

الكوناتوس *Conatus*، والّذي يُستدعى إلى العمل حين نواجه حقيقة المعاناة، وبالأخص واقعة الموت، الحاضر أو المؤجَّل، موتنا أو موت من نحبّ. إن الإحتمال القويّ للمعاناة والموت يعطّل السيرورة الاستتبابية لحاملها. يستجيب السعي إلى حفظ الذت والعافية لهذا التعطيل عبر صراعٍ من أجل تجنّب المصير المحتوم ومن ثمّ إعادة التوزان. ويدفعنا هذا الكفاح لكي نجد الاستراتيجيات التعويضية عن فشل الديناميات الجسدية. وينتُجُ الأسى الشديد عن الاحاطة الواعية بهذا "المأزق" كلّه.

مرةً أخرى، لن يستجيب كلّ إنسانٍ بالطريقة عينها، لسببٍ أو لآخر، في هذا الوقت أو ذاك؛ ولكن، بالنسبة للكثيرين الّذي يستجيبون بالطريقة التي وصفتها، وبغضّ النظر عن الفاعلية التي يعالجون بها مأزقهم ويتخلّصون من ظلمتهم، هناك بعدٌ تراجيديّ لهذه الحالة، وهو بعدٌ بشريّ حصرًا. فكيف يمكن تجاوز الحالة هذه؟

بقدر ما يمكنني التعمّق، تكون الحالة هذه نتيجةً، أولاً لتولّد المشاعر – وليس فقط العواطف – وبالتحديد مشاعر التشاعر التي تسمح لنا بإدراك كاملٍ لتعاطفنا الطبيعي والعاطفي مع الآخرين؛ وفي الظروف المناسبة، يُفسِح التشاعر المجالَ أمام الأسى. ثانيًا، تنتجُ الحالة عن امتلاكنا نعمتين بيولوجيتين، *الوعي*

و *الذاكرة*، نتشاركهما مع الأنواع الأخر، ولكنّهما يمتلكان شأنًا عظيمًا ويبلغان أقصى درجات التعقيد لدى البشر فقط. بالمعنى الدقيق للكلمة، يعني الوعي حضور عقلٍ و ذاتٍ، ولكن بمصطلحات عملية انسانية يدلّ الوعيُ على ما يزيد عن هذا المعنى. بمساعدة الذاكرة السردية الذاتية، يمنحنا الوعيّ إثراءً للذات بفضل ذكرياتِ تجاربنا الخاصة؛ فحين نواجه كلّ لحظةٍ جديدة من حياتنا ككائنات واعية، يكون بإمكاننا أن نربط هذه اللحظة بكل الظروف التي أحاطت بأفراحنا و أتراحنا السابقة، كما بتلك الظروف التي يفترض بها أن تجلب لنا المزيد من الفرح أو أسى.

لولا هذا المستوى المرتفع من الوعي البشري لما أمكن التكلّم، الآن أو في فجر البشرية، عن ذلك الغمّ anguish الملفت للنظر. ما لا نعلمه لن يؤذينا. إذا إمتلكنا نعمةَ الوعي ونحنُ مجرّدون من الذاكرة فلن يمكننا التكلّم عن الغمِّ أيضًا. ما نعرفه في الحاضر و لا يمكننا أن نضعه في سياق تاريخنا الشخصي، يمكنه فقط أن يؤذينا في الحاضر هذا. ينتجُ عن هاتين النعمتين المقترنتينِ، الذاكرة و الوعي، مع ما يكتنفهما من ثراءٍ، دراما بشريةً يمنحانها وضعًا مأساويًا، هنا و الآن. لحسن الحظّ، هاتان النعمتان هما أيضًا مصدر ابتهاجٍ وفير، وعظمةٍ انسانية تامة.

تقودنا الحياة المتعقّلة نحو الامتياز، ولا ينتج عنها البلاء فقط. من خلال هذا المنظور، فإنّ كلّ مشروعٍ لخلاص البشر، بمقدوره أن يحوّل حياةُ متعقّلة إلى حياةٍ راضية – عليه أن يتضمنَ أساليبَ لمقاومة وإلغاء الغمّ المّسبِّب بالمعاناة والموت، ولتستبدله بالفرح. تخبرنا علوم اعصاب المشاعر و العاطفة، بطريقة موحية، أن الفرح ومتغيراته مستحسنٌ أكثر من الحزن وتأثيراته، كما أنه يفضي إلى العافيةِ والازدهارِ المبدعِ لكياننا. علينا أن نطلبَ الفرح، بدرجاتٍ معقولةٍ، حتّى لو بدا أنّ في الأمرِ جنونًا ما أو خيالاً. إن كنّا لا نعاني من وطأة القمعِ أو المجاعةِ، ومع ذلك لا نستطيع أن نقنع أنفسنا كم نحن محظوظون أنّنا أحياء، فهذا ربّما لأنّنا لا نبذل أقصى جهودنا.

يمكن لمواجهة الموت والمعاناة أن تعطّل بالقوّة الحالة الاستتبابية، وربّما أوّل ما اختبره البشر الأوّلون هو هذا التعطّل في اللحظة التي اكتسبوا فيها عواطف اجتماعية ومشاعر تشاعرٍ، و عواطف ومشاعر فرحٍ و أسى، كما وعيًا موسّعًا مع سيرة ذاتية شخصية، وقدرةً على تخيّل الكيانات المجرّدة وأفعالاً ربّما كان بمقدورها أن تبدّل الحالة التأثّرية وتعيد التوزان الاستتبابي (الشرطان الأوّلان، أي العواطف والمشاعر، إجتماعيةً كانت أم لا، كانا قد تشكّلا

مسبقًا في الأنواع غير الانسانية، كما رأينا؛ والشرطان التاليان، أي الوعي الموسّع والخيال، كانا، على الارجح، نعمتين بشريتين جديدتين). بدأ السعي إلى التصحيحات الاستتبابية كاستجابة للغمِّ، و وأمكنَ لهؤلاء الأفراد ذوي الأدمغة القادرة على أن تتصوَّر هكذا تصحيحاتٍ، وعلى أن تسترجع بشكلٍ فعّال التوازن الاستتبابي، [أمكن لهم] أن ينعموا بحياةٍ أطول و ذرية ممتدة؛ وأمكن لتصميمهم الجيني أن يحظى بحظٍ أوفر من الانتشار ، يصاحبه ميلٌ إلى انتشار تلك الاستجابات. ولم يتوقفّ التوقُ، مع نتائجه المفيدة، عن أن يعمّ من جيلٍ إلى آخر. هكذا أمكن لقسمٍ معتبَر من البشر أن يتوفّر في هندسته البيولوجية كلاًّ من الشروطِ التي تقوده إلى الأسى الشخصي و البحث عن راحته التعويضية.

هكذا تتعلّق محاولات الخلاص البشري بالتأقلمِ مع الموت المرتقب أو مع الألم الجسدي و الغمّ العقليّ. (طبعًا، ولفترةٍ زمنية، بعد اختراع مقولة الخلود، ارتبطت هذه المحاولات أيضًا بتجنّب الجحيم). هناك تاريخٌ طويل من هذه المحاولات، وأمكن للأذكياء أن يتبكروا سردياتٍ جذّابة استجابت سريعًا لمشهد المأساة، وهدفت إلى التغلّب على النتائج المحزنة باتبّاع التوصيات والممارسات الدينية (ولا يعني كلامي هذا أن المجابهة مع الموت

والمعاناة أمكن لها أن تكون العامل الوحيد خلف ظهور السرديات الدينية، لا بل أن تنفيذ السلوكيات الاخلاقية كانت عاملاً آخرَ على قدر الأهمية ربّما أمكن له أن يساهم، بنفس القدر، في خلاص الأفراد المنتمين إلى جماعاتٍ نجحت في فرضِ أعرافٍ أخلاقية). وَعَدَت بعضُ السرديات المعروفة بمكافآتٍ تلي الموت، وبعضها الآخر وعد الأحياء بالراحة، ولكن يبقى أن الهدف التعويضي هو نفسه. سبينوزا هو، بطريقةٍ ما، مثلٌ على هذه الاستجابة التاريخية: لأنّه ترعرع في جماعةٍ دينية، و رفض الحلول الّتي قدمتها هذه الجماعة من أجل خلاص البشر، أُجبِرَ على البحث عن حلٍّ آخر. وكلا كتابيه **اللاهوت** و **الإيتيقا** ، إلى جانب ما يتضمنانه من تحليلٍ مُحكم لما هو موجود، يشيران إلى ما يجب فعله و كيف يحصل الخلاص . مع ذلك، وإلى حدّ كبير، يُعتبر الحلّ الّذي أعطاه سبينوزا بمثابة قطيعةٍ مع التاريخ.

الحلّ السبينوزي

يحتوي نسقُ سبينوزا الفلسفيّ على إلهٍ، ولكنّه ليس إلهًا بعيدًا متصوَّرًا على هيئة البشر؛ إنه أصلُ كل موجودٍ يظهر أمام

حواسنا، وهو كلّ ما هو موجود، جوهرٌ أزليّ لا علّة له، و صفاته لامتناهية. لغاياتٍ عملية، الإله هو الطبيعة، و يُظهِرُ نفسه في الكائنات الحيّة. هذا هو معنى المقولة السبينوزية المذكورة غالبًا: "الإله أو الطبيعة" Deus sive natura[170]. لم يكشف الإله عن نفسه إلى البشر بالطريقة عينها التي وردت في الانجيل. ولا يمكنكم الصلاة لإله سبينوزا هذا.

لا داعي للخوف من هذا الإله لأنه لن يعاقبنا أبدًا، كما لا داعي للعمل بجدٍّ أملاً بتلقّي مكافآت منه لأنّ ذلك لن يحصل أيضًا. الأمر الوحيد الّذي قد يبعث على الخوف هو سلوكنا الخاص: حين نفشل في أن نكون لطفاء مع الآخرين، فإننا نعاقب أنفسنا، عاجلاً أو آجلاً، ونحرم ذاتنا من فرصة تحقيق السلام الداخليّ أو السعادة، عاجلاً أو آجلاً. أمّا حين نحبّ الآخرين فسيكون لدينا فرصة جيدة لنحصل، عاجلاً أم آجلاً، على السلام الداخليّ والسعادة. على هذا النحو، لا تهدف تصرفات الفرد إلى ارضاء الإله، بل بالأحرى إلى التصرّف بما ينسجم مع طبيعة هذا الإله، وحين نعمل على هذا النحو، يتأتّى عن عملنا شكلٌ من أشكال السعادة ويتحقق شكلٌ من أشكال الخلاص...*الآن*. الخلاص– *Salus* – على النمط السبينوزي عبارة عن فرصٍ

متكررة نبلغ فيها السعادة التي حين تتراكم تمنحنا حالةً عقليةً صحيّة.[171]

يرفض سبينوزا فكرةَ أنّ إحتمالية الحصول على مكافآت أو عقوبات بعد الموت كانت المحفّز الرئيس للسلوك الاخلاقي. وفي خطابٍ معبِّر رثى فيه صاحب السلوك المسيَّر، يقول: "هو من *هؤلاء الّذين يسيرون خلف شهواتهم، طالما لم يكبحهم خوفٌ من الجحيم. يُحجِمُ عن الأفعال السيّئة وينفّذ تعاليم الربّ بحذافيرها مثل عبدٍ ضدّ إرادته، ومقابل عبوديته هذه يتوقّع من الربّ أن ينعم عليه بعطايا كثيرة أكثر ممّا يتوق إليه من حبّ إلهيّ، وكبيرة بالقياس إلى نفوره الأصلي من الفضيلة* ".[172]

يفسح سبيوزا المجال أمام طريقي خلاصٍ مختلفين: الأول متاحٌ أمام الناس أجمعين، بينما الثاني متعِبٌ أكثر و لا يتوفّر إلاّ لأصحاب الفكر المنضبط و حسن التشكّل. يتطلّب الطريقُ الأوّل حياةً فاضلة في مدينة *civitas* فاضلةٍ أيضًا ، حياة تطيع قوانين دولةٍ ديمقراطيةٍ، وتجلُّ طبيعة الإله، ما بشكلٍ غير مباشر، أي بمعونة قسمٍ من النصّ الدينيّ. إلى ما سبق ولكن بالإضافة إليه ، يتطلّب الطريق الثاني أن نبلغُ حدسيًا *الفهم* الّذي قدّره سبينوزا و وضعه على رأس كلّ الأدوات الفكرية الأخرى، هذا الفهمُ الّذي يستند على معرفةٍ غنيّةٍ و تفكّرٍ متواصلٍ. (وقد رأى سبينوزا

الحدسَ كأكثر الوسائل حنكةً في بلوغ المعرفة، والحدس هو المعرفة من النوع الثالث، وهو لا يحصل إلاّ بعد أن نراكم المعرفة ونستعمل العقل من أجل تحليلها). على نحوٍ متوقعٍ، لم يفكّر سبينوزا في الجهد المطلوب من أجل بلوغ النتائج المرغوبة: "*كيف يمكن للأمر أن يكون لو أنّ الخلاصَ كان جاهزًا في متناول اليد من دون كثير جهدٍ، إذ سوف يهمله الجميع تقريبًا. كلّ ما هو ممتاز يصعب الحصول عليه كما لو أنّه نادرٌ*". [**الإيتيقا** ، الكتاب الرابع، ملاحظة على الفرضية 42].

بخصوص النوع الأول من الخلاص، يرفض سبينوزا السرديات التوراتية وكذلك الوحي الإلهيّ، ولكنّه يقرّ بالحكمة التي تتضمنها الصور التاريخية لموسى والمسيح. رأى سبينوزا التوراة ذخيرةً للمعرفة القيَمة في ما خصّ السلوك البشريّ والتنظيم المدني.[173]

يفترضُ الطريق الثاني للخلاصِ بلوغَ متطلبّات الطريق الأول، أي الحياة الفاضلة المستندة على نظامٍ اجتماعيّ سياسيّ تساعد قوانينه الفردَ في أن يكونَ منصِفًا وخيِّرًا مع الآخرين. ولكن يذهب هذا الطريق أبعد من هذه المتطلبات، إذ يطلب سبينوزا تقبّلاً للأحداث الطبيعية باعتبارها ضروريةً، تامشيًا مع الفهم العلميّ. مثلاً، لا يمكن تجنّب الموت والخسارة الناجمة عنه، علينا

إذًا أن نقبل ذلك. أيضًا، يطلبُ الحلّ السبينوزيّ من الفردِ أن يحاول التمييز بين المنبّه العاطفيّ الخاصّ الّذي يثير عواطفَ سلبية – أهواء مثل الخوف، الغضب، الغيرة، الغمّ – وبين الآلية المحدّدة التي تُصدر العاطفة. عوضًا عن ذلك، على الفردِ أن يستعيضَ بمنبّه عاطفيّ خاصّ قادرٍ على إثارة عواطف ايجابية ومغذّية. ولكي يسهّل الوصول إلى هذا الهدف، يوصي سبينوزا بالتمرّن الذهنيّ على المنبّه العاطفي السلبيّ كوسيلةٍ تساعد على تحمّل العواطف السلبية و لما يتضمنّه من اكتسابٍ تدريجيٍّ لحيلةٍ تولّد عواطف ايجابية. فعليًا، هذا هو سبينوزا خبير المناعة الفكرية وهو يطوّر لقاحًا قادرًا على خلقِ أجسامٍ مضادة antibodies للأهواء. توجد لمسة رواقية[i] Stoic في التمرين كلّه، مع ذلك علينا أن نذكر أن سبينوزا انتقد الرواقيين لأنهم افترضوا أنّ السيطرة على العواطف يمكن أن تكون تامّة (كما انتقد ديكارت أيضًا، وللسبب نفسه). يبدو لي أن سبينوزا كان صارمًا بما فيه الكافية، ولكنه لم يكن رواقيًا بما يكفي.

[i] الفلسفة الرو اقية هي مدرسة فلسفة هيللينستية (اغريقية شرقية) أسسها زينون (332 ق.م – 262 ق.م) عُنيَت بالفضيلة و بالسلوك الأخلاقي الفردي القائم على المنطق العقلي والارادة المتو افقة مع نظام الطبيعة. دعا الرو اقيون إلى قبول العالم كما هو، والتحرر من الخضوع للرغبات والملذّات الجسدية والخوف من الموت والألم، كما إلى العدالة في التعامل مع الآخرين

يتوقّف الحل الّذي قدّمه سبينوزا على سلطة العقل على العملية العاطفية، والتي بدروها تعتمد على استكشاف أسباب العواطف السلبية، وعلى معرفة آلية هذه العواطف. على الفرد أن يكون مدركًا للفصل الأساسي بين المنبّه العاطفيّ الخاص والآلية المحرِّضة على العواطف حتّى يقدر أن يستعين بالمنبّه العاطفي العقلاني الخاص والقادر على انتاج حالات المشاعر الأكثر ايجابيةً (إلى حدٍّ ما، يتشارك مشروع فرويد التحليلي النفسيّ هذه الأهداف). اليوم، يجعل الفهم الجديد لآليات المشاعر والعواطف هدفَ سبينوزا قابلاً للتحقيق. وأخيرًا، يتطلب الحلّ السبينوزي من الفرد أن يفكّر بالحياة، بمعونة المعرفة والعقل، من منظور الأزلية – الإله أو الطبيعة – بدلاً عن منظور الخلود الفرديّ.

تبدو نتائج هذا الجهدِ معقّدةً وصعبة التفكيك. الحرية هي إحدى هذه النتائج، وهي ليس تلك الّتي نتأمّلها في خضّم النقاشات حول الإرادة الحرّة بل أكثر جذريةً: تقليص تبعيتنا للحاجات المتعلّقة بالأشياء العاطفية التي تستعبدنا. النتيجة الأخرى هي أننا نحدسُ ماهيات الشرط البشريّ؛ ويقترنُ هذا الحدسِ مع مشاعرَ صافيةٍ تتضمن مكوناتها المتعة، الفرح، السرور، ولكن التي تبدو كلماتٌ مثل "البَرَكَةِ" Blessedness و

"الغِبطةِ" Beatitude الأكثر ملاءمةً لها أخذاً بالاعتبار نسيج الشعور (**الإيتيقا** ، الجزء الرابع، الفرضية 32 و 36 وملاحظاتهما). هذا الشعور العقليّ مرادفٌ للشكل العقلي لحبّ الإلَه – الحبّ العقلي اللاإلَه amor intellectualis dei"[174].

يذكر غوته Goethe أن هذا المسار يتوفّرُ على حبٍّ لا يطلب حبًّا بالمقابل، ويتسألُ عمّا يمكن له أن يكون أكثر كرمًا و لامبالاةً من هذا الموقف. ومع ذلك، لم يكن غوته مصيبًا جدًا: فالفرد يحصل على شيءٍ ما بالمقابل، على أقصى شكلٍ مرغوبٍ من الحرية الانسانية، ويعتقد سبينوزا أن الكائنَ يكون حرًا حين يوجَد على ضوء طبيعته فحسب، وحين يتصرّف فقط بموجب تحديده الخاصّ. ويحقق الفردُ أيضًا أعلى شكلٍ مرغوبٍ من الفرحِ وفق قانون سبينوزا، وهو فرحٌ ربّما يمكن تصورّه كشعور خالصٍ تحررّ أقلّه لمّرةٍ من توأمه الجسديّ المُلزَم.

لم يكن الجميع مثل غوته في تقديرهم الحلّ السبينوزيّ، إذ اعتبره البعضُ إرباكًا ميئوسًا منه[175]. ولكنّ أمانته في الجهد أو آلامه والمعارك التي دفعت إليها لم تكن موضع تشكيكٍ. إن الشخصية الروائية ملامود Malamud الّتي استحضرتُها في الفصل الأول تعبّر جيّدًا أقلّ عمّا يمكن أن يقوله هذا الاقتباسُ من **الإيتيقا** :"*...أراد أن يجعلَ من نفسه رجلاً حرًّا*". كذلك، لا يمكن

الشكّ في أنّ سبينوزا قد نجح في أن يجمع العقل والانفعال Affect بطريقة متطوّرة. تتطلّب استراتيجيا سبينوزا في بلوغ الحرية والغِبطةِ بالاستناد على الحدسِ معرفةً تجريبيةً و عقلاً. وما يثير الفضول أيضًا أن الشّخص الّذي ظنّ أن البراهين كانت عين العقل، أمضى زمنًا معتبرًا من حياته وهو يخترع أفضل العدسات البصرية، وهي الأدوات التي ساعدت العقل على أن يرى الكثير من الحقائق. اعتبَر سبينوزا أنّ المعرفةَ واكتشاف الطبيعة عناصرَ ضرورية في الخطّةِ التي يتبّعها صاحبُ الفكر. ولقد كانت العدسات الّتي صقلها ببراعة، والمجاهر التي استخدمها أدوات رؤيةٍ واضحةٍ، و كانت، بطريقةٍ أو بأخرى، وسائلَ للخلاص. و كأنّنا نتكلّم عن أيامنا هذه! ذلك أن في عصر سبينوزا تطوّرت، جنبًا إلى جنب، العديد من الأجهزة البصرية و الميكانيكية لكي تفسح المجال أمام الاكتشاف العلمي وتجعل من عملية الاكتشاف مصدرًا للمتعة[176].

فعّالية الحلّ

إلى أي مدى يبدو الحلّ الّذي قدمّه سبينوزا ملاءمًا اليوم، وما مدى فعاليته؟ الحكم على ذلك، اليوم كما في زمن سبينوزا، يبدو متباينًا.

بالنسبة للبعض، الحلّ السبينوزي وسيلة فضلى لمنح الحياة معنى ولجعل المجتمع البشريّ أكثر تسامحًا. يبدو الهدف من هذا الحلّ أن يعود بنا إلى الاعتماد النسبيّ بين البشر، و الّذي خسرناه بعد أن كسبنا وعيًا موسَّعًا وذاكرةَ سيرةٍ ذاتية، و يمرّ طريق العودة هذه باستخدامٍ للعقل والشعور. يجعلنا العقل نرى الطريق، بينما يقوّي الشعور من إصرارنا. ما يجذبني في الحلّ السبينوزي هو الاعترافَ بمزايا القبول بِالفرح و رفضِ الأسى و الخوف، والإصرار على القبول و الرفض. في مزيجٍ جميل من الحكمة و الحصافة العلمية، يؤكّدُ سبينوزا الحياة و يجعل من العاطفة والشعور وسائلَ ازدهارها. يُترَك الأمر للفرد لكي يعيش وفقَ أسلوبٍ يمكّنه من تحقيق الفرح التام مرارًا وتكرارًا، فتصبح الحياة ،عندئذٍ، مستحَقّة للعيش. ولأن العملية هذه متجذّرة في الطبيعة، ينسجمُ الحلّ السبينوزيّ، على نحو مباشر، مع تلك

النظرة إلى الكون الّتي كانت العلوم تبنيها طوال الأربعماية عامٍ الماضية.

من جانبٍ آخر، يبدو الحلّ السبينوزيّ إشكاليًا. تقلقني فكرة أن هذا الحلّ يجدي نفعًا في حالةٍ من التمركز على الذات المنعزلةِ بعيدًا عن العلاقات الانسانية الوثيقة. إنّما أجد هذا التنسّك غير عمليّ في عصرنا. لم يصل سبينوزا إلى المدى الّذي بلغه الاغريق والرومان في ما خصّ الامتناع عن زخارف الحياة، ولكنّه اقترب من ذلك. لقد فسدنا كثيرًا، ليست فحسب بسبب أننا قضمنا تفاحة المعرفة، بل لأننا التهمناها بأكملها، ويبدو من غير الواقعيّ أن نخلّص أنفسنا من الحمل الثقيل للأشياء، الوقائع والعادات التي اجتاحت حياتنا الغربية عالية التقنية. ثمَّ، لماذا ينبغي علينا أن نخلّص أنفسنا؟ لماذا لا نستفيد من حكمة أرسطو بهذا الخصوص ؟ لقد ألحّ هذا الأخير على إنّ الحياة الراضية هي الحياة الفاضلة و السعيدة، وأنّ العافية والثروة والحب و الصداقة صوَرٌ من صور الرضا. و أنني أقل حماسةً للسلبية الظاهرة الّتي يعسكها الحلّ السبينوزي، بغضّ النظر إلى أي مدى ما تصل إليه غِبطته من فعّالية داخليًا. و يشكو البعض من كون ما يقدّمه الحلّ السبينوزيّ، في أفق الحياة، هو الموت فقط: إذ لا يوجد خلاص من حالات المعاناة و الاجحاف الّتي

تتسبّب بها البيولوجيا والمجتمعات للبشر، ولا توجد تعويضات عن الخسائر الحاصلة. إله سبينوزا هو فكرة، وليس على هيئة انسانية كما خلقته المسيحية مثلاً. ربّما سكِرَ سبينوزا بالإله، كما قال نوفاليس، لكنّ إلهه لا يشربَ.

نظير كلّ الشجاعة، المثابرة، التضحيات و نظير كلّ انضباطٍ ضروري من أجل بلوغ الفرح التام، لن نحصل سوى على لحظاتٍ من الكمال. على ماذا تضيء هذه الومضات العابرة؟ على الإلهي؟ البلسم سريع الزوال، و سنتُرَك بانتظار لحظة مقبلة مماثلة، ومضةٍ شبيهة. و طبقًا لحالتنا قد نجد أن ما حصلنا عليه يبدو غامرًا أو بالكاد يكفينا؛ ولكن واقعة أنّنا لا نعتبره كافيًا أو مريحًا، أو ملائمًا، لا تجعل منه أكثر واقعيةً.

إذا كنت تسأل، من منظور سبينوزا، سؤال هاملت المقلِق، سؤاله الافتتاحيّ:" *من هناك*؟" – أي من الّذي يجعلنا نثابرُ على ما يتطلبه جهدنا في حفظ الذات – فإنّ الجواب قاطعٌ: لا أحد! وحدتُنا هي حقيقتنا الصارخة، حقيقة المسيح على الصليب وحقيقة سبينوزا و رأسه على وسادته المجعّدة فوق سرير موته. ومع ذلك، منحنا سبينوزا وسيلة فرارٍ من هذه الحقيقة، منحنا وهمًا نبيلاً يجعلنا نرقص و نغنّي.

في بداية كتابي هذا، وصفتُ سبينوزا بأنه، و في الآن عينه، مبهرٌ و مغيظ. والأسباب التي دفعتني لرؤيته شخصًا مبهرًا تبدو واضحةُ، ولكنّ السبب الوحيد الّذي جعلني أراه مغيظًا هو ذلك اليقين المطمئن الّذي واجه به صراعًا لم تستطع البشرية، بغالبيتها، أن تحلّه: الصراع بين وجهة النظر التي تعتبر أنّ المعاناة والموت ظاهرتان بيولوجيتان طبيعيتان علينا أن نتقبلهما بكل رباطة جأش (والقليل من البشر المتعلّمين قد يفشلون في رؤية الحكمة التي تكمن خلف ذلك) وبين جنوحٍ ليس أقل من طبيعي لعقلٍ بشري يجعل صاحبه يصطدمُ مع تلك الحكمة ويشعر إنّها لا ترضيه. وهكذا، فالجرحُ لم يندمِل بعد و كم كنتُ أتمنّى لو كان العكس صحيحًا، فأنا، كما ترون، أفضّل النهايات السعيدة.

السبينوزية

مثل ما كان مزعِجًا في عصره، أُعيدَ اكتشاف أو اختراع الطراز السبينوزي العلماني للتديّن في القرن العشرين. آينشتان، مثلاً، فكّر بالإله والدين بطريقةٍ شبيهة حين وصف إله الانسان "البدائي" بأنه الّذي " نأمل منه العناية لكي ننتفع، و مَن يرعبنا

عقابه؛ تسامٍ[i] sublimation لشعور الطفل تجاه والده؛ هو كائنٌ يقيم المرءٌ معه علاقة شخصية إلى هذا الحدّ أو ذاك، حتّى لو ظلّت، في أعماقها، مشوبة بالرهبة"[177]. وفي وصفه لشعوره الديني الخاص (الشعور الديني لعقلٍ علميّ من الطراز العميق)، يصفه آينشتاين قائلاً:"...يتّخذ صورة الدهشةِ المذهلة أمام تناغم القانون الطبيعيّ، و يكشف عن عقلٍ سامٍ يبدو التفكير المنهجي للبشر وأفعالهم، مقارنةً به، مجرد انعكاس باهتٍ عنه "[178]. و بكلماتٍ جميلةٍ، يصف آينشتاين هذا الشعور أيضًا بأنه "... نوعٌ من الفرح النشوانِ، ومن دهشةٍ أمام جمال وعظمة هذا العالم الّذي لا يشكّل فيه الانسان سوى فكرةٍ عابرة. هذا الفرح هو الشعور الّذي فيه يجد البحث العلميّ الحقيقيّ قوتَه الروحيّ، ولكنه الّذي تعبّر عنه أيضًا تغريدات الطيور". أعتقد بأنّ هذا الشعور، الّذي دعاه آينشتاين بالكونيّ، قريبٌ من مقولة الحبّ العقلي للإله السبينوزية، بالرغم بمن إمكانية التمييز بين الاثنين: شعور آينشتاين الكونيّ مليءٌ بالحيوية، خليطٌ من رهبةٍ توقف القلب، واستعدادٍ حماسيّ لاتحادٍ كاملٍ مع العالم. الحبّ العقلي

---

[i] **التسامي، التصاعد أو الإعلاء sublimation مقولة استخدمها فرويد في تحليله النفسي ليصف ذلك النشاط البشري (الابداع الفني والفكري والأدبي والديني..الخ) الّذي يجد أصوله العميقة وقوّة دفه في النزوع الجنسيّ والّذي يتوجّه نحو هدفٍ غير جنسيّ باستثمار موضوعات ذات قيمة اجتماعية.**

السبينوزيّ مقيّدٌ أكثر، فالشراكةُ[i] داخليّة. ويبدو أن آينشتاين يدمج الاثنين معًا: فهو يؤمن أن الشعور الكونيّ سمةُ العبقريات الدينية على مرّ العصور، ولكنّها لا تجد مرتكزًا لها في أي مؤسسة دينية :" تحديدًا، لهذا السبب، نجد بين الهراطقة في كل العصور مَن امتلكَ أسمى المشاعر الدينية، الّذين وصفهم معاصروهم بالملحدين ، وأحيانًا بالقديسين. في ضوء ذلك، انظروا إلى هؤلاء أمثالِ دموقريطوس[ii]، فرانسيس الآزيسي[iii] ، وسبينوزا كم كانوا يتشابهون!"[179].

يكشف تفكير وليم جيمس حول هذه المسائل عن قرابةٍ مع أفكار سبينوزا أيضًا. ويبدو هذا الأمر مفاجئًا باعتبار الفجوة الزمنية، والسياق التاريخي اللذين يفصلان الفيلسوفين. كما هو متوقّعٌ، لم تكن علاقة جيمس بسبينوزا علاقة تقبّلٍ تام: تفيدنا السيرة الذاتية التي وضعها ر.ب.و لويس R.W.B Lewis أنّ جيمس

---

[i] الشراكة أو المناولة (تناول جسد المسيح) communion وهي طقس مسيحي يُعتبر من الأسرار المقدّسة ويعبّر عن الشراكة بين الانسان والربّ عن طريق تناول القربان المقدّس (رمز جسد المسيح).

[ii] دموقريطوس أو دموكريتس Democritus (460 ق.م -370 ق.م) فيلسوف اغريقي ما قبل سقراطي، اشتهر بنظريته حول التركيب الذرّي للوجود. اعتبره الكثيرون "أبا العلوم الحديثة".

[iii] فرانسيس الآسيزي San Francesco d'Assisi (1182-1226) قدّيس و فيلسوف ايطاليّ. كان لأفكاره الدينية والاجتماعية تأثيرٌ واسع على بعض الكنائس والتجمّعات المسيحية والروحانية غير الكاثوليكية أو حتّى غير المسيحية.

قرأ سبينوزا لأول مرة في العام 1888 لأجل أن يدرّس مقررًا جديدًا في فلسفة الدين في جامعة هارفرد؛ في النهاية، أصبح هذا المقرّر أساس كتاب جيمس *تنويعات الخبرة الدينية*[180]. عارض جيمس سبينوزا في قضايا عديدة: لم يؤيّد زعمه المثير للجدل أنّه "سيحلّل أفعال وشهوات البشر كما لو أنّها مسألة خطوطٍ، مسطحاتٍ، وجوامد". هذه "التشبيهات القاسية" لن تلقى استحسان عبقري كامبردج الجذّاب[181]. كما أنه عارض ما وصفه بإنّه حماسة سبينوزا التفاؤلية تجاه الحياة، "ذهنيته الطيّبة"[182]. كان منطقه رائعًا: قسّم جيمس البشر إلى نوعين: أصحاب الأرواح المبتهجة، وأصحاب الأرواح العليلة. للمبتهجين أسلوبهم الطبيعي كي لا يروا مأساة الموت ورعب الطبيعة في أسوأ لحظاتها، و لا الظلام في أغوار العقلِ البشري. سبينوزا، بالنسبة لجيمس، هو من أصحاب الروح المبتهِجة، ممّن ولِدوا مع " عجزٍ تكويني عن المعاناة المطوّلة" و مع "ميلٍ إلى رؤية الأمور بشكلٍ تفاؤليّ ". ويرى جيمس إنّ الشرَّ بالنسبة إلى سبينوزيي هذا العالم "مرضٌ، وأن نقلق بخصوص هذا المرض هو بحدّ ذاته شكلٌ اضافيّ من المرض، يُضاف فقط إلى التبرّم الأصليّ"[183]. تفاؤلهم طبيعيّ.

بالمقابل، كان جيمس من أصحاب الروح العليلة. لا يمكن لهذه الروح أن تتأمّل الطبيعة وتستمتع بالمشهد أمامها، على الأقل

ليس طوال الوقت، فلطالما كان المشهدُ هذا مرعبًا و جائرًا. لا يحتاج المرء أن يكون مكتئبًا كي ينظر إلى العالم بروحٍ عليلة، برغم أن جيمس عانى من اضطرابًا بالمزاج - وقد تزامن التطور الرائع لكتابه *تنويعات التجربة الدينية* مع تعافيه من نوبة اكتئاب قاسية. لكن، وما يثير الاستغراب أنّ جيمس اعتبر مرضه أمرًا "حسنًا". فبالرغم من ضرورة تحاشي المرض في حالاته القصوى، بشكله الباثولوجيّ، ولكن يجب أن يبقى، إلى هذه الدرجة أو تلك، كي يدفع البشر لمجابهة الواقع من دون الوهمِ المخادِع الّذي تقحمه الأرواح المبتهِجة. جرعة من التشاؤم تبدو جيّدة!

إنّ قولبة مسألة الخلاص البشريّ ضمن مصطلحات معرفية و تفاعلية أظهرت صواب أفكار وليم جيمس. ومع ذلك، يجب القول إنّه بالغَ جدًا بخصوص التماعات سبينوزا. لا أعتقد أن هذا الأخير واجه مشكلةً ما في رؤية الظلام في الطبيعة، واختبار آثار ذلك بنفسه، على العكس تمامًا؛ ولكنّه رفض أن *يقبل* هذا الظلام وأن يتركه يهيمن على الفرد باعتباره هوىً سيئًا. رأى الظلام كجزء من الوجود و وصف طرقًا يمكن من خلالها التقليل من شأنه. كان سبينوزًا مرنًا وشجاعًا أكثر ممّا كانَ مبتهِجًا بالطبيعة؛ جاهدَ لكي يكون مبتهجًا، وعمل بجدٍّ لإلغاء مشاعر الخوف و الأسى الّتي أحدثتها الطبيعة من خلال مشاعر الفرح التي تنطلقُ

من اكتشاف الطبيعة هذه. هذا الاكتشاف استوعبَ أيضًا، على نحوٍ مشاكسٍ، قساوة الطبيعة و لامبالاتها.

مع ذلك، و متى ما تمّ تجاوز اعتراضات جيمس، نجد لديه الكثير ممّا يشابه ما لدى سبينوزا بخصوص الخلاص : كانت تجربتهما عن الله ذات خصوصيةٍ، وقد نبذا طقوس الدينية العامّة و التجمهرات واعتبارها تجربة ذات قدسية. في الحقيقة، إنّ الحجج الّتي أوردها جيمس في ردّه الكاسح على الدين المنظّم هي بالتمام سبينوزية. لقد صور كلّاً من جيمس وسبينوزا تجربة الإلهيّ على إنّها محض شعورٍ ، شعور رائع هو مصدر الانشراحِ، المعنى، والاندفاع نحو الحياة. في النهاية، فإنّ الفرق المهمّ بين الاثنين هو في نقطة الانطلاق التي تنطلق منها المشاعر الخلاصية السليمة الّتي يمكن قياسها. عند سبينوزا، يُعتبر الشعور بالإلهي قمّة الاتّزان العقلاني بشأن العالم؛ أمّا عند جيمس فيبدأ الشعور بالإلهي عند مستوى إكتئابيّ ويرتفع ليتخلّص من العجزِ التقييم السلبيّ للطبيعة. عدا ذلك، كلا الرجلين وجدا الإله *في دواخلنا*، ويحدد جيمس، مستخدمًا المعرفة السيكولوجية الناشئة أواخر القرن التاسع عشر والّتي ساهم في بنائها، مصدرَ الإلهي ليس فقط في داخلنا بل في لاوعينا أيضًا. قال جيمس عن التجربة الدينية إنّها ما هو "أكثرَ"، و أخبرنا أن هذا "الأكثر" الّذي

نستطيع بفضله أن نخرجَ بأنفسنا إلى ما هو "أبعد" هو بالفعل "الأقرب".

يدعونا سبينوزا وجيمس إلى تكيّفٍ مثمرٍ يتّخذ شكلَ الحياة الطبيعية للروح. إلههما طبيبٌ شافٍ فهو من يسمح باستعادةِ التوازن الديناميكي الدموي homeodynamic المفقود بسبب الغمّ. ولكنّ كليهما لم يتوقع من إلهه أن يسمعه ؛ بل اعتقدا أن اعادة التوازن هو مهمَّة فردية و داخلية، شيءُ يمكن تحقيقه حين يطلق التفكير المتمرّس والعقلانيّ العاطفة والمشاعر الملائمة. كلاهما عقلنَ هذه العملية من خلال الاعتراف أن البشر مجرّدَ أحداثٍ من الفرديات الذاتية في كون واسعٍ وغامضٍ. ولم يستطع كلاهما فكّ رموز هذا الكون وعلله العميقة.

نهايات سعيدة؟

كيف يمكننا أن نصل إلى نهايةٍ سعيدةٍ في عالمٍ يمكن للأرواح المبتهجة أن ترى فيه و بسهولةٍ كلّ أشكالِ المعاناة الانسانية، الحتمية و الّتي يمكن تجنبّها ؟ الكثيرون يملكون الجواب مسبقًا

على شكلِ ايمان شعوريّ دينيّ عميق أو عزلةٍ تحميهم ضدّ كلّ أشكالِ الأسى. و لكن، ما حيلة الآخرين المفتقرين لكلّ إمكانية؟ الجواب الصادق طبعًا: لا أعرف، و سأكون متعجرفًا لو أعطيتُ الآخرين وصفةً لنهاياتٍ سعيدةٍ تخصّ حياتهم. لكن، يمكنني أن أتحدّث عن وجهةِ نظري الخاصة.

يتأتّى الطريق نحو النهاية السعيدة الّتي أتمناها عن دمجِ بعض سماتِ التأمّلات السبينوزية مع موقفٍ فعّال من العالم حولنا. يتضمن هذا الطريق حياةَ روحٍ تسعى إلى الفهمِ بحماسةٍ و بأشكالٍ من الانضباط كمصادرٍ للفرح، وحيث يتأتّى الفهمُ عن المعرفة العلمية، والتجربة الجمالية، أو عن الاثنين معًا. وتفترضُ حياةٌ كهذه سلوكًا كفاحيًا يستند على إيمانٍ بامكانية معالجةِ بعضًا من الحالات الانسانية المأساوية، وأننا نتحمّل مسؤولية القيام بفعلٍ ما بخصوص المأزق البشريّ الّذي نجد أنفسنا فيه. تكمن إحدى منافع التقدّم العلميّ في وسائلَ لتخطيط الأفعال الذكية القادرة على التخفيف من المعاناة، ويمكن للعلم أن يقترنَ مع أفضل التقاليد الانسانوية[i] humanist ما يمنحنا مقاربة جديدة للقضايا الانساني و يقودنا صوب الازدهار الانسانيّ.

---

[i] نسبةً إلى الانسانوية أو النزعة الانسانية **humanist** وهي فلسفة علمانية الطابع ترفع من شأن وقيمة وأعمال الانسان الفرد أو ضمن الجماعة.

لكيّ أوضّح وجهة النظرهذه اسمحوا لي بأن أبدأ بتفسير ما أعنيه بحياة الروح. يتابع أحد أصدقائي باهتمام حثيث التطورات في البيولوجيا وهو في الآن عينه باحثُ توّاق عن الروحانية في الحياة، يسألني غالبًا إذا كان بالامكان تعريف الروح وتحديدها بمصطلحات البيولوجيا العصبية:" ما هي الروح؟" و "أين هي؟". كيف يمكنني أن أجيب عن ذلك؟ عليّ أن أعترف أنني لا أحبّذ محاولة عصبنة neurologize التجارب الدينية، بالأخصّ حين تحدد هذه المحاولة الدماغَ كمركزٍ للإله أو أن تبرر وجود الإله والدين بالعثور على ما يرتبط بهما في المسوح الدماغية[184]. ومع ذلك، تُعتبر التجارب الروحية، دينية كانت أو غير ذلك، عمليات عقلية. هي عمليات بيولوجية على مستوى عالٍ من التعقيد، وتجري في الدماغِ في متعضٍ خاصّ في بعض الظروف، ولا يوجد أيّ سبب لأن نخجل من وصف هذه العمليات باستخدام مصطلحات العلوم البيولوجية العصبية المتوفّرة طالما نحن واعون لمحدودية هذا الاستخدام. اذاً، هاكم ردودي على أسئلة صديقي.

أولاً، أفهم مقولة الروحانية على إنّها تجربة مكثّفة من التناغم، بمعنى أن يعمل الكائن الحيّ بأقصى اتّقانٍ ممكن. ترتبط التجربة الروحية مع الرغبة بالتصرّف مع الآخرين بكرمٍ و كياسة.

وهكذا، أن نعيشَ تجربة روحية معناه أن نحمل مشاعر متواصلة من نوعٍ محدّد يسودها شكلٌ من الفرحِ مهما كان هادئًا. يقعُ مركز كتلة المشاعر الّتي أدعوها بالروحية عند تقاطعِ تجارب عديدة: إحداها هو الجمال المبهج ، و الآخر هو توقّع الأفعال التي تجري وفق "مزاجٍ مسالمٍ" مع "علبةٍ للتفاعلات المرتبطة بالحبّ" (الاقتباس من جيمس ولكنّ المفاهيم سبينوزية). يمكن لهذه التجارب أن تتردد و تعيد انتاج نفسها لفترة وجيزة من الوقت. مدرَكًا على هذا النحو، يصبحُ ما هو روحيّ دليلَ تخطيطٍ تنظيميّ ترتكزُ عليه حياةٌ جيّدة الاتّزان، حسنةُ الطباع و مُحكَمة القصد. قد يغامر البعض بالقول أن الروحيّ هو تجلٍّ جزئيّ لاندفاعٍ يحرّك الحياة في حالةٍ من الكمال. إذا كانت المشاعر، كما اقترحتُ سابقًا في هذا الكتاب، تشهدُ على حالةِ عمليات الحياة، فإنّ المشاعر الروحية تتغلغلُ في أعماق هذه الشهادةِ، بعمقٍ أكثر لتعبّرَ عن جوهر الحياة. تشكّل هذه المشاعرَ قاعدةُ حدسِنا لعملية الحياة[185].

ثانيًا، تغذّي التجارب الروحية البشرَ. وأظنّ أن سبينوزا كان على صوابٍ حين رأى أن الفرح وتنويعاته تقود إلى كمالٍ وظيفيّ أكبر؛ والمعرفة العلمية الحالية حول الفرح تدعم مقولة أنّه يجب أن نسعى بشكلٍ حثيث وراء الفرح لأنه يساهم في

ازدهارنا؛ بالمقابل، يجب تجنّب الأسى وما شابهه لأنه غير صحّي. هذا ما يستلزم التقيّد بسلسلة من السُنن الاجتماعية (الدليل الأخير المعروض في الفصل الرابع والّذي يفيد بأنّ السلوك البشري التعاونيّ يشغّل أنظمة المتعة/المكافأة في الدماغ). كما إنّ انتهاك السنن الاجتماعية يسبب الندم أو الخجل و الغمّ،وهذه كلّها تنويعات أسى ضارّة.

ثالثُا، لدينا قدرة على استحضار التجارب الروحية: فالصلوات والطقوس، في سياق السردية الدينية، موجودة من أجل توليد تجارب روحية، ولكن لدينا ايضًا مصادر أخرى. وغالبًا ما يقال أن علمانية و استهلاكية عصرنا المتشدّدة جعلت مّما هو روحي صعب التحقّق، كما لو أنّ الوسائل الّتي تولّد الروحيّ فُقِدت أو ندُرت؛ أعتقد بخلاف ذلك. نحيا و تحيطُ بنا منبهات قادرة على توليدِ الروحانية، برغم إنّ قوّتها وفعاليتها قد تقلّصَت بسبب اضطراب بيئاتنا و افتقاد الأطر المنظِّمة حيث يمكن لفعل هذه المنبّهات أن يكون فعّالاً. إن تأمّل الطبيعة، التفكّر في الاكشتافات العلمية و اختبار الفنون العظيمة يمكنها، في سياقٍ ملاءم، أن تكون المنبّه العاطفيّ المختصّ و الفعّال لما هو روحيّ. فلنتأمّل

كيف يمكن للاصغاء إلى باخ[i] ، موتسارت[ii] ، شوبرت[iii] أو ماهلر[iv] أن يقودنا إلى الروحانية. هذه فرصة لتوليد العواطف الايجابية حين تظهر، بالمقابل، العواطف السلبية، على النحو الّذي ينصح به سبينوزا. على كل حال، من الواضحِ إنّ هذا النوع من التجارب الروحية الّتي ألمّح إليها ليست متكافئة مع الدين: فهي تفتقر إلى الإطار، وبالنتيجة تفتقر أيضًا إلى الرحابة والمهابة اللتين تجذبان الكثير من البشر إلى الدين المنظّم، فالطقوس الشعائرية والتجمّعات المشتركة تخلق مجالاتٍ من التجربة الدينية مختلفة عن تلك الّتي نعيشها على انفراد.

دعونا ننتقل إلى القضية الشائكة حول "موضعة" locating الروحيّ في المتعضيّ البشريّ. لا أعتقد بوجود مركزٍ دماغيّ للروحانية كما في التقليد الفراسي[v] phrenological الجميل القديم، ولكن يمكننا أن نبيّن كيف أن عملية بلوغ الحالة

---

[i] يوهان سيباستيان باخ Johann Sebastian Bach (1685-1750) مؤلف وعازف موسيقي الماني.

[ii] وولفغانغ آمادوس موتسارت Wolfgang Amadeus Mozart (1756-1791) وُلِد في زمن الامبراطورية الرومانية المقدّسة. أحد أبرز الموسيقيين في الحقبة الكلاسيكية للموسيقى. كان له تأثير عميق على الموسيقى الغربية.

[iii] فرانز شوبرت Franz Peter Schubert (1797-1828) مؤلف موسيقى نمساوي.

[iv] غوستاف ماهلر Gustav Mahler (1860-1911) مؤلف موسيقى وقائد اوركسترا ألماني.

[v] علم فراسة الدماغ Phrenology علم قديم (زائف) زعم أنه يمكن تقسيم الدماغ إلى مناطق تختّص بملكات فكرية ومزاجية وأخلاقية وأن حجم و شكل جمجمة الدماغ تعبّر عن حجم وقوّة وهيمنة ملكة ما.

الروحية يمكن أن تتم وفق البيولوجيا العصبية: بما إنّ الروحيّ هو نوعٌ من حالات المشاعر، أتصوّره يستند، بالمعنى العصبونيّ، على بنيات و تشغيلاتٍ أوجزناها في الفصل الثالث، وبالأخصّ على شبكة المناطق الدماغية الجسدية الحسية. الروحيّ هو حالة *خاصّة* من *المتعضّي*، تضافرٌ معقّدُ بين بعض التشكيلاتِ الجسدية و العقلية. يعتمد استمرار هذه الحالات على حشدٍ من الأفكار حول وضعِ الذات و وضعِ الذوات الأخرى، حول الماضي والمستقبل، و حول المفاهيم العينية والمجرّدة عن طبيعتنا.

من خلال وصل التجارب الروحية بالبيولوجيا العصبية للمشاعر، لا أهدف إلى اختزال المتسامي إلى الآلي، وبالتالي التقليل من سموّه، بل أن أقترح أن التساميَ الروحي متضمّنٌ في التسامي البيولوجي، وأن بامكاننا أن نبدأ بفهم العملية من ناحية بيولوجية. أمّا بخصوص نتائج هذه العملية، فلا حاجة و لا قيمة لكي نفسرها: التجربة الروحيّة تفي بالغرض بما فيه الكفاية.

إنّ الأخذ بالحسبان العملية الفيزيولوجية التي تكمن وراء ما هو روحيّ لا يفسّر غموض عملية الحياة التي يرتبط بها الشعور الروحيّ هذا، بل يفسّر العلاقةً مع ما هو غامض وليس الغامض بحدِّ ذاته. يجعل سبينوزا و هؤلاء المفكّرون التي تتضمن أفكارهم عناصرَ سبينوزية المشاعرَ تدور دورةً كاملةً، من الحياة في مجراها

حيث تجد هذه المشاعر أصلها، إلى مصادر الحياة التي تشير إليها هذه المشاعر.

قلتُ إنّ حياة الروحِ تحتاج تتمةً يمثّلها موقفٌ قتاليّ. ما معنى هذا الكلام؟ موضوعيًا، ليست الطبيعة قاسية أو لطيفة، ولكنّ نظرتنا العملية يمكن أن تكون، و بشكلٍ مبرر، ذاتية أو شخصية. عبر هذه النظرة تكشف البيولوجيا الحديثة أنّ الطبيعة أقسى وأكثر لامبالاةً ممّا كنا نعتقد سابقًا، فإذا كان البشر ضحايا متساوين لتعسّف الطبيعة، و لشرّها غير المتعمّد، إلاّ أننا لسنا ملزمين بقبول ذلك من دون رد. بمقدورنا أن نجد الوسائل لكي نواجهَ القساوة و اللامبالاة الظاهرتين. تفتقر الطبيعة إلى خطةٍ من أجل ازدهار البشر، ولكنّهم في الطبيعة بمقدورهم أن يصمّموا خطةُ كهذه. يبدو أن الموقف القتالي، وربّما أكثر من الوهم النبيل للغبطة السبينوزية، يعدنا بأننا لن نشعر يومًا بأننا وحيدون طالما أننا منصرفون للاهتمام برفاهية الآخرين.

يمكنني الآن أن أردّ على السؤال المطروح في بداية الفصل: إنّ لمعرفة العاطفة والشعور و كيف يعملان أهمية في طريقة حياتنا ؛ و هذا ممّا لا مفرّ منه على المستوى الشخصيّ. خلال العقدين اللاحقين، وربّما أقرب من ذلك، ستسمح بيولوجيا العواطف والمشاعر العصبيةُ لعلوم الطبّ الحيويّ بتطوير

علاجات فعّالة للألم و الاكتئاب، استنادًا على فهمٍ شاملٍ لكيفية تعبير الجينات عن نفسها في مناطق دماغية محددة، وكيف تتعاون هذه المناطق لتجعلنا نبدي مشاعرنا وعواطفنا. ستهدف العلاجات الجديدة إلى تصحيح أعطالٍ محددة في العملية السويّة أكثر من مجرّد محاربة الأعراض بشكلٍ عام. بعد اقترانها مع التدخلات السيكولوجية، سوف تثوّر العلاجات الجديدة الصحة العقلية، وهكذا ستبدوالعلاجات المتوفرة اليوم مرهِقة و بالية كما تبدو لنا اليوم الجراحةُ من دون تخدير.

على مستوى المجتمع ستبدو المعرفة الجديدة صائبة كذلك. هنا أيضًا، سوف تساعدنا العلاقة التي ناقشناها مبكرًا بين الاستتباب وبين ادارة الحياة الاجتماعية الفردية. لقد اكتملت بعض الاجهزة التنظيمية المتوفرّة للبشر عبر ملايين السنين من التطوّر البيولوجيّ، كما في حالة الشهوات والعواطف. والبعض الآخر من هذه الأجهزة لم يظهر إلى الوجود إلاّ منذ بضعة آلاف من السنين، إلى جانب الانظمة المشفّرة للعدالة و التنظيم الاجتماعي السياسيّ. و بعضُ هذه [الأنظمة] منقوشٌ في البناء الجينوميّ، ليس جامدًا بكل تأكيد، ولكنّه متينٌ بقدر البيولوجيا. وبعضُها الآخر ما زال يتطوّر، مثل إناءٍ من الاجراءات المؤقتّة التي تهدف إلى تحسين الشؤون الانسانية، ولكنّها تفتقرُ إلى الاستقرار

الضروري من أجلِ توازنٍ حياتيّ متناغم للجميع. هنا تكمن فرصتنا لكي نتدخّل و نصلحَ المصير البشريّ.

لا أقترح أن نسعى لمعالجة الشؤون البشرية بذات الفعالية التي يرعى فيها الدماغ أسس الحياة، فهذا أمرٌ يرّجح أنه مستحيل. يجب على أهدافنا أن تكون أكثر واقعية. إلى جانب ذلك، فالاخفاقات المتكررة لمحاولاتٍ ماضية وحالية تبرر شكوكنا. في الحقيقة، محاولة العزوف عن أيّ جهدٍ مشتركٍ لمعالجة الشؤون الانسانية و إعلان نهاية المستقبل هو موقفٌ مفهومٌ، ولكن لا شيء يمكنه أن يضمن الهزيمة الموثوقة أكثر من التقهقرِ صوب حفظٍ ذاتيّ منعزل. بقدر ما قد يبدو الأمر ساذجًا أو طوباويًا، بالأخص بعد قراءة صحف الصباح أو مشاهدة أخبار الظهيرة، لا يوجد بديلٌ عن الإيمان بأنّ في مقدورنا أن نصنع فرقًا، وتوجد بعض الأسس للاحتفاظ بهذا الإيمان: خذ مثلاً كيف أنّ معالجة مشكلةٍ محددة، مثل الادمان على المخدرات أو العنف، تنال حظًا أوفر من النجاح إذا ارتكزت على فهم علميّ جديد للعقل البشريّ، بما في ذلك المعرفة الخاصّة بتنظيم الحياة التي تصدر عن علوم المشاعر والعواطف؛ وينطبق الأمر عينه على تشكيلة واسعةٍ من السياسات الاجتماعية. لا شكّ أنّ فشل تجارب الادارة الاجتماعية السابقة مردّه، في جانبٍ منه، إلى

حماقاتٍ محضة في التخطيط، أو إلى فساد القائمين عليها.ولكنّ الفشل هذا قد يكون مردّه أيضًا إلى سوء فهمِ العقل البشري الّذي وجّه تلك التجارب. ومن بين النتائج السلبية لسوء الفهم تلك المطالبة بتقديم تضحيات بشرية يجدها معظم البشر صعبة أو مستحيلة التحقق، كما الاستخفاف الجاهل بسمات التنظيم البيولوجيّ الّتي أصبحت اليوم شفافة علميًا وهي الّتي حدسها سبينوزا في مفهومه للكوناتوس، وأيضًا الإغفال عن رؤية الجانب المظلم من العواطف الاجتماعية الّتي تجد ترجمتها في القبلية، العنصرية، الطغيان، والتعصّب الدينيّ. ولكن ذلك أصبح من الماضي! الآن، صرنا على بيّنة من الخطر، و نستحقُ بداية جديدة.

أؤمن بإنّ المعرفة الجديدة يمكنها أن تغيّر المعطى البشريّ. ولهذا السبب، أخذًا بالاعتبار كل الأمور، في خضّم الأسى و القليل من الفرح، يمكننا أن نأملَ، وهذا ما لم يعطه سبينوزا، رغم شجاعته، أهميةُ بقدر ما يجب أن نفعل نحن الفانون. وقد عرّف سبينوزا الأمل قائلاً:" ليس الأملُ سوى فرحٍ متقلّب ينتجُ عن صورةٍ شيءٍ ما في الحاضر أو المستقبل، والّذي يخامرنا الشكّ، إلى حدّ ما، في نتيجته."[186]

الملاحق

الملحق الأول

قبل، خلال، وبعد عصر سبينوزا

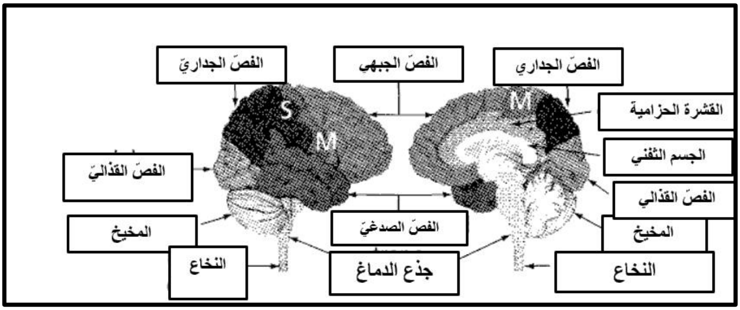
1543	وفاة كوبرنيكوس (وُلد 1473) الّذي افترض أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس.
1546	وفاة مارتن لوثر (ولد 1483) الّذي ألقت الكنيسة الكاثوليكية الحرم عليه. مؤسس الكنيسة اللوثرية.
1564	ولادة غاليليو غاليلي، وليم شكسبير، وكريستوفر مارلو. ووفاة جان كالفن الّذي أسس المذهب الكالفني في 1536.
1572	لويس دوكاميوس ينشر اللوسياد.
1588	ولادة توماس هوبز الفيلسوف الانكليزي صاحب الرؤية المادية للعقل، ومن المؤثّرين في سبينوزا.
1592	وفاة ميشيل دو مونتاني (مولود في 1533) أصبحت نصوصه المنشورة في 1588 ذات تأثير واسع في زمانها.
1593	كريستوفر مارلو يموت في حادث.
1596	ولادة رينيه ديكارت.
1600	احراق جيوردانو برونو بسبب انحيازه إلى أفكار كوبرنيكوس وتبنّيه معتقد وحدة الوجود.
1601	عرض مسرحية *هاملت* لشكسبير. بداية عصر التساؤلات.
1604	عرض *الملك لير* مسرحية شكسبير. نشر *تقدّم التعليم* لفرانسيس بيكون، و*دون كيخوته* لسرفانتس.

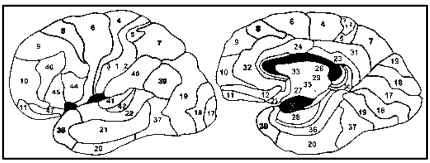
1606	ولادة رامبر اندت فان رين.
1610	غاليلي يبني تلسكوبًا، و أبحاثه حول النجوم تقوده إلى تبنّي وجهة نظر كوبرنيكوس حول حركة الشمس والأرض.
1616	وفاة شكسبيرعن عمرينا هز52 سنة، وكان مستمرًا في تنقيح مسرحية *هاملت*. في نفس اليوم توفيّ أيضًا سرفانتس عن 69 سنة.
1629	ولادة كريستيان هوغنز(ت.1695) الفلكي و الفيزيائيّ، والمفكّر الزميل لسبينوزا، مراسله وأحيانًا جاره، وزبونه في شراء العدسات.
1632	ولادة جون لوك. ولادة سبينوزا رامبرندت يرسم لوحته *درس الدكتورتولب في التشريح*.
1633	اتّهام غاليلي ووضعه قيد الاقامة الجبرية. ديكارت يتردد بخصوص نشر وجهة نظره حول الطبيعة البشرية التي نتجت عن بحثه في التشريح البشري والفيزيولجيا.
1633	وليم هارفي يصف الدورة الدموية.
1638	ولادة لويس الر ابع عشر الّذي ساد حكمه حتى 1715.
1640	اوريل دا كوستا الفيلسوف البرتغالي من أصول يهودية والّذي نشأ كاثوليكيًا ولاحقًا تحوّل إلى اليهودية يُصبِح أول من تلقّى حرمًا ومن ثمّ أعيدَ ولكن بعد معاقبته جسديًا على يد الكنيس البرتغالي في آمستردام. انتحرَفي وقتٍ قريبٍ لاحق ولكن بعد أن أنهى كتابه *أمثلة عن الحياة البشرية*.
1642	وفاة غاليلو غاليلي وولادة اسحاق نيوتن (ت 1727)
1650	وفاة ديكارت.
1652	وفاة والد سبنوزا ميغيل دي اسبينوزا.
1656	الكنيس اليهودي البرتغالي يلقي الحرم على سبينوزا ويمنعه من التواصل مع أيّ يهوديّ بما في ذلك أصدقائه وعائلته. لاحقًا، يعيش سبينوزا وحيدًا في عدّة مدن هولندية حتى عام 1670.

1670	سبينوزا ينتقل إلى لاهاي. كتابه *رسالة في إصلاح السياسة والدين* يصدر من دون مؤلفٍ باللغة اللاتينية.
1677	وفاة سبينوزا. بعيد وقتٍ قليل إصدار مجموعة مؤلفاته الّتي تتضمن *الإيتيقا*.
1678	نشر مجموعة أعمال سبينوزا في اللغة الهولندية والفرنسية. السلطات الأوروبية الدينية كما العلمانية تضغط لمنع كتبه من التداول، ومؤلفاته تنتشر بشكلٍ غير شرعيّ.
1684	نفي جون لوك إلى البلاد المنخفضة (هولندا) حتى العام 1689.
1687	نشر بحث نيوتن حول الجاذبية.
1690	جون لوك ينشر *مقالات حول الفهم البشري* و *بحثان حول الحكومة* في عمر الستين.
1704	وفاة لوك عن عمر ال72.
1743	ولادة توماس جيفرسون.
1748	مونتيسكيو ينشر *روح القوانين*.
1764	بعد خمس سنوات من صدور *كانديد*، فولتير ينشر *القاموس الفلسفيّ*.
1772	نهاية طباعة *الموسوعة* ، أعظم الأعمال في عصر الأنوار تحت اشراف دينيس ديدرو و جون لورون دالمبير.
1776	جيفسرون يكتب *إعلان الاستقلال* الأميركي.
1789	الثورة الفرنسية.
1791	التعديل الأول على دستور الولايات المتّحدة الأميركية.

الملحق الثاني

تشريح الدماغ

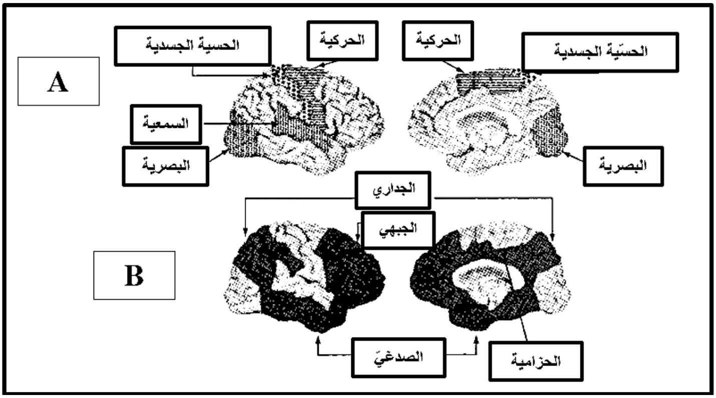




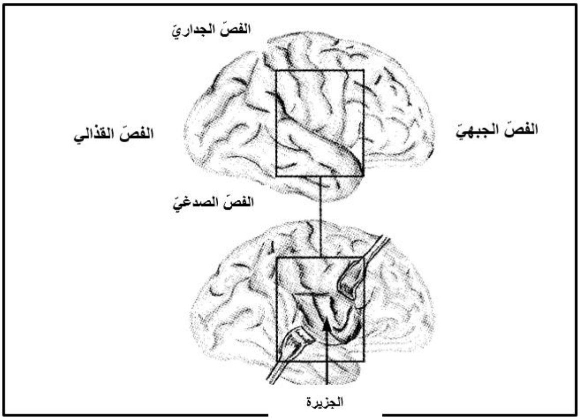
الصورة الأولى: اللوحتان في الأعلى تصوّران الأقسام الخارجية المرئية من الجهاز العصبي المركزي: المخّ مع فصوصه الأربعة (القذالية، الجدارية، الصدغية والجبهية) والقشرة الحزامية؛ المخيخ، جذع الدماغ والنخاع. اللوحة على اليسار تُظهِر الرؤية الجانبية الخارجية لنصف المخّ الأيمن. وتظهِر الصورة على اليمين

الرؤية الإنسية الداخلية لنصف المخ الأيمن نفسه. S تعني الحسّية و Mالحركية.

اللوحتان في الأسفل تصوّران ذات الرؤى الأنسية و الجانبية لنصف المخّ الأيمن، ولكنّ القشرة الحزامية تبدو هنا منقسمة وفقًا لمناطق برودمان Brodman للتهندسّ الخلويّ cytoarchitecture: يدلّ كلّ رقمٍ على قسم من القشرة المخيّة التي يمكن التعرّف عليها وفق هندستها الخلوية cellular architecture المتمايزة. تعود هذه الهندسة إلى حقيقة أنّ أنواع العصبونات وتصفيفاتها تختلف من منطقة إلى أخرى، وأنّ "إسقاطات" العصبون الّتي تتلقّاها كلّ منطقة من الأقسام الأخرى في الدماغ وترسلها إلى الأقسام الأخرى فيه هي أيضًا مختلفة. الهندسة المتنوّعة و المدخلات والمخرجات المختلفة تمامًا لكلّ منطقة تفسّر لنا لماذا تتعاون كلّ منطقةٍ بشكلٍ مختلفٍ جدًا وتساهم بشكلٍ فريد في عمل المجموعة كلّها.



الصورة الثانية: نوعان من القشرة المخيّة. اللوحة العليا A تصوّر القشرات الحركية والقشرات الحسّية الأولية (المسمّاة "مبكّرة") الخاصّة بالبصر، والسمع وإحساسات الجسد (الجسدية الحسّية). لا تظهر قشرة الجزيرة المرتبطة بإحساسات الجسد لأنّ التّلم الجداريّ والقشرات الجبهية تخفيها (أنظر الصورة3). تغطّي المناطق المظلّلة في اللوحة B القشرات المشتركة بين الفصوص العديدة و الناحية الحزامية. تُعرَف هذه القشرات أيضًا بأنّها "عالية الترتيب" و "تكاملية".



الصورة الثالثة: تصويرٌ للجزيرة، المكوّن الهامّ للقشرةِ الجسديّة الحسيّة، والتي لا تبدو مرئية إلاّ حين تنكمش (B) القشرات العلوية (A).

فهرس المصطلحات ومقابلها العربيّ

يحتوي هذا الجدول على أهم المصطلحات الواردة (لأكثر من مرّة) مع ترجماتها الممكنة إلى اللغة العربية ، علمًا بأننا اعتمدنا ترجمات متنوعة (ليس أكثر من ترجمتين ممكنتين) لبعض المصطلحات الانكليزية الواردة، بحكم السياق الواردة فيه، باستثناء العلمية منها.

المصطلح الانكليزي والأجنبي	المقابل الممكِن بالعربي
Abnormal	غير سويّ – شاذ
Abundant	غزير – و افر-كثير
Action	فعل
Action potential	جُهدُ الفعل
Activity	نشاط
Activation	تنشيط - تفعيل
Actual	فعليّ - آني - حالي - راهن
Adaptation	تكيّف – تعوًّد - تأقلم
Adjustment	تعديل – ضبط - مواءمة
Affect-Affection (Latin:Affectio-Affectus)	انفعال
Agent	عامِل- فاعِل
Aggregate	كدس – تراكم- تركيب – تجميع – جمْع - حشد
Alteration	تغاير – اختلال – التياث - إتلاف
Amor intellectualis dei	الحبّ العقليّ للإله

اللّوزة	Amygdala
غمّ - كرب	Anguish
التليّف الزاوي	Angular gyrus
عمَه العاهة	Anosognosia
جسم مضاد - مستضد	Antibody
قلق	Anxiety
جهاز- اجهوز	Apparatus
شهية	Appetite
تخمين– تقدير	Appraisal
باحة -نطاق – جهة - محلّ	Area
تيّقظ - يقظة	Arousal
ترتيب - رصف	Arrangement
آلية الكأنّه جسد	As-if-body mechanism
كأنْ-جسدية	As-if-body-loop
لابدني – لا جسدي – مفارق للبدن/للجسد	Asomatic
عمَه جسدي	Asomatognosia
القشرات التر ابطية	Association cortices
لاتناظُر	Asymmetry
صفة	Attribute
مؤتمَت - تلقائي	Automated
رهبة - خشية	Awe
محوار	Axon
رصيد عاطفيّ – عاطفة خلفية	Background emotion
القاعديّ - الأساسيّ	Basal
الدماغ الأماميّ القاعديّ	Basal forebrain

Basal Ganglia	العُقد القاعدية
Beatitude	غِبطة
Behaviour	سلوك
Blessedness	بركة
Body-loop	عروة الجسد – عروة جسدية
Body-relatedness	تعالق الجسد – تعلّق الجسد
Body-sensing region	مناطق الاستشعار الجسدية
Brain stem	جذع الدماغ – ساق الدماغ
Brain's body map	خريطة الدماغ الجسدية
Cell body	جسم الخليّة
Cerebellum	المخيخ
Cerebrum	المخ
Channel	قناة
Cheerful	جذل-مبتهج – مستبشر
Cherem	الحرم
Chill	قشعريرة
Cingulate / cingulate region	حزامية – منطقة حزامية
Circuitry / circuit	دارة – دارات
Circumventricular	تلفيف بطني
Cognition	بصيرة – تعرّف - معرفة
Cognitive	معرفي – تعرّفي
Communion	الشراكة (الإلهية) – تناول القربان (الإلهيّ)
Compassion	رأفة - حنان
Compatible	متناسب - موافق
Competent	مؤهَّل - مختَّص

Complex	معقّد - مُركّب - عقدة
Community	جماعة
Conatus	كوناتوس
Concept	مفهوم
Conception	تصوّر
Concern	اهتمام – همّ - شأن
Conduct	تصرّف – مسلك - موقف
Configuration	تشكيل – تخليق – ترتيب
Connection	وصلة – وصل - اتصال
Conscious	واعٍ
Consciousness	الوعي
Consonant	منسجم – متو ائم - متو افق
Contempt	إحتقار- ازدراء - انتهاك
Contented	راضٍ - قانع – مقتنع
Corpus callosum	الجسم الثفنيّ / الجاسىء
Cortex	قشرة - لحاء
Craving	اشتهاء
Critical	حرِج – حاسم – خطير– شائك – دقيق - مهمّ
Damage	الضرر– العطب - التلف
Deliberation	تأنٍّ - تروٍّ
Dendrite	تغصّن - تشجّر
Desir	رغبة
Device	جهاز- أداة
Diagnosis	تشخيص
Diencephalon	الدماغ البينيّ

Disease	مرض - داء
Disrupt	يخلخل – يبلبل – خلخلة – بلبلة - خلل
Drive	محرّك - دافع
Drug	عَقار
Dualism	ثنائية (العقل و الجسد)
Dysfunction	عطل – خلل وظيفيّ
Electode	مسرى - الكترود
Electromyography	تخطيط كهربية العضل – تخطيط كهربيّ عضلي
Elevation	إعلاء - رفع
Embarrassment	حرج - إحراج
Emerging	انبثاق - منبثِق
Emotion	عاطفة
Emotion-proper	عاطفة مخصوصة – عاطفة خاصة
Empathy	تشاعًر (الشعور بمشاعر الآخرين)
Endogenous	باطني – داخليّ (المنشأ)
Enlightenment	عصر الأنوار / التنوير
Entail	استتبع – استلزم - أوجب
Entity	كيان
Essence	ماهية
Ethical	أخلاقي
Evidence	دليل
Evil	شرّ / شرّير – سيّء / رديء - مؤذٍ
Excommunication- *cherem*	حِرم - عزل

Execution	تفعيل – تنفيذ - اجراء
Exposure	تعرّض – تكشّف
Extroceptive	استنباهي خارجيّ
Evaluation	تقييم
Feeling	شعور/ مشاعر
Feeling brain	دماغٌ شاعر
Flesh	بدن
Flourishing	مزدهِر
Forebrain	الدماغ الأمامي / مقدَّم الدماغ
Frontal	جبهيّ – أماميّ - مقدَّم
Function	وظيفة – تابع (توابع)
Generate	يولّد
Genital	تناسليّ
Glutamate	غلوتامات (معرّبة)
Governance	إدارة – تحكّم - حوكمة
Gray matter	المادة السنجابية
Grief	كدَر
Gut	مِعى - مَعيّ
Hallucinate	يهلوِس
Happiness	سعادة
Hemisphere	نصف كرة
Heresy	هرطقة
Heretic	هرطوقي / مهرطِق
Homeodynamic	ديناميكا الدمّ
Homeostatic	استتباب
Humoral	خِلطي

Hypothal	**وطائي**
Hypothalamus	**الوِطاء**
Hypothesiss	**فرضية**
Illness	**علّة – إعتلال – داء - مرض**
Imagery	**تصوير- ترسيم**
Incorporation	**إدماج – استدماج – تجسيد – تجسّد - دمج**
Indignation	**استياء**
Inquisition	**محكمة التفتيش**
Insula	**جزيرة**
Interaction	**تآثر**
Interference	**تداخل**
Integration	**تكامل – اندماج - دمج**
Intrinsic	**جوّاني – داخليّ - ذاتيّ**
Introceptive	**استنباهي داخليّ**
Intuition	**حدْس**
Isomorphic	**متشاكل**
Joy (in Latin: Laetitia)	**فرح**
Kabbalah	**القبّالة**
Label	**شارة – سمة - وسِم**
Lamina Spinal cord	**صفيحة النُخاع**
Lesion	**جُرح**
Level	**مستوى**
Liberation	**تحرّر**
Limb	**طرف – حوف**
Limbic	**حوفيّ - طرفيّ**

Lobe	فُص
Local	موضعيّ
Locus	موضِع
Machinery	ماكينة
Mapped	مخرَّط -خرائطيّ
Mapping	تخريط
Marrano	مارّانيّ - متنصّر
Matter	مادة
Means	وسائل
Mechanism	آلية
Mennonite	مينونيت
Midbrain	الدماغ الأوسط
Mind	عقل - ذهن
Mirror neuron	عصبون مرآتي - عصبون عاكِس
Misconception	لبس – التباس – سوء فهم
Motion	إيماء - تحرَّك
Mode	أسلوب- نمط
Modification	تحوير– تبدّل - تغيّر
Modulation	تضمين - تعديل
Molecular	جزيئيّ
Moral	أخلاق
Motivation	محفّز- تحفيز/ حافز
Musculoskeletal	عضليّ هيكلي (حركيّ)
Myopia	حَسَر (بصري)
Naçao (Portuguese)	الأمّة

Narcotic	مخدِّر – منوِّم – تخديريّ – بنْج - بنْجيّ
Nerve	عصب
Neural	عصبيّ - عصبوني
Neurobiology	بيولوجيا عصبية – العلوم العصبية البيولوجية
Neurological	عصبيّ
Neuron	عصبون
Neurotransmitter	ناقل عصبيّ
Non-conscious	غيرواعٍ
Normal	سويّ – طبيعيّ - سليم
Normality	سَواَء – سويّة - عياريّة
Notion	مقولة
Nuclei	نَوى
Nucleus	نواة
Occipital	قَذالي - قفويّ
Ongoing	جارٍ– مستمر- قائم
Operation	اشتغال - تشغيل
Opioid peptides	بيبتديات أفيونية – بيبتيدات الأفيون
Orbitofrontal	جبهيّ - المدار الجبهيّ– حججاي جبهيّ
Order	نسق - نظام
Organism	متعضٍّ – كائن عضويّ
Outcome	مخرجات – ناتج - محصِّلة
Pain	ألم

Passion	هوى – شوق – وجْد - شغف
Pathway	مسار- مساق
Pattern	نمط - نموذج
Perception	إدراك
Periaqueductal	محيطٌ بالمسال
Peripheral nervous system	الجهاز العصبيّ المحيطي
Persecution	اضهاد - إجحاف
Perturbation	اضطرب – ارباك - بلبلة
Phrenology	علم الفراسة
Pleasant	ممتع – مستحبّ - سارّ
Pleasure	متعة - لذّة
Prefrontal	قبل الجبهيّ – مقدّم الجبهي
Primary	أوّلي
Prior	سابق - آنف
Procedure	إجراء - إجرائية
Process	عملية - سيرورة
Processing	معالجة
Projection	اسقاط - اختلاق
Psychopathological	نفسي مرضيّ – نفسي باثولوجيّ
Psychotropic	نفسي التأثير
Punishment	عقوبة - عقاب
Rabbi	حاخام - حَبِر
Reaction	تفاعل – ردّ فعل
Reason	عقل – سبب (عقلي) - فكر
Reasoned	معقول – معلّل - منطقيّ

استدلال – تعقّل – تفكُّر - استنتاج	Reasoning
استعاد – استحضر –تذكّر	Recall
مستقبِل	Receptor
تعرّف – تمييز	Recognition
منعكَس - ارتكاس	Reflex
منطقة – حيّز - ناحية	Region
تنظيم – ضبط - تناظم	Regulation
تنظيمية – ضبطية - تناظمية	Regulatory
تمثيل (ذهني/ فكري) – تمثُّل (ذهني)	Representation
رنين – إصداء - صدى	Resonance
استجابة	Response
شبكية – شبكة العين	Retina
الوحي - الكشف	Revelation
مكافأة – ثواب (جزائي – ثوابيّ)- جزاء	Reward
طقس ديني – شعيرة دينية	Ritual
مسار- درب	Route
حزن	Sadness
خلاص	Salvation
مسح	Scan
ترسمية – خُطاطة - تخطيط	Schema
تجزيء –تجزئة - تقطيع	Segmentation
فصل - تفرقة	Segregation
قطاع - جزء	Sector

نوبة	Seizure
حفظ الذات – الحفظ الذاتيّ	Self-preservation
حِسّ – معنى - حاسّة	Sense
مجسّ - محسّ	Sensor
حسّي - محسوس	Sensory
سفارديم	Sephardic
عُصبة - تشكيلة – مجموعة - حزمة	Set
عيب	Shame
ارتعاش - رجفة	Shiver
علامة	Sign
إشارة	Signal
تأشير	Signalition
محاكاة - اصطناع	Simulation
هندسة اجتماعية	Social engineering
خريطة جسدي – خريطة جسمية	Somatic map
جسديّ حسّي	Somatosensory
أسى	Sorrow (in Latin: Tristitia)
نفَس	Soul
روح - عقل	Spirit
روحانيّ - روحيّ	Spiritual
روحانية	Spirituality
النُخاع الشوكيّ	Spinal cord
الاعصاب النخاعية	Spinal nerves
مرحلة - طوْر	Stage
حالة	State

Status	وضعية – مقام - حالة
Stimulation	تنبيه – إثارة - تحفيز
Stimulus – Stimuli	منبّه حسّي
Stria Terminalis	حزّة انتهائية
Stoic	رواقي
Sublimity	تساميّ – إعلاء -سمو
Substance	جوهر- مادّة
Substantia nigra	المادة السوداء
Substrate	ركيزة
Subtle	متّقن – بارع – صعب -حاذق
Superstition-superstitious	خر افة – خرافيّ – شعوذة – مشعوِذ- تطيّر- متطيِّر
Survival	بقاء (على قيد الحياة)
Sympathy	تعاطُف
Symptom	عارِض - عرَض
Symptomatic	عارِضي - تشخيصيّ
Synapse	وصلة / وصلة عصبية – مشبك
Synagogue	كنيس (يهوديّ)
Syndrome	متلازِمة
System	نظام - نسق
Tegmetum	السقيفة (دماغ)
Telesensing	استشعاربُعادي (عن بُعد)
Temporal	صدغيّ
Tendency	ميل
Thalamus	المِهاد

The Law	الشريعة (القانون الديني اليهوديّ) - الناموس
Thrill	ارتجاف
Transmission	إرسال
Trigger – Triggering	حرّض – تحريض-إثارة– قدَح (إثارة – قدْح)
Unconscious	لاواعٍ
Unfold	مدّ – بسَط – نشرَ– فضّ - كشف
Vagus nerve	المُبهَم - عصب مبهم – عصب تائه – عصب حائر
Variety	تنوّع - تنويع – ضرب – تعددية - تنويعة
Ventral striatum	بطنيّ مخطَّط
Ventricle	بطين
Ventromedial	بطنيّ إنسيّ
Vestibular	دهليزيّ - دهليز
Viscera	أحشاء - أمعاء
Visceral nervous system	الجهاز العصبيّ الحشويّ
Vision	بصر - رؤية
Way	اتّجاه – طريق – طريقة - واسطة
Well-being	رفاهية - عافية
Well-thinking	فطن – فِطنة - ألمعي- ألمعية - منطقيّ - حسن التفكير
Zone	دائرة - نطاق

الهوامش

الفصل الأول

[1] يمكن دراسة بينة وعمل النظام العصبيّ لكائنٍ حيّ وفق مستويات مختلفة من التنظيم، من الصغير والبسيط (على مستوى الجزيئات المجهرية الّتي تكوّن الانزيم أو الناقل العصبيّ) إلى الكبير والمعقّد (أنظمة مناطق الدماغ العيانية وترابطاتها والّتي نستند عليها من أجل أن نفكّر ونتصرّف). يركّز معظم العمل القائم في هذا الكتاب على المستوى الأخير – النظام ذي المستوى الكبير. ويكمن الهدف الأخير لجهودنا في وصل الأدلة بين المستويين. تحتوي المستويات الأدنى على دارات و مسارات؛ خلايا و إرسالٌ لإشارات كيميائية. أمّا المستوى الأعلى فيتضمن ظاهرات ذهنية و اجتماعية. وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التي نعزوها لبعض المناطق في نشرِ هذه الظاهرة أو تلك، فإنّ عمليات الذهن والسلوك تنتج عن تشغيل عدّة مناطق تكوّن أنظمة الدماغ، الصغيرة والكبيرة. ولا تنشأ أيّ من وظائف الدماغ العليا كالادراك، التعلّم، الذاكرة، المشاعر و العواطف، الانتباه والتعقّل، اللغة والتحرّك، من مركزٍ أوحدٍ في الدماغ. لقد عفا الزمن على علم الفراسة الدماغية الّذي يعتبر أن هناك مركزًا واحدًا في الدماغ يولّد القدرة الذهنية الكبرى. ومع ذلك، يبدو من المناسب أن نعرف أنّ مناطق الدماغِ ذات تخصصية كبيرة من ناحية مساهمتها في عمل النظام ككلّ. ومساهمتها هي في الآن عينه مميّزة و مرِنة، وخاضعة لتقلّبات الفرص و للتأثيرات الكلّية، ولهذا السبب تبدو شبيهة بعازف الوتريات في الاوركسترا السيمفونية الّذي يجبد أو يسيء العزف وفقًا لزملائه، قائد الاوركسترا، لمزاجه الخاص...الخ وبالاضافة إلى التصوير المسحيّ الحديث الّذي يتيح لنا التحقّق من تشريح الدماغ ووظائفه، توجد طرائق أخرى عديدة لاستكشاف الدماغ، من دراسة الظواهر الكهربيّة و المغنطية التي ينتجها النشاط الدماغيّ، وصولاً إلى دراسة التعبير الجيني في مناطق الدماغ الصغيرة.

[2] Yakov tells the Magistrate what Spinoza means to him. Bernard Malamud, The Fixer (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1966/ Viking Penguin, 1993).

[3] Spinoza, The Ethics, Part III (New York: Dover Press, 1955). Other editions of The Ethics used in the text include Edwin Curley's in The Collected Works of Spinoza (Princeton

University Press, 1985); and (oaquim de Carvalho's Ética (Relogio e Âgua, Lisbon, 1992).
[4] Spinoza, The Ethics, Part IV, Proposition 7, ibid.
[5] Spinoza,The Ethics, Part I, ibid
[6] The Ethics, Part II, ibid.
[7] يمكن اعتبار جان بيير شانجو استثناءً بارزًا. وقد أنهى كتابه الانسان العصبوني باقتباسٍ من سبينوزا، كما ناقش، مع الفيلسوف بول ريكور، ما أوحى به سبينوزا للعلوم العصبية في كتابه الطبيعة والقاعدة . ومن المفكّرين الآخرين الّذين لاحظوا وجود صلة بين سبينوزا والعلوم البيولوجية والنفسية الحديثة نذكر ستيوارت هامشير، و ارول هاريس. انظر L'Homme Neuronal with a Spinoza : quote. Jean Pierre Changeux, Neuronal Man: The Biology of Mind (New York: Pantheon, 1985). He also discusses the relevance of Spinoza to neuroscience in La Nature el La Règle (Paris: Editions Odile Jacob, 1998) with Paul Ricoeur - Stuart Hampshire, Spinoza (New York: Penguin Books, 1951); Errol Harris, The Foundations of Metaphysical Science (New York: Humanities Press, 1965); Edwin Curley, Behind the Geometrical Method: A Reading of Spinoza's Ethics (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1988)
[8] يدللّ جوناثان اسرائيل .(بشكلٍ لافتٍ على الموقع الّذي يحتلّه سبينوزا في خلفية عصر التنوير كما في كتابه التنوير الراديكالي: الفلسفة وصناعة الحداثة .
Radical Enlightenment: Philosophy and the Making of Modernity (New York: Oxford University Press, 2001).
[9] Gilles Deleuze, Spinoza: A Practical Philosophy (San Francisco: City Lights Books, 1988); Michael Hardt, A. Negri, Empire (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2000); Henri Atlan, La Science est-elle inhumaine? (Paris: Bayard, 2002
[10] Spinoza, A theologico-political treatise and A political treatise (R. H. M. Elwes, Benedict de Spinoza: A theologico-political treatise and a Political Treatise, New York: Dover Publications, 1951
[11] Simon Schama, An Embarrassment of Riches (New York: Random House, 1987).

[12] Descartes apparently had used the quote in life. It comes from Ovid's Tristra: "Bene qui laruit, bene vixit."

الفصل الثاني

[13] Shakespeare, Richard II. Act 4, Scene 1.

[14] لا يعني استخدام عبارة "الذهن و الجسد" انزلاقًا غير مقصودٍ نحو الثنائية الجوهرية للتنويع الديكارتي. في الفصل الخامس أرى أنّ الظاهرة الّتي نسمّيها، عادةً، "الذهن و الجسد" ناشئةً عن "جوهرٍ" بيولوجيّ واحد، وأعامل الذهن والذهن كموضوعيْن بحثييْن مختلفين للاعتبارات نفسها الّتي تجعلني أميّز بين المشاعر و العواطف: استراتيجيا بحثية تهدف إلى التقدّم في فهمِ هذا الكلّ المتكامل المكوّن من الذهن-الجسد أو العاطفة-الشعور.

[15] في ما كتبه عن هذا الموضوع، لا يستخدم سبينوزا أيّ من الكلمتين "شعور" أو "عاطفة" بل بالأحرى affect إنفعال – من اللاتينية -Affectus وهي كلمة ملائمة لكلا الكلمتين السابقتين. يقول :" أعني بالانفعال تغيّر الجسد، أكانت القوّة الناشطة لهذا الجسد قد ازدادات أو ضعفت، تدعمّت أو تقلّصت، وأيضًا أفكار هذا التغيّر" (الايتيقا الكتاب الثالث). وحين يرغب بتوضيح معناه الدقيق، فإنّه يصف الانفعال ويجعلنا نعرف إن كان يعني بهذه الظاهرة السمة الخارجية أو الداخلية حصرًا، العاطفة أو الشعور. أظنّ أنّه سيرحبّ بالتمييز الّذي أقترحه لأنّه يقوم على تبيانِ مختلف الأحداث في مجرى ما هو منفعِل، تحديدًا كما في حالة مصطلحيْ سبينوزا الموازيين الشهوة و الرغبة. وبما يتصلّ بحديثنا، فإنّ واحدةً من أكثر الترجمات انتشاراً لأعمال سبينوزا، وأعني بها ترجمة ر.ه. م. الويس في العام 1883، تقضي بترجمة الإنفعال Affectus بالمصطلح عاطفةemotion ، وتساهم في تعميم الترجمة الخاطئة لهذين المصطلحين. أمّا الترجمة الأميركية الحديثة على يد ادوين كورلي، فإنّها، وبشكلٍ ملاءم، تترجم مصطلح Affectus بaffects،ولكنّ الويس، ولكيّ يجعل الأمر معقدًا مرةً أخرى، يترجم laetitia و tristitia بمصطلحي اللذة و الألم، بينما الترجمة الأنسب هي السعادة / الفرح و الحزن/ الأسى.

[16] Hines to Buck Mulligan speaking of Stephen Dedalus. Part II. James Joyce, Ulysses (New York: Random House, 1986).

[17] المصطلح ديناميكا الدمّ Homeodynamic يبدو مناسبًا أكثر من مصطلح الاستتباب Homeostatic لأنه يفترضُ عملية سعيّ نحو الضبط أكثر من مما يقترحه من نقطة ثابتة من التوازن كما يشير مصطلح الاستتباب. وقد أدخل ستيفن روز المصطلح ديناميكا الدم لهذه المبررات عينها :Steven Rose, Lifelines) .

Biology Beyond Determinism, New York: Oxford University Press, 1998).

[18] Ross Buck, "Prime theory: An integrated view of motivation and emotion," Psychological Review 92 (1985): 389-413; Ross Buck, "The biological affects: A typology," Psychological Review

[19] من أجل مناقشة لمسألة تصنيف العواطف، يمكن الرجوع لكتاب بول غريفيث حقيقة المشاعر الفعلية . See Paul Griffiths, What Emotions Really Are (Chicago: University of Chicago Press, 1997), الفرق بين العواطف الخاصّة و الاستجابات التنظيمية البيولوجية الأخرى ليس حادًا. بشكلٍ عام، تُقدَح العواطف الخاصّة بفعل عدة موضوعات وأحداث ذات سمات مشتركة، أكثر ممّا يفعل موضوعٌ أو حدثٌ واحدٌ بمفرده، وعملية القدح هذه تنحو لتصبح أكثر تعقيدًا، كما أن المحفّز المُقدِح هو دائمًا، كما هو مفترض، خارجيٌ في حالة العواطف الخاصّة، وداخليّ في حالة الاستجابات الأخرى.

[20] Monica S. Moore, Jim DeZazzo, Alvin Y. Luk, Tim Tully, Carol M. Singh, Ulrike Heberlein, "Ethanol intoxication in Drosophila: Genetic and pharmacological evidence for regulation by the cAMP signaling pathway," Cell 93 (1998): 997-1007.

[21] Ralph. Greenspan, Giulio Tononi, Chiara Cirelli, Paul J. Shaw, "Sleep and the fruit fly," Trends in Neurosciences 24 (2001): 142-4

[22] Irving Kupfermann, Vincent Castellucci, Harold Pinsker, Eric Kandel, "Neuronal correlates of habituation and dishabituation of the gill-withdrawal reflex in Aplysia," Science 167 (1970): 1743-45•

[23] Antonio Damasio, Descartes' Error: Emotion, Reason, and the Human Brain (New York: Grosset/Putnam, 1994; HarperCollins, 1995). To some extent Daniel Stern's notion of vitality affects is coextensive with the concept of background emotions. Daniel N. Stern, The Interpersonal World of the Infant (New York: Basic Books, 1985)

[24] Paul Ekman, "An argument for basic emotions," Cognition and Emotion 6 (1992): 169--200. Charles Darwin, The

Expression of the Emotions in Man and Animals (New York: New York Philosophical Library, 1872).

[25] Jaak Panksepp, Affective Neuroscience: The Foundations of Human and Emotions (New York: Oxford University Press, 1998); Richard Davidson, "Prolegomenon to emotion: Gleanings from neuropsychology," Cognition and Emotion 6 (1992): 245-68; Richard Davidson, William Irwin, "The functional neuroanatomy of emotion and affective style," Trends in Cognitive Sciences 3 (1999): 211-21; Raymond Dolan, Paul Fletcher, J. Morris, N. Kapur, J. F. Deakin, Christopher D. Frith, "Neural activation during covert processing of positive emotional facial expressions," Neurolmage 4 (1996): 194-200; Joseph LeDoux, The Emotional Brain: The Mysterious Underpinnings of Emotional Life (New York: Simon and Schuster, 1996); Michael Davis and Y. Lee, "Fear and anxiety: possible roles of the amygdala and bed nucleus of the stria terminalis," Cognition and Emotion 12 (1998): 277-305; Edmund Rolls, The Brain and Emotion (New York: Oxford University Press, 1999); Ralph Adolphs, Daniel Tranel, Antonio Damasio, "Impaired recognition of emotion in facial expressions following bilateral damage to the human amygdala," Nature 372 (1994): 669-72; Ralph Adolphs, Daniel Tranel, Antonio R. Damasio, "The human amygdala in social judgment," Nature 393 (1998): 470-74; Ralph Adolphs, "Social cognition and the human brain," Trends in Cognitive Sciences 3 (1999): 469-79; Ralph Adolphs, Hanna Damasio, Daniel Tranel, Gregory Cooper, Antonio Damasio, "A role for somatosensory cortices in the visual recognition of emotion as revealed by 3-D lesion mapping," The Journal of Neuroscience 20 (2000): 2683-90; Ralph Adolphs, "Neural mechanisms for recognizing emotion," Current Opinion in Neurobiology 12 (2002): 169-78; Jean-Didier Vincent, Biologie des Passions (Paris: Editions Odile Jacob, 1986); Nico Frijda, The Emotions (Cambridge, U.K., New York: Cambridge University Press, 1986); Karl Pribram, Languages of the Brain: Experimental

Paradoxes and Principles in Neuropsychology (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1971). Stephen W. Porges, "Emotion: An evolutionary byproduct of the neural regulation of the autonomic nervous system," Annals of the New York Academy of Sciences 807 (1997): 62-77

[26] Paul Rozin, L. Lower, R. Ebert, "Varieties of disgust faces and the structure of disgust," Journal of Personality «[Social Psychology 66 (1994): 870-81.

[27] Richard Davidson and W. Irwin (cited earlier); Raymond Dolan, et al. (cited earlier); Helen Mayberg, Mario Liotti, Steven K. Brannan. NOTES Scott McGinnis, Roderick K. Mahurin, Paul A. Jerabek, J. Arturo Silva, Janet L. Tekell, C. C. Martin, Jack L. Lancaster, Peter T. Fox, "Reciprocal limbic-cortical function and negative mood: Converging PET findings in depression and normal sadness," American Journal of Psychiatry 156 (1999): 675-82; Richard Lane, Eric M. Reiman, Geoffry L. Ahern, Gary E. Schwartz, Richard J. Davidson, "Neuroanatomical correlates of happiness, sadness, and disgust," American Journal of Psychiatry 154 (1997): 926-33; Wayne Drevets, Joseph L. Price, Joseph R. Simpson Jr., Richard D. Todd, Theodore Reich, Michael Vannier, Marcus E. Raichle, "Subgenual prefrontal cortex abnormalities in mood disorders," Nature 386 (1997): 824-27.

[28] Frans de Waal, Good Natured (Cambridge: Harvard University Press, 1997); Hans Kummer, The Quest of the Sacred Baboon (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1995); Berud Heinrich, The Mind of the Raven (New York: HarperCollins, 1999); Marc D. Hauser, Wild Minds (New York: Henry Holt, 2000).

[29] Robert Hinde, "Relations between levels of complexity in the behavioral sciences," Journal of Nervous at Mental Disease 177 (1989): 655-67.

[30] Cornelia Bargmann, "From the nose to the brain," Nature 384 (1996): 512-13.

[31] For a modern discussion of possible interactions between the world of affect and that of evolution, see Jaak Panksepp, Affective Neuroscience: The Foundations of Human and Emotions (cited earlier); and Mark Solms, The Brain and the Inner World: An introduction to the Neuroscience of Subjective Experience (New York: Other Press, 20001)

[32] Ross Buck (cited earlier)

[33] هدف هذا التعريف التمهيديّ أن يكون محدَّدًا وشاملاً بقدر الامكان في حين يحترم الفصل الموجَّه علميًا بين العاطفة والشعور الّذي اقترحت اتّباعه في السابق. Antonio Damasio, "Fundamental feelings," Nature 413 (2001): 781توجد عناصر ذهنية في هذا التعريف (تقدير / تمثيل محفّز حسّي مؤهَّل عاطفيًا)؛ وعناصر بدنية و عصبية: منظور تطوّريّ، وإقرار بغاية وظيفية. يتجنّب التعريف هذا وجهة نظرٍ ضيّقة أي أنّ نعرّف العواطف من حيث هي "حالات تثيرها المكافآت والعقوبات " فقط ، في نطاقٍ حيث لا تكون المكافأة سوى "الشيء الّذي يحرّك الحيوان"و العقوبة "كلّ شيء يعمل الحيوان على تجنبّه والهروب منه"، تمامًا كما يقترح إي.تي رولز E. T. Rolls in Behavioral and Brain Sciences 23 (2000): 177-234.

[34] يتركّز نقاشي على العمليات الّتي تمتدّإلى ما وراء المرحلة التقييمية لسبب أساسيّ أنّها المرحلة الأكثر غموضًا على الفهم في حالة الاستجابة العاطفية، والّتي تعد بالكشف عن أسس عصبية بيولوجية للقسم الشعوري من الحلقة. ومن حسن حظّنا، فإنّ عملية التقييم يمكن، جزئيًا، بلوغها من خلال الاستبطان وقد تمّ التحققّ منها بشكلٍ تفصيليّ، استنادًا على ثروة من التجارب الانسانية المدوّنة في النصوص الفلسفية والعلمية، وأيضًا الأدبية كما بيّنت مارثا نومبسباوم (Martha Nussbaum, Upheavals of Thought, New York: Cambridge University Press, 2001.) وكما لاحظنا في البداية، التركيز في استقصائي الخاصّ انصبّ على الآلية العصبية البيولوجية المباشرة في توليد العاطفة.

[35] تبيّن الدراسات المتخصصة على اللوزة amygdala أن تنوّع نواقل الغلوتامات المعرفة بنواقل NMDA أساسٌ في تلك العمليات، بالأخصّ في وُحَيدات NBR2B. مثلاً يؤدّي تعطّل هذه الوحيدات subunit إلى تجنّب اشرطات الخوف، ومن ناحية ثانية يمكن التلاعب بنفس الوحيدة من أجل توليد تحسينات في التعلّم العاطفيّ. كما ينخرط ناقل NDMA في تنشيط الانزيم cAMP كيناز البروتين الاعتماديّ والّذي تعتمد عليه صناعة البروتين والتعلّم الجديد. See Eric Kandel, /arnes Schwartz, Thomas Jessell, Principles of Neural Science, chapters on Learning and Memory, McGraw-Hill, 4th

Edition (2002); J. LeDoux, The Synaptic Self, Simon and Schuster (2002

[36] Joseph LeDoux (cited earlier); Ralph Adolphs (cited earlier); Raymond Dolan (cited earlier); David Amaral, "The primate amygdala and the neurobiology of social behavior: implications for understanding social anxiety," Biological Psychiatry 51 (2002): n-17; Lawrence Weiskrantz, "Behavioral changes associated with ablations of the amygdaloid complex in monkeys," Journal of Comparative and Physiological Psychology 49 (1956): 381

[37] Hiroyuki Oya, Hiroto Kawasaki, Matthew Howard, Ralph Adolphs, "Electrophysiological responses recorded in the human amygdala discriminate emotion categories of visual stimuli, "Journal of Neuroscience (in press).

[38] Paul J. Whalen, Scott L. Rauch, Nancy L. Etcoff, Sean C. Mclnerney, Michael B. Lee, Michael A. Jenike, "Masked presentations of emotional facial expressions modulate amygdala activity without explicit knowledge," Journal of Neuroscience 18 (1998): 411-18

[39] Arnie Ohman, Joaquim J. Soares, "Emotional conditioning to masked stimuli: expectancies for aversive outcomes following nonrecognized fear-relevant stimuli," Journal of Experimental Psychology: General 127 (1998): 69-82; J. S. Morris, Arnie Ohman. Raymond J. Dolan, "Conscious and unconscious emotional learning in the human amygdala," Nature 393 (1998): 467-70.

[40] Patrik Vuilleumier, S. Schwartz, "Modulation of visual perception by eye gaze direction in patients with spatial neglect and extinction," NeuroReport 12 (2001): 2101-4; Patrik Vuilleumier, S. Schwartz, "Beware and be aware: capture of spatial attention by fear-related stimuli in neglect," NeuroReport 12 (2001): 1119-22; Patrik Vuilleumier, S. Schwartz, "Emotional facial expressions capture attention," Neurology 56 (2001): 153-58; Beatrice de Gelder, Jean Vroomen, G. Pourtois, Lawrence Weiskrantz, "Non-conscious

recognition of affect in the absence of striate cortex," NeuroReport 10 {1999): 3759-63

[41] Antonio Damasio, Daniel Tranel, Hanna Damasio, "Somatic markers and the guidance of behavior: Theory and preliminary testing," in H. S. Levin, H. M. Eisenberg, and A. L. Benton, eds., Frontal Lobe Function and Dysfunction (New York: Oxford University Press, 1991), 217-29; Antonio Damasio, "The somatic marker hypothesis and the possible functions of the prefrontal cortex," Transactions of the Royal Society (London) 351 (1996): 1413-20; Antoine Bechara, Antonio Damasio, Hanna Damasio, Steven Anderson, "Insensitivity to future consequences following damage to human prefrontal cortex," Cognition 50 (1994): 7-15; Antoine Bechara, Daniel Tranel, Hanna Damasio, Antonio Damasio, "Failure to respond autonomically to anticipated future outcomes following damage to prefrontal cortex," Cerebral Cortex 6 (1996): 215-25; Antoine Bechara, Hanna Damasio, Daniel Tranel, Antonio Damasio, "Deciding advantageously before knowing the advantageous strategy," Science 275 (1997): 1293-94.

[42] Hiroto Kawasaki, Ralph Adolphs, Olaf Kaufman, Hanna Damasio, Antonio Damasio, Mark Granner, Hans Bakken, Tomokatsu Hori, Matthew A. Howard, "Single-unit responses to emotional visual stimuli recorded in human ventral prefrontal cortex," Nature Neuroscience 4 (2001): 15-16.

[43] Jaak Panksepp, Affective Neuroscience: The Foundations of Human and Emotions (cited earlier)

[44] Paul Ekman, "Facial expressions of emotion: New findings, new questions," Psychological Science} (1992): 34-38.

[45] Boulos-Paul Bejjani, Philippe Damier, Isabella Arnulf, Lionel Thivard, Anne-Marie Bonnet, Didier Dormont, Philippe Cornu, Bernard Pidoux, Yves Samson, Yves Agid, "Transient acute depression induced by high-frequency deep-brain stimulation," New England Journal of Medicine 340 (1999): 1476-8

[46] Itzhak Fried, Charles L. Wilson, Katherine A. MacDonald, Eric f. Behnke, "Electric current stimulates laughter," Nature 391 (1998): 650.

[47] Antonio Damasio, Descartes' Error: Emotion, Reason, and the Human Brain (cited earlier). The original observations of these phenomenon go back to my mentor Norman Geschwind.

[48] Josef Parvizi, Steven Anderson, Coleman Martin, Hanna Damasio, Antonio R. Damasio, "Pathological laughter and crying: a link to the cerebellum." Brain 124 (2001): 1708-19.

[49] من المحتمل أنّ للمخيخ دورًا في ضبط سلوكيات الضحكِ والبكاء ضمن سياقاتٍ محدّدة، كما في الوضعيات الاجتماعية حيث يجب تجنّب هذه السلوكيات. ويمكن للمخيخ أن يهيّأ العتبة الّتي يستجيب عندها جهاز الحثّ-المستفعِل induction-effector لمنبّهٍ حسيّ وبالتالي توليد أو كبح الضحك أو البكاء. هذه الأفعال التعديلية المخيّة يمكنها أن تحصل بشكل اوتوماتيكيّ كنتيجةٍ للتعلّم (عند ربط بعض السياقات الاجتماعية بجوانب ومستويات محددة من الاستجابات العاطفية). يمكن للمخيّخ أن ينفّذ هذه الأفعال التعديلية لسببين: أولاً لأنه يتلقّى اشارات من البنى الاستشعار البُعاديّ الّتي تنقل السياق الاجتماعي المعرفي لمنبّهٍ ما، سامحةً بذلك للحوسبة الّتي يجريها المخيخ بأن تأخذ بالاعتبار هذه السياقات. وثانيًا، لأن الاسقاطات المخيّة على جذع الدماغ ومواقع الحثّ -المستفعِل الاستشعاري البُعاديّ تسمح للمخيخ بتنسيق هذه الاستجابات الّتي يشكّل مجموعها الضحكَ أو البكاء. تشتمل هذه الاستجابات على تنسيقٍ للحركات الوجهية، الحنجرية البلعومية laryngopharyngeal والايقاعية الحجابية Rhythmic diaphragmatic. Jeremy D. Schmahmann, Deepak N. Pandya, "Anatomic organization of the basilar pontine projections from prefrontal cortices in rhesus monkey," Journal of Neuroscience 17 (1997a): 438-58; Jeremy D. Schmahmann, Deepak N. Pandya, "The cerebrocerebellar system," International Review Neurobiology 41 (1997b): 31-60.

الفصل الثالث

[50] Suzanne Langer contributed powerful analyses of the phenomena of feeling in her books, e.g., Philosophy in a New Key (Harvard University Press, 1942); Philosophical Sketches (Johns Hopkins Press, 1962). Suzanne Langer and her mentor,

Alfred North Whitehead, are kindred spirits on this issue, as is the philosopher Errol Harris with whose work I became acquainted in the last stages of preparing this book, on the advice of Samuel Attard. Errol E. Harris, The Foundations of Metaphysical Science (New York: Humanities Press, 1965).

[51] يعتقد زميلي ديفيد رادروف أن مقاومة التغيّر هي سبب رئيسي في اختبارنا للعاطفة، وهي فكرة توافق بشكلٍ كبير مفهوم فرانسيسكو فاريلا عن المتعضّي من منطلق بيو فيزيائي. وفقًا لهذه الفرضية، قد ينسجم جزءٌ ممّا نشعر به مع مقاومة للتغيّر الباغت الّذي تسبب به عاطفةٌ ما، ومع ميل للتحكّم بالاضطراب العاطفي الحاصل,

[52] هذا صائبٌ في ما يتعلّق بقضية الكواليا qualia [التنبّه / التيّقظّ] بالنسبة إلى هؤلاء القلِقون حول المسألة المثيرة للنقاش، ولكن لا يوجد متسّع هنا لنقاش هذه القضية. يكفي أن نقول أنّه حين نناقش المشاعر وفقًا لإطار موسّع كما هو معروض هنا، وحين نلاحظ أنّ الإدراك يحصل من دون توليد أي اضطراب "عاطفي"، فإنّ مقولة الكواليا تصبح جليّة أكثر.

[53] Thomas Insel, "A neurobiological basis of social attachment," American Journal of Psychiatry 154 (1997): 726-3

[54] For a modern and science-inspired treatment of the distinctions among sex, attachment, and romantic love see Carol Gilligan, The Birth of Pleasure (Knopf, 2002); Jean-Didier Vincent, Biologie des Passions (Paris: Editions Odile Jacob, 1994); Alain Prochiantz, La Biologie dans le Boudoir (Paris: Editions Odile Jacob, 1995)• For the classical view on the same subject one must turn to Gustave Flaubert, Stendal, James Joyce, and Marcel Proust.

[55] Antonio R. Damasio, Thomas J. Grabowski, Antoine Bechara, Hanna Damasio, Laura L. B. Ponto, Josef Parvizi, Richard D. Hichwa, "Subcortical and cortical brain activity during the feeling of self-generated emotions," Nature Neuroscience 3 (2000): 1049-56.

[56] Hugo D. Critchley, Christopher J. Mathias, Raymond J. Dolan, "Neuroanatomical basis for first- and second-order representations of bodily states," Nature Neuroscience 4 (2001): 207-12. Note on other functional imaging studies of

emotion/feeling: Helen S. Mayberg, Mario Liotti, Steven K. Brannan, Scott McGinnis, Roderick K. Mahurin, Paul A. Jerabek, Arturo Silva, Janet L. Tekell, Clifford C. Martin, Jack L. Lancaster, Peter T. Fox, "Reciprocal limbic-cortical function and negative mood: Converging PET findings in depression and normal sadness," 1999, cited earlier: 675-82; Richard Lane, et al., "Neuroanatomical correlates of happiness, sadness, and disgust" (cited earlier); Wayne Drevets, et al., "Subgenual prefrontal cortex abnormalities in mood disorders" (cited earlier); Hugo D. Critchley, Rebecca Elliot, Christopher J. Mathias, Raymond J. Dolan, "Neural activity relating to generation and representation of galvanic skin conductance responses: A functional magnetic resonance imaging study," Journal of Neuroscience 20 (2000): 3033-40.

[57] Dana M. Small, Robert J. Zatorre, Alain Dagher, Alan C. Evans, Marilyn Jones-Gotman, "Changes in brain activity related to eating chocolate: from pleasure to aversion," Brain 124 (2001): 1720-33; A. Bartels, Semir Zeki, "The neural basis of romantic love," NeuroReport 11 (2000): 3829-34; Lisa M. Shin, Darin D. Dougherty, Scott P. Orr, Roger K. Pitman, Mark Lasko, Michael L. Macklin, Nathaniel M. Alpert, Alan /. Fischman, Scott L. Rauch, "Activation of anterior paralimbic structures during guilt-related script-driven imagery," Society of Biological Psychiatry 48 (2000): 43-50; Sherif Karama, Andre Roch Lecours, Jean-Maxime Leroux, Pierre Bourgouin, Gillcs Beaudoin, Sven Joubert, Mario Beauregard, "Areas of brain activation in males and females during viewing of erotic film excerpts," Human Brain Mapping 16 (2002): 1-13.

[58] Jaak Panksepp, "The emotional sources of chills induced by music," Music Perception 13 (1995): 171-207.

[59] Anne J. Blood, Robert J. Zatorre, "Intensely pleasurable responses to music correlate with activity in brain regions implicated in reward and emotion," Proceedings of the National Academy of Sciences 98 (2001): 11818-23.

[60] Abraham Goldstein, "Thrills in response to music and other stimuli," Physiological Psychology 3 (1980): 126-169
نحن على علم بأن إدارة النالوكسون naloxone ، وهي مادة تكبح عمل الافيونات، تعلّق تجربة القشعريرة مبيّنة أن من المحتمل أن تكون الافيونات وسيط تلك المشاعر.

[61] Kenneth L. Casey, "Concepts of pain mechanisms: the contribution of functional imaging of the human brain," Progress in Brain Research 129 (2000): 277-87.

[62] في اختبارٍ ذي صلة كان بمقدور بيير رانفيل أن يفصل المربوطات العصبية لمشاعر الألم المتّصلة – "تفاعل الألم" المعرّف ككراهةٍ للألم والرغبة بإنهائه – عن الإحساس الاعتيادي للألم. في حالة "تفاعل الألم" تشتغل القشرة الحزامية و الجزيرة، أمّا في حالة "إحساس الألم" فتلعب الدور الأكبر القشرة SI، وهي منطقة نعتقد أنّها لا تنخرط بشكلٍ كبير في العاطفة. Pierre Rainville, Gary H. Duncan, Donald D. Price, Benoit Carrier, M. Catherine Bushnell, "Pain affect encoded in human anterior cingulate but not somatosensory cortex," Science 277 (1997): 968-71

[63] Derek Denton, Robert Shade, Frank Zamarippa, Gary Egan, John Blair-West, Michael McKinley, Jack Lancaster, Peter Fox, "Neuroimaging of genesis and satiatioti of thirst and an interoceptordriven theory of origins of primary consciousness," Proceedings 0) the National Academy of Sciences 96 (1999): 5304

[64] Terrence V. Sewards, Mark A. Sewards, "The awareness of thirst: proposed neural correlates," Consciousness e£ Cognition: An International Journal 9 (2000): 463-87.

[65] Balwinder S. Athwal, Karen J. Berkley, Imran Hussain, Angela Brennan, Michael Craggs, Ryuji Sakakibara, Richard S. J. Frackowiak, Clare J. Fowler, "Brain responses to changes in bladder volume and urge to void in healthy men," Brain 124 (2001): 369-77; Bertil Blok, Antoon T. M. Willemsen, Gert Holstege, "A PET study on brain control of micturition in humans," Brain 120 (1997): III-21.

[66] Sherif Karama, et al., "Areas of brain activation in males and females during viewing of erotic film excerpts" (cited earlier).

[67] David H. Hubel, Eye, Brain and Vision (New York: Scientific American Library, 1988).
[68] John S. Morris provides a brief review of the current state of affairs in Trends in Cognitive Sciences 6 (2002): 317
[69] سبق واقترح آزدي. كريج أن المسارات داخل الجزيرة تستخدم نواة مِهادية مخصصة VMpo، من أجل تغذية القشرة الجزيرية. في داخل هذه القشرة، تمرّ الاشارات الّتي تحملها المسارات بمناطق فرعية من مؤخرّة إلى مقدمة هذا القطاع. وهذا يشابه التنظيم المناطقي الفرعي للمسارات البصرية في القشرة القذالية وراء القشرة البصرية الأوليّة(VI). بمعنى آخر، من المرجّح أن المشاعر تعتمدُ على معالجةٍ في المناطق الفرعية المرتبطة ببعضها كما يحصل في حالة البصر.
[70] Arthur D. Craig, "How do you feel? Interoception: the sense of the physiological condition of the body," Nature Reviews 3 (2002): 655- 66; D. Andrew, Arthur D. Craig, "Spinothalamic lamina I neurons selectively sensitive to histamine: a central neural pathway for itch," Nature Neuroscience 4 (2001): 72-77; Arthur D. Craig, Kewei Chen, Daniel J. Bandy, Eric M. Reiman, "Thermosensory activation of insular cortex," Nature Neuroscience 3 (2000): 184-90.
[71] Alain Berthoz, Le Sens du Mouvemenl (Paris: Editions Odile Jacob, J 997)
[72] Antoine Lutz, Jean-Philippe Lachaux, Jacques Martinerie, Francisco Varela, "Guiding the study of brain dynamics by using first-person data: synchrony patterns correlate with ongoing conscious states during a simple visual task," Proceedings oj the National Academy of Science 99 (2002): 1586-
[73] Richard Bandler, Michael T. Shipley, "Columnar organization in the rat midbrain periaqueductal gray: modules for emotional expression?" Trends in Neurosciences ij (1994)•' 379-89; Michael M. Behbehani, "Functional characteristics of the midbrain periaqueductal gray," Progress in Neurobiology 46 (1995): 575-605.
[74] Vittorio Gallese, "The shared manifold hypothesis," Journal oj Consciousness Studies, 8 (2001): 33-50. Giacomo Rizzolatti, Luciano Fadiga, Leonardo Fogassi, Vittorio Gallese,

"Resonance behaviors and mirror neurons," Archives Italiennes de Biologie 137 (1999): 85- 100; Giacomo Rizzolatti, Leonardo Fogassi, Vittorio Gallese, "Neurophysiological mechanisms underlying the understanding and imitation of action," Nature Reviews Neuroscience 2 (2001): 661-70; Giacomo Rizzolatti, Luciano Fadiga, Vittorio Gallese, Leonardo Fogassi, "Premotor cortex and the recognition of motor actions," Cognitive Brain Research 3 (1996): 131-41; Ritta Haari, Nina Forss, Sari Avikainen, Erika Kirveskari, Stephan Salenius, Giacomo Rizzolatti, "Activation of human primary motor cortex during action observation: a neuromagnetic study," Proceedings of the National Academy of Sciences 95 (1998): 15061-65.

[75] Ralph Adolphs, et al. (cited earlier).

[76] See Antonio Damasio, Descartes' Error: Emotion, Reason, and the Human Brain (cited earlier). The Feeling of What Happens: Body, Emotion, and the Making of Consciousness (cited earlier)

[77] Ulf Dimberg, Monika Thunberg, Kurt Elmehed, "Unconscious facial reactions to emotional facial expressions," Psychological Science 11 (2000): 86-89 .

[78] Taco J. DeVries, Toni S. Shippenberg, "Neural systems underlying opiate addiction," Journal of Neuroscience 22 (2002): 3321-25; Jon-Kar Zubieta, Yolanda R. Smith, Joshua A. Bueller, Yanjun Xu, Michael R. Kilbourn, Douglas M. Jewett, Charles R. Meyer, Robert A. Koeppe, Christian S. Stohler, "Regional mu opioid receptor regulation of sensory and affective dimensions of pain," Science 293 (2001): 311-15; Jon-Kar Zubieta, Yolanda R. Smith, Joshua A. Bueller, Yanjun Xu, Michael R. Kilbourn, Douglas M. Jewett, Charles R. Meyer, Robert A. Koeppe, Christian S. Stohler, "Mu-opioid receptor-mediated antinociception differs in men and women." Journal of Neuroscience 22 (2002): 5100-7.

[79] Wolfram Schultz, Leon Tremblay, Jeffrey R. Hollerman, "Reward prediction in primate basal ganglia and frontal

cortex," Neuropharmacology 37 (1998): 421-29; Ann E. Kelley and Kent C. Berridge, "The neuroscience of natural rewards: Relevance to addictive drugs," Journal of Neuroscience 22 (2002): 3306-11.

[80] These responses are quite comparable across subjects. A number of Web sites concerned with drug addiction provide descriptions of drug experiences: http://www.erowid.org/index.shtml.

[81] DeVries and Shippenberg, ibid.

[82] إن تنشيط الجزيرة هو، على الأرجح، مفتاح ارتباط المشاعر. ومن المرجّح أنّ تنشيط الحزامية يتربط بشكلٍ كبير مع الاستجابة الانتظامية التي تتولّد عن العقاقير. طبيعيًا، تصبح الاستجابات التنفسية جزءًا ممّا نشعر به Alex Gamma, . Alfred Buck, Thomas Berthold, Daniel Hell, Franz X. Vollenweider, "3,4-memylenedioxymethamphetamine (MDMA) modulates cortical and limbic brain activity as measured by [H2 '50]-PET in healthy humans," Neuropsychopharmacology 23 (2000): 388-95; Louise A. Sell, John S. Morris, Jenny Beam, Richard J. Frackowiak, Karl J. Friston, Raymond J. Dolan, "Neural responses associated with cue-invoked emotional states and heroin in opiate addicts," Drug and Alcohol Dependence 60 (2000): 207-16; Bruce Wexler, C. H. Gottschalk, Robert K. Fulbright, Isak Prohovnik, Cheryl M. Lacadie, Bruce J. Rounsaville, John C. Gore, "Functional magnetic resonance imaging of cocaine craving," American Journal of Psychiatry 158 (2001): 86-95; Luis C. Maas, Scott E. Lukas, Marc J, Kaufman, Roger D. Weiss, Sarah L. Daniels, Veronica W. Rogers, Thellea J. Kukes, Perry F. Renshaw, "Functional magnetic resonance imaging of human brain activation during cue-induced cocaine craving," American Journal of Psychiatry 155 (1998): 124-26; Anna Rose Childress, P. David Mozley, William McElgin, Josh Fitzgerald, Martin Reivich, Charles P. O'Brien, "Limbic activation during cue-induced cocaine craving," American Journal of Psychiatry 156 (1999): 11-18; Daniel S. O'Leary, Robert I. Block, Julie A. Koeppel, Michael Flaum, Susan K.

Schultz, Nancy C. Andreasen, Laura Boles Ponto, G. Leonard Watkins, Richard R. Hurtig, Richard D. Hichwa, "Effects of smoking marijuana on brain perfusion and cognition," Neuropsychopharmacology 26 (2002): 802-16

[83] Gerald Edelman (cited earlier), and Rodney A. Brooks, Flesh and Machines (New York: Pantheon Books, 2002).

الفصل الرابع

[84] بشكلٍ معقولٍ، تُرجمَ مصطلح Laetitia إلى فرح أو ابتهاج Elation ، كما تُرجِمَ إلى متعة، وهي ترجمة خاطئة من وجهة نظري.أنظر:

Spinoza on the Pathos of Idolatrous love and the Hilarity of True Love, in Amélie Rorty, ed., Explaining Emotions (Berkeley: University of California Press, 1980).

أفضل ترجمة لمصطلح Tristitia هو الحزن sadness أو الأسىsorrow، برغم أنّه قد يشير، بشكلٍ عام، إلى تأثّراتٍ سلبية مثل الخوف أو الغضب. وحين يشير سبينوزا إلى كمالٍ أكبر أو أقلّ يميل إلى استخدام الكلمة "انتقالtransition "، وهذا توصيفٌ قيّمٌ إذ يلفت النظر إلى الطبيعة الدينامية لعملية التأثّر، ولكن قد يُساء فهمه كما لو أن الانتقالات تكون، بحد ذاتها، أهمّ أقسام هذه العملية.

[85] من المثير أن نلاحظ أنّ في حقل دراسةِ الشبكات العصبية الحديث، توصف بعض حالات الاشتغال بأنّها "تناغمية" harmonious"؛ حتّى أن بالامكان الكلام عن "حالات تناغمية قصوى". ماهية التناغم هي نفسها في البيولوجيا والاشتغال الصناعيّ: السهولة، الفعّالية، السرعة، والقوّة.

[86] For a description of depression as sickness behavior see Bruce G. Charlton, "The malaise theory of depression: major depressive disorder is sickness behavior and antidepressants are analgesic," Medical Hypotheses 54 (2000): 126-30. For descriptions of the experience of depression see William Sfyron, Darkness Visible: A Memoir of Madness (New York: Random House, 1990); Kay Jamieson, An Unquiet Mind (New York: Knopf, 1995); and Andrew Solomon, The Noonday Demon: An Anatomy of Depression (London: Chatto & Windus, 2001).

[87] See Antonio Damasio, Descartes' Error: Emotion, Reason, and the Human Brain (cited earlier); Antonio Damasio, "The

somatic marker hypothesis and the possible functions of the prefrontal cortex" (cited earlier)

[88] Antoine Bechara et al., "Insensitivity to future consequences following damage to human prefrontal cortex" (cited earlier); Antonio Damasio, Steven Anderson, "The frontal lobes," in K. M. Heilman and E. Valenstein (eds.), Clinical Neuropsychology, Fourth Edition (New York: Oxford University Press, 2002); Facundo Manes, Barbara Sahakian, Luke Clark, Robert Rogers, Nagui Antoun, Mike Aitken, Trevor Robbins, "Decision-making processes following damage to the prefrontal cortex," Brain 125 (2002): 624-39; Daniel Tranel, Antoine Bechara, Natalie Denburg, "Asymmetric functional roles of right and left ventromedial prefrontal cortices in social conduct, decision-making, and emotional processing," Cortex (in press).

[89] For details on the neural and cognitive aspects of working memory, see Patricia Goldman-Rakk. "Regional and cellular fractionation of working memory," Proceedings of the National Academy of Sciences of the United Slates of America 93 (1996): 13473-80; and Alan Baddeley, "Recent developments in working memory," Current Opinion in Neurobiology 8 (1998): 234-38. For a general treatment of prefrontal cortex functions see Joaquin Fuster, Memory in the Cerebral Cortex (Cambridge, Mass., London, UK: MIT Press, 1995); and Elkhonon Goldberg, The Executive Brain: Frontal Lobes and the Civilized Mind (New York: Oxford University Press, 2001).

[90] Jeffrey Saver, Antonio Damasio, "Preserved access and processing of social knowledge in a patient with acquired sociopathy due to ventromedial frontal damage," Neuropsychologia 29 (1991): 1241-49.

[91] Antonio Damasio, Descartes' Error: Emotion, Reason, and the Human Brain (cited earlier).

[92] منذ عقدين، حين بدأتُ في تقديم هذه الأفكار ،استُقبِلَت بمزيجٍ من الرفض والحيرة. أولاً، كان الدليلُ روائيًا، ولم أحظَ بدعمٍ من مؤلفاتٍ سابقةٍ باستثناء مقال عالم التشريح

العصبي وال نوتا Wall Nauta حول الدور المحتمَل للقشرة الجبهية في العواطف. ومن ثمّ تدعّم الدليل وكذلك قويَ الترحيب بتلك الأفكار "The problem of the frontal lobe: a reinterpretation," Journal of Psychiatric Research 8 (1971): 167-87. The evidence has now grown and so has the endorsement of these ideas, e.g., Antoine Bechara, et al., "Insensitivity to future consequences following damage to human prefrontal cortex" (cited earlier); Antoine Bechara, et al., "Failure to respond autonomically to anticipated future outcomes following damage to prefrontal cortex" (cited earlier); Antoine Bechara, et al., "Deciding advantageously before knowing the advantageous strategy" (cited earlier); Antoine Bechara, Hanna Damasio, Antonio R. Damasio, Greg P. Lee, "Different contributions of the human amygdala and ventromedial prefrontal cortex to decision-making," Journal of Neuroscience 19 (1999): 5473-81; Antoine Bechara, Hanna Damasio, Antonio Damasio, "Emotion, decision-making, and the orbitofrontal cortex," Cerebral Cortex 10 (2000): 295-307; Shibley Rahman, Barbara J. Sahakian, Rudolph N. Cardinal. Robert D. Rogers, Trevor W. Robbins, "Decision making and neuropsychiatry," Trends in Cognitive Sciences 5 (2001): 271-77; Geir Overskeid. "The slave of the passions: experiencing problems and selecting solutions," Review of General Psychology 4 (2000): 284-309; George Loewenstein. E. U Webber, C. K. Hsee, "Risk as feelings," Psychological Bulletin 127 (2001): 267-86; Jean-P. Royet, David Zald, Rémy Versace, Nicolas Costes, Frank Lavenne, Olivier Koenig, Rémi Gervais, "Emotional responses to pleasant and unpleasant olfactory, visual, and auditory stimuli: a positron emission tomography study," Journal of Neuroscience 20 (2000): 7752-59.

[93] Stefan P. Heck, Reasonable Behavior: Making the Public Sensible (University of California, San Diego, 1998); Ronald de Sousa, The Rationality of Emotion (Cambridge: MIT Press, 1991); Martha Nussbaum, Upheavals of Thought (cited earlier).

[94] Ralph Adolphs, et al., "Impaired recognition of emotion in facial expressions following bilateral damage to the human amygdala" (cited earlier)
[95] James K. Rilling, David A. Gutman, Thorsten R. Zeh, Giuseppe Pagnoni, Gregory S. Berns, Clinton D. Kilts, "A neural basis for social cooperation," Neuron 35 (2002): 395-405.
[96] Steven Anderson, Antoine Bechara, Hanna Damasio, Daniel Tranel, Antonio Damasio, "Impairment of social and moral behavior related to early damage in human prefrontal cortex," Nature Neuroscience 2 (1999): 1032-37.
[97] ترسّخ هذا التفسير بدليلٍ من مرضى آخرين اصيبوا بضررٍ في مناطق الدماغ الّتي تُعلِم القشرات قبل الجبهية بتركيبات الوضعية، أي القسم السفليّ الصُدغيّ inferotemporal. وبالتعاون مع زميليَّ ستيفن آندرسون وهانَا داماسيو، لاحظتُ أن الضرر الّذي أصاب هذا القسم خلال طر النموّ أوقفَ انضاجَ السلوك الاجتماعي المناسب. ويمكن مقارنة النتيجة العملية لذلك بالنتيجة المترتبة على الجرح في المقدّم الجبهيّ عند الراشدين.
[98] Jonathan Haidt, "The Moral Emotions," in R. J. Davidson, K. Scherer, and H. H. Goldsmith (eds.), Handbook of Affective Sciences (Oxford University Press, in press); R. A. Shweder and J. Haidt, "The cultural psychology of the emotions: Ancient and new," in M. Lewis & (. Haviland (eds.), Handbook of emotions, 2nd Ed. (New York: Guilford, 2000)
[99] E. O. Wilson's "consilience" project is an example of the sort of attitude that could advance knowledge by bringing together biology and the humanities. Edward O. Wilson, Consilience (New York: Knopf, 1998).
[100] أذكر أن كل تلك التعليقات حول الأخلاقيات تنطبق على السلوكيات الاخلاقية ومصادرها البيولوجية الممكنة وعلى الآليات التي تنطوي عليها سَنَن الأخلاق الموصوفة. ولا أرتكز هنا على قضايا الاخلاقيات المعيارية أو الميتا-أخلاقية.
[101] Frans de Waal, Good Natured (cited earlier); B. Heinrich, The Mind of the Raven (cited earlier); Hans Kummer, The Quest of the Sacred Baboon (cited earlier). The altruism experiment in rhesus monkeys is discussed by Marc Hauser in Wild Minds (New York: Holt and Company, 2000) and was

conducted by Robert Miller (R. E. Miller, /. Banks, H. Kuwhara, "The communication of affect in monkeys: Cooperative conditioning," foumal of Genetic Psychology 108 [1966]: 121-34; R. E. Miller, "Experimental approaches to the physiological and behavioral concomitants of affective communication in rhesus monkeys," in S. A. Altmann [ed.], Social Communication among Primates [Chicago: University of Chicago Press, 1967]).

[102] ليست الجينات ضروريةً فقط لبناء دماغٍ ما مجهّزٍ بالأدوات الّتي ناقشناها، بل إن تعبير الجينات هو أيضًا ضروريّ للسماحً بالتعلّم ولتجديد و تصليح بنية الدماغ. أضف إلى ذلك، يعتمد تعبير الجين على التآثرات مع البيئة من خلال النموّ و النضوج، وإن رؤية متفهّمة للقضايا المعروضة هنا تستفيد من الأدب الجدالي المكثّف والمتعدد في حقول السايكولوجيا التطوّرية، العلوم العصبية البيولوجية، والوراثيات السكّانية population genetics.

Important readings listed in chronological order include: William Hamilton, "The genetical evolution of social behaviour," Parts 1 and 2, Journal of Theoretical Biology 7 (1964): 1-52; George Williams, Adaptation and Natural Selection: A Critique of Some Current Evolutionary Thought (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1966); Edward O. Wilson, Sociobiology: The New Synthesis (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1975); Richard Dawkins, The Selfish Gene (New York: Oxford University Press, 1976); Stephen Jay Gould, The Mismeasure of Man (New York: Norton, 1981): Steven Rose, Richard Lewontin, Leo Kamin, Not in Our Genes (Harmondsworth: Penguin, 1984); Leda Cosmides, John Tooby, The Adapted Mind: Evolutionary Psychology and the Generation of Culture (New York: Oxford University Press, 1992); Helena Cronin, John Smith, The Ant and the Peacock: Altruism and Sexual Selection from Darwin to Today (Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 1993); Richard C. Lewontin, Biology as fdeology: The Doctrine of DNA (New York: HarperCollins, 1992); Carol Tavris, The Mismeasure of Women (New York: Simon and Schuster, 1992); Robert Wright, The Moral Animal: Why We

Are the Way We Are: The New Science of Evolutionary Psychology (New York: Pantheon Books, 1994); Mark Ridley, Evolution (Oxford, England; New York: Oxford University Press, 1997); Steven Rose, Lifelines: Biology, Freedom, Determinism (Harmondsworth: Allen Lane, 1997); Edward O. Wilson, Consilience (cited earlier); Steven Pinker, How the Mind Works (New York: W. W. Norton & Company, 1998); Patrick Bateson and Martin Paul, Design for a Life: How Behaviour Develops (London: Jonathan Cape, 1999); Hilary Rose and Steven Rose, eds., Alas, Poor Darwin (New York: Harmony Books, 2000); Melvin Konner, The Tangled Wing (New York: Henry Holt and Company, 2002); Robert Trivers, Natural Selection and Social Theory: Selected Papers of Robert L. Trivers (New York: Oxford University Press, 2002.

[103] See Martha Nussbaum, Upheavals of Thought (Cambridge University Press, 2001) من أجل مناقشة دور العواطف في العدالة بشكلٍ عام، وفي تطبيقات العدالة بشكل خاص.

[104] استخدم وليم سافير مؤخّرًا المصطلح "الأخلاقيات العصبية" للإشارة إلى الجدل الدائرة حول القضايا الأخلاقية المتولّد عن العلاجات الجديدة من خلال العلوم العصبية و الاضطرابات العقلية. يمكن اثراء هذا الجدل من خلال بعض القضايا المعروضة في الكتاب هذا، ولكنّ غايات الأخلاقيات العصبية وغاياتي الخاصة مختلفة. منذ أكثر من عقدٍ استخدم جان بيير شانجو المصطلح "الأخلاقيات العصبية" لدلّ على المادة المناقَشَة في هذا الفصل خلال ندوة تاريخية عن البيولوجيا والأخلاق أقيمَت في باريس برعاية مؤسسة باستور . For a treatment of those important factors see William Calvin, The Ascent of Mind: Ice Age Climates and the Evolution of Intelligence (New York: Bantam Books. 1991), A Brain for All Seasons: Human Evolution and Abrupt Climate Change (Chicago; London: University of Chicago Press, 2002); Terrence Deacon, The Symbolic Species: The Co-evolution of Language and the Brain (New York: W. W. Norton & Company, 1997); and |ared Diamond, Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies (New York: W. W. Norton & Company, 1997

[105] من المرجّح أن ازدهار الوسائل الجديدة في التحكّم الاجتماعي قد أعلنت عن وجودها ظاهرات متباينة مثل التغيّر المناخيّ و نموّ الترميز و الزراعة.

[106] برغم أن مناقشة السياق التاريخيّ لهذه الأفكار أبعد من خبرتي، عليّ أن أشير إلى اثنتين من وجهات النظر القائمة المتّصلة بالأخلاقيات و جهاز العدالة الخاصّ بها: وجهة نظر التنوير الاسكتلندي،و وجهة النظر الكانطية. بالنسبة إلى الأولى، تجد العدالة أسسها في العاطفة، بالتحديد في العواطف الاخلاقية الايجابية كالتعاطف والّتي هي جزء لا يتجزّأ من السلوك الانساني الطبيعيّ. يمكن للمرء أن يهذّب عواطفه الأخلاقية، ولكن لن يحتاج إلى اكتسابها. هذه العواطف فطرية، وجزء من الطيبة الطبيعية المتطوّرة لدى البشر. وبالاستناد على هذه العواطف، وبمعاونة المعارف و العقل، يمكن، في نهاية المطاف، قوننة قواعد الأخلاقيات، والدساتير و أنظمة العدالة. في حين يمكن أن نجد بدايات وجهة النظر هذه عند أرسطو، يُعتبَر آدام سميث وديفيد هيوم من الدعاة البارزين لها (Adam Smith, A Theory . of Moral Sentiment [Cambridge, U.K.; New York: Cambridge University Press, 2002J; David Hume, A Treatise of Human Nature; Enquiry Concerning the Principles of Morals [Garden City, N.Y.: Doubleday, 1961]; Aristotle, Nichomachean Ethics.) وجهة النظر الثانية والّتي يمثّلها كانط يمكننا أن نجد عن جون رولز تعبيرًا معاصرًا عنها. ترفض هذه الوجهة من النظر العاوطف كأسسٍ ممكنة للعدالة، وتختار العقل بديلاً عنها باعتباره الأسّ الوحيد الخاصّ لتأسيس الأخلاقيات والدساتير و العدالة. لا تثق النظرة الكانطية بالعواطف أيًّا كان شكلها، بل تعدّها نزوات خطيرة . يرفض كانط حكمة العواطف، على رغم من كونها نتاجًا بارعًا ودقيقًا فيه راكم التطوّر توجيهات نافعة من أجل ادارة الحياة الاجتماعية. ولكن، يجب أن نقول أن كانط رفض أيضًا المظاهر غير الحكيمة والقاسية للطبيعة والمتمظهرة في أجهزة العواطف، ورفضه العارم يضمن له أنّه لن يُخدَع بالعواطف الطبيعية الاخلاقية. بالمقابل، يثق في العقل البشريّ وفي الابداع من أجل ابتكار حلولٍ أفضل ممّا قدّمها التطوّر بمفرده، أو ربّما مما كاد أن يقدّمها، من دون الأخذ بالاعتبار الجهد البشريّ. وهنا تكمن المشكلة، ذلك أن العقل المقسّى منعدم الشعور يمكنه أن يكون مرشِدًا صائبًا أو مخطئًا تمامًا مثل العواطف الطبيعية. لوجهة النظر الاسكتلندية حدودها أيضًا، فتصوّرها متفائلٌ إلى حدّ كبير، ولا تلتفتُ كثيرًا إلى التصوّر الفظّ و الشرّير للطبيعة البشرية، هذا التصوّر الّذي حبّذه توماس هوبز وفضّله على تصوّر الطبيعة الطيبة و النبيلة للبشر الّذي نربطه بجان- جاك روسّو. و أبعد من العواطف الاخلاقية "الايجابية" الّتي يؤكّد عليها الاسكتلنديون، توجد عواطف "سلبية" أيضًا، مثل الامتعاض، و الانتقام والسُخط، والّتي تتصّل أيضًا ببناء العدالة. أرى أن موقع العواطف في ما خصّ العدالة يتعدّى العواطف الاخلاقية الموروثة تطوّريًا، وأجدُ أنّ العواطف الأولية للأسى و الفرح ما تزال تأخذُ موقعًا رئيسيًا في تشكيل العدالة.مثلاً تسمح لنا تجربة الأسى الشخصية المتعلّقة بالفقدِ أن نتفهّم أسى الآخرين، والتعاطف الطبيعي يجعلنا نتناغم مع مشاكل الآخرين، والألم

العميق الّذي نشعر به يعمّق من إحساسنا بالألم المُعاش والمعبّر عنه من قبل شخصٍ آخر. بمعنى آخر، يتيح لنا الأسى الشخصي أن ننتقل من التعاطف إلى التشاعر، ويشكّل منصّة فعّالة للتفكير بالظروف التي سبّبت الأسى وبالوسائل التي تسمح لنا بتجنّبه لاحقًا. لا تخدم المعلومات الّتي تقدمّها لنا العواطف والمشاعر في خلق أدواتٍ جديدةٍ للعدالة فقط، بل في خلق شروطٍ يمكن للعدالة أن تتحقق فيها بسهولةٍ See .
Robert Wright, The Moral Animal: Why We Are the Way We Are: The New Science of Evolutionary Psychology (New York: Random House, 1994), for an incisive discussion of the perils of trusting al) that comes naturally in the realm of ethics. See Jonathan Haidt. For a review of Kantian and Humean perspectives on moral judgment. "The Emotional Dog and Its Rational Tail," Psychological Review 198 (2001): 814-34. See also Paul M. Churchland, Rules, KnowHow, and the Future of Moral Cognition in Moral Epistemology Naturalized, ed. Richmond Campbell and Bruce Hunter (Calgary: University of Calgary Press, 2000); Robert C. Solomon, A Passion for Justice (Boston: Addison-Wesley, 1990); John Rawls, A Theory of Justice (Cambridge, Mass.: Belknap Press of Harvard University Press, 1971).

[107] Spinoza, A theologico-political treatise, 1670. From the R. H. M. Elwes translation, Benedict de Spinoza: A theologico-political treatise and a Political Treatise (cited earlier)

[108] James L. McGaugh, Larry Cahill, Benno Roozendaal, "Involvement of the amygdala in memory storage: interaction with other brain systems," (review) Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America 93 (1996): 13508-14. James L. McGaugh, Larry Cahill, Benno Roozendaal, "Involvement of the amygdala in memory storage: interaction with other brain systems," Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America 93 (1996): 13508-14; Ralph Adolphs, Larry Cahill, Rina Schul, Ralf Babinski, "Impaired memory for emotional stimuli following bilateral damage to the human amygdala," Learning and Memory 4 (1997): 291-300; Kevin S. LaBar, Joseph E. LeDoux, Dennis D. Spencer, Elizabeth A. Phelps, "Impaired

fear conditioning following unilateral temporal lobectomy in humans," Journal of Neuroscience 15 (1995): 6846-55; Antoine Bechara, Daniel Tranel, Hanna Damasio, Ralph Adolphs, Charles Rockland, Antonio Damasio, "A double dissociation of conditioning and declarative knowledge relative to the amygdala and hippocampus in humans," Science 269 (1995): 1115-18.

الفصل الخامس

[109] In The Feeling of What Happens: Body, Emotion, and the Making of Consciousness I elaborate on the mind/consciousness distinction (Antonio Damasio, 2000, cited earlier). I also introduce the notions of core self and extended, or autobiographical, self.

[110] The mind-body problem has been considered in great detail by contemporary philosophers of mind, among them David Armstrong, The Mind-Body Problem: An Opinionated Introduction (Oxford, U.K., Boulder, Colorado: Wesrview Press, 1999); Paul Churchland and Patricia Churchland, On the Contrary (Boston: MIT Press, 1998); Patricia Churchland, Brain-Wise (Cambridge, Mass.: MIT Press, 2002); Patricia Churchland, Paul Churchland. "Neural worlds and real worlds" (Nature Neuroscience Reviews, 2002); Daniel Dennett, Consciousness Explained (Boston: Little Brown, 199/); David Chalmers, The Conscious Mind (New York: Oxford University Press, 1996); Thomas Metzinger, Conscious Experience (Paderborn, Germany: Imprint Academic/Schoeningh, 1995); Galen Sfrawson, Mental Reality (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1994); Ned Block, Owen Flanagan, Giiven Giizeldere, eds., The Nature of Consciousness: Philosophical Debates (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1997); and John Searle, The Rediscovery of the Mind (Boston: MIT Press, 1992); by philosophers of the recent past: Herbert Feigl, The 'Mental' and

the 'Physical' (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1958); Edmund Husserl, The Phenomenology of Internal Time-consciousness (Bloomington, Ind.: Indiana University Press, 1964); Maurice Merleau-Ponty, Phenomenology of Perception, trans, by Colin Smith (London: Routledge and Kegan Paul, 1962); and by modern biologists, among them, Jean Piaget, Biology and Knowledge: An Essay on the Relations between Organic Regulations and Cognitive Processes (Chicago: University of Chicago Press, 1971); Jean Pierre Changeux, Neuronal Man: The Biology of Mind (New York: Pantheon, 1985); Francis Crick, The Astonishing Hypothesis: The Search for the Soul (New York: Scribner, 1994); Gerald Edelman, Remembered Present (New York: Basic Books, 1989), and Bright Air, Brilliant Fire: On the Matter of the Mind (New York: Basic Books, 1992); Francisco Varela, "Neurophenomenology: A methodological remedy to the hard problem," fournal of Consciousness Studies 3 (1996): 330-50; Francisco Varela and Jonathan Shear, "First-person methodologies: why, when and how," Journal of Consciousness Studies 6 (1999): 1-14.

[111] كانت الكنيسة الجديدة واحدة من أوّل الكنائس البروتستانتية الّتي بُنيَت في هولندا (1649-1656) وكانت فعلاً جديدة، مصمّمة إنطلاقًا من أساساتها بشكلٍ يبدو كاحتفاءٍ بالكنيسة المصلَحةReformed Church ، ولم تكن كنيسةً كاثوليكية مجرّدة من زخارفها. أصبحت اليوم أحد المعالِم الرئيسية في المناسبات الثقافية في لاهاي. ويبدو الصراع واضحًا خلف هندستها، ونموذجيًا في عصره. وبالتلاؤم مع جمالية الكنيسة المصلَحة، يأبى البناء مظاهر الفخفخة، ولكنّه ، وتأكيدًا على هذه الكنيسة نفسها، بالكاد يظهرُ متواضعًا. صراعٌ شبيهٌ يبدو أيضًا بيّنًا بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال الغربي، عند الكنيس البرتغاليّ لآمستردام، وهو بناءٌ آخر من العصر عينه (اكتمل بناؤه سنة 1675)، جامعًا بين البساطة و العنفوان. تكمن النتيجة المتوقَّعة في أنّ الكنيسة المصلحة هي في الآن عينه مكشوفة وجليلة، ومن خلال الهيكلِ البارزِ، المستخدم كمنصّة، يمكن للمرء أن يجول شاملاً بناظريه مساحةً واسعةً.

[112] René Descartes, Correspondence with Princess Elizabeth of Bohemia. Oeuvres et lettres (Bruges, Librarie Gallimard,

1952), and Meditations and Other Metaphysical Writings (London: Penguin Books, 1998).
113 Gilbert Keith Chesterton, The Innocence of Father Brown (New York: Dodd, Mead, 1911).
114 درّس جرّاح الأعصاب ويلدر بنفيلد هذه الظاهرة لدى مجموعة من المرضى المصابين بالصرع كان ينوي معالجتهم. من المرجّح أن العملية تبدأ في قشرة الجزيرة وتستمرُ في الأقسام الأخرى من التركيب الجسديّ الحسيّ، وهذا رأي يتلاءم مع الاكتشافات الجديدة التي نوقشت في الفصل الثالث.
Wilder Penfield, Herbert Jasper, Epilepsy and the Functional Anatomy of the Human Brain (Boston: Little, Brown, 1954).

115 يعتبر التفسير البديل أن فقدان الوعي لا صلة له بالتغيّرات التي تحصل على مستوى الاحساس الجسديّ، ويحصل هذا الفقدان حتّى في حال لم تتغيّر الاحساسات الجسدية. يحصل فقدان الوعي في حالة انواع مختلفة من النوبات من دون أورا Auraجسدية. على أية حال، يبدو ذلك منسجمًا مع الفكرة التي تقول أنّ في حالة هذه النوبات يحصل فقدان الوعي لأن مدخِلات الجسد تكون معطّلة، قبل أن تتسبب آليات نوباتٍ أخرى بحصول ظواهر مثل الاختلاجات
116 Oliver Sacks, in A Leg to Stand On (London: Duckworth, 1984), and Vilayanur Ramachandran, in Phantoms in the Brain (New York: HarperCollins, 1999), have described alterations of limb perception in detail.
117عانت مريضة ساكس من فقدانٍ حاسَّةِ الإدْراك المَخْصوص proprioceptive senseالناتجة عن تدخّل مسارات عصبية تنقلُ اشارات من عضلاتها إلى نظامها المركزي العصبيّ . Oliver Sacks, in The Man Who Mistook His Wife for a Hat (New York: Summit Books, 1985). ويوجد دليل جديدٌ مثيرٌ للاهتمام أن ما يعرف بتجربة خارج-الجسد out-of-body يمكن أن يطلقها تنبيهٌ كهربيّ مباشر من القشرة الحسّية الجسدية اليمنى، بالتحديد حيث التليّف الزاويّ. يُظهِر مريضٌ شديد الاستثارة انفصالاً بين تجربة جسده وبين نشاطات عقلية أخرى. خلال الاستثارة، تخيّلت المريضة نفسها منقولةً إلى سقف غرفتها، حيث كان بامكانها أن ترى جزءًا من جسدها. تضيف هذه الاكتشافات إلى الفكرة التي تقول أن شعورنا بجسدنا يعتمد على التخريطات العصبونية في نظامٍ مخصوصٍ متعدد المكوّنات. توجد أقسامٌ من النظام هذا في القشرة المخية اليمنى، وأقسامٌ أخرى في مناطق تحت قشرية .subcortical يعطّل الخلل الوظيفيّ الّذي يصيب معظم النظام، على مستوى القشرة، الإحساس بجسدنا الخاص، ويبلبل العمليات العقلية، أمّا الخلل المحصور في قسمٍ معيّن فينتج عنه متلازمات مثل العمه الجسدي وتجارب

شاذة مثل حالات خارج-الجسد. أمّا الخلل تحت القشريّ الشديد كما في حال الأضرار الكبيرة في سقيفة جذع الدماغ ، فتنحو لاحداث خلخلة شديدة في النظام بأكمله. See Olaf Blanke et al., "Leaving your body behind," Nature (2002), in press.

[118] Maps and representations. Antonio Damasio, Hanna Damasio, "Cortical systems for retrieval of concrete knowledge: the convergence zone framework," Large-Scale Neuronal Theories of the Brain, Christof Koch (ed.) (Cambridge: MIT Press, 1994): 61-74; Antonio Damasio, "Time-locked multiregional retroactivation: A systems level proposal for the neural substrates of recall and recognition," Cognition 33 (1989): 25-62; Antonio Damasio, "The brain binds entities and events by multiregional activation from convergence zones," Neural Computation 1 (1989): 123-32.

[119] See Francis Crick, The Astonishing Hypothesis: The Search for the Soul (cited earlier); Giulio Tononi and Gerald Edelman, "Consciousness and complexity," Science 282 (1998): 1846-51; and Jean Pierre Changeux, Paul Ricoeur, Ce qui nous fait penser, La nature et la regie (Paris: Editions Odile Jacob, 1998), for treatments of this issue. See Antonio Damasio, The Feeling of What Happens: Body, Emotion, and the Making of Consciousness (cited earlier) for a discussion of the problems facing the neurobiological investigation of consciousness.

[120] فكرة أن عملية التعلّم وأنّ الادراك يستند على "اختيارات" عناصر عصبونية من مخزنٍ موجودٍ مسبقًا، هي فكرة حديثة، نسبيًا .

See Jean-Pierre Changeux, Neuronal Man: The Biology of Mind (cited earlier); Gerald Edelman, Neural Darwinism: The Theory of Neuronal Group Selection (New York: Basic Books, 1987).

[121] David Hubel, Eye, Brain and Vision (cited earlier)

[122] Roger B. Tootell, Eugene Switkes, Michael S. Silverman, Susan L. Hamilton, "Functional anatomy of macaque striate cortex. H. Retinotopic organization," The Journal of Neuroscience 8 (1988): 1531-68

[123] Joanna Aizenberg, Alexei Tkachenko, Steve Werner, Lia Addadi, Gordon Hendler, "Calcific microlenses as part of the photoreceptor system in brittlestars," Nature 412 (2001): 819-22; Roy Sambles, "Armed for light sensing," Nature 412 (2001): 783.

[124] Samer Hattar, Hsi-Wen Liao, Motoharu Takao, David M. Berson, King-Wai Yau, "Melanopsin-containing retinal ganglion cells: architecture projections, and intrinsic photosensitivity," Science 295 (2002): 1065-70; David M. Berson, Felice Dunn, Motoharu Takao, "Phototransduction by retinal ganglion cells that set the circadian clock," Science 295 (2002): 1070-73.

[125] Nicholas Humphrey, A History of the Mind (New York: Simon and Schuster, 1992).

[126] David Hubel, Margaret Livingstone, "Segregation of form, color, and stereopsis in primate area 18," The Journal of Neuroscience 7 (1987): 3378-415; Semir Zeki (Vision of the Brain); R. Wurtz; R. Desimone

[127] George Lakoff, Mark Johnson, Metaphors We Live By (Chicago: University of Chicago Press, 1980), and George Lakoff, Mark Johnson, Philosophy in the Flesh (New York: Basic Books, 1999); Mark Johnson, The Body in the Mind (Chicago: University of Chicago Press, 1987).

[128] Hubel, ibid.

[129] تتطلّب هذه النظرة تعديلاً من ناحية نوع الاختزالية الّتي نستخدمها في هذا التمرين. يمتلك المستوى العقليّ للظاهرة البيولوجية مواصفات اضافية لا تحضر على مستوى الخريطة العصبية. آمل، في نهاية المطاف، أن تتيح لنا استراتيجيا البحث الاختزالي أن نفسّر كيف ننتقل من مستوى الخريطة العصبية إلى المستوى العقلي، في الوقت الّذي لا يمكن اختزال هذا المستوى الأخير إلى المستوى الأول لأنه يملك خصائص بارزة متولّدة عن مستوى الخريطة العصبية؛ لا يوجد ما هو غريب عن هذه الخصائص البارزة ولكن يبقى الكثير عنها غامضًا أخذًا بالاعتبار جهلنا الواسع حول عملها.

[130] Spinoza, The Ethics (cited earlier)

[131] For a presentation of this idea and for a discussion of its possible neural implementation, see Antonio Damasio, The

Feeling of What Happens: Body, Emotion, and the Making of Consciousness (cited earlier).

[132] Spinoza, The Ethics, Part III (cited earlier).

[133] In Behind the Geometric Method: A Reading of Spinoza's Ethics (cited earlier), Edwin Curley provides a reading of Spinoza's thinking that would be compatible with this view. So does Gilles Deleuze in Spinoza: A Practical Philosophy (cited earlier)

[134] يحظى خلود النفس بأهمية دقيقة و بارزة في تاريخ الفكر اليهوديّ. في عصر سبينوزا، عُدَّ كلّ انكار لهذا الخلود هرطقةً فعليةً بنظر الحاخامات وقادة الجماعة، كما خلق هذا الانكار مشكلة عند الجماعة المسيحية الّتي استقبلت اليهود في هولندا.
See Steven Nadler, Spinoza's Heresy (New York: Oxford University Press, 2002), for an illuminating treatment of this .issue

[135] Simon Schama, Rembrandt's Eyes (New York: Knopf, 1999(

[136] في تأويل مبهر ومختلف للوحة رمبراندت، يعتقد سيبالد أن رمبراندت تقصّد تحجيم تولب وزملائه – المنتهكين لحرمة الجثة – عبر الاضاءة بشكلٍ متعاطف على وجهِ آريس كيندت، السارق سيء الحظّ الّذي كان قد شُنِق قبل ساعات قليلة، والّذي لم يُمنَح الفرصة للمشاركة في اجراءات خارجة عن ارادته الحرّة. ولكنّ سيبالد يُخطِيء حين يزعم أن رامبرندت تقصّد الخطأ في رسم يد كيندت اليسرى، بينما هي صحيحة كليًا.
The Rings of Saturn (New York: New Directions Publishing Corporation, 1998).

الفصل السادس

[137]Albert Einstein, The World as I See it (New York: Covici Friede Publishers, 1934).

[138] Alfred North Whitehead, Science and the Modern World (New York: Macmillan, 1967).

[139] Diogo Aurelio argues the point convincingly (Imaginagdo e Poder, Lisbon: Colibri, 2000). See also Carl Gebhardt, "Rembrandt y Spinoza," Revista de Occidente

[140] Simon Schama, An Embarrassment of Riches (cited earlier).
[141] هانا ديبورا هي الزوجة الثانية لميغيل دي اسبينوزا وكانت في نصف عمره. تنحدر من عائلة فيزيائيين وفلاسفة و لاهوتيين معتبَرين، وترعرت في بورتو المدينة البرتغالية الشمالية في كنف والدتها ماريا نونيز. أتت إلى آمستردام فقط من أجل الزواج بوالد سبينوزا، الّذي كان قد تطلّق للتوّ، ولتربية أولاده.
[142] In Um Bicho da Terra (Lisbon: Guimäres Editores, 1984) Agustina Bessa Luis provides a fictionalized account of life in sixteenth century Porto that inspired this sentence
[143] Steven Nadler, Spinoza: A Life (Cambridge, U.K.; New York: Cambridge University Press, 1999).
[144] Marilena Chaui, A Nervura do Real (Säo Paulo: Companhia das Letras, 1999).
[145] A. H. de Oliveira Marques, History of Portugal, Vol. I (New York: Columbia University Press, 1972); Francisco Bettencourt, Historia das lnquisicöes — Portugal, Espanha e Italia XV-XIX (Säo Paulo: Companhia das Letras, 1994); Cecil Roth, A History of the Marranos (New York: Meridian Books, 1959).
[146] Marques, ibid; Bettencourt, ibid; Roth, ibid.
[147] Bettencourt, ibid; Antonio Jose Saraiva; Marques, ibid.
[148] Leon Poliakov, Histoire de I'Antisemistisme, 3rd ed. (Paris: CalmannLevy, 1955).
[149] C. Gebhardt, as cited by Gabriel Albiac, La Synagogue Vide (Paris: Presses Universitaires de France, 1994).
[150] Frederick Pollock, Spinoza: His Life and Philosophy (London: C. Kegan Paul & Co., 1880).
[151] يقترح لوكاش Lucas أقلّ بيوجرافيي سبينوزا موثوقية، أنّ هذا الأخير كتب ردًا ولكن لا يوجد أثر لذلك. على الأرجح أن هذا الردَ لم يُكتَب يومًا.
[152] Luis Machado de Abreu, A Recepcäo de Spinoza em Portugal. In Sob O Olharde Spinoza (Aveiro, Portugal: Universidadede Aveiro, 1999)
[153] Maria Luisa Ribeiro Ferreira, A Dinämica da Razäo na Filosofia de Espinosa (Lisbon: Gulbenkian Foundation, 1997).

[154] Jonathan I. Israel, Radical Enlightenment: Philosophy and the Making of Modernity 1650-1750 (Oxford University Press, 2001).

[155] لم يكن لوك راديكاليًا دينيًا، بل كان مؤمنًا ناقش بهدوء أفكار سبينوزا الدينية. من جهةٍ أخرى، يصعُب أن نتصوّر أن لوك لم يكن متأثّرًا بسبينوزا، فهو عاش في منفاه في آمستردام من العام 1683 حتى 1689، بعد زمنٍ قصير من موت سبينوزا، وفي الفترة الّتي شهدت الكثير من الافتراءات والذمّ لمؤلفات هذا الفيلسوف، وقد سبقت هذه الفترة نشر لوك لأعماله

John Locke, An Essay Considering Human Understanding (Oxford: Clarendon Press, 1975); Two Treatises of Government (London: Cambridge University Press, 1970).

[156] Voltaire, Les Systèmes, Oeuvres (Paris: Moland, 1993), 170. The original text reads as follows: Alors un petit juif, au long nez, au teint blême, Pauvre, mais satisfait, pensif et retiré, Esprit subtil et creux, moins lu que célébré Caché sous le manteau de Descartes, son maître, Marchant à pas comptés, s'approche du grand être: Pardonnez-moi, dit-il, en lui parlant tout bas. Mais je pense, entre nous, que vous n'existez.

[157] Gabriel Albiac, La Synagogue Vide (cited earlier).

[158] Johann von Goethe, The Auto-Biography of Goethe: Truth and Poetry: From My Life, Parke Godwin, ed. (London: H. G. Bohn, 1848)

[159]Georg W. F. Hegel, Spinoza translated from the Second German Edition by E. S. Haldane and F. H. Simson (London: Kegan Paul, 1892).

[160] Circular of the Spinoza Committee: A Statue to Spinoza. 1876 in Frederick Pollock, Spinoza: His Life and Philosophy (London: C. Kegan Paul & Co., 1880), Appendix D.

[161] Michael Hagner and Bettina Wahrig-Schmidt, eds., Johannes' Müller und die Philosophie (Berlin: Akademie Verlag. 1992)

[162] Frederick Pollock, ibid.

[163] Siegfried Hessing, "Freud et Spinoza," Revue Philosophique 2 (1977): 168 (author's translation).

[164] Hessing, ibid., 169 (author's translation).

[165] Jacques Lacan, Les Quatre Concepts Fondamentaux de la Psychanalyse (Paris: Edition Le Seuil, 1973).
[166] Albert Einstein, Out of My Later Years (New York: Wings Books, 1956).
[167] Margaret Gullan-Whur, Within Reason: A Life of Spinoza (New York: St. Martin's Press, 2000).
اقترح كلّ من هامشير و نادلر أن غبار الزجاج ربّما كان سبًا في مرض سبينوزا.
Both Stuart Hampshire [Spinoza, cited earlier), and Steven Nadler (Spinoza: A Life, cited earlier)
[168] Hampshire, ibid.
[169] لا مجال لكي أعتقد – ولكي يعتقد كاتبو سيرته الذاتية من كوليروس إلى بولّوك ونادلر وغويام-هور – إنّ سبينوزا مصاب بالتوحّد، بالأخص أنه كان مصابًا بمتلازمة آسبرجر [إحدى اضطرابات النمو المتعلّقة بطيف التوحّد]، كما اقترح مؤخرًا الطبيب العقلي مايكل فيتزجرالد . أمّا المتوحّد فيعاني من صعوبات اجتماعية ويفتقر إلى الى التشاعر وغالبًا ما يعيش وحيدًا من دون أصدقاء. ولا يوجد أي دليل على أنّ سبينوزا عانى من صعوبات اجتماعية، باستثناء تلك المتعلّقة بما حققه على الصعيد الفكري وما سببت به آراؤه من أزماتٍ مع جماعته في الميدانين اللاهوتي والسياسيّ. ولا يبدو أن سبينوزا عاش في عزلةٍ أكبر من تلك التي عاشها ديكارت مثلاً، بالأخص حين نأخذ بعيد الاعتبار صداقاته المقرّبة، ضيافته المرحّبة في بيت فان در سبيك، واستقباله لعدد كبير من الزوّار يوميًا. هذا يدفعنا للقول إنّه كان شابًا رائعًا، وتتضمن محتويات بعض كتبهِ إشارات لتجاربه الجنسية العديد في آمستردام. وما هو أكثر أهميةً، أن التشخيص لا يتلاءم بسهولة مع فهم سبينوزا العميق لشؤون البشر والمجتمع، وهو لا يُظهِر أيّة إشارة إلى الافتقار إلى التشاعر، بل حتّى ما أظهره في شبابه اليافع من تكبّر و عنهجية ظاهرة، وهو ممّا ليس بالأمر المفاجىء لمثقفٍ شاب في مثل ظروفه، تراجع على مر السنين.

الفصل السابع

[170] تفترض المقولة هذه أن الإله والطبيعة هما شيء واحد. ومع ذلك، ليس هذا المقصود بالتحديد: يميّز سبينوزا، بشكلٍ حذقٍ، بين تلك الطبيعة الخالقة (وهذه مقولة تقترب من الفكرة التقليدية عن إله خالق) – Natura naturas – والطبيعة المخلوقةNatura naturata
See Steven Nadler, Spinoza's Heresy (cited earlier), for a discussion of this issue.

[171] بالنسبة لسبينوزا، يتحقق الخلاص فرديًا وبشكلٍ خاص، ولكن بمعونة الآخرين في المجتمع، ويمكن للدولة أن تسهّل الجهود الفردية والاجتماعية من أجل ذلك. لهذا السبب، على الدولة أن تكون ديمقراطية، وقوانينها عادلة، وتسمح للمواطنين بأن يحيوا متحررين من الخوف. أن تكون السياسة تابعة لمسألة الخلاص، ذاك ما يميّز سبينوزا عن معاصره الأكبر سنًّا هوبز. هذا الأخير يرى أن النظام السياسي الجيد هو الّذي يتيح للدولة أن تقوم بأعمالها الخاصّة وحيث يكون الفردُ خاضعًا لها. أمّا سبينوزا، فالنظام السياسي الجيّد هو الّذي يساعد المواطن الحرّ على تحقيق خلاصه الخاصّ.

(See Maria Luisa Ribeiro Ferreira, A Dinamica da Razao na Filosofia de Espinosa -cited earlier)

[172] Spinoza's correspondence. Letter XLIX in Robert Harvey Monro Elwes, Improvement of the Understanding, Ethics and Correspondence of Benedict de Spinoza (Washington: Dunne, 1901)

[173] هذا مقتطف من كتاب سبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة (1670): "قبل أن أكمِل حديثي، عليّ أن أفصِح صراحةً (وهذا ما فعلته لاحقًا) أنّني أعتبر أن هناك جدوى وحاجة عظيمتين للكتابات المقدّسة أو للوحيّ. لأننا لا نستطيع أن ندرِك بمعونة النور الطبيعي للعقل أن الطاعة طريقٌ للخلاص، ولأنّ الوحيّ يعلّمنا أن الخلاص لا يتحقق إلاّ بنعمةٍ خاصّةٍ من الإله، وهو ما لا يمكن لعقلنا بلوغه، فهذا يستتبع أن الكتاب المقدّس قدّم تأسيةً كبرى للبشر. الكلّ قادرٌ على الطاعةِ، ولكن، وبالمقارنة مع البشرية جمعاء، هناك قلّةٌ تستطيع أن تكتسب عادة الفضيلةِ بهديٍ جليّ من العقلِ. و عليه، إن لم نقرّ بالنصّ المقدّس، سوف نشتبه بخلاص كل البشر تقريبًا". هذا الكلام يكذّب الصورة الكاريكاتورية عن سبينوزا كشيطانٍ مجسَّد. سبينوزا الأخير نصح المحيطين به، وأغلبهم مسيحيين، أن يبقوا منتسبين إلى كنائسهم، بالأخص البروتستانتية. حثّ الأطفال على حضور القدّاس، وأصغى بنفسه لموعظات كوليروس، هذا الكاهن البروتستانتي الّذي انتقل إلى بيت سبينوزا في ستيلفركاد وأصبح صديقه، ومن ثم كاتب سيرته. لم يؤمن سبينوزا بإلهٍ مدبّرٍ ولا بحياةٍ أبدية، ولكنّه لم يسخر يومًا من إيمان الآخرين. في الواقع، كان شديد الحذر من إيمان غير المتعلّمين، ولم يناقش الدين إلاّ مع زملائه المثقفّين. كما هو مذكور، لم يسمح بظهور الترجمة الهولندية لأعماله من أجل تفادي التعميم السريع لأفكاره بين هؤلاء الّذي ربّما لم يكونوا مستعدّين لمجاراةِ خلاصاتها، وقلةٌ ممّن قرأ النسخات اللاتينية الأصلية كانوا مهيّئين لقراءتها برباطة جأشٍ، مع أنّه، ومن دون شكّ، سعى لكبح التأثير الهائل لأفكاره. رفض سبينوزا أن يصبح شخصيةً طليعية في الحركة الفكرية، وهو ما كان بمتناول يديه لو أراد ذلك. هل كان ذلك سيجعله سعيدًا؟ هل كان ممكنًا له أن يتقلّد موقعًا عامًا ويبقى ليس فقط حرًا بل أيضًا حيًّا؟ في مقالته عن

سبينوزا، (Dictionnaire Historique et Critique, Rotterdam, 1702) اعتبر بيير بايل أنّه كان يتمنّى لو أصبح شخصية عامّة قيادية، ولكنّي أشكّ بذلك نظرًا لشخصية سبينوزا كما أتصوّرها، على الأقل حين كان في لاهاي حيث أتيح له أن يحقق طموحًا كهذا لو وُجِدَ.

[174] في كتابه Modos de Evidencia ، يناقش فيرناندو جيل In Modosde Evidencia {Lisbon: Imprensa Nacional, 1986هذا الشكل من العمليات الفكرية و نتائجها التفاعلية. ينطوي الخلاص السبينوزي على تأثيراتٍ متعددة: هناك تأثيرٌ مهمّ قادمٌ من الفلاسفة الرواقيين الاغريق والرومان، كما تحاجج سوزان جيمس بشكلٍ مقنع (The Rise of Modern Philosophy, Tom Sorrell, . ed., Oxford, U.K.: Clarendon Press, 1993)التأثير اليهودي يبدو كامنًا في التأكيد على الحياة الدنيا أكثر من الحياة الأبدية، وفي تفضيل السلوك الاخلاقي، وفي جعل الفضيلة الاخلاقية و التنظيم الاجتماعي السياسي سمات ثابتة في سرديات العهد القديم. كما يمكن التكلّم عن بعض التأثيرات من القابالاه. انتقد سبينوزا السمات الخرافية في القابّالاه، ولكنّ نظامه الفلسفي اقتبس منها إكبارها "اللغزَ الباطنيّ." (A Dinamica da Razao na Filosofia de Espinosa, cited earlier التأثير المسيحي يبدو واضحًا أيضًا، فالحب العقلي للإله لا يلوح إلاّ في الفرد الّذي يتصرّف وفق مثال المسيح: الحبّ والاحترام اللامشروطان للآخرين، الخيرية الشاملة للكلّ، التواضع في الهيئة، والوعي بالمكانة العابرة للفردِ بالمقارنة مع الكون وموجوداته. تجاوز سبينوزا المسيحية، ولكنّه أدرجَ المسيح في نظامه الفلسفيّ، وربّما صاغ المرحلة الأخيرة من حياته على شاكلة حياة المسيح، كما مزج بين المسيح والصبغة الرواقية للتقليد المارّانيّ، بالغًا الفرح الأقصى بحرمان نفسه من أفراحٍ صغيرة طوال دربه. وقد لحظ الفيلسوف تشارلز ساندرز بيرس هذه الصلة بكلّ وضوحٍ، قائلاً: "أفكار سبينوزا هي، من دون منازع، أفكارٌ تبغى التأثير على تصرّف البشر. وإذا عملنا وفقًا لتعليمات المسيح بأن نحكم على العقائد الاخلاقية وعلى الفلسفة من خلال ما ينتج عنها، لا نقدر سوى أن نعتبر أنّ سبينوزا صاحب قيادة معتبَرة؛ ويُحتمَل ألاّ يوجد من كتّاب الزمن الحديث مَن حدّد للناس طريقًا نحو نمط حياةٍ مترفّع. ومع أن عقيدته تنطوي على الكثير من الأشياء غير المسيحية، ومع ذلك هي غير مسيحية على الصعيد النظريّ أكثر ممّا هي على الصعيد العمليّ. على الأقل وقبل كلّ شيء، السبينوزية، في جزءٍ منها، تطوّرٌ خاصّ للمسيحية، ومآلها العمليّ يبدو،قطعًا، أكثر مسيحيةً من أيّ نظامٍ لاهوتيّ راهنٍ." (Charles Sanders Peirce, "Spinoza's Ethic," The Nation, Vol. LIX [1894]: 344-45.)

[175] Jonathan Bennett, A Study of Spinoza's Ethics (Indianapolis, Ind.: Hackett Publishing Company, 1984).

---

[176] See Barbara Stafford's Devices of Wonder: From the World in a Box to Images on a Screen (Los Angeles: Getty Research Institute, 2001)

[177] Albert Einstein, The World as I See It (cited earlier).

[178] Ibid.

[179] Ibid.

[180] Richard Warrington Baldwin Lewis, The Jameses (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1991).

[181] William James, The Varieties of Religious Experience (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1985), Lecture I: The Varieties of Religious Experience.

[182] William James, ibid., Lecture VI.

[183] William James, ibid., Lecture VI.

[184] For a clear statement on the shortcomings of such attempts see Jerome Groopman, "God on the Brain," The New Yorker, September 17 (2001): 165-68.

[185] للمزيد من التأكيد، عليّ أن أضيف هنا أنواع أخرى كثيرة من التجارب الروحية، ولا أسعى أبدًا إلى حصرها بعدد محدد. بعض التجارب هذه قد لا توصف بأنها مشاعر بل بكونها شكلًا من الوضوح العقليّ، والانتباه غير الذاتيّ المكثّف. ومع ذلك، وربطًا بنقاشنا حول العلاقة بين الجسد و العقل، يبدو صحيحًا أن معظم أشكال التجارب الروحانية يتطلّب تغيّرًا جسديًا محددًا، ويعتمد في الحقيقة على نشاطِ الجسد الّذي يأخذُ وضعيةً ما.

[186] Spinoza, The Ethics (cited earlier).